الدكتور

محمد علي ضناوي

عودة الذاكرة

إلى تاريخ طرابلس والمنطقة

الميناء

القلعة

الجامع المنصوري

نهر ابو علي

جامع طينال

دار الإيمان
طرابلس

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس - لبنان - تلفون: ٠٦/٤٤٠٢٩٠
خليوي: ٠٣/٢٢٨٨٦٤ - فاكس: ٠٦/٦٢٨٦٢١

عودة الذاكرة

إلى تاريخ طرابلس والمنطقة

من السقوط بيد الصليبيين إلى التحرير والبناء

الدكتور

محمد علي ضناوي

دار الإيمان
طرابلس



إهداء

إلى طرابلس الحبيبة :

في وهادها وسهولها

وأزقتها وشوارعها

ومساجدها ومدارسها

وقلعتها وأبراجها

وتراثها وحضارتها

في ثغرها المتميز على البحر المتوسط

في تاريخها الفياض

ورجالها الأماجد

إلى مدينتي الحبيبة

أهدي كتابي هذا

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (الزمر : ٩)

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (الصافات : ١٥٤،١٥٥)

وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (الصافات : ١٣)

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأعراف : ١١٨)

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ
وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ (غافر : ٤٤)

مدخل إلى
قراءة جديدة في تاريخ طرابلس

١ – عندما بدأت بكتابة كتابي (قراءة إسلامية في تاريخ لبنان والمنطقة) في منتصف الثمانينات منذ هذا القرن العشرين ، لم أكُ مدركاً حجم التزوير والتحوير في التاريخ وبخاصّة التاريخ اللبناني أو ما تعارف عليه تاريخ الجبل . فاكتشفت يوم ذاك أنَّ الكذب في تاريخ ما ذكر جزء من صناعته بغية لتأكيد معانٍ معينةٍ وإطلاق رؤىً تصبّ في إحداث إرباكات للحاضر والمستقبل.

٢ – وعندما حاولت أن أكتب مراحل وفواصل في تاريخ طرابلس " المستجدّة " التي أقامها المنصور قلاوون في عمق السهل بعيدا عن البحر التي كانت عليه طرابلس الأولى ، بعد استرجاعها من الصليبيين وهدمها بالكامل ودكّها إلى الأرض ، منذ سبعة قرون ونيف ، كنت متسلحاً باحتمال التزوير والكذب أو التفخيم والتهميش فيما كتب وأرّخ... فقادني البحث والتدقيق والفحص والتمحيص إلى ربط و ضبط لأحداث ووقائع ، كانت متفرّقة مبعثرة ، فجاءت على شكل تحليلٍ عميقٍ أوصلني في النهاية إلى رؤية تاريخية جديدة لمدينة طرابلس الفيحاء ، انطلاقاً من عهد بني عمار وخلفياتهم السياسية التي سيطرت على مواقفهم في قيادة مملكتهم في الشرق السني ، وعلى مشارف زمن الهجوم الصليبي والسقوط بين يديه إمتداداً إلى التحريف الذي أصاب تاريخ المدينة المستجدة – بقصد أو عفوية – وصروحها وعمارتها وحضارتها.

وإذ وضعت يدي على مخاطر أحاطت بتاريخ هذه المدينة والمملكة والإمارة، ضمن تدفق الكتابات التاريخيّة في مجاري مضادة للحقيقة والواقع ، مخالفة لطبيعة الأمور ومناقضة لعراقة هذه المنطقة...وجدت من واجبي أن أتصدى بالقدر الذي تمكنت منه وأدركت له الحجج والأدلة والجمع والتحليل ، فانكشفت لدي بعدئذ ، خطط التحريف والتزوير ، ثم وصلت في النهاية إلى عتبات أولى لإعادة الذاكرة إلى مفاصل أساسية في تاريخ هذه المدينة المملكة...ذلك أنّ التحريف في تاريخها كاد يقضي على ذاكرة التاريخ فيها أو بصبغها على نحو معين مشوّهاً أصالتها وصروحها وآثارها . فكادت الأجيال بعد اضطراب الذاكرة أو ضياعها في ركام التحريف والتجهيل ، أن تقبل هذا التاريخ المحرف وتجيزه على أنّه حقيقة المدينة وتاريخها .

٣ – ولا ادّعي أنّ جهدي المنقب الذي بين يديك ، هو كلّ الحقيقة أو أنّ تاريخ المدينة قد استعاد ذاكرته المغيبة أو المضطربة أو المشوهة بكاملها...فهناك بلا ريب ثغرات كثيرة لا تزال تحتاج إلى مزيد من الأدلة وبيان الموقف وإزاحة الستار ، كما إنه قد يكون هناك ، أو من المحتمل أن يكون ،

وثائق غير معروفة لدَيّ ، أو أدلة لم تُستَبَنْ لي أو حقائق لم تكشفْ لي ، فحسبي من هذا أنّي قمت بمحاولة أولى في طريق طويل قد يأتي في نهايته تأريخ واضح وجَلِيّ لواقع هذه المدينة العظيمة والمملكة الشريفة طرابلس ، يكتبه نخبة من أبنائها ، يُشَمِّرون عن سواعد الجدّ ويبحرون في بحار الوثائق وكتب التاريخ ، مزودين بإرادة التمحيص والتحليل ليصلوا في النهاية إلى ما يكون اقرب إلى الصحة والشفافية لرؤية التاريخ الصحيح والسوي.

* * *

٤ ـ ولا بدّ هنا من التوضيح : إنّ إيراد خبر ما في أيّ من المؤلّفات التاريخيّة العربية والأجنبية ليس بكافٍ وحده لاعتماده خبراً صحيحاً ومثبتاً.ولا بدَّ من تمحيصه برويّة وفحصه بأناة وإيجاد سلم ثابت للربط والضبط والتأمل والتحقيق.

ولقد وضع علم الحديث النبوي في الإسلام مصطلحات عديدة في الرواية وفي التنقيب عن الحقيقة والصحة والسلامة.فان كان قد كذب على رسول اللـهِ وعلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ألا يحتمل وجود الأكاذيب في تاريخ المدن والدول والشعوب ، مبعثرة أو مجتمعة ، ظاهرة أو خفية ، من اجل خدمة مسار أهداف مُورِّد الخبر أو مدوّن التاريخ ؟؟

زد على ذلك بان ما يساعدنا في تاريخ هذه المدينة ، أنّ صروحاً حضاريّة لا تزال قائمة بالشهادة المتمادية .

٥ ـ وهي بذاتها ساطعة وتقوم بها براهين دامغة ، فلا بدّ إذن من التبحّر فيها واستلهام أساليبها واستنباط طرقها والتعمق في مصطلحاتها ومتونها ومحاكمة المظنّات التاريخية عليها توصلا إلى جلاء بيّن للحق والحقيقة وهو أسلوب حاولت التزامه فيما كتبت.

٦ ـ إنّ التنقيب عن الحقيقة ليس بالأمر الهيّن إنّه مسؤولية عظمى ملقاة على النّخبة ممن تمكنوا في العلم والمعرفة وأخلصوا النّية لوجه الحقّ ، وقذف اللّهُ في قلوبهم دلائل الحقائق ومثبتات الأمور وكواشف الأباطيل.

وتبقى كتابة التاريخ صحيحا هاجساً كبيراً يقلق الرواد ويحيي في نفوسهم الأمل أن تعود الذاكرة إلى كل تاريخ مزيف والى كل الزمن الماضي...ذلك أنّ (في قصصهم عبرة) وفي معرفة الماضي الصحيح تصويب سليم لرؤية واضحة لحاضر معاش واستشراف موفق لمستقبل آت.

* * *

وهكذا يمكن أن نقول :

٧ ـ طرابُلسُ الثغر والميناءُ ، المدينةُ والولايةُ ، الإمارةُ والمملكةُ وعلى

اختلاف مراحل تاريخها الإسلامي العريق ، كانت عقدة استراتيجية كما كانت عروساً سعت لخطب ودّها أو خطفها مختلف القوى إلاّ أنها كانت دوما تتمود أو يثار لأجلها ، لتعود إلى استراتيجيتها الأصيلة : الإلتزام بحاكمية المسلمين الأولى في دمشق أو بغداد أو القاهرة أو الآستانة (استنبول) • فأهل طرابلس مذ عرفوا الإسلام أدركوه كلاّ واحداً وأشربوا أولادهم الإلتزام بالسلطان الأعلى للمسلمين في أيّ من عواصمهم الكبرى.

كما أن لطرابلس موقعاً جغرافياً استراتيجياً ، وهي بذلك محطة تجارية مثلى.وهي أيضاً بعلمائها ومؤلفاتهم كانت بحق مدينة العلم والعلماء.وراح المتنبي يشيد بها في عجز بيته (وقَصُرَتْ كلُّ مصرٍ عن طرابلس).

٨ ـ أهمية طرابلس كانت موضع اهتمام في التاريخ السياسي لحكام المسلمين.وقد شكل سقوطها بيد الصليبيين حلقة صعبة في التاريخ الإسلامي الوسيط ، وغدت محور اهتمام القادة والحكام الذين راحوا يخططون لاستعادتها فمهدوا السبل أمامهم بالإستيلاء على شبكة حصون أو مناطق بهدف غزو طرابلس واسترجاعها • وقد وصل صلاح الدين وأخوه العادل ومن قبل عماد الدين والشهيد نور الدين ومحمود زنكي وبعدهم الظاهر بيبرس كلهم وصلوا أسوار طرابلس وعادوا عنها وفي قلوبهم غصة وحرقة إذ أنّهم لم يتمكنوا منها!!!

أو كما قال الشاعر شهاب الدين محمود في تقريظ قلاوون المنصور فاتح طرابلس :

وكم لليثٍ غابَ رامها في جيوشه
وراح ولم يبردْ له بالمنى صدرُ

أو كقوله في مدح نائب دمشق الذي أعان قلاوون في الفتح :

ولكم رامها الملوك على
عز أقدارهم فعزَّ المرامُ

حتى قيض الله ذلك الفتح للسلطان قلاوون ...

* * *

ولا بد هنا من التقرير :

٩ ـ إنّ تاريخ طرابلس ، بوجه عام ، قد أضفي عليه الغموضُ وأُسدلَ عليه ستارُ الإبهام ، فيكاد الباحث أو قارئ التاريخ لا يهتدي إلى صور الأحداث إلاّ بعد صعوبات جمّة. وبإمكاننا القول أنّ تاريخ طرابلس على ممر العصور لم يدرس دراسة كافية ولم يناقشْ مناقشة علمية، كما أن دولة الإستقلال في لبنان تعمدت إبهام تواريخ المناطق التي ضمّت إلى جبل لبنان.

فكان من جراء هذا الضم إنشاء لبنان الكبير وإسدال الستر الكثيفة على تاريخ

طرابلس والمحافظات الأربع[1] وتجهيل الأجيال بتاريخها ، بحيث خرجت تلك الأجيال وهي لا تعرف الماضي إلاّ صوراً ممسوخة مشوهة.

وفي القرن الحالي نفر فريق من أبناء طرابلس منهم الدكتور عمر تدمري والشيخ طه الولي وسميح الزين وآخرون بالإضافة إلى بعض المؤرخين المصريين الذين أحبوا طرابلس فأرّخوا لها وفي مقدمتهم الدكتور السيد عبد العزيز سالم...فكتب هؤلاء عن طرابلس وعن آثارها وعن بعض محطاتها التاريخية والسياسية والجهادية والثقافية ، بقطع النظر عن التفاوت فيما بينهم وعن اضطراب مناهج بعضهم ، باعتماد روايات المؤرخين النصارى والإفرنج دون تمحيص أو تحليل يذكر.إلاّ أنّ الدكتور عمر تدمري قد تميز بنشر مجموعة مهمة من الوثائق، حول طرابلس ، استخلصها من بطون مئات المراجع والمصادر والتي تشكل ، بلا ريب ، منهلاً طيباً لكل راغب في الإبحار في عمق التاريخ بهدف الوصول إلى التصور الأشمل لماضيات الأيام !!.

وبإمكاننا القول أنّ هؤلاء المؤلفين أو المؤرخين المحدثين بجهودهم تلك قدموا المقدمات الأولى الضرورية لإماطة اللثام عن تاريخ طرابلس ، الثغر الإسلامي الرابض على البحر المتوسط ، كمقدمة أساسية للولوج في قراءة تحليلية ولإخراج تاريخ هذه المدينة العريقة إلى مركزه الطبيعي المتألق بين مدن وأمصار العرب والمسلمين.

* * *

١٠ ــ ولئن ابتنى معاوية زمن ولاية عمر بن الخطاب في طرابلس أول أسطول إسلامي بهدف فتح قبرص ، وانطلق من مينائها مع نفر كريم من الصحابة والتابعين وأهل طرابلس والشام المسلمين إلا أنّ طرابلس شكلت أيضا ، عبر التاريخ ، مركزا استراتيجيا اهتم به جميع خلفاء المسلمين وأمراؤهم وقوادهم ، حتى أن طرابلس كانت ولاية تمتد إلى جنوب اللاذقية وحمص شمالا والى جونية في الجنوب ، والى أعالي جبال الأرز وبعلبك في الشرق وكانت إمارة كبيرة في العهد الصليبي ، كما كانت مملكة الديار الطرابلسية في العهد المملوكي...

وعلى هذا فقد حازت طرابلس ، المدينة المحتلة ، نصيبا مرموقا في ذهن قادة التحرير عماد الدين ونور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين يوسف الأيوبي والظاهر بيبرس ، وكل منهم حاول فتح طرابلس واسترجاعها من الصليبيين ثم انحسر عنها لمناعة حصونها ولأسباب وظروف إقليمية مختلفة ــ

(١) كان الأصح القول : إن جبل لبنان ضم إلى ــ ما عرف فيما بعد ــ بالمحافظات الأربع وهي ١ــ طرابلس والشمال ٢ ــ بيروت ٣ ــ صيدا والجنوب ٤ ــ البقاع .

كما سيتضح من الصفحات التالية ــ إلى أن جاء المنصور قلاوون من القاهرة ، وكان من قَبْلُ مستغرقا في التفكير باسترجاعها من الصليبيين وتحريرها منهم إلى أن حقق الله مراده...فهي كالإسكندرية شبهاً وأهمية...ومن أجل هذا وبعد أن فتحها أقام فيها وهدم مبانيها الصليبية وأمر ببنائها من جديد في سهلها بعيداً عن البحر بفرسخين...وكان قد مضى على أسرها سحابة ١٨٦ عاما.

وعمّت فرحة النصر باسترجاع المدينة ، طرابلس ، أمصار المسلمين وازدانت الشوارع والمساجد والحصون ، واعتبر يوم تحريرها يوما مشهوداً حتى أن الشعراء تباهوا وشبهوا معركة طرابلس من حيث أهميتها ونتائجها، بمعركة بدر الكبرى التي خاضها النبي" ضد كفار قريش ، والتي كانت فتحاً كبيراً تغيرت معه معالم التاريخ.

فإن تكُ قد فاتتك بدرٌ فهذه

بما أنزل الرحمنُ من نصره بدر[2]

على حد قول الشاعر شهاب الدين محمود وهو يمدح السلطان المنصور قلاوون.

* * *

١١ ــ قلنا أن طرابلس ، في التاريخ ، كانت عقدة استراتيجية حتى العصر الحديث ، فقد نشأت بسببها الحروب الإقليمية الكبرى • فهذا محمد علي باشا والي مصر وابنه إبراهيم قائد عسكره يسمح لهما السلطان العثماني بضم ولاية صيدا وما قبلها من ساحل فلسطين ، غير انهما يفاجآن برفض جازم من السلطان إياه لدى تقدم إبراهيم باشا إلى طرابلس بهدف ضمها إلى مصر ــ على ظن غالب منهما أن السلطان سوف يوافق ــ كما حصل في ولايتي صيدا وعكا ، إلا أن السلطان العثماني ، إزاء طرابلس ، وما تمثل ، يسرع فيصدر أمره إلى إبراهيم باشا بالخروج من طرابلس • فما إن رفض حتى نشبت الحرب التي عرفت فيما بعد بالحرب المصرية العثمانية وفُتح الباب على مصراعيه لدخول تلك الحرب الإقليمية ساحة اللعبة الدولية وتدخّل الدول العظمى آنذاك[3]...

١٢ ــ وكانت طرابلس أيضا محور صراع عنيف في باريس عام ١٩٢٠م.فقد رفضت غرفة التجارة والصناعة هناك فكرة سلخ طرابلس عن سوريا وضمها إلى الجبل وأكدت أن ذلك من شأنه أن يمسّ مصالح التجارة

(٢) راجع نص القصيدة في آخر فصل (أحداث الفتح المبين) من هذا الكتاب.

(٣) راجع في تفصيل ذلك كتابنا قراءة إسلامية في تاريخ لبنان والمنطقة ، ط، ١٩٨٦م .

الفرنسية مع الداخل السوري الكبير. إلا أن تقاطع المصالح لدى الجنرال غورو كان الأقوى لدى الحكومة الفرنسية المستعمِرة فكان قرار السلخ والضم.

وليس غريبا بعد ذلك أن يبدأ التحرك السلبي ضد السلطة في لبنان إبّان الحكم الفرنسي وبعد الاستقلال وعلى الأخص في الأعوام ١٩٣٦ و ١٩٥٨ و ١٩٧٥.

وليس غريبا أن تُهمل طرابلس من الحكم اللبناني وتُعامل لا كعاصمة ثانية بل كمدينة ثانوية ، وان يهملوها على صعد العمران والرقيّ والتقدم ، كما أهملوا تاريخها وأجبروا أجيالها على درس (تاريخ الجبل الأشم) دون تاريخهم، ثم نسمع أن طرابلس وإن كانت نمرا من قبل فهي قد غدت نمراً من ورق [٤] !!!

* * *

١٣ ـ إننا مدعوُّون اليوم ، لإزاحة الستار عن تاريخ طرابلس ونعود بهذا التاريخ إلى أوراقه الأولى في العصر الوسيط ، منذ أن عادت طرابلس إلى حضن الإسلام المجيد • كما أننا مدعوّون أن نقدم طرابلس إلى العالم كله وبالأخص العالمين العربي والإسلامي ، حلقة متكاملة في سلسلة الحضارة الإسلامية الزاهية ، ثغرا على البحر يهزأ بأكاذيب التاريخ، يطهرها بأقلام أبنائه، يضحك من أولئك الذين طمسوا معالمه وتآمروا عليه عبر القرون الطوال ، راجين أن تبقى طرابلس قلعة للصمود ونمرا يمارس فروسيته دفاعا عن الحق والعدل .

* * *

١٤ ـ **والصفحاتُ التالية** تروي قصة الاحتلال والتحرير ، إلا أنها صفحات لقراءة التاريخ وليست لسرد الأحداث فحسب • وهي محاولة أولى في سبيل إعادة كتابة تاريخ الفتح المبين ورسم خطوط وخلفيات طرابلس عبر الزمن والتاريخ...وقد يستجد في مستقبل الأيام كشفٌ جديد لمزيد من المراجع التاريخية والمحفوظات التي قد يكون لها أثر في توضيح وقائع أو كشف المزيد • ولقد حاولنا في هذه (القراءة) أن نستطلع الأحداث من خلال كتابات تاريخية أودعها في "ملاحق" وجمعها بأناة الدكتور عمر تدمري وضمها بكراً إلى كتبه عن "طرابلس عبر العصور" ، كما استطلعنا الأحداث بما وجدناه موزعا في أمهات كتب التاريخ العربي من بينها " الكامل في التاريخ " و" ذيل تاريخ دمشق " و" البداية والنهاية " والسلوك في دول الملوك وغيرها وقد أفدت من ذلك كله غاية الإفادة • فهي كتابات تاريخية بكر لم يُجْمَعْ ما فيها من أحداث إلى بعضها ولم

(٤) نقل هذا القول عن اللواء فؤاد شهاب رئيس الجمهورية اللبنانية بعد تسلمه الرئاسة في أعقاب حوادث ١٩٥٨ وذلك على اثر اعتراض البعض على تكليفه الرئيس رشيد كرامي تشكيل الحكومة!!!.

تُحلل • فكانت محاولتي اليوم باستقرائي للتاريخ من خلال تلك (الوثائق) محاولة هادفة أرجو أن تكون جادة ونافعة.

١٥ ـ **من جهة أخرى** حاولت أن ادخل في قراءة متأنية للتوازنات السياسية بين السلجوقيين في دمشق وبغداد وبين الفاطميين في القاهرة من خلال عهد بني عمار في طرابلس توصلا إلى سبر أغوار الفكر السياسي في تلك المرحلة الأساسية من حياة طرابلس خاصة وبلاد الشام عامة ، قبل مرحلة الإحتلال الإفرنجي الصليبي ، مما قد يكشف مزيدا من معرفة تلك الحقب الأمر الذي يعين بالنتيجة ، على إعادة ترتيب أوراق التاريخ كقراءة جديدة له ويمنحنا منظارا نكشف به كثيرا من الحقائق المخبأة .

١٦ ـ **ومن جهة ثالثة**...حاولت من خلال قراءة أخرى أن أدحض بعض الكتابات وبخاصة التي صدرت عن المؤرخين الموارنة والتي تهدف إلى جعل الموارنة والمسيحيين عموما في لبنان أعوانا طيّعين في يد الصليبيين.بينما نرى أن بعض الموارنة النصارى ، وحتى من سكان طرابلس المقيمين في عهد الاحتلال الصليبي ، كانوا ، في أحد جوانب تحركهم سببا في هزيمة الصليبيين وعاملا مساعدا في فتح طرابلس فقد كان النصارى عامة في الشرق وفي لبنان ، في العهد الصليبي، شأنهم شأن سائر سكان المنطقة ، منهم المخلص للحكم الإسلامي ـ في المطلق ـ المدافع عن وطنه ، ومنهم من وقف إلى جانب الصليبي المحتل !!! وبعد التحرير عادت مجموعات من النصارى إلى طرابلس المستجدة وسكنوا فيها إلى جانب المسلمين.

١٧ ـ **ومن جهة رابعة** كان لا بد من توضيح جوانب في شخصية المنصور قلاوون محرر طرابلس ، للوقوف على أبعادها لدى قائد مسلم ، مدرك لأحداث عصره ، عميق في تحريك قضايا أمته ، قدير في جهاده أعداء بلاده ، يمتلك رؤية واضحة في مختلف الشؤون الدستورية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية كما في تعميق وحدة أبناء مجتمعاته وتنظيم شؤونهم الخاصة • كل ذلك ضمن مفهوم شرعي إسلامي سليم ، وهو أمر سوف يساعد على التعريف بقلاوون بمزيد من الدراسات ، ليكون بحق علما على طرابلس مدينة العلم والعلماء وخزان الإسلام والعروبة!!.

* * *

١٨ ـ **وأفردنا في القسم الأخير** من الكتاب فصولا مهمة تشكل منعطفا جديدا في دراسة مُدنية مناخا وبيئة وعمارة واثر ذلك كله في نجاح المدينة المستجدة أو عدمه.وكان ذلك بدافع أساسي هو رد أقوال زعمت أن طرابلس المستجدة التي بناها المنصور قلاوون أفادت من الأحياء اللاتينية الموجودة خارج

طرابلس القديمة التي كانت على البحر والتي دكها قلاوون إلى الأرض.وقد أثبتنا بالدليل التاريخي والبيئي أن لا سكن خارج طرابلس القديمة كما أن لا كنيسة في موضع الجامع الكبير ، وان الكنيسة التي دفن فيها بوهمند السادس قبل تحرير طرابلس ببضع سنوات كان في كنيسة ـ برج بناها في طرابلس التي على البحر.

١٩ ـ وانطلاقا من ذلك ، كان من المفيد دراسة طرابلس الجديدة كيف بنيت ثم التعريف بأبرز الصروح من مساجد وحمامات ومدارس . ثم عقدت دراسة خاصة عن المسجد الجامع لطرابلس المعروف بالجامع المنصوري الكبير وخلصت إلى انه مستجد بالكامل وإسلامي بالكامل مع ربط وضبط في طريقة البناء وشكله وانه مبني ضمن مخطط هندسي واحد .

وباعتبار أن بعض الدارسين قد أخطأوا بحق الجامع الكبير كما أن الجامع الكبير قد اخطأ بحقه بعض الدارسين ، فقد توهم بعض المؤرخين قصة محكية لا أساس لها من الصحة تقول بمحاولة إعادة الجامع إلى كنيسة ، لقاء مال ، في عهد والي طرابلس اياس الجرجوري المملوكي الأمر الذي دفعنا إلى عقد فصل خاص عن اياس هذا وعن القصة المخترعة والالتباس الحاصل في سردها ومعناها .

٢٠ ـ وبمناسبة الجامع الكبير في طرابلس وربطه بكنيسة متوهمة كان الحديث أيضا عن جامع الأمير طينال وكيف أن هناك من ذهب إلى أن بيت الصلاة الأول من الجامع بني على أنقاض كنيسة ، كما أن جامع العطار صيروه إلى موقع كنيسة بسبب "جرنها" الذي على منبره فكان من المستحسن الرد على هذه الادعاءات وإسقاطها .

٢١ ـ وكما الجوامع كانت قلعة طرابلس إذ ختمنا هذا القسم بسيرة حياة القلعة وكيف أنها ظلمت لما نسبت إلى سان جيل الذي كان أحد الذين مروا بها وبنوا فيها ثم جاء السلطان الظاهر بيبرس ليهدم ما بناه صنجيل تهديما كاملا فيتحول حصنه إلى أنقاض إلى أن بدأ بلبان الطباخي ـ أول والٍ على طرابلس بعد الفتح مباشرة ـ بتشييد قلعة تليق بطرابلس المستجدة ثم لنذكر كل من ساهم ببنائها وأضاف عليها عبر العصرين المملوكي والعثماني .

٢٢ ـ وختمنا الكتاب كله بمجموعة صور ورسوم ومخططات تساعد على فهم مسار الكتاب .

* * *

٢٣ ـ إن قراءة متأنية للتاريخ سوف تعيد كتابته ، لا محالة ، وان رسم الماضي بأطره الصحيحة سوف يعيد كثيرا من الحسابات...ومطلوب أن يدرَّس التاريخ الصحيح في مدارس لبنان وبلدان العرب والعالم ، فهل يعقل أن لا يعرف

أهل طرابلس مثلا وأبناء لبنان ودنيا العرب (تواريخهم) ومجريات أحداث وقعت على أراضيهم، بينما يعرفون الكثير عن بلدان العالم الأخرى؟ وبالتفصيل الممل في بعض الأحيان !

لقد بسطنا في كتابنا (قراءة إسلامية في تاريخ لبنان والمنطقة) جوانب من هذه المسألة كما عرضنا لجوانب مهمة أخرى في هذا السياق...واليوم في كتابنا الوجيز هذا نعطي صورة عن الكيفية الواجب اعتمادها في كتابة تاريخ لبنان من جديد.ونكشف صفحات مشرقة من تاريخنا الجهادي والنضالي .

٢٤ ـ أرجو أن أكون قد ساهمت في خدمة الحق والحقيقة والتاريخ وعملت على إعادة " الذاكرة الواعية " لتاريخ هذه المدينة ، فنصحح مفاهيم وأحداث ومنطلقات ، فتبقى المدينة ، كما كانت ، عريقة في أمجادها معتزة بما فيها وبصروحها.ولم أنسَ ، ونحن نعمل على إعادة الذاكرة للتاريخ الذي زوروا قسما منه وحرفوا آخر ولم يتمكنوا من الإحاطة بالأقسام الأخرى فأبقوها على حقيقتها الناصعة ، أن أكشف محاولات التهديم والتهميش اللتين عملتا في صروح طرابلس التاريخ فتساءلنا بمرارة " طرابلس التاريخ إلى أين " ؟

* * *

٢٥ ـ ولا بد لي في ختام هذه المقدمة أن ارحب بأي حوار هادف وبأية وثائق تثبت ما ذهبت إليه أو تناقضه فهدفنا الأول والأخير الحق...والحق وحده.

ولا يسعني هنا إلا أن أقول : أن أخطأت فمن نفسي وان أصبت فهي مِنّة من الله تبارك وتعالى فكثيرة هي المعلومات والوثائق التي كان إطلاعي عليها وسبر أغوارها وإدراك مراميها...ومضات ولمعات في لحظات تجلّ ومعاناة ...

محمّد علي ضناوي

طرابلس الفيحاء

رجب الخير/١٤١٩/تشرين ـ اوكتوبر/١٩٩٨

القسم الأول

طرابلس في عهدة بني عمار قبل السقوط

- **الفصل الأول :**

طرابلس بين الاسم والجغرافيا

- ***الفصل الثاني :***

طرابلس في عهدة بني عمار ...
فالسقوط في أيدي الصليبيين .

- ***الفصل الثالث :***

قراءة في الفكر السياسي لولاة
طرابلس في عهد بني عمار .

- ***الفصل الرابع :***

السكان في إمارة طرابلس
الصليبية ، والحركة العلمية فيها.

الفصل الأول

طرابلس بين الإسم والجغرافيا

١ ــ أطلق ياقوت بن عبد الله الحموي ، في معجم البلدان ، على طرابلس الشام اسم (مدينة أتاس)[١] .

ولطرابلس شريك في الاسم هي طرابلس ــ الغرب أو طرابلس ــ ليبيا ويبدو أن الفينيقيين الذين شيدوا طرابلس في الشام وانتقلوا إلى قرطاجنة ومنها إلى موقع طرابلس في ليبيا اليوم، بنوا شبيها لطرابلس الشام أطلقوا عليها اسمها • وموقعها هو موقع مدينة الخمس وهي البلدة القديمة هناك.

يقول ياقوت صاحب معجم البلدان في كتابه المشار إليه : " وقد فرق بعضهم بينها ــ أي طرابلس الشام ــ وبين مدينة أخرى بهذا الاسم في شمال إفريقية فجعلوا التي بالشام ــ أطرابلس ــ بزيادة الهمزة والأخرى ــ طرابلس ــ بغير الهمزة " .

ويقول حكمت شريف في تاريخ طرابلس الشام الذي نقل كلام ياقوت الآنف الذكر : "وقد خالف بعضهم ياقوت بان اسقط الهمزة من التي بالشام وزاد الهمزة على التي في المغرب "[٢] .

كما أن المتنبي ذكر في قصيدته طرابلس دون الهمزة فقال :

أكارم حسد الأرض السماء بهم
وقصرت كل مصر عن (طرابلس)

٢ ــ والراجح أن اسم (طرابلس) مشتق من لفظ في اليونانية تريبوليس أو طرابليطا ويعني المدن الثلاث وهي (كايسا ، وماسيا ، ومخلات) كما ذكر العلامة برستد الإنكليزي على ما نقله الأب أغناطيوس الخوري[٣] الذي ذكر أيضا أن موقع هذه المدن الثلاث هو الأولى في محلة الميناء اليوم ــ والثانية في شرق المدينة الحالية في منطقة السرفتانية أو السلفتانية وهي مقابر الملكيين الروم الأرثوذكس وقد توقف الدفن فيها لوقت قريب وتقع قريبا من (قلعة طرابلس في

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان مجلد ٦، ص ٤٣.

(٢)حكمت شريف : تاريخ طرابلس الشام من أقدم أزمانها إلى هذه الأيام ،ص ١٦.

(٣) يعقوب اغناطيوس الخوري : مصطفى آغا بربر، ص ١٥ و١٦ .

وقد ذكر د.عمر تدمري في كتابه تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ص ٢٧ أن برستد ذكر القرى الثلاث بالأسماء التالية (نيوام ، نوغس ، وهرنكيرو) والتي أصبحت فيما بعد (مجلايا ومايزا وكايزا) .

أبى سمراء) والثالثة في البحصاص جنوب طرابلس اليوم وقد خربت المدينتان الثانية والثالثة وبقيت الميناء اسما لطرابلس في العهود الإسلامية وإبان العهد الصليبي إلى أن جاء قلاوون فهدم المدينة الصليبية وأمر ببنائها في السهل بين الهضبة والبحر.

وهناك رواية ذات دلالة في بناء طرابلس الفينيقية ..." فينيقية لما كانت متفرقة ولايات مستقلة ، يربطها الدين والجنسية ، والتحالف على الدفاع والهجوم، وينفرد كلها بالأحكام الداخلية والخارجية ، رأت ممالكها الثلاث : صور وصيدا وأرواد ، أن تتفق على أحداث مجلس شورى ينظر في مصالح البلاد عامة ، تتمثل فيه كل مملكة منها بمائة نائب ".

" وبما أن تلك الممالك كانت على غيرة من بعضها وتحاسد وحذر ، تأبى إحداها قيام ندوتها في الأخرى ، اتقاء استبداد أو إكراه ، اضطر القوم في كلها أن اجمعوا على إنشاء الدار لذلك المجلس في محل طرابلس الحيادي ، واضطرت إذ ذاك كل مملكة إلى إنشاء مدينة خاصة لها حول ذلك المحل المتحايد ، يقيم فيها ممثلوها المئة مع عيالهم وخدمهم وأرزاقهم ، فانتج ذلك التدبير "المدن الثلاث" أي طرابلس ، تفصلها عن بعضها أبعاد ".

" أما تاريخ بنائها فهو تاريخ التشكيل لمجلس الشورى الفينيقي واحد ، رجح العلماء أن بدء عهده كان في أواسط القرن السادس قبل المسيح ، حين غزا نبوخذ نصر ملك بابل سورية، بعد أن كان قد حاصر صور ١٣ سنة أخذها اغتصابا . وقد ذكر التاريخ لذلك المجلس اجتماعا آخر خطيرا عقد سنة ٣٥٢ ق م ، في طرابلس ، فقرر فيه الفينيقيون العصيان على الفرس الظالمين ، وهكذا فعلوا[٤]".

غير أن الدكتور عمر تدمري في كتابه تاريخ طرابلس السياسي والحضاري رجح قول مارتن اليسوعي في كتابه تاريخ لبنان وذهب إلى أن تاريخ تأسيس طرابلس يعود إلى القرن ١٥ ق م معتمدا على رواية في العهد القديم عن عشيرة كنعانية التجأت إلى طرابلس وعرفوا بالحويين الطرابلسيين دلالة على الجهة التي لاذوا إليها وكان ذلك سنة ١٢٥٠ ق.م[٥] .

٣ ــ وتقع طرابلس ــ الشام في جغرافيا الكرة الأرضية على درجة ٣٥ و ٤٤ دقيقة و٢٠ ثانية شرقي باريس طولا وعلى درجة ٣٤ و ٢٦ دقيقة و ٢٦ ثانية شمالها عرضا[٦] .

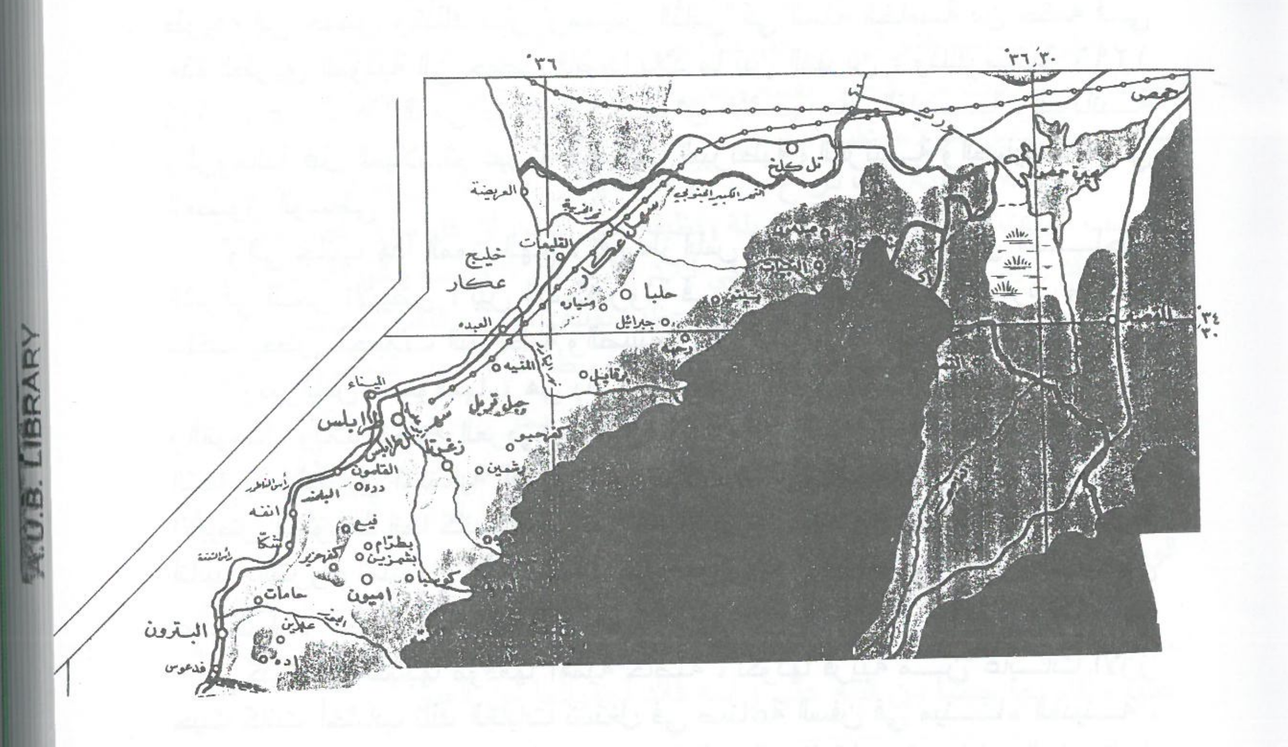
(٤) م.س ، ص ١٥ ــ ١٦.

(٥) م.س ، ص ٢٧ و٢٨.

(٦) م.س ، ص ١٥،حكمت شريف :طرابلس الشام من أقدم أزمانها إلى هذه الأيام ، ص ١١ بينما ذكر الدكتور عمر تدمري في كتابه أن طرابلس تقع عند درجة ٦٠ والدقيقة ٣٥ من خط الطول والدرجة ٣٤ من خط العرض وذلك في

ومن العودة إلى أطلس العالم يتبين أن طرابلس تقع على درجة ٣٥ و ٥٠ دقيقة طولا وعلى درجة ٣٤ و ٢٢ دقيقة عرضا[٧].

وتقع طرابلس ــ كما ترى ــ على رأس داخل في البحر يواجهه سلسلة من جزر في البحر تشكل ميزة للمدينة مع نهر أبى علي ــ وسبب كل ذلك إقامة مدينة كبيرة هي طرابلس .



خريطة لبنان الشمالي من مصور نشره اطلس العالم وعليه خطوط العرض والطول

ص ٢٨ من تاريخ طرابلس الحضاري والسياسي.ولا ريب أن هناك خطأ بينا في تحديد د. تدمري ولعل المقصود درجة ٣٥ والدقيقة ٦٠.

(٧)جورج بدران : أطلس العالم.ومنه أخذنا الرسم المنشور عن موقع طرابلس في خطوط الطول والعرض.

كان لموقع طرابلس [هذا] أهميته الحربية والاقتصادية والتجارية على مر العصور، فهي تقع في سفح نيل من أذيال جبل لبنان ، عند نهاية وادي قاديشا . وتتميز بموقعها الجغرافي ، حيث يوجد في إقليمها منخفض ارضي بين جبال لبنان وجبال النصيرية إلى الشمال منها. ويعتبر هذا المنخفض المنفذ الرئيسي إلى منعطف الفرات والى ما بين النهرين، والى بلاد الكلدانيين التي تربط أوروبا بآسيا ، وهذا هو الطريق الكبير للهجرات ، كما انه في الوقت نفسه طريق الغزوات. فقد عبرت جيوش "تحوتمس الثالث" هذا الممر في النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد أثناء حملته على سوريا (١٤٨٢ــ١٤٥٠ق.م) واحتل مدينة عرقة الواقعة على مسافة ٢٥ كلم تقريبا شمالي شرقي طرابلس في طريقه إلى حمص. وكذلك سار "رمسيس الثاني" في السنة الخامسة من حكمه في هذه الطريق المؤدية إلى حمص قاصدا بلاد ما بين النهرين ، وذلك سنة ١٢٩٦ ق. م. وعبرت هذا الممر أيضا الجيوش الآشورية والفارسية واليونانية والرومانية قبل الميلاد. ثم عبرته الحملات البيزنطية والعربية والصليبية في العصور الوسطى .

"والى جانب هذا الممر الهام ، تقع طرابلس عند منتصف الطريق الساحلي الشرقي للبحر الأبيض ، بين الاسكندرونة في الشمال ، وغزة في الجنوب. وقد سلكت بعض الحملات البيزنطية والصليبية هذا الطريق الساحلي أيضا " .

" وطرابلس ، بموقعها ، هي باب آسيا نحو حلب ودمشق وتدمر وبغداد والموصل وبلاد الخليج العربي ، وهمزة وصل بين الشرق والغرب من الناحية التجارية. فالطريق الشمالية للقوافل التي تتنقل باستمرار بين الخليج العربي والبحر الأبيض المتوسط إنما كانت تنتهي في طرابلس نفسها . ونرى الآن خطوط أنابيب البترول تمتد من آبار البترول في العراق عبر الأراضي السورية لتنتهي عند طرابلس حيث تصدّر لدول العالم[٨] .

" كذلك فقد اكسبها موقعها أهمية خاصة ، لكونها قريبة من غابات الأرز حيث كانت أخشاب تلك الغابات تستغل في صناعة السفن في ميناء المدينة ، وغدت بذلك من المدن الحربية والصناعية الهامة ، إذ كانت ترسانات السفن تقوم على الأخص عندها " .

(٨) توقف ضخ النفط العراقي منذ عام ١٩٧٥ كما توقف التصدير وتحولت المصفاة إلى عمل محدود لنفط مستورد يلبي حاجة السوق المحلي ثم توقفت المصفاة حتى في هذا المجال !!!

" وبالرغم من الزلازل المدمرة التي كانت تضرب طرابلس بين فترة وأخرى، فان حكامها كانوا يعيدون بناءها من جديد ، ويشيدون فيها الحصون والأسوار ، ويحفرون حولها الخنادق"[٩] .

٤ ــ يمكن وصف طرابلس ، كما كانت ، قبل احتلالها من قبل الإفرنج ، بما ورد في كتاب "سفرنامة" لناصر خسرو علوي[١٠] الذي زار طرابلس آنذاك في عهد آل عمار في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وقال :

" مدينة طرابلس مشيدة بحيث أن ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر فإذا ماج علت أمواجه السور " .

" أما الجانب المطل على اليابس ففيه خندق عظيم عليه باب حديدي محكم " .

" وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعة[١١] من الحجر المصقول عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه وعلى قمتها عرادات لوقايتها من الروم فهم يخافون أن يغير هؤلاء عليها بالسفن " .

" ومساحة المدينة ألف ذراع مربع وأربطتها أربع أو خمس طبقات ومنها ما هو ست طبقات أيضا، وشوارعها جميلة ونظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين" .

" وقد رأيت بطرابلس ما رأيت في بلاد الشام من الأطعمة والفواكه بل أحسن منه مئة مرة ؛ وفي وسط المدينة جامع عظيم نظيف، جميل النقش، حصين وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام، في وسطه فواره من النحاس الأصفر".

" وفي السوق مُشْرَعَة[١٢] ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير، يأخذ منه الناس حاجتهم ويفيض باقيه على الأرض ويصرف في البحر ، ويقال أن بها عشرين ألف رجل ويتبعها كثير من السواد ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه .

" وهي تابعة لسلطان مصر، قيل : وسبب ذلك انه في زمن ما أغار عليها جيش الروم الكفار فحاربه جند سلطان مصر وقهروه ، فرفع السلطان الخراج عنها وأقام بها جيشا من قبله على رأسه قائد لحمياتها من العدو " .

(٩) د. عمر تدمري : تاريخ طرابلس السياسي الحضاري ، ص ٣٦ و١٣٧ .

(١٠) ناصر خسرو علي : سفرنامة . وقد نقل الوصف ، كوثيقة ، الدكتور عمر تدمري في ملاحق كتاب تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص ٦٠٧ .

(١١) وهو ما يثبت أن قلعة طرابلس كانت موجودة قبل الصليبيين وهي الحصن المبني منذ زمن بعيد في أول الفتح الإسلامي على التلة المعروفة اليوم بأبي سمراء وهي القلعة التي نسبت فيما بعد إلى القائد صنجيل الصليبي حيث ادخل عليها بعض البناء وجدد فيها فنسبت إليه !! راجع ما كتبناه عن القلعة في الفصل السادس من هذا الكتاب .

(١٢) مشرعة : أي سبيل أو ما كان يعرف بقائم ماء .

"وتحصل المكوس بهذه المدينة فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والإفرنج والأندلس والمغرب العشر للسلطان ، فيدفع منه أرزاق الجند.وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة وسكان طرابلس كلهم شيعة..."[13].

"وحول المدينة،المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والاترج والموز والليمون والتمر... وكان عسل السكر يصنع حينذاك " .

٥ــ أما المناطق خارج مدينة طرابلس فنجد لها وصفا جميلا لسائح إفرنجي اسمه "برخار"[14]. كتبه عام ١٢٥٣ م.أي أيام الإحتلال الصليبي، وهو وصف ينطبق على طرابلس وضواحيها بصورة عامة إلى اليوم ويعطي فكرة عامة عن الأماكن التي ضُرب فيها الحصار أو حدثت فيها المعارك سواء للاحتلال أو للتحرير،وعلى ذلك فهو وصف مهم تتضح منه أمور عديدة يساعد على تقريب الصورة الجغرافية والتاريخية .

يقول السائح : " إن المنطقة المجاورة لمدينة طرابلس يمكن تسميتها بجنة ، وذلك للعديد من كروم العنب والزيتون والتين ومزروعات قصب السكر التي لا أذكر أني رأيت مثلها في أماكن أخرى.والسهل الواقع عند المدينة طوله فرسخ واحد وعرضه نصف فرسخ.وفي هذه البقعة من الأرض توجد الحدائق المزروعة بمختلف أشجار الفاكهة التي تعطي كمية كبيرة لدرجة أنها تغل لصاحبها...ألف (أوربة) بيزنطية ".

" وجبل لبنان يبعد ثلاثة فراسخ عن المدينة،عند قدمه ينبع ينبوع الحدائق[15] الذي ينساب مندفعا من جبل لبنان كما ورد في [canticles] وهذا النبع يظهر من جوف الأرض بهدوء ولكنه يأخذ بالازدياد حتى يصبح نهرا كبيرا[16] ومندفعا،وهو يروي جميع البساتين والسهل الواقع بين طرابلس والجبل.مياهه عذبة وجيدة وعلى ضفافه أماكن عبادة كثيرة وكنائس متعددة،وكما قلنا سابقا:ينساب هذا النهر من أسفل الجبل جزئيا حول جبل السباع (الفهود) الذي يدعى بجبل تربل ليسير بعد ذلك بين الحدائق يسقيها ".

---

(١٣) قول فيه تضخيم ، والأصح أن بعض أهلها شيعة ، وسنعود إلى مناقشته فيما بعد.راجع أيضا فصل الفكر السياسي عند بني عمار من هذا الكتاب .

(١٤) راجع النص في ملاحق كتاب تاريخ طرابلس للتدمري ،ص ٦١٢.

(١٥) يعرف اليوم بنبع رشعين .

(١٦) هو النهر المعروف بنهر أبي علي نسبة إلى واليها فخر الملك القاضي أبو علي عمار والنهر يقسم طرابلس اليوم إلى منطقتين، فهو يجري في وسطها وكان قائما على ضفتيه العديد من الآثار المملوكية المختلفة أزيل بعضها بعد فيضان النهر في عام ١٩٥٥ وتعلو إحدى ضفتيه منطقة القبة حيث عسكر السلطان قلاوون واسترد منها طرابلس التي كانت على البحر ــ الميناء اليوم ، وفي الضفة الأخرى المقابلة تنتصب القلعة في سهل المنطقة المعروفة اليوم بابي سمراء . وفي وصف السائح أن أماكن عبادة وكنائس ــ في العهد الصليبي ــ أقيمت على النهر ابتداء من نبعه في رشعين.

الفصل الثاني
طرابلس
في عهدة بني عمّار... فالسّقوط بيدّ الصّليبيّين

١ ــ بعد أن أسس الفاطميون (خلافتهم) في القاهرة زحفوا على الشام برّه وساحله، ومنه إلى طرابلس التي غدت في عهد المعزّ الفاطمي سنة ٣٦٣هـ.ولاية مستقلة عن دمشق...إلا أن الصراع بين الفاطميين من جهة والأتراك السلاجقة من جهة أخرى على المناطق الشامية ، مكن الفاطميون من المحافظة على طرابلس إلى أن تولى القضاء في ولايتها أبو طالب الحسن بن عمار.وكان منصب القاضي يبيح لصاحبه ممارسة سلطات إدارية واسعة مما يعني أن منصبيّ الوالي والقاضي كانا واحداً ، ويعود نسب هذا القاضي الحسن بن عمار إلى قبيلة "كتامة المغربية الإفريقية وقد جاءت مجموعات من هذه القبيلة إلى مصر والشام بعد أن اعتنق بعضها المذهب الشيعي عندما اخذ بالانتشار في بعض الشمال الإفريقي.

* * *

٢ ــ ولئن خضعت كثير من المدن الشامية للحكم الفاطمي ووسد الأمر فيها، في بعض الفترات ، إلى ولاة أو قضاة مسلمين غير سنّة، إلا أن هذا لا يعني غلبة المذهب الشيعي في تلك المدن على جماعة أهل السنّة إلا في الحكم والقضاء وعلى فترات من التاريخ. وطرابلس مثل على ذلك ، فقد خضعت للحكم الفاطمي واستقل بها بنو عمار إلا أن اكثر أهلها كانوا ، حتى في عهد بني عمار ، من المسلمين السنّة.وفيها أيضا روم وموارنة ويهود وذلك خلافا لما ذكره ناصر خسرو في تدوين رحلته إلى ساحل لبنان عام ٢٣٨هـ/١٠٤٧م.في كتابه"سفرنامة" من أن سكان طرابلس كلهم شيعة .

يقول د.عمر تدمري :

" ولم يكن القضاة في الولايات اسماعيليين بالضرورة على مذهب الإمام الخليفة الفاطمي، بل إننا لا نجد قاضيا إسماعيليا واحدا تولى هذا المنصب في جميع الولايات في "لبنان" ! فالكل كانوا إما سنّة أو شيعة إمامية كما في طرابلس وإمّا سنّة ، كما في صور وصيدا ، وبعلبك ، وغيرها .

" وكان في كل مدينة أكثر من قاضٍ في وقت واحد ، ففي طرابلس مثلا قاضٍ للشيعة الإمامية ، وقاضٍ للسنّة على المذهب الشافعي في الأغلب ، ولا

يبعد أن يكون فيها قاضٍ على المذهب المالكي نظرا لكثرة المغاربة في طرابلس".

٣ ـ أخذ هذا القاضي أبو طالب الحسن بن عمار يراقب حالة الصراع بين السلاجقة والفاطميين وتدخل بحكم منصبه لإحلال الصلح بين الطرفين إلى أن تمكن في عام ٤٦٢ هـ من إعلان استقلال ولاية "طرابلس" عن القاهرة وبدأت بذلك ولاية حكم بني عمار لطرابلس ، وقد عرف عهد بني عمار بالحياد بين السلاجقة والفاطميين رغم أن بني عمار وبعض سكان طرابلس يومئذ كانوا من الشيعة.وقد تمكن القاضي أبو الحسن ، وقد كان أديبا ، من تحويل طرابلس إلى مركز ثقافي وتجاري هام فأسس فيها دار الكتب والعلم وقد حوت المكتبة أكثر من مئة ألف كتاب وقيل ما يزيد عن مليوني مجلد وقد أحرق الصليبيون بعد احتلال طرابلس عام ٥٠٢ هـ ./ ١١٠٩ م.هذه المكتبة الضخمة فذهب بحريقها جزء مهم وضخم من تراث الحضارة الإسلامية ، وقد آل حكم الولاية بعد أبي الحسن إلى ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن عمار الذي تمكن بفضل حنكته وسياسته من مصالحة السلجوقيين لمَّا هموا باحتلال طرابلس وذلك عام ٤٨٥ هـ . ثم آل الحكم إلى أخيه فخر الملك أبو علي بن عمار وهو آخر ملوك بني عمار وفي عهده سقطت طرابلس بيد الصليبيين ، (وإذا نظرنا إلى ابن عمار هذا بعين التحقيق نجد انه لم يأل جهدا بالدفاع عن مدينته وقد أخر استبساله احتلال طرابلس نحو سبع سنين ولو كان لديها أسطول قويّ ولو ساعد الفاطميون في الوقت المناسب، أو لو أنجدها العباسيون بجيش له قيمته ، لبقيت طرابلس في حوزة المسلمين)[١].

٤ ـ وقد حاول فخر المُلك أبعاد كأس الاحتلال الصليبي عن طرابلس فحاول استرضاء الملك بلدوين الذي كان على رأس حملته الصليبية آنذاك فترك بلدوين فعلا طرابلس متجها نحو الجنوب[٢] .

(١) سميح الزين : تاريخ طرابلس قديما وحديثا ، ص ٧٢ .

(٢) ذكر أمين معلوف في كتابه الحروب الصليبية الطبعة الأولى ص ٩٢ أن فخر الملك استرضى بلدوين بان أرسل إليه خمرا (؟؟) وعسلا وخبزا ولحما وهدايا نفيسة من ذهب وفضة) كما اعلمه بالكمين الذي نصبه له عساكر دمشق عند نهر الكلب...فشكره بلدوين وترك طرابلس.. أننا إذ نورد هذا النص نتوقف عنده وننظر إليه بكثير من الشك لتناقضه مع حياة فخر الملك وجهاده الإفرنج وعلاقته الوطيدة بحكام الأمصار المسلمين في بلاد الشام إلا أن هذا النص الذي يحتاج إلى كثير من التحقيق والتمحيص يكشف ـ في حال صحته ـ أبعادا في فكر سياسي كان مسؤولا عن حكم البلد في مرحلة من التاريخ!!! غير أن المصادر التاريخية ذكرت هدايا فخر الملك لبلدوين دون أن تذكر (الخمر) .كما أن جهاد فخر الملك ضد الصليبيين وطلبه المستمر للنصرة من السلجوقيين وخاصة بمجموعة كبيرة من الحروب الجهادية ووسائله إلى الولاة السلجوقيين والسلطان فخر ملكشاه مما سنذكره في الفصل الخاص عن الفكر السياسي لبني عمار نجعل على رواية أمين معلوف اكثر من علامة استفهام.

غير أن الصليبيين بقيادة **سان جيل** جاءوا من جديد على رأس حملة انطلاقا من القسطنطينية حيث أمضى القائد برتران دو أكثر من سنة يعد جيوشه ويستقبل المزيد من المحاربين.إلا انه تمكن بعد هزائم عدة ألحقت به من الوصول إلى طرابلس فاستنجد فخر الملك بولاة دمشق وحمص فأنجدوه بعدد يسير ودارت المعركة خارج أسوار طرابلس فلما انهزم جند حمص ودمشق لاذ فخر الملك بداخل المدينة وأغلق أسوارها بينما اتخذ برتران دو من تلة الحجاج كما عرفت في كتب التاريخ الإفرنجي ـ أو مرتفع أبي سمراء اليوم ـ حيث يوجد الحصن الذي يعود بناؤه إلى أوائل الفتح الإسلامي ، والموصوف في سفرنامة كما أثبتناه من قبل ، مركزا لتجميع قواته فزاد في الحصن حتى غدا مركزا حربيا مهما ، وبعد أن ضايق سان جيل أهل طرابلس وحصرهم وسد عليهم موارد الماء من النهر الذي هو أسفل القلعة ـ المعروف اليوم بنهر أبي علي ـ ويبدو أن التسمية تعود إلى القاضي أبو علي عمار ـ كما أسلفنا ـ قرر فخر الملك إجلاءهم عن القلعة أو هدمها بأي ثمن وحاول رجاله في كل ليلة القيام بعمليات جريئة لطعن أحد الحراس أو الإضرار بسور في طور التشييد ، غير أن أروع عملية قاموا بها كانت في شهر أيلول / سبتمبر / ١١٠٤ م.فقد خرجت مجموعة من طرابلس بقيادة القاضي ، أبو علي فحاصرت عددا كبيرا من الإفرنج فأمعنت فيهم القتل ثم تقدم فخر الملك مع مجموعته المقاتلة إلى القلعة حيث أضرم فيها النار...ويقول ابن القلانسي في "ذيل تاريخ دمشق" (وفي هذه السنة ـ ٤٩٧ هـ ـ ورد الخبر من ناحية طرابلس بظهور فخر الملك أن ابن عمار صاحبها في عسكره فأهل البلد ويروي التاريخ أن صنجيل وقد اخذ على حين غرة خرج إلى أحد سطوح القلعة والتي ذهَّبها هو وكان السطح ملتهبا بنار ابن عمار وعلى درجة كبيرة من الحرارة . وهدم الحصن الذي بناه صنجيل عليهم وانهم هجموا عليه على غرة من فيه فقتل من به ونهب ما فيه واحرق واخرب واخذ منه السلاح والمال والديباج والفضة الشيء الكثير وعاد إلى طرابلس سالما غانما في التاسع عشر من ذي الحجة)[٣].

" وإذ أصيب بحروق بليغة فقد مات بعد خمسة أشهر ذاق فيها أبشع ألوان الألم)[٤] وبعد أن مات خلفه أحد أبناء خؤولته "السرداني" **الكونت دو سرداني** الذي رأى أن يزيد في الضغط على المدينة...(وارتفعت أسعار السلع ـ أي في طرابلس ـ بشكل جنوني فبيع رطل التمر بدينار ذهب وهذا الدينار يؤمن القوت في الأيام العادية لعائلة بأسرها لمدة أسابيع وأخذ كثير من الأهالي يسعون إلى

(٣) أبي يعلي حمزة بن القلانسي : تاريخ أبي يعلي حمزة بن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٦ .

(٤) أمين معلوف : الحروب الصليبية كما رآها العرب،ص ١٠٦ .

الهجرة باتجاه صور وحمص أو دمشق وتسببت المجاعة بحدوث عدد من الجنايات فذهب بعض الوجهاء الطرابلسيين ذات يوم لمقابلة السرداني وأطلعوه على الطرق التي ما تزال المدينة تؤمن بها بعض المؤن وذلك طمعا في نيل رضاه. وقدم فخر الملك إلى خصمه مبلغا خياليا من المال لقاء تسليمه الخونة فرفض الكونت، وفي صباح اليوم التالي وجد الوجهاء مذبوحين داخل معسكر الأعداء بالذات...وعلى الرغم من هذه المأثرة فقد استمر وضع طرابلس في التدهور...وإذ يئس فخر الملك من كل رجاء فقد عزم على الرحيل بنفسه إلى بغداد لشرح حاله والدفاع عن قضيته عند السلطان محمد والخليفة المستظهر بالله واستناب أحد أبناء عمه للقيام بأعباء الحكم ودفع لجنوده رواتب ستة أشهر سلفا... "[5] وخرج من طرابلس برا ...وتوقف ... أولا في دمشق[ثم انتقل] إلى بغداد (حيث) كان الاستقبال أشد فخامة ، فقد عومل القاضي معاملة عاهل ذي سطوة نظرا لهيبة طرابلس الكبرى في العالم الإسلامي.وطلب الملك النجدة من السلطان فوعد بها لكن أدرك فخر الملك استحالة النجدة ضمن الظروف المحلية لبغداد والخلافات المستحكمة بينها وبين أهل الموصل...(وعندما سلك فخر الملك طريق العودة بعد أربعة اشهر...بات مقتنعا انه لن يكون في وسعه الاحتفاظ بمدينته...وما إن بلغ دمشق في آب / ١١٠٨ م.حتى ابلغ الخبر المشئوم فقد قرر وجهاء طرابلس ، وقد فتّ في عضدهم غيابه الطويل ، أن يعهدوا بالمدينة إلى صاحب مصر "الفاطمي" الذي وعد بحمايتها من الإفرنج) بينما لم يفعل ، الفاطمي ، أكثر من اعتقال أسرة فخر الملك وأنصاره وأمواله..." وإرسال كل ذلك بالبحر إلى مصر"[6].

يقول المقريزي في (اتعاظ الحُنَفَا) عن فخر الملك صاحب طرابلس :

" وخلفهم ــ أي قضاة بني عمار في طرابلس ــ القاضي فخر المُلك هذا في الأيام الأفضلية فجرى على تلك الوتيرة ودفع إلى محاصرة الإفرنج له مدة سبع سنين فضاق خناقه، فخرج من طرابلس إلى العراق مستنجدا فلم يجد ناصرا واختلت أحواله وعاد إلى دمشق"[7].

٥ ــ وكان لطرابلس سور كبير ضخم وقف سدا شامخا في مختلف محاولات الإخضاع أو الاحتلال مدة مئة عام في وجه محاولات أباطرة الروم البيزنطيين نقفور فوكاس البيزنطي (٣٥٨ هـ./ ٩٦٨م.) والإمبراطور نزيمكس (٩٦٩هـ./٩٧٦م) والإمبراطور باسيل الثاني (٣٥٨ هـ./٩٩٥ م.) وقد اجتاحوا

(٥) م.ن ، ص ١٠٨ ــ ١١١.

(٦) نقل النص د. عمر تدمري في ملحق الكتاب لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ص ٣٢٤ .

(٧) م ن ، ص ١١٢.

معظم البلاد الشامية إلا انهم عجزوا عن إخضاع طرابلس وقد حاصروها عشرات الأيام وقاتلوها وقاتلتهم وقد أرجعتهم عنها خاسرين ، وموقف الصمود والبطولة هذا جعل رينه غروسية يطلق تساؤله الذي يحمل مختلف المعاني (أكان "جبل طارق" طرابلس)[8] الذي أوقفهم دون أي امتداد إلى القدس ؟! بينما يعترف الإمبراطور نزيمسكس بان طرابلس التي هي منعته من الوصول إلى القدس ... ولولا ذلك لتوجه إلى مدينة المقدس وأقام الصلاة في الأماكن المقدسة.

وعندما جاء الزحف الصليبي لعب السور دورا بارزا مما أعان المدينة على الصمود ألفي يوم أو سبع سنين إذ تجمع الصليبيون من كل مكان وشددوا الضغط.

وفيما كان وضع طرابلس مضطربا داخليا وقد استبد الذعر بالناس وهم يرون الإفرنج وقد اشتد عودهم حيث كانت تأتيهم المؤن والمساعدات والسفن ، فيما غاب الدعم وتأخر وصول المدد المصري الموعود وكان المعسكر الصليبي قد أنجز استعداداته البرية والبحرية لمنازلة طرابلس واحتلالها ابتداءً من أول شهر شعبان ٥٠٢ هـ /آذار ــ مارس١١٠٩م. واستمرت المناوشات متصلة إلى أن سقطت المدينة بعد معركة لاهبة في ١١/ذي الحجة/٥٠٢ هـ.الموافق للثاني عشر من تموز يوليو ١١٠٩ م. (وبعد ألفي يوم من المقاومة خربت مدينة المصوغات والمكتبات والبحارة البواسل والقضاة المثقفين على يد محاربي الغرب ونهبت مائة ألف مجلد التي كانت في "دار العلم" ثم أحرقت لكي تمحى الكتب الملحدة من الوجود)[9] ...!!!

أما الأسطول المصري ... فقد (وصل إلى صور في يوم الثامن من احتلال طرابلس وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها...)[10] فقد بيع معظم أهلها الذين بقوا أحياء ــ بعد أن قتل منهم خلق كثير ــ (عبيدا ونهبت أملاك الآخرين وطردوا وسوف يذهب كثيرون منهم إلى ثغر صور...)[11] ليظهر منهم قادة

(٨) رينه غروسيه ، ص ١٠٢ وتاريخ الحروب الصليبية /ستيفن رنسيمان ٥٥/١ .

(٩) أبو يعلى القلانسي : تاريخ أبي يعلى القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق.

(١٠) م ن ص ٦١٢ .

(١١) راجع النص الكامل في ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٩ وما بعدها المرجع مذكور بقول ابن القلانسي عند ذكره عمليات الدفاع عن صور في مواجهة الإفرنج بعد إذ تمكن الإفرنج من هدم سور المدينة (فزعزعوه ووقع منه شيء من الحجارة واشرف أهل البلد على الهلاك ..) يقول : " فعمد رجل من مقدمي البحرية عارف بالصنعة من أهل طرابلس له فهم ومعرفة بأحوال الحرب إلى عمل كلاليب حديد لمسك الكبش إذا نطح به السور من رأسه ومن جانبه بحبال يجذبها الرجال حتى يكاد البرج الخشب يميل من شدة جذبهم بها فتارة تكسره الإفرنج خوفا من البرج وتارة يميل أو يفسد وتارة ينكسر بصخرتين تُلقيان عليه من البلد مشدودة إحداهما إلى الأخرى فعملوا عدة من الكباش وهي تكسر على هذه الصفة واحدا بعد واحد وكان طول كل واحد منها ستين ذراعا معلقا في البرج الخشب بحبال في رأس كل واحد من

يدافعون عن صور ، كما دافعوا من قبل عن طرابلس ويروي ابن القلانسي في "ذيل تاريخ دمشق" أعجوبة بحارة طرابلسيين اخترعوا آلات حربية مجابهة تصدت للصليبيين وأخرت احتلالهم لها اكثر من ربع قرن[12]...!!!

٦ ــ ويقول القلانسي في وصف دخول الإفرنج طرابلس[13] :

" ونزل الإفرنج بجموعهم وحشودهم على طرابلس وشرعوا في قتالها ومضايقة أهلها منذ أول شعبان إلى الحادي عشر من ذي الحجة من السنة واسندوا أبراجهم إلى السور فلما شاهد الجند والمقاتلة أهل البلد سقط في أيديهم أيقنوا بالهلاك وذلت نفوسهم لاشتمال اليأس من تأخر وصول الأسطول المصري في البحر والميرة والنجدة فشد الإفرنج القتال عليها وهاجموها من الأبراج فملكوها بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة ونهبوا ما فيها واسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر دار علمها وما كان منها في خزائن أربابها ما لا يحد عدده ولا يحصر فيذكر وسلم الوالي بها وجماعة من جنده كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها فلما ملكت أطلقوا ووصلوا إلى دمشق بعد أيام من فتحها وعوقب أهلها واستصفيت أموالهم واستثيرت ذخائرهم من مكامنها ونزل بهم أشد البلاء ومؤلم العذاب .

الكباش حديد يزيد وزنه على عشرين رطلا.فلما طال تجديد الكباش وقربوا البرج من السور عمد هذا الرجل البحري المقدم ذكره إلى خشبة طويلة جافية قوية أقامها في برج البلد الذي بازاء برج الإفرنج وفي رأسها خشبة على شكل الصليب طولها أربعون ذراعا تدور على بكر بلولب كيف ما أراد متوليها على مثال ما يكون في الصواري البحرية وفي طرف الخشبة التي تدور سهم حديد وفي طرفها الآخر حبال مدارةٌ بها على ما يريد متوليها و كان يرفع فيها جرار الكدر والنجاسة ليشغلهم بطرح ذلك عليهم في البرج عن الكباش ٠ وضاق الأمر بالناس وشغلهم ذلك عن أمورهم وأشغالهم وعمد البحري المذكور إلى سلال العنب والقفاف فيجعل فيها الزيت والقير والسراقة والقلفونية وقشر القصب ويطلق فيها النار فإذا علقت بذلك وقع ذلك في الآلة المذكورة حتى يوازي برج الإفرنج فتقع النار في أعلى البرج فيبادروا بإطفائها بالخل والماء فيبادر برفع أخرى ومع هذا يرمي أيضا بالزيت المغلي في قدور صغار على البرج فيعظم الوقيد.فلما كثرت النار وحمل بعضها بعضا وقويت قهرت الرجلين المتولين لراس البرج وقتل أحدهما وانهزم الآخر ونزل منه فتمكنت النار من رأسه ونزلت إلى الطبقة الثاني من رأسه ثم إلى الوسطى وعملت في الخشب وقهرت من كان حوله في الطبقات وعجزوا عن إطفائها وهرب كل من فيه وحوله من الإفرنج وخرج أهل صور إليه فنهبوا ما فيه وغنموا من السلاح والآلات والعدد ما لا يحده وصف.

فعند ذلك وقع يأس الإفرنج منه وشرعوا في الرحيل عنه واحرقوا البيوت التي كانوا قد عمروها في المنزل لسكناهم واحرقوا كثيرا من المراكب التي كانت لهم على الساحل لأنهم كانوا اخذوا صواريها أرجلها وآلاتها للأبراج وكانت عدتهم تقدير مئتي مركب كبارا وصغارا منها تقدير ثلثين مركبا حربية وحملوا في بعضها ما خف من أثقالهم ورحلوا في العاشر من شوال من السنة وكانت مدة إقامتهم على محاصرة صور أربعة اشهر ونصف شهر " .

(١٢) م.س. ، ص ١٧٩.

(١٣) م.س. ، ص ١٦٣.

وتقرر بين الإفرنج والجنويين على أن يكون للجنويين الثلث من البلد وما نهب منه والثلثان لريموند بن صنجيل وافردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضي به " .

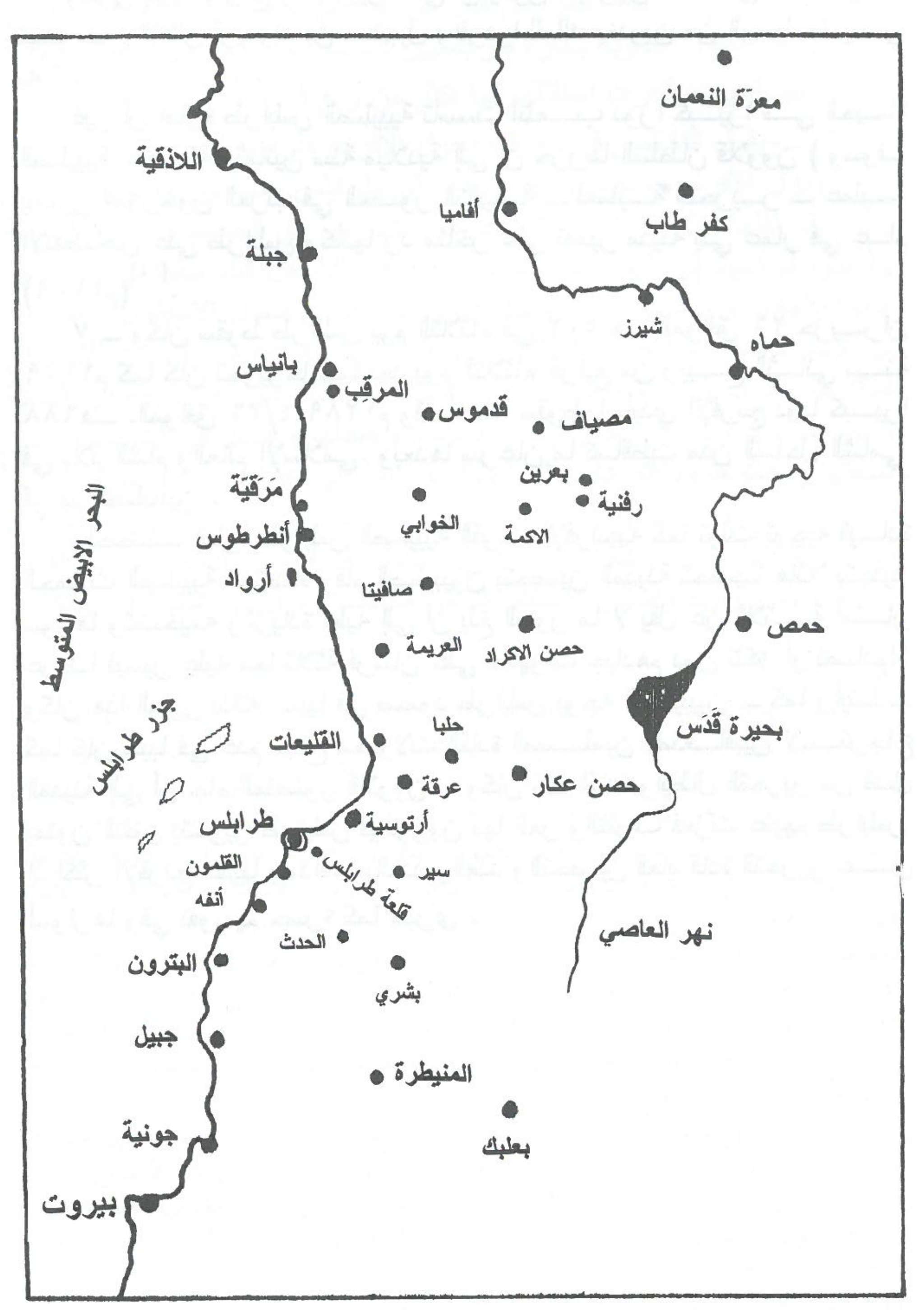
غير أن إمارة طرابلس الصليبية تأسست لتلعب دورا كبيرا في الحياة الصليبية عبر مئة وثمانين سنة ميلادية إلى أن حررها السلطان قلاوون (وسوف يصور المؤرخون العرب في العصور التالية ــ لعملية التحرير ــ عملية الانقضاض على طرابلس وكأنها رد متأخر على تدمير مدينة بني عمار في عام (١١٠٩م)[14].

٧ ــ وكان سقوط طرابلس يوم الثلاثاء في ٥٠٢ هـ .الموافق ٢٦ حزيران ١١٠٩م كما كان تحريرها فيما بعد يوم الثلاثاء الرابع من ربيع الثاني سنة ٦٨٨هـ .الموافق ١٢٨٩/٤/٢٦م وقد أحدث سقوطها بأيدي الإفرنج دويا كبيرا في بلاد الشام والعالم الإسلامي. وبعدها سرعان ما تساقطت مدن الساحل الشامي في يد الصليبيين.

واحتضنت إمارة طرابلس الصليبية القوات الإفرنجية كما تولت توجيه قيادة الحملات الصليبية المتعددة وقام الصليبيون بتحصين المدينة تحصينا هائلا بتجديد سورها وتضخيمه والزيادة عليه إلى أن بلغ السور ما لا يقل عن ثلاثة أمتار عرضا فيسير عليه معا ثلاثة فرسان على صهوات جيادهم دون تلكؤ أو تصادم!! وكان هذا السور بذاته سببا في صمود طرابلس بوجه الصليبيين ــ كما رأينا ــ كما كان سببا في عدم نجاح محاولات القادة المسلمين المتعاقبين لاسترجاع المدينة إلى أن جاء المنصور قلاوون ٠ وكان كل القادة وأبطال التحرير من قبل يمنون النفس بتحرير طرابلس فيحوزون بها العز والشرف فعزَّت عليهم طرابلس إذ اكثر الإفرنج عليها بإمدادها بالعَدَد والعُدَد والتحصين فعاد قادة التحرير عن أسوارها وفي نفوسهم حسرة كما سنرى .

---

(١٤) أمين معلوف : الحروب الصليبية كما رآها العرب ،، ص ٣١٦ .



موقع طرابلس على ساحل الشام
والمدن والحصون والمرافئ

الفصل الثالث

قراءة في الفكر السياسي[1]
لولاة طرابلس في عهد بني عمار

١ ــ كانت طرابلس منذ أن دخلها الإسلام أوائل انتشاره في بلاد الشام، تابعة لدمشق، فهي أهم بلدة على ساحل الشام على امتداد العصور الماضية، وإذ أوجد هذا الاتصال التفاعل المتصاعد بين البلدين عرفت طرابلس بطرابلس الشام وعرفت دمشق بالفيحاء، والفيحاء اسم لطرابلس. وقد أثَّر هذا التفاعل والتمازج بشكل واضح، في مختلف أحداث طرابلس سواء قبل احتلالها من الصليبيين أو أثناء الاحتلال أو عند التحرير وما بعده

يقول ابن شداد في تاريخه: " ولم تزل طرابلس يتصرف فيها من يلي دمشق منذ فتحت أيام بني أمية وصدرا من أيام بني العباس إلى أن استولى على دمشق العبيديون لما ملكوا مصر فافردوها عن دمشق وولوا فيها من جهتهم أول من وليها ريان الخادم ويقال له ريان عبد المعز"[2].

ولئن فصلت طرابلس عن الشام وغدت ولاية بذاتها فامتدت حدودها على فترات متتالية شمالا إلى اللاذقية وجنوبا إلى جونية، إلا أن ولاتها كانوا دوما بعد تعيينهم من مصر الفاطمية أو فيما بعد من مصر المملوكية، يتطلعون نحو دمشق وهو ما نراه واضحا في خلفيات أهل طرابلس بما فيهم ولاتها من بني عمار وتلك الخلفيات لعبت دورا أساسيا في توجه بني عمار بهدف التنسيق الشديد مع ولاة الشام ودمشق خاصة...وهي الخلفيات إياها التي لا تزال تؤثر في استراتيجية المنهج الفكر السياسي لأهل طرابلس على امتداد الزمن وحتى أيامنا الحاضرة.

* * *

وكمداخلة حول الفكر السياسي **لبني عمار** وعلى الأخص الحاكمين القاضيين المجاهدين جلال الملك أبي الحسن علي بن محمد بن عمار وأخيه فخر الملك أبي علي عمار بن محمد بن عمار، وكبداية أيضا نطرح السؤال التالي :

---

(١) كتب هذا البحث ضمن قراءات نجريها في تاريخ طرابلس، توصلا إلى وجود قراءة معمقة في تاريخها وحاضرها وضمن تطلع إلى قراءة لخطوط في المستقبل كاحتمال ممكن (ولا يعلم الغيب إلا الله) ورأينا من المفيد ضم هذا الجزء المتعلق ببني عمار وهي للكتاب تتمة لازمة تعين على فهم الأمور والأحداث!!! وقد نشرنا هذا الفصل في مجلة العرب والعالم العدد ١٧١، كانون الثاني / شباط ١٩٩٨.

(٢) عز الدين : الاعلاق الخطيرة، ج٢، ص ١٠٦ ؛ المقريزي : إتعاظ الحنفا، ج١، ص ٢٢٠ ؛ د. عمر تدمري : لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين، ج ٢، ص ٥٩ ــ ٦٠.

لما اشتد حصار الصليبيين بطرابلس يمَّمَ فخر الملك القاضي أبو علي عمار وجهه شطر دمشق وبغداد طالبا النصرة من الخليفة العباسي المستظهر بالله والسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ولم يتجه جنوبا نحو مصر الفاطمية ، فهل فعل ذلك فخر الملك بعفوية أم كان يصدر عن فكر سياسي شامل؟

وللإحاطة بجواب السؤال كانت هذه القراءة التي تلقي أضواء كاشفة على كثير من الجوانب الغامضة.

٢ ـ فطرابلس وان استقلت عن الفاطميين والسلاجقة إلا أنها كانت لا تزال مرتبطة بأكثر من سبب بالفاطميين .فالتواجد الفاطمي فيها ملحوظ ومعتبر ، والمذهب الشيعي هو الغالب على الولاية في الحكم والقضاء ، والى حد كبير في ميادين العلم والتدريس وبضرب الدنانير باسم الخليفة الفاطمي .وكان بإمكان أبو علي فخر الملك وقد بلغ الحصار به وبولايته مبلغا عظيما وباتت عاصمته مهددة بالسقوط بيد الصليبيين، أن يتجه إلى الفاطميين يطلب النجدة ، خاصة ، وان الفاطميين يملكون أسطولا حربيا كبيرا وبإمكانهم خلال أيام أن يكونوا في ميناء طرابلس المحاطة بالبحر من أطرافها الثلاثة ، بينما الزحف البري من دمشق أو بغداد مكلف في وجهيه الزمني والمكاني ، خاصة وان احتمال مواجهة الصليبيين في اكثر من موقع في الطريق إلى طرابلس وارد جدا[٣] كما انه يحتاج إلى مدة أطول ، فضلا أن بذل الإقناع فيه اصعب ، فقد يكون بيد الخليفة العباسي وسلطان بغداد اكثر من حجة للتباطؤ ، بينما ، من المفترض ، أن يهب الفاطميون للنجدة عند أول طلب ٠ فالولاية يحسبونها من أقطارهم وولاتها معينون، في الأساس ، من قبلهم ، والحماية واجبة عليهم !!! غير أن فخر الملك كان لديه ترجيح أن الفاطميين لن ينجدوه لأسباب منها لهوهم وترفهم ومنها أن الصليبيين ـ في ظنهم ـ مقبرة السلاجقة ـ أعدائهم ـ في بلاد الشام وان بني عمار متعاونون مع السلاجقة فليذهبوا معهم !! ذلك أن لأمير الجيوش الفاطمية الأفضل القائد النافذ في مصر، حقدا دفينا ضد ولاة بني عمار ، خاصة وان أباه ـ بدر الجمالي ـ كان مولى لهم وكان يرغب في الانتقام منهم ، ويتحين الفرص للإيقاع بهم!! على أن فخر الملك كان معتقدا بصحة التعاون مع السلاجقة وبصوابية خطه السياسي ومرجحا إمكانية تغيير الموقف العسكري ضد الصليبيين المهاجمين ٠ ولكي يضمن ذلك رفع من وتيرة الاتصال بالسلجوقيين وبخاصة السلطان محمد بن ملكشاه في بغداد.

---

(٣) انظر المعركة التي دارت بين الملك رضوان صاحب حلب لما اتجه من حلب جنوبا نحو طرابلس لنصرتها واصطدم بالصليبيين .

(٤) بدر الجمالي هو بدر الجيوش ، ارمني الأصل اشتراه جمال الملك بن عمار فنسب إليه ، فلما استقلت المدن الشامية عن الخليفة الفاطمي بقي هو على عهده ودخل مصر وارتقى الى حاشية الخليفة ثم اصبح أمير الجيوش.

بعد انقلاب عاصمته عليه

ابن عمار يعلن جبلة عاصمة له

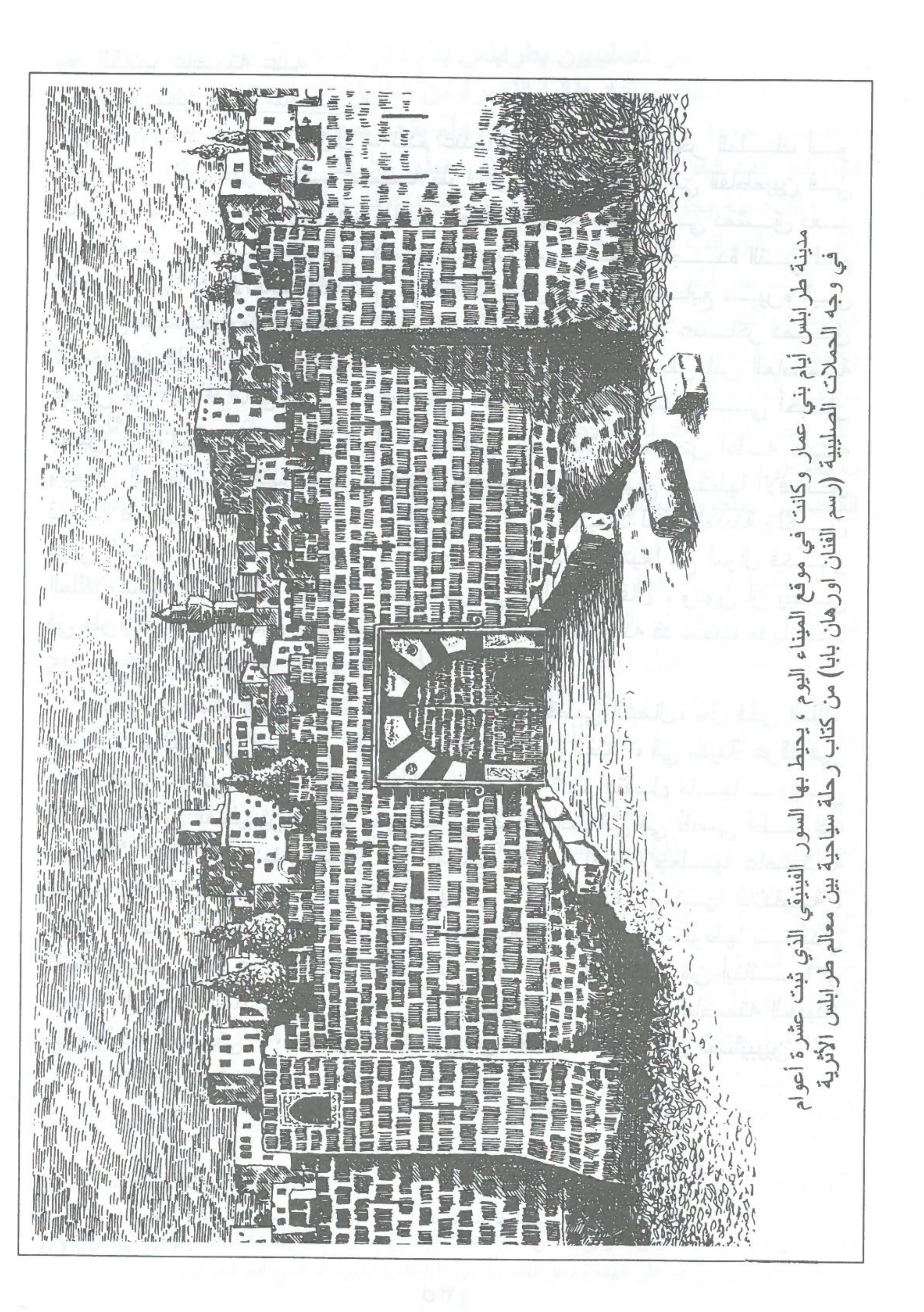
٣ ـ يتأكد مضمون سؤال ما تقدم عندما نعلم أن القاضي فخر الملك أبو علي عمار تلقى خبر انقلاب عاصمته طرابلس عليه وتسليمها إلى الفاطميين في عام ٥٠٢هـ./١١٠٨م.وهو في طريق عودته إليها إذ كان في دمشق بعد رجوعه من بغداد ـ وكان فيها لأشهر ـ حاملا معه وعود النجدة التي لم تتحقق...غير أن الانقلاب الفاطمي لم يثنه عن عزمه ٠ بل تابع سيره إلى النواحي الشمالية لمملكته ، بعد أن حصل على نجدة من عساكر دمشق السلجوقيين.ذلك أن أبا المناقب ابن عم فخر الملك ونائبه على طرابلس العاصمة المعين من قبله قد نافق عليه ـ وفق تعبير المؤرخ " **ابن الميسر** في أخبار مصر[٥] " وانتفض على فخر الملك الذي تلقى خبر انقلاب بعض أهله عليه وبعض المدينة ومناداتهم بشعار الأفضل الفاطمي الحاقد عليهم فاستغلها الأفضل فرصة فأرسل أسطوله بقيادة شرف الدولة بن أبي الطيب لا لينقذ المدينة ولكن ليلقي القبض على أهل بني عمار وأولاده أهله وليحملهم جميعا مع أموال فخر الملك وممتلكاته ووثائق الولاية ، إلى مصر في حالة الاعتقال ، ودون أن يبقي في طرابلس حامية تقاتل الصليبيين وتدافع عن المدينة بل انه قد سحب منها ما كان في طرابلس من السلاح والذخائر[٦] .

وبعد أن وصل إلى حدود مملكته طرابلس في أقصى الشمال، حل فخر الملك مع عسكره الدمشقي السلجوقي الجديد المحدود القوة والعتاد ، في مدينة عرقة في سهل عكار ، وهي جزء من إمارته، فتابعه أهلها ، ثم انتقل منها ـ وهي المحاصرة من الصليبيين لقربها منهم ـ إلى حصن الخوابي في أقصى أطراف مملكته ثم انتقل إلى مدينة (جبلة) على الساحل فأطاعه أهلها وجعلها عاصمته الجديدة.فقاوم الصليبيين منها ، أغار عليهم في نواح عدة ، ومنها اللاذقية ، محاولا وضع الخطط لمساعدة طرابلس عاصمته الأولى إلا أن سقوطها بأيدي الصليبيين كان أسرع ٠ وعندما سقطت طرابلس وقتل عدد كبير من أبنائها أو هاجروا أحرقت مكتبتها الكبرى ودورها ، استمر فخر الملك في عاصمته الجديدة جبلة ولبث فيها حتى ٥٠٣هـ/١١١٠م.إلى أن سقطت سلما بأيدي الصليبيين.

---

(٥) د . عمر تدمري : لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ، ص ٢٢٧ .

(٦) م.ن ، ص ٢٢٨ .



مدينة طرابلس أيام بني عمار وكانت في موقع الميناء اليوم ، يحيط بها السور الفينيقي الذي ثبتت عشرة أعوام في وجه الحملات الصليبية (رسم الفنان اورهان بابا) من كتاب رحلة سياحية بين معالم طرابلس الأثرية

٤ ــ ولفخر الملك مع عاصمته الجديدة (جبلة) موقف حفظه له أهلها منذ عام ٥٩٤هـ. فقد انتصر لأهل جبلة بُعَيْد تسلمه حكم طرابلس ، لما أساء إليهم واليها تاج الملوك بورى بن الأمير ظهير الدين اتابك طغتكين صاحب دمشق. وكان قد استلم جبلة من ابن أبي صليحة الذي غادر جبلة إلى دمشق ومنها إلى بغداد ...وقد تحدث ابن القلانسي عن ظلم الوالي تاج الملوك وحاشيته فقال : "قبّحوا السيرة فيهم وجروا على غير العادة المرضية من العدل والإنصاف فشكوا حالهم فيما نزل بهم إلى القاضي فخر الملك بن علي عمار بن محمد بن عمار المتغلب على ثغر طرابلس لقربها منهم فوعدهم المعونة على مرادهم...)[٧] وبالفعل انفذ إليهم فخر الملك عساكره فالقوا القبض على تاج الملوك وساقوه إلى طرابلس فأحسن فخر الملك إليه وأكرمه ثم أرسله إلى أبيه في دمشق (يعرفه صورة الحال ويعتذر مما جرى) وتفهم صاحب دمشق أمر ولده وحركة فخر الملك ولم يعتب عليه...وقد حفظ أهل جبلة لفخر الملك صنيعه وانتصاره لهم.وهكذا لما عاد إليهم فخر الملك بعد سنوات من رحلة طلب النصرة من بغداد ودمشق ــ المحكى عنها سابقا ــ فتحوا له أبواب مدينتهم وتابعوه واتخذها عاصمة له .

وهكذا يتبين أن فخر الملك كان ــ إبان ولايته ــ يتصرف بمزيد من الحكمة ويعتبر نفسه ممثلا لوالي دمشق ، يتصرف بالنيابة عنه لمنع أي ظلم أو تعسف ولو صدرا عن ابن ظهير الدين الاتابك والي دمشق ...وقد زادت هذه الحادثة عمق الترابط بين فخر الملك وبين السلاجقة الأتراك عامة .

ابن عمار في بلاط السلجوقيين
سفيرا لوالي دمشق ثم وزيرا.

٥ ــ وبعد سقوط جبلة عاصمته خرج منها فخر الملك ومن أراد من أهلها إلى شيزر إمارة بني منقذ ، فاجزل له أميرها العطاء.ثم انتقل إلى دمشق فاستقبله واليها طغتكين واقطعه الزبداني[٨] بينما تنازل له فخر الملك عن المنيطرة شرق جبيل في جبل لبنان وعن حصن ابن عكار وكانا لا يزالان بأيدي المسلمين أعوان فخر الملك.ثم انتقل فخر الملك سفيرا لطغتكين والي دمشق إلى بغداد ، ليواصل مساعيه مع السلطان محمد بن ملكشاه لإرسال النجدة وقتال الصليبيين، فجرى توزيره هناك في خدمة الملك مسعود ابن السلطان محمد ، في الموصل ،

(٧) أبو يعلى القلانسي : تاريخ أبي يعلى القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ .
(٨) أبو يعلى القلانسي : تاريخ أبي يعلى القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ .

وبقي كذلك حتى عام ١١٢٠م.وإذ تغير عليه الملك مسعود حبسه ، ولم يخرج من سجنه إلا بعد أن انتهت الحرب الدائرة بين الملك مسعود وأخيه محمود بانتصار الأخير عليه ، فخرج فخر الملك من السجن عام ١١٢١ م. لينتقل منه إلى صاحب ماردين ايلغازي بن ارتق السلجوقي الذي أنعم عليه.

٦ ـ ومن جميل المناسبات أننا نرى فخر الملك لما ارتحل إلى دمشق فبغداد أكرمه والي دمشق وسيَّر معه إلى بغداد ابنه تاج الملوك بورى نفسه الذي سبق لفخر الملك أن اعتقله في جبلة .وذلك في محاولة أن يصلح فخر الملك ما أفسده حساد ظهير الدين اتابك لدى سلطان بغداد.وهو أمر يؤكد عمق ارتباط فخر الملك بالسلاجقة من جهة ، وإخلاصه للسلطان محمد بن ملكشاه الذي عرَّفه عظيم قدره عنده .ثم عاد بورى من بغداد إلى دمشق (وقد جرى أمره فيما نفذ لأجله ، على غاية مراد ونهاية محابيه ، وصادف من السلطان في حق أبيه وحقه ما سره)[٩] والفضل في ذلك يعود إلى فخر الملك لما سعى به لدى الخليفة والسلطان مادحا أتابك دمشق مؤكدا وجوب المساندة والدعم .

٧ ـ بعد أن سقطت ولاية طرابلس بكاملها بيد الصليبيين وانتقال فخر الملك إلى دمشق ـ مرة أخرى ـ بعد شيزر ، نجد أن فخر الملك يغدو مصاحبا لوالي دمشق ظهير الدين اتابك الذي قرر الانتقال إلى بغداد وقد أخذته (الحمية الإسلامية والعزيمة التركية على التأهب للمسير بنفسه إلى بغداد ... للشكوى لِمَا نزل بالمسلمين من الأعمال (من تملك البلاد وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال) و(حديثهم بينهم بالطمع في الامتداد إلى تملك الأعمال الجذرية والعراقية وتأهب للسير واستصحب معه فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس وخواص أصحابه ثم وهم في الطريق جاءت ظهير الدين الأخبار أن السلطان قد ولى دمشق لسواه فعاد إليها مسرعا واعتمد ظهير الدين على فخر الملك بن عمار ومن عول عليه من ثقاته في المسير إلى بغداد ...فوصل فخر الملك إلى بغداد بما صحبه فصادف من الابتهاج بمقدمه والتأسف على عود أتابك ليشاهد ما زاد على الأمل وظهور بطلان تلك الأراجيف)[١٠].

(٩) م.س ، ص ١٦١.
(١٠) م س ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

ابن عمار يحن إلى أهله فيعلن ندمه : خلفيات فكره السياسي

٨ ـ وإذ بلغ فخر الملك من العمر عتيا وتعب من حياة القتال والاغتراب وبات يحن إلى أهله المحمولين إلى مصر في حالة الاعتقال منذ عام ٥٠٢هـ/١١٠٨م • قبل سقوط طرابلس بيد الصليبيين، بأشهر معدودات ، بعث فخر الملك ـ كالعادة في مثل هذه المواقف ـ الرسائل إلى أصدقاء له في قصر الخليفة الفاطمي في مصر ومنهم الوزير الفاطمي المأمون بن البطائحي ، ليضمن عودته إلى مصر ، فانتقل إليها في صفر ٥١٦هـ./١١٢٢م .والى قصر الفاطميين في القاهرة ، ليمثل أمام خليفتها **الأمر بالله** ، فيعلن اعترافه بخطئه ، فيتلو فعل الندامة والتوبة أمامه ، ويقدم نفسه للخليفة قتلا أو حبسا ، على أمل تنفيذ المتفق عليه مع الوزير ، فقال مخاطبا الخليفة كما نقل ذلك المقريزي: " والمملوك ـ يعني نفسه ـ لم يصل إلى هذه الوجهة إلا وقد علم أن له من الذنوب السالفة ما يستحق به القتل ، وقتله بسيوف هذه الدولة عدل وإحياء له وتشريف ، وفخر يكفر عنه بعض ذنوبه من كفر نعمتها فان خرج الأمر بذلك فمنة كريمة وان خفف عنه فتخليده في السجن احب إليه من رجوعه إلى تأميل غيره هذه الدولة"[١١] .

ولا ريب أن في عبارته "تأميل غير هذه الدولة" معنى عميقا إذ بها اختصر كل محاولاته السابقة ، ومراميه في الاستقلال ، والتعاون مع السلجوقيين ، كما يكشف بذلك عن فكرة السياسي السابق • وإذ قدم الاعتذار والتوبة والندم عفا عنه الخليفة وذلك بعد تدخل الوزير المأمون الذي قال للخليفة: " وما بعد استسلامه إلا الشكر والعفو عن جرمه ، فان العفو زكاة القدرة عليه) ثم أجرى الخليفة عليه الراتب والخدم شرط (أن تقنع بما ينعم به عليك وتقبل على شأنك وترك التعرض للمخالطات وتجنب جميع المكروهات) ثم عاملة معاملة أمثاله بل زاد له حتى توفي فخر الملك في سنة ٥١٧ هـ./١١٢٤م.

* * *

(١١) المقريزي : اتقاظ الحنفا وقد نقل النص الكامل د. عمر تدمري في كتابه لبنان من السيادة الفاطمية ... القسم الأول ص ٣٢٤ .

١٠ ــ وما تقدم يمكن أن يشكل قراءة أولى في فهم أحداث الولاية وفي إدراك الفكر السياسي لدى فخر الملك القاضي **أبو علي عمار** ولدى الطبقات الأولى في مجتمع طرابلس والمناطق المحيطة بها ، وطبيعة الصراع الفاطمي السلجوقي أو الإسماعيلي السني ، وهو ما اضعف المنطقة العربية الإسلامية ، وجعلها في حالة ضعف شديد ، فلم تقدر على مواجهة الزحف الصليبي رغم ما كان يملكه الطرفان السلجوقي من جند في البر ، والفاطمي من أسطول في البحر ، هو الأول في المتوسط في ذلك العصر!!! .

ومن الراجح أن القاضي (أبا علي) كان واعيا لمدركات السياسة بين القاهرة وبغداد وكان يغلب عنده الظن أن الفاطميين لن ينجدوه بسبب موقفه الاستقلالي وللعبته التوازنية بينهم وبين السلاجقة، وللموقف الحاقد للأفضل من بني عمار ، وان الخليفة العباسي قد يكون أسرع في نجدة المسلمين في طرابلس ، خاصة ، وان طالب النصرة هو واليها القاضي أبو علي الشيعي الذائع الصيت والشهرة في العلم والجهاد ووارث الولاية من أخيه جلال الملك الذي استحصل من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه نفسه على منشور التثبيت في الولاية والطلب إلى نواب السلطان حمايته والذب عنه كما سنرى ...ويبدو أيضا أن طرابلس بغالبيتها كانت مجمعة على هذا التوجه.والراجح أن قضاة المدينة الشوافعة والمالكية زينوا للقاضي الحاكم هذا التوجه.فقام فخر الملك بتعبئة الرأي العام حول التطلع نحو السلاجقة • وقد يكون من القضاة من قام بالاتصالات التمهيدية التي تسبق عادة مثل الزيارة التي قام بها ــ فيما بعد ــ حاكم ولاية طرابلس، فخر الملك ، المهاب الجانب ، إلى دمشق وبغداد ...

نسيج سكان طرابلس

١١ ــ ومن المفيد ضمن هذا السياق ، أن نتذكر أن السكان في ولاية طرابلس كانوا، في عهد بني عمار ومن قبل ، سنّة في عدد وافر ، بينما كان فيهم وفي طبقاتهم الدينية مجموعات كبيرة من الشيعة وقليل من النصارى واليهود • وكانت الطبقة الحاكمة على المذهب الشيعي بينما هناك أيضا مساجد وعلماء وقضاة على مذاهب المسلمين السنة وعلى الأخص الشافعية والمالكية[١٢] .

(١٢) د. عمر تدمري : لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ، ج٢ص١٧ لم يكن القضاة في الولايات اسماعليين بالضرورة على مذهب الإمام الخليفة الفاطمي بل أننا لا نجد قاضيا إسماعيليا واحدا تولى هذا المنصب في جميع الولايات في "لبنان" فالكل كانوا إما سنة أو شيعة امامية [كما في طرابلس] وإما سنة [كما في صور] وصيدا وبعلبك وغيرها .وكان في كل مدينة اكثر من قاض في وقت واحد ، ففي طرابلس ، مثلا ، قاض للشيعة الامامية ، وقاض للسنة

وذكر الدكتور عمر تدمري في كتابه لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين[١٣] انه قد أحصى قضاة طرابلس في عهد بني عمار فكانوا واحدا وعشرين قاضيا منهم سبعة عشر سنّيًا وأربعة فقط على المذهب الشيعي وهو قول يفسر بكثير من الجدية طبيعة نسيج سكان طرابلس آنذاك وتنوع انتماءاتهم المذهبية وقد تزايد عدد السنة بفعل الهجرة الدمشقية والتركية التركمانية وجماعة آل منقذ فضلا عن وجود عدد وافر من المغاربة الذين أتوا مع قبيلة كتامة التي ينتمي إليها فخر الملك وكان قسما مهما من المغاربة سنّة وقسما آخر ، ومنهم بنو عمار شيعة على المذهب الأمامي • ولم يكونوا اسماعيليين على مذاهب الدولة الفاطمية[١٤] .

١٢ ــ وما قدمناه في وصف النسيج السكاني يناقض رواية ناصر خسرو في كتابه سفرنامة حيث تحدث أن (سكان طرابلس كلهم شيعة) ورحلة ناصر جرت في عام ١٠٤٧ م• ويبدو أن ناصرا هذا كان يقصد الطبقة الحاكمة لا مجموع سكان الولاية وقد يكون كلامه هذا من باب إطلاق مذهب كبار القوم وولاتهم على عامة الناس ، وقد يكون كلامه ذاك محصورا في بعض أحياء طرابلس أو في طرابلس فحسب دون أرباضها وقراها • وفي كل حال فان تاريخ الرحلة هو عام ١٠٤٧م.أي قبل تربع بني عمار على عرش طرابلس وقبل استقلال الولاية عن الفاطميين بخمس عشرة سنة على الأقل وقبل نزول السلاجقة فيها والأمير منقذ مع رعاياه وإقامتهم في طرابلس وأيضا قبل توافد مجموعات من أهل دمشق مستوطنين المدينة وقراها.... كما سنبين لاحقا.

وقول ناصر خسرو أن سكان طرابلس كلهم شيعة يناقضه أيضا وجود نصارى ويهود في طرابلس وهما عنصران وطنيان كانا في طرابلس عبر العصور كما يناقضه وجود عدد وافر من المغاربة من أهل السنة من قبيلة كتانة التي كان منها بطون على مذهب الشيعة الإمامة ومنهم آل عمار !! ــ كما قدمنا ــ .

* * *

على المذهب الشافعي في الأغلب .ولا يبعد أن يكون فيها قاض على المذهب المالكي ، نظرا لكثرة المغاربة في طرابلس في ذلك العهد ، وكان أكثرهم يتبعون مذهب الإمام مالك • ويؤيد وجود المالكية في طرابلس المناظرة الفقهية التي جرت في مجلس "فخر الملك ابن عمار" بين "ابن أبي روح" قاضي الامامية، وبين بعض الفقهاء المالكية ، وذكرها مؤرخ الشيعة المعروف "ابن أبي طيء" ، ونقلها عنه المؤرخ الحافظ "الذهبي" وغيره) .

(١٣) م ن ، ص ٥٤.

(١٤) م س ، ص ١٠٨.

انقلاب في طرابلس لصالح الفاطميين

١٣ ــ كان الناس في طرابلس بعد سفر واليهم فخر الملك إلى دمشق وبغداد وبعد اشتداد الحصار الصليبي ينتظرون بفارغ الصبر استقبال واليهم مع جيوش بغداد والسلاجقة لفك الحصار وطرد الصليبيين من ربضها ومن سائر مناطقها المحيطة بها، إلا أن التأخر في إنجاز المهمة والغيبة الطويلة عن طرابلس في بغداد ، التي تجاوزت الخمسة اشهر ، اسقطا المعادلة السياسية وجعلا الانقلاب على فخر الملك باتجاه مصر الفاطميين يمر بهدوء ...جاء ذلك في محاولة واضحة من بعض أبناء عمومته ، لتصحيح المسار السياسي والعودة به إلى ظلال الفاطمية ، عسى أن يحققوا عبر هذا المسار النصرة لطرابلس المهددة بالانهيار.فقد احبط التأخير بوصول المدد العراقي والدمشقي كل أمل عند جماعة الحكم في طرابلس ، فوجدوا ، وقد قلت المؤن وانتشر الخوف وتعاظمت المجاعة، إن العودة بطرابلس إلى مصر الفاطمية من شانه وصول الميرة والمؤن والسلاح والجند والأسطول مما يعني حفظ العاصمة والتغلب على الأعداء يقول ابن القلانسي : " انفذ أهل طرابلس إلى الأفضل بمصر يلتمسون فيه إنفاذ وال يصل إليهم في البر ومعه الغلة والميرة في المراكب لتسلم إليه البلد "(١٥) وفي هذا إشارة واضحة إلى حاجتهم إلى المؤن والى المساومة بان تصل الميرة قبل وصول الوالي لتسلم البلد !!

غير أن المناداة بشعار الفاطميين في طرابلس اسقط المملكة الطرابلسية بيد الفاطميين قبل وصولهم أو وصول أمددهم • وقد حز في نفوس أهل البلد وزاد في إحباطهم انه فور حسم التوجه فيها باتجاه الفاطميين من جديد ، جاء الأسطول الفاطمي ليلقي القبض على أهل حاكمها القاضي (أبي علي) وعلى أمواله ــ كما رأينا ــ ولتصل بعد ذلك مراكب على عجل لا بالمؤن والميرة أو السلاح ، وقد لقّت أهل طرابلس (ضائقة الحصار وخطر الموت وقد بلغت القلوب الحناجر) بل لأخذ امرأة حسناء !!! ويتحدث ابن الفرات في تاريخه فيقول :(إذ بمراكب تأتي من مصر لتأخذ امرأة طرابلسية جميلة لتكون جارية للخليفة "الأمر بالله" ولتحمل حطبا من شجر المشمش ليصنع منه العيدان للموسيقى واللهو)(١٦).

* * *

(١٥) أبو يعلى القلانسي : تاريخ أبي يعلى القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦١.
(١٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٨ ، ص ٧٨ ــ ٧٩ .

جلال الملك يورث فخر الملك

معطيات الفكر السياسي المنفتح

١٤ ــ ومن جهة أخرى فقد كانت في خلفيات الفكر السياسي لـ " **فخر الملك** " ما ورثه عن حكم أخيه جلال الملك الذي دام ثمان وعشرين سنة أمضاها في منح ولايته لونا من الاستقلال في جو عاصف من التجاذب العدائي بين السلجوقيين بقيادة السلطان محمد ملكشاه وبين الفاطميين بقيادة الحاكم بأمر الله !!

والراجح أن جلال الملك ، كما فخر الملك من بعد، كانا منفتحين علميا وعمليا على المذاهب الإسلامية السنية عند العباسيين والسلجوقيين ، وعلى الإسماعيلية عند الخلافة الفاطمية في مصر • ولئن كان بنو عمار على مذهب الشيعة الإمامة إلا انهم، عبر جلال الملك وفخر الملك بخاصة، كانوا اكثر انسجاما مع طبيعة المحيط ومع الحرية الإسلامية فكريا .

وقد حكم جلال الملك ابتداء من ٤٦٤ هـ • إلى ٤٩٢هـ/ من ١٠٧٢ م إلى ١٠٩٨ م إمارة بني عمار التي أسسها قبله عمه أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار ، مستقلا بها قبل وفاته بسنوات ، بعد أن حكمها باسم الفاطميين من عام ٤٢٤هـ•/١٠٣١ م•، في زمن خرج البر الشامي برمته عن حكم الفاطميين • فقد ابطل صاحب حلب (محمود بن نصر) الخطبة للفاطميين ودعا للخليفة (القائم) العباسي بينما سبقته في ذلك دمشق وحمص وسائر الولايات والمدن الشامية ثم أرسل "**ألب أرسلان**" القائد السلجوقي الكبير من حلب بعض عساكره مع كاتبه ابن جابر الموصلي إلى طرابلس لتقرير مصيرها .

والظاهر انه قد جرى الاتفاق أن تقيم مجموعة من الأتراك التركمان في طرابلس وما حولها وينضم جند منهم إلى جند الولاية وقد عرف هؤلاء بـ (ألنا وكية) وقد دخلت مجموعة منهم في جند جلال الملك وقاتلوا إلى جانبه(١٧).

وبعد أن نازل الأتراك من مجموعة الغز بقيادة ابن الخوارزمي في طرابلس عام ٩٦٩م.توصل الطرفان أيضا إلى السماح للغز بالدخول إلى طرابلس والخروج منها والاتجار فيها ومعها ولا يقيمون فيها بشكل دائم(١٨) .

وكان قد نزل وسكن طرابلس مجموعات من أهل دمشق أو قصدوها على دفعات في سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥ م• لما اشتد الجوع والبلاء في دمشق(١٩) .

(١٧) ومنهم ٣٠٠ رجل أرسلهم جلال الملك إلى جبلة ليتسلمها من قاضيها بعد انقضاضه على الروم راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري ، ج ١٠ ، ص ٣١٠ .
(١٨) أبو يعلى القلانسي : تاريخ أبي يعلى القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٢ .
(١٩) د. عمر تدمري : لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ، ج١ ص ١٦٨ .

١٥ ــ والتجأ إلى طرابلس أيضا مؤسس إمارة بني منقذ في شيزر سديد الملك علي بن منقذ ومعه أهل كفر طاب مقيما فيها ، في عهد أبي طالب ، فارا من أمير حلب ، ليلعب فيما بعد ، في طرابلس دورا أساسيا في ترجيح كفة جلال الملك عم أبي طالب ضد أبي المناقب ابن هذا الأخير ، وكان صغير السن وضد أخي جلال الملك احمد الذي ناصره ابن الحاسكي ومعه قوم من الفاطميين . وإذ تسلم جلال الملك إمارة طرابلس ، حفظ لابن منقذ تأييده له ورفع من مكانته عنده وقرَّبه إليه حتى اصبح من خواص جلسائه وأشركه معه في الحكم حتى قيل انه كان يحكم مثله[٢٠] إلى أن تمكن الأمير منقذ من احتلال شيزر وتأسيس إمارته فيها عام ٤٧٢ هـ.

ومما لا ريب فيه أن سديد الملك علي بن منقذ كان له مداخلات كبيرة في تحقيق التوازن الإسلامي مذهبيا وسياسيا داخل طرابلس وخارجها ، سواء في تقرير دار العلم وشحنها بالعلماء وبالكتب وإسناد نظارتها ، في بعض المراحل ، إلى علماء سنَّة[٢١] أو في تعيين القضاة السنة أو في طلب الاعتراف من الخليفة العباسي وسلطان السلجوقيين محمد بن ملكشاه الذي اصدر مراسيمه ومناشيره بإقرار جلال الملك عمار على طرابلس والإشارة إلى نواب السلطان في (تلك البلاد بمساعدته والشد معه والتحذير من محاربته)[٢٢] وكان هذا الإنجاز الكبير ورقة ناجحة في يد جلال الملك استخدمها بنجاح فائق في مواجهة السلاجقة عندما زحفوا عام ٤٨٤ هـ/١٠٩١م. لاستخلاص ساحل الشام والاستيلاء على

---

(٢٠) م ن ، ص ١٦٦ .

(٢١) منهم أبو عبد الله الطليطلي كان كما يقول أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار ص ٢٠٨ : " الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي رحمه الله و كان من النحو سيبويه زمانه قرأت عليه النحو نحوا من عشر سنين و كان متولي دار العلم بطرابلس" و كان لابن عبد الله حلقة علم يعقدها في دار العلم بطرابلس في مساجدها وقد وقع الطليطلي أسيرا بيد الصليبيين عندما احتلوا طرابلس إذ بقي فيها يحث الناس على الصمود والدفاع ففتداه أبو العساكر سلطان بن علي بن منقذ وعمه أمير شيزر و كان سلطانا مولودا في طرابلس وتلميذا للطليطلي، افتدياه من الصليبيين بمال وفير فحل في شيزر معلما...(راجع كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ تحقيق الدكتور فيليب حتي ، جامعة برنستون الولايات المتحدة ١٩٣٠ وأيضا لبنان من السيادة الفاطمية القسم الأول الصفحات ٢٣٨ ، ٢٤٥ وقد كتب الأمير بن منقذ كتابه الاعتبار (وهو في دمشق يتفيأ في ظلال نعمة مولاه صلاح الدين (الأيوبي) اخذ يطل من ذلك العلو الشاهق على سابق اختباراته ويدونها ــ أو يلقنها ــ بإنشاء ساذج عادي لا تصنع فيه ولا تعمل ــ تلك هي المذكرات الخالدة المرسومة في كتاب الاعتبار)...و كان أسامة بعد أن تجاوز التسعين استدعاه صلاح الدين من حصن كيفا وأسكنه دارا بدمشق...وتنعم...(بسيل من الرفاه والهناء قبل وفاته فاخذ يلقي المحاضرات في البديع ويدرس في المدرسة الحنفية بدمشق ولكن لأسباب نجهلها انقلب عليه ظهير وصلاح الدين وربما كانت إقامة أسامة في مصر ولدت فيه ميلا للتشيع لحظه صلاح الدين (محي دولة أمير المؤمنين وسنَّة الخلفاء الراشدين) على حد قول ابن منقذ نفسه في كتاب الاعتبار) والجدير بالذكر أن ابن منقذ كناني مالكي من أهل السنة والجماعة.راجع كتاب الاعتبار ومقدمته لمحررها د. فيليب حتي .

(٢٢) النجوم الزاهرة : ص ١٧٥ .

ما للخليفة الفاطمي المستنصر فيه[٢٣] تنفيذا لأمر السلطان ملكشاه...فلما أبرز لهم جلال الملك مناشير السلطان ــ محمد بن ملكشاه ــ بالاعتراف به وإقراره على طرابلس ومنع الآخرين من التعرض له رجعوا عنه.ومن المؤكد أن جلال الملك كان من قبل على علاقة طيبة بنواب السلطان محمد على بلاد الشام فهذا (تتش) شقيق السلطان لما استولى على انطرطوس وعدد من الحصون الغربية عام ٤٧٤/١٠٨٣م.طلب من جلال الملك أن يرسل إلى انطرطوس قاضيا وخطيبا من قبله[٢٤] ولا ريب أن هذا يدل على مستوى العلاقة التي نشأت بين الفريقين.

١٦ ــ وكان جلال الملك يعي الأحداث جيدا ويقرأ موازين القوة ويتجنب كل صراع مع السلجوقيين وتوجههم ولو أدى ذلك إلى فقده بعض أطراف مملكته . وهو ما حدث، لمَّا عصى حاكم "**جبلة**"، وكانت خضعت لجلال الملك عام ٤٦٩هـ/١٠٧٥م.فتمرد " ابن صليحة " على جلال الملك محاولا الاستقلال بها عن طرابلس فجهد حاكمها جلال للقبض على "ابن صليحة" الذي سارع إلى الاستنجاد بالسلاجقة وأقام الخطبة العباسية معلنا متابعته للخليفة العباسي والسلاجقة كما ذكر "ابن الأثير"[٢٥] عندما صمت جلال الملك ولم يهاجم بعسكره "ابن صليحة" وإنما حاول أن يغري به صاحب دمشق السلجوقي...وبقي "ابن صليحة" على "جبلة" إلى أن مات جلال الملك وبعدها ــ كما رأينا ــ حل فيها فخر الملك بعد عودته من دمشق مع جند منها وكانت عاصمته طرابلس قد سقطت بيد الفاطميين وتكاد تسقط بيد الصليبيين فاتخذ من جبلة عاصمة جديدة .

* * *

القراءة السليمة لأحداث بلاد الشام
عند مؤسس إمارة بني عمار

١٧ ــ والراجح أن خلفية جلال الملك السياسية قد تكاملت لديه بفعل القراءة الصحيحة للأحداث في عهده وللطبيعة الديمغرافية والتوجه العام للسكان في منطقته وبلاد الشام عامة.فضلا عما ورثه أيضا من تجارب ورؤية سياسية استقاهما من قاضي طرابلس ومؤسس إمارة بني عمار أمين الدولة أبو طالب .

فقد تغلب بنو أبي الفتح على طرابلس وخرجوا عن طاعة المستنصر بالله الخليفة الفاطمي ــ كما ذكر ابن الجوزي ــ وكان أبو طالب بن عمار قاضيا فيها فأرسل المستنصر الأمين حصن الدولة حيدرة بن منزو بن النعمان الكتامي

---

(٢٣) ابن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٢٠٢ .

(٢٤) أبو يعلى القلانسي : تاريخ أبي يعلى القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق ، ج ١٠ ، ص ١١٥ ؛ ابن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ١٢١.

(٢٥) الكامل في التاريخ : ج ١٠ ، ص ٣١٠ .

لإعادة طرابلس إلى السيطرة الفاطمية وذلك في سنة ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٣ م.وقد حاول أبو طالب أن يلعب دورا في منع سفك الدماء فاخرج إلى الأمير الفاطمي المحاصِر أحد أبناء أبي الفتح ، فطلب الأمير أن يحضر جميع أبناء أبي الفتح فامتنعوا إذ أدركوا أن مكيدة يعدها الأمير لهم فرفضوا واستعدوا للقتال • غير أن القاضي أبا طالب تمكن من إكمال دوره المهم بتسهيل دخول حصن الدولة طرابلس سلما فقد استطاع أبو طالب أن يتفق مع جماعة من أحداث[٢٦] البلد على الصلح وان يستأمن ثمانية وعشرين رجلا من قادة المقاتلة وبذلك ضعف أمر بني أبي الفتح ، ووقع الخلاف بين أهل البلد ، وبادرت مجموعة إلى فتح الأبواب ، ونادى الأهالي بشعار المستنصر بالله • وهكذا دخل حصن الدولة طرابلس ، فقام على الفور باعتقال بني أبي الفتح وقيدهم وبعث بهم إلى صور بعد أن عاملهم بالمكروه • ثم طلب المال الكثير من أهل البلد ، وفرض عليهم مئة ألف دينار عقابا لهم على طاعتهم لبني أبي الفتح وخروجهم عن طاعة خليفة مصر.ومنع الذين استأمنوا من أهل البلد ومقاتلتها من الإقامة بالمدينة ، وأمرهم بالانسياح في الشام ، ولما كانوا يطمعون في أن ينالوا اجر موقفهم ومساعدتهم له على دخول المدينة ، رفضوا ذلك وطلبوا منه العطايا والخلع ، فلم يبد حصن الدولة اعتراضا على مطالبهم ووعدهم بجميع ما طلبوه ، فركنوا إلى ذلك وعندما حل الليل قبض عليهم وصلبهم مع الذين كانوا يعاونون بني أبي الفتح ، وبذلك استقر له أمر طرابلس .

١٨ ــ وإذ آل حكم طرابلس مع قضائها إلى أبي طالب بن عمار بُعَيْدَ أحداث ٤٥٧هـ.السالفة الذكر إلا انه أوجس خيفة من الحكم الفاطمي وأسلوب تعامله خاصة وانه لم يرعَ استئمانه وجعله في مواجهة الأسر المنكوبة.فراح يخطط لشيء من الاستقلال وإخراج طرابلس من دائرة النفوذ المباشر للفاطميين ، مستفيدا من الظروف المستجدة • فقد رفض أمير حلب محمود بن نصر الخضوع لأمر الخليفة المستنصر ومنها أن يفك ارتباطه بالأتراك السلجوقيين الغز ••• فجرد عليه الخليفة حملة تأديبية بحجة أن محمودا خلع الطاعة ومال إلى جهة الأعداء السلجوقيين فتدخل أبو طالب واصلح الحال[٢٧] بينما استمر محمود بن نصر بعلاقته الوثيقة بزعيم الغُز التركمان الذين تابعوا قتال الروم قتالا شرسا في مواقع عدة وذلك بالتعاون مع محمود بن نصر هذا • وكان أبو طالب يراقب هذا التحرك الجهادي ويبدي إعجابه الشديد بالسلاجقة فقد ذكر

(٢٦) مجموعة عسكرية شبابية كالميليشيات في أيامنا أو زعامات الأحياء .

(٢٧) د. عمر تدمري : لبنان من السيادة الفاطمية ، ص ١٦٠ .

المؤرخ ابن المهذب كما فعل ذلك ابن الوردي[٢٨] أن قوما قاموا بإجراء إحصاء المفقودين من الروم في مجلس القاضي ابن عمار بطرابلس من أول السنة حتى شهر رمضان فبلغوا ثلاثمائة ألف بين قتيل وأسير ... !!!

١٩ ــ واخذ القاضي أبو طالب عمار يتربص بتغير أوضاع الشام ليتحين الفرصة للاستقلال بطرابلس وإذ استقلت دمشق في سنة ٤٦٢هـ./١٠٧٠م.بطرد أمير الجيوش الفاطمي بدر الجمالي منها واستقل القاضي محمد بن أبي عقيل عام ٤٥٥هـ.بصور وخرج ناصر الدولة الحسن بن حمدان في حماية قواد الأتراك...فملك "الرملة" والساحل ولم يبق للدولة الفاطمية في بلاد الشام إلا عكا وصيدا كما يقول سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان.رأى القاضي أبو طالب أن الخريطة السياسية في بلاد الشام بدأت تتغير باتجاه الاستقلال عن الدولة الفاطمية فتحرك سريعا واستقل بطرابلس مؤسسا إمارة بني عمار واسكن أمين الدولة في إمارته الجديدة المستقلة جماعة كبيرة من التركمان الناوكية وكان ذلك ضمن اتفاق تم بينه وبين السلاجقة.ثم استقبل الأمير سديد الملك علي بن المقلد بن منقذ مع رعيته وسكنوا طرابلس ــ كما رأينا ــ غير أن أبا طالب استمر بضرب النقود في طرابلس باسم المستنصر بالله الخليفة الفاطمي تلك النقود التي تعتبر حلقة الاتصال الوحيدة بالنظام المصري في القاهرة وقد تحدث سبط ابن الجوزي عن القاضي أمين الدولة الحاكم على طرابلس والمتولي عليها قائلا : " كان عظيم الصدقة كثير المراعاة للعلويين تفرد بذلك في زمانه ولم يدانيه أحد من أقرانه " وقال عنه المؤرخ ابن شداد: " كان من اعقل الناس أشدهم رأيا بينما قال فيه المؤرخ ابن الفرات :" كان ابن عمار هذا رجلا عاقلا فقيها سديد الرأي".

ومما تقدم يتبين كيف أن أبا طالب بدأ يعي توجهات المنطقة ومستجداتها محاولا وضع أساس لإمارة طرابلسية مرتبطة شكلا بالفاطميين متعاونة مع السلجوقيين ومستقلة في القرار والتدبير !! وهو ما أورثه جلال الملك الذي وعى بجدارة مرارة الأحداث كما رأينا .

* * *

الفاطميون يتربصون بطرابلس
وحقد أمير جيوشها على بني عمار

٢٠ ــ في المقابل كان الفاطميون يحاولون بين الحين والآخر استعادة ما فقدوه في ساحل الشام وما أن آل الحكم إلى جلال الملك حتى كشف مؤامرة تستهدف الإطاحة به...ينقل الدكتور عمر تدمري عن مرآة الزمان ، وهو مرجع

(٢٨) م.ن ، ص ١٦٠ ، نقلا عن تاريخ ابن الوردي .

مخطوط ، في كتابه لبنان من السيادة الفاطمية ص (١٦٩) القسم الثاني ، فيقول :
"بعد أن اصبح (بدر الجمالي) وزيرا للمستنصر الفاطمي في مصر – وكان في أول أمره مملوكا لجمال الملك ابن عمار الطرابلسي – راح يحيك مؤامرة عن طريق مراسلات سرية بينه وبين جماعة من وجوه طرابلس، يتفق معهم فيها على الإطاحة بـ "جلال الملك " وتسليم البلد إلى من بيديه القبض عليه ، فظفر "جلال الملك" بتلك الرسائل ، وقبض على المتآمرين عليه وصادرهم ، وقتل بعضهم ونفى الآخرين ".

وفي سنة ٤٨٢/١٠٨٩م٠ تعرضت ولاية بني عمار لمحاولات القضم من الجيوش الفاطمية بقيادة بدر الجمالي فاستولوا على جبيل وأقاموا عليها والٍ من قبلهم...وصمت جلال الملك متألما إذ اعتبر أن هذا القضم كان إشارة من الفاطميين باستضعافه ٠ فهو كان قبل عام واحد قد سلم إلى الفاطميين في مصر أخا زوجته الأمير معلى بن حيدرة بعد أن فر من دمشق ، إذ طلبه الفاطميون فالتجأ إلى صهره في طرابلس ٠ فحبسوه في مصر وضربوه بالنعال حتى مات [٢٩] ...ولا ريب أن هذا الأمر كان له الأثر البعيد في نفس جلال الملك الذي أدرك أن وضعه لدى الفاطميين بات مكشوفا ولن يغني عنه شيئا وان ضرب النقد في طرابلس باسم الخليفة الفاطمي ، هو ضرب من الصعب إلغاؤه أو تبديله بسهولة فضلا عن انه الرسم الشكلي الباقي كخيط دقيق بين ولاية بني عمار ومصر الفاطمية .

٢١ – ولما ظهر الخطر الصليبي عام ٤٩٣هـ/١٠٩٩ م وراحت تتساقط أمامه المدن قبل طرابلس وعجز من كان فيها من السلاجقة من مواجهتهم كان فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن عمار الذي آل إليه حكم الولاية من أخيه جلال الملك عام ٤٩٢هـ/١٠٩٨م يدرك أن الفاطميين لن يعيروا الخطر الصليبي أي اهتمام إذ انهم كانوا يرون في دخول الصليبيين إلى الشام قضاء على أندادهم السلاجقة – كما قدمنا – وقد ورث فخر الملك عن أخيه جلال الملك الفكر السياسي والأبعاد المشرقية فيه وأدرك أن عليه أن يتابع السلاجقة في بغداد والموصل في طلب الحماية والنصرة ولا يؤمل بالفاطميين ...الذين حاولوا عام ٤٩٦هـ/١١٠٣ م.ضرب الحصار على طرابلس بحرا بقيادة شرف المعالي ابن الأفضل مولى بني عمار والحاقد عليهم وطلب من فخر الملك تسليم المدينة

(٢٩) أبو يعلى القلانسي : تاريخ أبي يعلى القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٦ .

وعندما رفض فخر الملك أغلقها بوجهه ولم يرحل عنها الفاطميون إلا بعد أن نازلهم الفرنج الذين كانوا يحاصرون طرابلس أيضا [٣٠] ...
يقول ابن الأثير أن ابن عمار وأهل طرابلس قاوموا الإفرنج خمس سنين حتى عدمت الأقوات وخاف الناس على نفوسهم وأولادهم ودمهم فجلا الفقراء وافتقر الأغنياء وظهر من ابن عمار صبر عظم وشجاعة ورأي سديد) [٣١] .

مراسلات فخر الملك مع
الولاة السلجوقيين ونجداتهم له :

٢٢ – " ولكي يتدارك فخر الملك تردي الأوضاع في طرابلس من سيئ إلى أسوأ وحتى لا يجعل مدينته فريسة للإفرنج بادر من جديد للاستنجاد بالقوى الإسلامية في الشرق في بلاد الشام وبغداد فكتب إلى (سليمان بن ارتق) صاحب ديار بكر والى الأمير (جكرمش) صاحب الموصل – [وكانا قد اتفقا على جهاد المشركين ونصرة المسلمين] – والى فخر الملك صاحب حلب ..." [٣٢] .
" وكان فخر الملك ، منذ أن غدا السلطان محمد بن ملكشاه سيد العراق والشام والعرب والعجم وقد لقب بـ (غياث الدنيا والدين) قد اخذ يرسل إلى السلطان الرسالة تلو الرسالة ويتلقى في المقابل الوعد تلو الوعد..." .
" إلا أن الأستاذ فؤاد قازان رجح حصول النجدة في فترات متعاقبة الأمر الذي وفر لفخر الملك بعض الصمود :(فما كان من محمد بن عمار إلا أن طلب العون من صاحبي حمص ودمشق الأمر الذي ساعد طرابلس على الصمود "[٣٣] .
ومن ذلك ما ذكره ابن القلانسي في تاريخه ذيل دمشق من انه " في رجب – من عام ٤٩٨ هـ٠ خرج فخر الملوك رضوان صاحب حلب وجمع خلقا كبيرا وعزم على قصد طرابلس لمعونة فخر الملك ابن عمار على (الإفرنج النازلين عليه) ثم يروي ابن القلانسي كيف أن رضوان وهو في طريقه اصطدمت قواته الحلبية هذه بعد خروجها من حلب بقوات للصليبيين وانتهت بهزيمة الحلبيين وتفرقهم ... " [٣٤] .
" وكان لصاحبي حمص ودمشق السلجوقيين نجدات متابعة لما ناشدهم فخر الملك مقاتلة سان جيل إذ حل بقواته الصليبية في أرباض طرابلس فقد أرسل

(٣٠)د. عمر تدمري : لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين،ص ٢٠٩ ، مرجع مذكور نقلا عن اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا.
(٣١) ابن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، ص ٤١٢ .
(٣٢) د. عمر تدمري : لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ، ص ٢١٦ .
(٣٣) فؤاد قازان : لبنان في محيطه العربي ، ص ١٨٧ .
(٣٤) أبو يعلى القلانسي : تاريخ أبي يعلى القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤١ .

دقاق بن تتش ملك دمشق بقوات تجاوزت الألفين كما فعل مثله صاحب حمص باخز...والتقت قوات حمص ودمشق المشتركة مع قوات فخر الملك عند انطرطوس وكان قتالا مع سان جيل الذي عاود الكرة في النصف الثاني من العام نفسه ٤٩٥هـ/١١٠٢م.يريد طرابلس فكتب فخر الملك من جديد إلى أميري دمشق وحمص لينجداه بقواتهما فجاؤوا ــ كما ذكر صاحب مرآة الزمان ــ ودفعوا الإفرنج عنه" (٣٥) .

* * *

نخلص من هذه القراءة للفكر السياسي لولاة بني عمار إلى ما يلي :

١ ــ إن بني عمار وإن كانوا شيعة على المذهب الإمامي إلا انهم كانوا منفتحين على مذاهب أهل السنة جميعا خاصة وانهم يعيشون في محيط سني محكوم بولاة يتابعون الخليفة الفاطمي في مصر .

٢ ــ إن ولاة بني عمار كانوا ينطلقون من فكر سياسي يراعي خصوصية أهل الشام والارتباط الشكلي مع الفاطمية .

٣ ــ انهم حاولوا إيجاد الاستقلالية عن سلاجقة الأتراك والفاطميين بآن معا فحصلوا على التثبيت والاعتراف من السلطان محمد بن ملكشاه في بغداد كما استمروا بضرب الدنانير الفاطمية في طرابلس وتمكنوا أن يحققوا الازدهار لولايتهم عبر سنين ولاياتهم...

٤ ــ انهم احتضنوا جميع من وفد إليهم من المسلمين السنة التركمان والسلاجقة وأهل دمشق وأهل كفر طاب بقيادة الأمير منقذ ، مما ساعد في توازن العناصر السكانية في طرابلس وما حولها مع المجموعات الشيعية الأخرى .

٥ ــ انهم نصبوا للقضاء في طرابلس واحدا وعشرين قاضيا منهم سبعة عشر قاضيا سنيا وأقاموا المساجد والمدارس.

---

(٣٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ج١٢ .

٦ ــ اهتموا بالتعليم وأنشأوا دار العلم وعينوا عليها نظارا كان بينهم سنة ورعوا المناظرات والحوارات بين المذاهب الإسلامية شيعية وسنية .

٧ ــ تمكن جلال الملك من الحصول على اعتراف سلطان السلاجقة محمد بن ملكشاه الذي اصدر منشورا بتأييده ومنع الاعتداء عليه .

٨ ــ كان فخر الملك له تقدير رفيع المستوى عند الخليفة العباسي وسلطان بغداد محمد بن ملكشاه كما ارتبط فخر الملك بوالي دمشق ظهير الدين اتابك طغتكين وحسم توجهه لصالح السلجوقيين لما نزل بمدينته الحصار الإفرنجي الصليبي وعمل على متابعة المساعي من اجل التحرير سواء من بغداد أو دمشق.وارتضى أن يكون وزيرا لدى ملك الموصل وأقام سنوات في خدمة السلاجقة إلى أن استقر في ماردين التركية

٩ ــ إن فخر الملك آخر ولاة بني عمار شهرة وقوة وجهادا ...اظهر ندمه قبل وفاته لدى الخليفة الفاطمي وأوضح استراتيجية فكره السياسي بأنه كان طيلة حياته " يؤمل في غير دولة الفاطميين... " ومن اجل ذلك فهو يعلن ندمه فحظي بالعفو وكان اعترافه على هذا النحو ــ على ما يبدو ــ شرطا لقبوله في مصر حيث أهله فقد دخلوها في حالة الاعتقال منذ اكثر من اثنتي عشرة سنة.

١٠ ــ كان لولاة بني عمار بوجه عام احترام وتقدير من حكام زمانهم.ويشهد المؤرخون المسلمون لفخر الملك بجهاده وحكمته وحنكته ودرايته حتى انه ظهر له من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي الاحترام والتقدير ما عزّ عن أمثاله.بينما أوجس ولاة بني عمار خيفة من النظام الفاطمي ومن حقده عليهم والتخطيط المستمر للإيقاع بهم مما زاد وضاعف توجههم نحو سلاجقة الشام وبغداد .

الفصل الرابع

السكان في إمارة طرابلس الصليبية
والحركة العلمية فيها

١ ــ بعد أن سقطت طرابلس بيد الصليبيين قتل عدد كبير من سكانها وفر آخرون وبقي فيها أعداد من المسلمين وبعض النصارى واليهود ... وقد تعامل الصليبيون ، فيما بعد ، مع المسلمين القلة وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الدينية في مصلى صغير بقي لهم وكان لأولئك النفر من المسلمين رأس ديني وكانوا يتعاطون بالزراعة .

غير أن المذابح التي ارتكبها الصليبيون ضد المسلمين بعد اغتيال أميرهم ريموند الثاني (١١٥٢) بكمين على طريق بيروت الساحلية كما سنرى...قلل عدد المسلمين في طرابلس والمناطق التابعة لكونتينيتها ...

٢ ــ وأما النصارى الوطنيون من أهل طرابلس ومنهم اليعاقبة فقد آثروا الفرار إلى جونية ، بينما بقي فيها بعض الموارنة كبعض المسلمين فقسمهم الصليبيون إلى طبقات : طبقة عبيد الأرض وطبقة العامة ، وطبقة سادة القرى ...غير أن اكثر الموارنة كانوا يميلون إلى التآمر على الصليبيين وخيانتهم ، ويرجح وليم الصوري أن معظم الهزائم التي مني بها الصليبيون يرجع سببها لخيانة النصارى من السكان الأصليين لهم ..[1] وأيضا كان في طرابلس نحو مئة وخمسين عائلة من اليهود اشتغلوا بالصيرفة والدباغة .

٣ ــ عدا هؤلاء فان سائر سكان طرابلس من الإفرنج وكانوا من اسبارته وجنوى والبندقية وعدد من أقطار وأمصار أوروبا .

٤ ــ وقد اشتهرت طرابلس في العهد الصليبي بالطب والكيمياء والصيدلية وكان فيها مدرسة لتعليم الطب وقد أمها الطلاب من أوروبا للدراسة فيها ويعود الفضل في ذلك إلى السكان الأصليين الذين بقوا على صلاتهم بالمسلمين خارج طرابلس .

---

(١) سميح الزين : تاريخ طرابلس قديما وحديثا ، ص ١٤٣.

يقول الأستاذ زكي النقاش :

" وكانت مدينة طرابلس إحدى مراكز الحركة العلمية إذ ذاك تضم مدارس مزدهرة يؤمها الطلاب من جميع الأقطار المجاورة ويدرسون فيها على أساتذة شرقيين لهم شهرتهم الذاتية في الفلسفة والطب ...

" ويظهر أن هذه المهنة الشريفة ــ مهنة الطب ــ ظلت من اختصاص اليعاقبة من النصارى فكان لأطبائهم مكانة مرموقة عند أمراء الإفرنج ورجال الدين منهم ...

ويقول : " إذ يظهر أن الأطباء كانوا ينعمون باحترام كبير إذ أن ابن العبري يذكر من منهم ميخائيل أسقف حلب اليعقوبي الذي بعد أن اعتزل منصبه الديني وفد على طرابلس وبقي فيها حتى توفاه الله بعلم الطب وكان محاطا بالإجلال والإكرام من رجال الدين وطبقة الأشراف .

أما مراكز المدارسة للطب فكانت إنطاكية وطرابلس والقدس ومن أساتذتها المشهود لهم بطول الباع تيودور الانطاكي طبيب فردريك الثاني الخاص ، وباسيل الحلبي ويعقوب النسطوري الطرابلسي"[2] .

---

(٢) زكي النقاش : كتاب مخطوط عن الحروب الصليبية وما نتج عنها من علامات اجتماعية واقتصادية وثقافية بين العرب والإفرنج ، ص ١٢٨ ، ١٣١ .



صورة لرسام تخيل فيها انطلاقة الجيوش الاسلامية من المدن الكبرى.إن صورة الزحف من القاهرة الى دمشق نحو طرابلس لاستخلاصها من الصليبيين ، بقيادة السلطان قلاوون ، لا يعدو مثل هذا الرسم

القسم الثاني

مُقدّمات الفتح المُبين ووقائعه

الفصـــل الاول : محاولات استعادة المدينة وتحريرها.

الفصــل الثــاني : المنصور قلاوون سيرة حياة.

الفصــل الثــالث : الظـروف الدوليــة والإقليميــة قبــل تحريــر طرابلس.

الفصــل الرابــع : موقف نصارى الجبال المحيطة بطرابلس.

الفصل الخامس : تربّص قلاوون بكونتينية طرابلس.

الفصــل الســادس : أحداث الفتح المبين وتحرير طرابلس.

الفصــل الســابع : مواقف وآراء المنصور قلاوون في الحكم والسياسة والجهاد وتنظيم البلاد.

الفصل الأول

محاولات استعادة المدينة وتحريرها

منذ أن سقطت طرابلس بيد الصليبيين تحولت إلى قاعدة استراتيجية استمات الفرنج في الدفاع عنها فظلت في أيديهم اكثر من مئة وثمانين سنة.وإذ تساقط العديد من مناطق بلاد الشام أصيب المسلمون بحالة ذعر وإرباك شديدين لم يستفيقوا منهما إلا بعد حين يوم بدأت تظهر هنا وهناك إرادة للجهاد واستعادة الأرض وتحرير المدن والثغور وسرعان ما تحولت تلك الإرادة إلى محاولات جادة وقد كانت طرابلس في صلب معظم تلك المحاولات.

وسنكتفي هنا وبالصفحات التالية من ذكر أهم محاولات التحرير دون تفصيل ويمكن لمن أراد الاستزادة أن يرجع إلى كتب التأريخ العربي والإسلامي والغربي وبخاصة ما كتب في تاريخ طرابلس .

المحاولة الأولى :

لعل التركمان هم أول من أغار على طرابلس بتفويض من والي دمشق ، خاصة بعد نجاحهم في التصدي للقوات الصليبية عند حوران وقد كان هدف الصليبيين ، في حوران ، الهجوم على دمشق...وكان ذلك في شهر ذي الحجة ٥٢٣هـ /١١٢٩م.

جمع التركمان قواتهم وقاموا بالإغارة على طرابلس في شهر ذي الحجة ٥٢٧هـ./١١٣٣م. فخرج إليهم كونت المدينة بونز فكمن له التركمان في جبال النصيرية فانهزم أمامهم وفرَّ بنفر قليل ممن سلم معه إلى حصن بعرين قرب مصياف (راجع المصور لمعرفة الأماكن) .

المحاولة الثانية :

في رجب ٥٣١ هـ /١١٣٧م٠ قام القائد شجاع الدولة بن بزواج التركي الأصل على رأس عسكر دمشق ، بهجوم مفاجئ على طرابلس إذ جاءها من بعلبك مرورا ببشري ، حيث سلمه أهلها الموارنة مسارب الأودية للوصول إلى المدينة بغتة ً.كما أعانه نصارى الكورة وهم روم.وقتل بونز وقتل معه نفر وافر، وواصل بن بزواج الهجوم على " حصن صنجيل " (قلعة طرابلس) الواقع على تلة عند سهل يعرف اليوم بمنطقة أبي سمراء واستولى عليه وأسر من فيه...غير انه لم يضرب الحصار على المدينة لعدم توافر الإمدادات وتهيؤ القدرات فاكتفى بما حقق من انتصارات وعاد إلي دمشق.

المحاولة الثالثة :

قام عماد الدين زنكي بالتقدم من حلب نحو حمص على حدود كونتينية طرابلس ، فخاف ريموند الثاني كونت طرابلس من أن يتقدم الزنكي نحو المدينة، ففضل مواجهته على حدودها الشمالية بينما تقدم عماد الدين مستوليا على قلعة بعرين، وهي من أمنع معاقل الإفرنج وأحصنها ، استنجد ريموند بملك القدس فلما تجمعت قواتهما كمن لهم عماد الدين وانتصر عليهم وأسر ملك القدس وريموند معا.وما إن عرف الأمر وذاع حتى هبت الجيوش الصليبية من كل حدب وصوب لنجدة الملكين الأسيرين ، ولوقف عماد الدين عن فتوحاته ٠ ولما علم **الزنكي** بخروجهم آثر التجاوب مع مفاوضات رغب فيها ملكا القدس وطرابلس ، فأفرج عنهما بعد أن سلما بانسلاخ حصن بعرين عن كونتينية طرابلس .

المحاولة الرابعة :

خرج الأسطول المصري في سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م٠ بسبعين سفينة للإغارة على ثغور الصليبيين من يافا إلى طرابلس ٠ وكانت أشد المعارك البحرية تلك التي جرت في ميناء طرابلس ٠ حيث تمكن المصريون من الاستيلاء على العديد من المراكب الصليبية في بحر طرابلس وأنشد الشاعر المصري الحسن بن علي قائلا :

ولقد أتى الأسطول حين غزا
لم يأت في حين من الأحيان

فأتتكَ موفرةً بسبي بينة
أسراهم مغلولة الأذقان

المحاولة الخامسة :

على إثر اغتيال كونت طرابلس ريموند الثاني في آخر عام ١١٥٢/٥٤٦ في مكمن على الطريق الساحلي المؤدي إلى بيروت ، شهدت طرابلس مذبحة قام بها الإفرنج ضد مسلمي البلد الذين استأمنوا فأقاموا فيها ، ووضعت طرابلس تحت وصاية ملك القدس.وتحرك نور الدين محمود الزنكي والي حلب وقام بالإغارة على طرطوس الواقعة في كونتينية طرابلس وفتح حصنها وقتل من فيه من الإفرنج بينما أعطى الأمان لمن بقي في المدينة وذلك في أوائل ٥٤٧هـ ٠ وامتلك عدة حصون وآثر العودة إلى حلب بعد أن وردته أنباء عن نجدة ملك

القدس للكونتينية .

المحاولة السادسة :

في منطقة حارم ، وهي كورة بالقرب من إنطاكية ، تمكن نور الدين محمود في رمضان ٥٥٩هـ/١١٦٤ م من أسر مجموعة من حكام الصليبيين والبيزنطيين وقتل أكثر من عشرة آلاف رجل وكان من بين الأسرى ريموند الثالث أمير طرابلس ٠ وإذ أطلق سراح القائد البيزنطي وأمير إنطاكية أبقى كونت طرابلس في الأسر أحد عشر عاما، انكب هذا الأخير خلالها على تعلم العربية ودرس حياة المسلمين ، وفي عام ٥٦١/١١٧٧ قام نور الدين محمود بالإغارة على جنوب كونتينية طرابلس في محاولة لتطويقها واستولى على حصن المنيطرة في جبل لبنان بين بعلبك وجبيل جنوب طرابلس.

وفي عام ٥٦٢هـ/١١٦٧ م قام **نور الدين** بالإغارة أيضا على مجموعة حصون سهلي عكار والبقيعة ضمن هدفه المعلن السيطرة على شمال طرابلس تمهيدا لتحرير المدينة.

تعاقد **نور الدين** والإفرنج على هدنة عام ١١٧١ م.غير أن إفرنج اللاذقية نقضوا الهدنة باستيلائهم على مركبين أتيا من مصر مملوءين بالمواد التجارية.وإذ طلب نور الدين أن يعيدوا المركبين اعتذروا محتجين بأنهما غرقا ، فجرَّد حملة ضد إنطاكية وعلى رأسها ابن أخيه بينما سار هو نحو طرابلس فأعاد سيطرته على حصون عرقة وصافيتا والعريمة كما قارب طرابلس فهادنه الإفرنج.

المحاولة السابعة :

ولما جاء صلاح الدين ـ فيما بعد ـ أعتق كونت طرابلس ريموند الثالث الذي اعترف له بالفضل ٠ ويبدو انه كاد يقتنع بالإسلام وقيل انه أسلم واتفق مع صلاح الدين أن يوعز إلى أتباعه في طرابلس بالتزام السلام والتحول إلى الإسلام.غير أن الأحداث المتلاحقة أوقفت هذه المحاولة السلمية لإعادة أسلمة طرابلس وفتحها دون قتال.

وهادن كونت طرابلس ريموند الثالث كما رأينا صلاح الدين ورفض مشاركة الصليبيين في العديد من هجماتهم ضده حتى اتُّهمَ بترك النصرانية والأسلمة والتفاهم مع صلاح الدين ، خاصة بعد أن رفض الانضمام إلى جيوش الصليبيين التي راحت تتجمع في فلسطين عند حطين ، وبعد أن سقطت طبرية بيد صلاح الدين ، وهي ملك زوجة ريموند الثالث ، قسى عليه القسُس والرهبان لاتحاده مع صلاح الدين وتفاهمه معه ، وجد نفسه مضطرا إعلان انضمامه إلى القوات الصليبية في معركة حطين الشهيرة ٠ غير أن ريموند الثالث كونت طرابلس

تمكن من الانسحاب من حطين وعاد مع نفر من جيشه إلى صور .ولما حاصرها صلاح الدين فرَّ منها إلى طرابلس حيث توفي...

المحاولة الثامنة :

وفي سنة ١١٧٤ جاء ابن أخ صلاح الدين الأيوبي الملك الظافر تقي الدين عمر بن أيوب طرابلس ودارت معركة عظيمة على حدودها إلا أن الملك عاد دون تحقيق الغاية وهي : استعادة المدينة .

المحاولة التاسعة :

في أول قدوم لصلاح الدين الأيوبي إلى بلاد الشام حاول كونت طرابلس مهاجمة حمص قبل أن يتقدم صلاح الدين إليه • فبعث صلاح الدين بسرية من جيشه إلى نواحي طرابلس مغتنما غياب أميرها عنها فأسروا وغنموا مما اضطر كونت طرابلس على التراجع عن مهاجمة حمص وفي عام ٥٧٧هـ /١١٨١م.ثم وجه صلاح الدين أسطوله البحري لمهاجمة طرطوس وهي من أعمال كونتينية طرابلس .

المحاولة العاشرة :

بعد معركة حطين وفتح بيت المقدس أنشد الشاعر عماد الدين الأصفهاني صلاح الدين بقوله:

قل للمليك صلاح الدين أكرم من يمشي

على الأرض أو من يركب الفرسا

من بعد فتحك بيت المقدس ليس سوى

صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا

وفعلا سار صلاح الدين وسير مجموعات من جيشه : منها من قصد القلمون جنوب طرابلس ومنها من قصد الكورة فاحتل الأولى واسكن في الثانية مجموعة من جيشه تمهيدا لمحاصرة طرابلس بينما انطلق بقواته عام ٥٨٤/١١٨٨ إلى سهول البقيعة وعكار فامتلك الحصون وأغار على ضواحي طرابلس مرتين (وصل إلى قرب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها وأين يسلك منها ثم عاد إلى معسكره سالما) كما يقول ابن الأثير.

ولقد اهتم الصليبيون بتدعيم طرابلس مخافة أن تسقط كما سقطت القدس فأمدوها بالرجال والمؤن • ورأى صلاح الدين الرجوع عن طرابلس لمناعة أسوارها وإحاطة البحر بها ولاستعداداتها العسكرية العديدة، فقرر أن ينتقل إلى جبلة وطرطوس وان ينتزع ما بينهما من حصون كمرقية والمرقب.وبذلك دق صلاح الدين إسفينا في وسط الإمارة الجديدة المشتركة طرابلس ــ إنطاكية

فسارع الأمير الصليبي (المشترك) يطلب الهدنة من صلاح الدين فقبل هذا مهادنته على إنطاكية دون طرابلس لاهتمامه ورغبته بفتحها.

وبينما قرر صلاح الدين الانتقال إلى عكا حيث كان واجه موقفا صعبا هناك أمر نائبه في حمص أن (يأخذ حذره من الإفرنج بطرابلس وان يأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية).

ومات صلاح الدين في عام ٥٨٩هـ /١١٩٣ م.وفي قلبه غصة انه لم يحظ بتحرير طرابلس ــ المدنية .

المحاولة الحادية عشر :

سار الملك العادل أخو صلاح الدين والذي تولى الملك بعد أخيه ، في عام ١٢٠٨/٦٠٣ على رأس حملة عسكرية بعد أن تعدى جماعة من الإفرنج على تجار مسلمين عند طرابلس • فانتهزها فرصة لإعلان الحرب ، ونزل العادل عند بحيرة حمص وانقض على حصون عكار والقليعات ثم حاصر مدينة طرابلس.واستولى على قلعتها حيث نصب المجانيق عليها وأغار على ضواحيها وبساتينها وقطع المياه عنها • ولبث محاصرا لها اثني عشر يوما ثم انسحب بجيوشه إلى حمص ، ثم أعاد الكرة وحاصر طرابلس من جديد ودمر البيوت اللاتينية التي كانت خارج أسوار المدينة ففاوضه بوهمند الرابع كونت طرابلس فوجد العادل أن الشتاء قد حل ومن الأفضل أن يعقد الصلح وكان ذلك في أواخر ذي الحجة٦٠٣هـ/١٢٠٨ م .

المحاولة الثانية عشر :

أغار الصليبيون في ٦١٥ هـ/١٢١٨م.على دمياط في مصر فرأى الملك العادل أن يشغل الصليبيين في بلاد الشام بالإغارة على طرابلس.فسير ابنه الأشراف وأمره بدخول كونتينية طرابلس، فمنع بذلك صليبيي بلاد الشام من مساعدة الحملة الصليبية على دمياط فيفرغ هو لقتالهم عندها • إلا أن الصليبيين تمكنوا من احتلال برج دمياط فغضب العادل غضبا شديدا فمات اثر نوبة قلبية في العام نفسه وهدأ القتال عند جبهة طرابلس.

المحاولة الثالثة عشر :

شنَّ المسلمون ــ على حد تعبير " **روتلان** " المؤرخ ــ غارات متتالية على مدينة طرابلس نفسها بهدف احتلالها وألحقوا الهزيمة بالفرنج وقتلوا عددا منهم ثم انسحبوا إلى ديارهم وكان ذلك في عام ٦٨٤هـ/١٢٥٠م .في عهد بوهمند الخامس أمير طرابلس.

المحاولة الرابعة عشر :

بعد محاولة بوهمند السادس أمير طرابلس الإغارة على حمص في صفر ٦٦٤هـ/١٢٦٥م.رد عليه الظاهر بيبرس (وكان قد اعتلى عرش السلطنة في القاهرة) بتسيير جيوشه بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون في شهر شعبان من العام نفسه (وهو القائد الذي سينجح في فتح المدينة عندما يصبح سلطانا) غير أن المدينة استعصت على **قلاوون** الذي استولى على حصون الكونتينية في القليعات وعرقة وحلبا وحصن الأكراد...

المحاولة الخامسة عشر :

لعل هذه المحاولة هي الأهم بين محاولات استرجاع طرابلس وقد بدأها الظاهر بيبرس واتبع الخطط العسكرية كما استخدم الحرب النفسية لتدمير إرادة حاكم طرابلس آنذاك بوهمند السادس كما سنرى.

فقد قرر الظاهر بيبرس أن يفتح طرابلس،فسار بنفسه في شعبان ٦٦٦هـ./١٢٦٨م.واقتحم حصن طرابلس وقتل من فيه من الإفرنج وخربه وهدمه وهو الحصن الذي بناه المسلمون من قبل وجدده صنجيل (راجع مصور القلعة) وبذلك يكون الحصن الصليبي قد هدم وما بني بعدئذ بعد تحرير طرابلس من الصليبيين كان بناء إسلاميا لا صليبيا ــ كما هدم الظاهر جميع الأسواق الواقعة خارج سور طرابلس ــ كما فعل العادل أخو صلاح الدين ــ وعسكر الظاهر في سهل طرابلس في المنطقة التي تعرف اليوم بالزاهرية (وهي تحريف لكلمة الظاهرية نسبة للسلطان حيث أقام) ويبدو أن **عائشة البشناتية** بطلة المسلمين في (زغرتا بشنات) القريبة من طرابلس ظهرت في أيام الظاهر على ما يؤكده المؤرخ د.عمر تدمري فأبلت بلاء حسنا في غارات متتابعة على الحاميات الصليبية،وقيل إنها دخلت طرابلس متنكرة ثم استشهدت في المنطقة المعروفة اليوم بـ (التل)،في معركة مكشوفة مع الصليبيين ودفنت في طرابلس حيث توفيت وكان قبرها مزارا لأهل طرابلس الذين افتخروا بها كافتخار الفرنسيين بـ جان دارك[1].

وعندما لم يتمكن الظاهر بيبرس من احتلال المدينة فرجع عن أسوارها بعد حصار استمر تسعة أيام استولى على إنطاكية.فقد نُمي إلى بيبرس وهو في ربض طرابلس أن جيش من إنطاكية قد خرج لنجدة كونتينية طرابلس فأبقى **بيبرس** خيام جيشه في الزاهرية وأبقى على النيران مشتعلة وانسحب ليلا ليصل إلى إنطاكية عند الفجر بعد أيام فامتلكها وأرسل من هناك بكتاب إلى بوهمند أمير طرابلس يعلمه باحتلال إنطاكية مدينته الثانية.، ويقال أن الظاهر بيبرس تنكر بزي خادم ودخل مع الوفد إلى طرابلس المكلف بتسليم كتاب الظاهر إلى كونتها

(١) د.عمر تدمري : عائشة البشناتية جان دارك : جريدة السفير اللبنانية تاريخ ١٩٧٧/٩/٤ ، طرابلس

وبذلك تمكن الظاهر من الإطلاع على تحصينات المدينة من الداخل فرتب الوسائل اللازمة لفتحها في جولة أخرى.

ونثبت هنا نص كتاب السلطان الظاهر بيبرس إلى بوهمند السادس (أمير إنطاكية وطرابلس بعد فتح إنطاكية سنة ٦٦٦هـ./١٢٦٨م.نقلا عن كتاب السلوك للمقريزي.

ومن هذا الكتاب يتضح عمق الحرب النفسية التي شنها السلطان بيبرس على بوهمند صاحب طرابلس كما يتبين منه الخدعة التي مارسها عندما رحل عن طرابلس بعد حصارها وهدم ما كان خارجها وماغنمه من الشجر والدواب والناس ثم تركه خيامه منصوبة للإيهام بوجوده بينما كان هو مع جيشه متوجها نحو إنطاكية التي فتحها.ويصف بيبرس فتح إنطاكية بأسلوب اتسم بالتهويل بهدف قذف الخوف والإحباط في نفس حاكم طرابلس استعدادا من بيبرس للمفاوضة بشأنها أو لمعاودة حصارها أملا بفتحها لكنها استعصت عليه كما سنرى.

يقول **بيبرس** :

" بسم الله الرحمن الرحيم

قد علم القومص الجليل الأسد الضرغام بيمند رئيس الطائفة الصليبية، المنتقلة مخاطبته بأخذ إنطاكية منه ، ألهمه الله رشده وقرن بالخير قصده وجعل النصيحة محفوظة عليه ، ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار وما شاهده بعد رحيله من خراب العمائر ، وقطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق أن شاء الله وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الخديم وركب الماشي".

" هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت وإذا سمعت صوتا قلت فزعا: " علي بهذا الصوت " وكيف رحلنا عنك لكن رحيل من يعود وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود وكيف فارقنا بلادك وما بقيت ماشية إلا وهي لدينا ماشية ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية ولا سارية إلا وهي من أيدي المعاول سارية...وكيف سقنا عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك إنطاكية خبر وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك وان بَعُدْنَا فسنعود على الأثر ".

" وها نحن نعلمك بما تم ونفهمك بالبلاء الذي عم : كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشري شعبان ونزولنا إنطاكية في مستهل شهر رمضان وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبارزة فكسروا وتناصروا فما نصروا..."

" وفتحنا بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من

الدنيا، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها " .

" فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول وديارك والنهابة فيها تصول والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ، وإماءك وكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت ، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت ، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق وقصورك وأحوالها قد حالت ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفئ تلك النيران بماء عبرتك ، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت من معانيك ، لتيقنت أن الإله الذي أعطاك إنطاكية منك استرجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعها ، ومن الأرض اقتلعها ".

" ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام ، وهو: دير كوش وشقيف تلميس وشقيف كفر دنين (وأخذناهم بالنواصي) وفرقناهم في الداني والقاصي ، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلا النهر ، فلو استطاع لما سمي بالعاصي ، وقد أجرى دموعه ندما، وكان يذرفها عبرة صافية، فما هو أجراها بما سفكناه دما ".

" وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة ، وطول العمر بكونك لم يكن لك في إنطاكية في هذه المدة إقامة ، وكونك ما كنت بها فتكون أما قتيلا وأما أسيرا ، وأما جريحا وإما كسيرا ، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي إذا شاهد الأموات ، ولعل ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبرناك ، ولما لم يقدر أحد أن يباشرك بسلامة نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك لتتحقق الأمر على ما جرى ".

" وبعد هذه الكتابة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبرا ، كما أن هذه المخاطبة يجب أن تسأل غيرها مخبرا ".

قال **المقريزي** الذي اثبت الرسالة : " ولما وصل إليه الكتاب اشتد غضب بوهمند السادس أمير طرابلس ولم يبلغه خبر إنطاكية إلا من هذا الكتاب "[٢].

المحاولة السادسة عشر :

عاد الظاهر بيبرس ليحاول من جديد فتح طرابلس فخرج في العاشر من رجب ٦٦٩هـ./١٢٧١م.على رأس جيش وزعه على مختلف مدن وحصون الساحل في سهلي عكار والبقيعة وليحتل أولا حصن الأكراد الذي أعاد بناءه

(٢) إشارة إلى انه أبقى الخيام والنار مشتعلة في الظاهرية (الزاهرية) اليوم وهي خارج طرابلس آنذاك حيث عسكر وسار بجيشه إلى إنطاكية.

وتحصينه لتنطلق منه القوات الإسلامية باتجاه طرابلس غير أن حاكم طرطوس وصاحب قلعة المرقب سارعا للتفاوض مع بيبرس وعقدا معه هدنة طويلة .

وفيما كتب بيبرس إلى القاضي ابن خلكان مبشرا بفتح حصن عكار سنة٦٦٩هـ..كتب أيضا إلى بوهمند السادس يعلمه بعزمه على فتح طرابلس مستخدما أيضا أسلوب الحرب النفسية • ويتبين من الرسالة (الكتاب) كيف عالج بيبرس فتح عكار وكيف استخدم التهويل ضد خصمه يقول في رسالته إلى ابن خلكان[٣] :

" هذه المكاتبة إلى المجلس السامي القضائي وهو انه لما كان بتاريخ يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة تسع وستين وستماية تسلمنا حصن عكار بعد أن رتبنا عليه المجانيق من كل جانب وأذقنا من فيه العذاب الواصب ولم يزل الجاليش بسهامه يرشقهم والمجانيق تشدخهم والمنايا تتخطفهم فعندما شاهدوا مصارع بعضهم نزلوا من الحصن المذكور خاضعين وعفروا جماجمهم بالذل متضرعين فعندما شاهدناهم على هذه الصورة رحمناهم وأمَّناهم على أنفسهم خاصة وتسلمنا الحصن المذكور بحواصله وجميع ما فيه وانتظم في سلك ممالكنا ودخل في جملة حصوننا وقلاعنا .

" فليأخذ المجلس بحظه من هذه البشرى بأوفر نصيب ويذيعها بين القضاة والعلماء والفضلاء بين كل بعيد وقريب فإنها من النعم التي يجب على كل مسلم شكرها ويتعين بثها بين الأنام وذكرها فيحيط علمه الكريم بذلك والله يؤيده ويعضده ويحرسه في سائر التصرفات والمسالك إن شاء الله • كتبت في التاريخ المذكور أعلاه " .

بينما في كتابه إلى بوهمند السادس يقول[٤] :

" قد علم القومص بيمند جعله الله ممن ينظر لنفسه ويفكر في عاقبة يومه من أمسه نزولنا بعد حصن الأكراد على حصن عكار وكيف نقلنا المنجنيقات إليها في جبال تستصعبها الطيور لاختيار الأوكار وكيف صبرنا في جرها في مناكدة الأوحال وكابدة الأمطار وكيف نصبنا المنجنيقات على أمكنة ينزلق عليها النمل إذا مشى وكيف هبطنا في تلك الأودية التي لو أن الشمس من الغيوم ترى بها ما كان غير جبالها رشا وكيف صارت رجالك الذين قصرت في انتخابهم وحسنت بهم استعانة نائبك الذي انتحى بها " .

(٣) يراجع نصوص الرسائل في ملحق كتاب تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ، الطبعة الثانية.، للدكتور عمر تدمري .

(٤) م.س

" وكتابنا هذا يبشرك بأن علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر وان صوت الناقوس صار عوضه "الله اكبر" ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح وسلموا ولكن من ندب السيوف إلى بكاء النوائح.وأطلقناهم ليحدثوا القومص بما جرى ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى وليروهم الجراح التي أريناهم بها نفاذا ولينذرهم لقاء يومهم هذا ويفهموكم انه ما بقي من حياتكم إلا القليل...يعلم **القومص** هذه الجملة المسرودة ويعمل بها وإلا فيجهز مراكبه ومراكب أصحابه وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده" .

وقد أنتجت سياسة الحرب النفسية التي شنها بيبرس مع بوهمند صاحب طرابلس، فأصبح أسير الخوف من بيبرس ، وراح يسأله الصلح واستجاب بيبرس بعد أن علم بوصول حملة صليبية على عكا فأراد أن ينسحب من حول طرابلس، لكنه رغب أن يتوصل إلى شروط صلح تحقق له إنجازات يستفيد منها مستقبلا ، كمدخل ينقضها أو يلتف عليها ، فراح يملي شروطه على بوهمند الذي عقد الصلح في٨/شوال/٦٦٩ لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام .

بعد انسحاب بيبرس من حول طرابلس خرج بوهمند إلى قائد التتار "ابغا" يشجعه على دخول حرب جديدة ضد بيبرس فلم يوفق في غايته على أن محاولة بيبرس الأخيرة حققت النصر السياسي الأول الذي ينجزه أول سلطان مسلم على حكام طرابلس المدينة المحتلة من الصليبيين منذ اكثر من مئة وستين سنة ـ أي إلى أيام الظاهر ـ وقد مهد هذا النصر الطريق لوضع حد نهائي للوجود الصليبي في الشرق العربي المسلم .

الفصل الثاني

المنصور قلاوون

سيرة وحياة

يستحسن هنا ـ قبل الولوج في أحداث الفتح المبين واستعراض الظروف الدولية والإقليمية التي أحاطت به ـ التوقف لقراءة بعض المحطات المهمة في تاريخ هذا الفاتح العظيم.

فمن شأن تلك القراءة أن تسلط الضوء على جوانب من شخصيته يمكن معها فهم الأحداث التي وقعت بصورة أكثر دقة وشمولا.

فمن هو المنصور قلاوون ؟

- هو من أتراك أواسط آسيا من جنس القبجيان المقيمين في حوض نهر الفولجاني جنوب روسيا الحالية.
- جيء به إلى مصر وتتلمذ على يدي الأمير علاء الدين أحد مماليك الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي.
- عمل في خدمة الإدارة العسكرية في عهد الظاهر بيبرس الذي سيره على رأس العسكر في شهر شعبان ٦٦٤هـ/١٢٦٦م للإغارة على بلاد الساحل فهاجم عكار وصور وتابع سيره شمالا حتى مدينة طرابلس فضرب الحصار حولها ، ولما استعصت عليه رحل عنها ـ بعد أن خبر موقعها جيدا ـ وهاجم حصونها الشمالية واستولى على القليعات وعرقة وحلبا في عكار ثم هاجم حصن الأكراد ...وقد أكسبته هذه الجولة من القتال ضد الصليبيين خبرات كبيرة أبقت حية في نفسه خلفياته الجهادية وتصميمه على تحرير هذه المناطق وأعادتها إلى حصن الإسلام كما سنرى .
- في عهد السلطان العادل **سلامش** الابن الثاني للظاهر بيبرس، وكان صغير السن، رقي قلاوون إلى وظيفة أتابك العسكر أي القائد العام وذلك في ربيع الأول من سنة ٦٧٩هـ./١٢٨٠م. وصار اسمه يذكر مع اسم السلطان العادل على المنابر ثم سرعان ما اختير سلطانا على البلاد في شهر رجب من العام نفسه.

يقول المقريزي في السلوك لمعرفة دول الملوك :

• "كان ــ قلاوون ــ من جنس القبْجان [٥] ، ومن قبيلة برج أغلِي ، فجلب إلى مصر وهو صغير، واشتراه الأمير علاء الدين أقسنقر الساقي العادلي أحد مماليك الملك العادل أبي بكر بن أيوب بألف دينار ، فعرف من اجل ذلك بالألفي.فلما مات أستاذه الأمير علاء الدين صار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في عدة من المماليك ، فعرفوا بالعلائية ، وذلك في سنة سبع وأربعين وستماية.وجعل الملك الصالح قلاوون من جملة المماليك البحرية، وما زال حتى كانت وفاة الملك الصالح ، ثم إقامة شجر الدر بعد المَلِك توران شاه بن الصالح.فلما قام المعز أيبك في سلطنة مصر ، وقتل الفارس أقطاي ، خرج قلاوون من مصر فيمن خرج من البحرية.

• وتنقلت به الأحوال حتى صار أتابك العساكر بديار مصر في سلطنة الملك العادل سلامش بن الظاهر ، في سابع شهر ربيع الآخر ، وصار يذكر اسمه مع اسم العادل على المنابر وتصرف تصرف الملوك مدة ثلاثة اشهر ، إلى أن وقع الاتفاق على خلع العادل وإقامة قلاوون.فاجلس [قلاوون] على تخت الملك في يوم الأحد العشرين من رجب ، وحلف له الأمراء وأرباب الدولة ، وتلقب بالملك المنصور ، وأمر أن يكتب في صدر المناشير والتواقيع والمكاتبات [لفظ] "الصالحي" ، فكتب بذلك في كل ما يكتب عن السلطان، وجعل عن يمين البسملة تحتها بشيء لطيف جدا.وخرج البريد بالبشائر إلى الأعمال ، وجهزت نسخة اليمين إلى دمشق وغيرها ، وزينت القاهرة ومصر وظواهرهما وقلعة الجبل ، وأقيمت له الخطبة بأعمال مصر...ووصل البريد إلى دمشق...فحلفت عساكر دمشق ، وأقيمت الخطبة بها في يوم الجمعة ثاني شعبان ، وزينت المدينة سبعة أيام.وفي يوم السبت ثالث شعبان ركب [السلطان الملك المنصور قلاوون] بشعار السلطنة وأبهة المملكة،وشق القاهرة وهي مزينة،فكان يوما مشهودا ".

• وأول ما بدأ به السلطان قلاوون حكمه في أن ابطل زكاة الدولبة وكانت مما أجحفت بالرعية وهي (مال كان يؤخذ من أصحاب الأموال ، ولو عدم المال، وان مات عن فقر اخذ ذلك من ورثته ــ خلافا لأحكام الزكاة في الإسلام ــ ولعل زكاة الدولبة هذه كانت تفرض على كل مستخدم للدواليب ــ أي العجلات ــ في الري أو الغزل أو صناعة السكر، وعلى هذا فهي فريضة

(٥) القبجان فرع من الترك ، مساكنهم الأصلية حوض نهر إرتش ، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر إثل (الفلجا) في جنوبي روسيا الحالية ، فعرفت تلك الجهة باسم القبجان كما عرفت به أيضا دولة المغول المسماة باسم القبيلة الذهبية ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٥١،٤٥٦،٤٦٧،٤٦٨ .

على الآلات المستعملة في الصناعة وهي قطْعاً غير الزكاة الإسلامية وان سميت بالزكاة [٦] .

• كما أن المنصور قام أيضا وبنفس الوقت بإبطال مقرّر النصارى وكان له منذ احدث ثماني عشرة سنة ، وقد عرّف المقريزي المقرر بما يلي : " كان يجبي من أهل ــ وهو دينار سوى الحالية [أي الجزية السنوية] ــ برسم نفقة الأجناد في كل سنة " وكان الظاهر بيبرس هو الذي فرض تلك الضريبة غير العادية في السنة الثالثة لحكمه [٧] .

ويقول المقريزي تعقيبا على إلغاء الضريبتين .. : " وكانت مما أجحفت بالرعية ...وانحطت الأسعار ..." [٨] .

• ومن أولى اهتماماته بعد أن تولى السلطنة الجهاد وتحرير بلاد الشام من المغول والصليبيين والقضاء عليهم وكانت اهتماماته تلك شغله الشاغل، فبعد مرور وقت قصير من توليه أمر السلطنة عين ابنه عليا وليا للعهد وتفرغ هو للخروج إلى الشام فاحبط مؤامرة **سنقر الأشقر** وكان واليا على دمشق فنادى بنفسه ــ عند تولية قلاوون ــ سلطانا على المماليك في دمشق وأسرع يتحالف مع الصليبيين والمغول ضد قلاوون في مصر.لكن قلاوون سرعان ما تمكن من السيطرة على الشام وتوحيد البلدان مصر والشام وهرب سنقر الأشقر إلى المغول ولكن بحسن سياسة قلاوون تمكن من استعادة الأشقر إلى صفوف المسلمين وجعله يخوض الحرب ضدهم في موقعة حمص الكبرى ١٢٨١م./٦٨٠ هـ.حيث حقق قلاوون النصر الحاسم ضد المغول.

يقول المقريزي : " وبعد خروج السلطان من دمشق إلى حمص لملاقاة التتار خرج الناس بأسرهم في جامع دمشق ــ على ما وصفه المقريزي ــ وتضرعوا إلى الله وضجوا وبكوا وحملوا المصحف العثماني على الرؤوس وخرجوا من الجامع إلى المصلى خارج البلد وهم يسألون الله النصر على الأعداء [٩] .

• وفي سنة ٦٨١ هـ.وصلت رسل الملك تكدار بن هولاكو سلطان التتر وقد تسمى بـ (احمد آغا سلطان بن هولاكو) بكتاب موجه إلى السلطان يعلن فيه أنه مسلم وأنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف وأمر بتجهيز الحجاج وسأل إجماع الكلمة وإخماد الفتنة والحرب...وبالغ في استجلاب خاطر

(٦) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٦٦٤ .
(٧) م.ن
(٨) م.ن
(٩) م.ن ، ص ٦٩١ .

السلطان وتاريخ الكتاب جمادى الأولى فأجيب بتهنئته بالإسلام والرضى بالصلح [10].

- كان مهتما بعسكره سواء في الشام أو في مصر ، وكان يحرص على تفقد طعامهم بنفسه وعلى أمر تثقيفهم وتربيتهم وتعبئتهم دينيا حتى قال المقريزي: (لو لم يكن من محاسنه إلا تربية مماليكه ... لكفاه ذلك عند الله).
- أعاد ترتيب الإدارة وتنظيمها واستحدث مجموعة مناصب إدارية وعسكرية...اسندها إلى مجموعة ممن توسم فيهم الخير والكفاءة فرضي من أعيانه من رضي وغضب من غضب وهي المشكلة إياها التي كانت ولا تزال محور صراع الناس ...

واستحدث السلطان عرفا في تقليد القضاة الأربعة الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي فجعل قاضي القضاة الشافعي مولى في أعمال مصر قضاة ينوبون عنه في الأحكام بينما قضاة المذاهب الأخرى يحكمون بغير نواب ... [11].

- وكان من أولى اهتماماته العمرانية أن أنشأ القبة الخضراء في المسجد النبوي في المدينة المنورة والتي غدت معلما أساسيا للمسجد النبوي .
- " وقد أمر المنصور قلاوون بناء القبة على الحجرة النبوية عام ٦٧٨ هـ. وكان قبلها، في موازاة حجرة النبي في سطح المسجد مقدار نصف قامة مبنى بالآجر تمييزا للحجرة الشريفة عن بقية سطح المسجد . وأمر السلطان منصور ببناء القبة الخضراء وكانت " مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤوس السواري ، وسُمِّرَ عليها ألواح من خشب ، ومن فوقها ألواح الرصاص ، وفيها طاقة إذا ابصر الشخص منها رأى سقف المسجد الأسفل الذي فيه الطابق ، وعليه المشمع وحول هذه القبة على سقف المسجد ألواح رصاص مفروشة فيما قَرُبَ منها ، ويحيط به وبالقبة درابزين من الخشب جُعِلَ مكان الحظير الآجر ، وتحته أيضا بين السقفين شباك خشب يحكيه محيط بالسقف الذي فيه الطابق، وعليه المشمع المتقدم ذكره) .

وعلى ما أورده السمهوري صاحب كتاب وفاء الوفا..." وقصد قلاوون الصالحي بذلك – أي باتخاذ القبة – أن من إكرام النبي وصاحبيه هو اتخاذ هذه القبة فوقهم على الحجرة الشريفة" [12].

- لم يحلْ اهتمامه بالجهاد وبمهاجمة المغول وتحرير طرابلس وسهولها الشمالية والساحل في طرطوس واللاذقية وحصون عكار المختلفة ، عن الاهتمام

(١٠) م.س، ص ٧٠٨ .
(١١) م.ن ، ص ٦٦٨ .
(١٢) مجلة الفرقان الكويتية : العدد ٥٣ أيلول /١٩٩٤م.

بالشؤون التربوية والصحية في مصر ، فها هو يحرص على تعميم التعليم (المجاني طبعا)، وأنشأ لذلك مدرسته المعروفة باسمه كما أنشأ المستشفى العظيم التي لا تزال حتى اليوم تحمل اسمه ، وان اقتصرت في هذا الزمن على طب العيون ، إلا أنها كانت يومئذ تعالج الأمراض كأحدث ما تكون المشافي

- وقبل أن يرتقي قلاوون السلطنة... مرض في دمشق وادخل مستشفى النوري فيها وبعد شفائه طافت به أمنيته انه إذا تربع على العرش – في مصر – فانه يبني مستشفى يكون اعظم مستشفى على وجه الأرض فلما كان له ما أراد بنى مستشفاه المنصوري وعندما انتهى من بنائه تناول قدحا من عصير الليمون من المستشفى وشربه وقال : " بنيته لوجه الله لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس من هو مثلي أو دوني وخصصته للحكام والخدم للجنود والأمراء للغني والفقير للحر والعبد للذكور والإناث " ولقد سهر السلطان على راحة المرضى بنفسه ونصب عليه مشاهير الأطباء آنذاك : كابن النفيس وابن رضوان وغيرهم ... وكان المستشفى يستهلك ما قيمته مليون درهم ذهبيا سنويا [13].
- وكان قلاوون قد اشترى دارا للأقباط – من خالص ماله – وعوضهم عنها بقصر الأمرد في القاهرة في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٨٢ هـ. ثم كلف الأمير علم الدين في عمارتها مارستانا وفيه مدرسة باسم السلطان الملك المنصور قلاوون فاظهر من الاهتمام في العمارة ما لم يسمع بمثله [14] حيث تم إنجاز المستشفى في عام ٦٨٣هـ [15].

" وتشتمل واجهة قبة مدرسة وبيمارستان قلاوون على عقود محمولة على عمد رخامية وبداخل العقود شبابيك مفرغة بزخارف هندسية ويؤدي المدخل إلى دهليز طويل إلى يمينه القبة والى يساره المدخل وفي نهاية الدهليز يؤدي إلى البيمارستان والقبة محمولة على أربعة عمد من الجرانيت وأربع أكتاف وهي من اجمل المباني بالقاهرة بما فيها من أعمال الرخام الدقيق المطعم بالصدف والشبابيك المفرغة بأشكال هندسية ويعتبر محراب هذه القبة من اكبر وأفخم المحاريب في مصر" [16].

(١٣) مجلة الضياء اللبنانية الطرابلسية : العدد الثالث ، ص ٤٧ و٤٨ .
(١٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ص ٧١٦ ، ٧٢٥ .
(١٥) م ن.
(١٦) الموسوعة العربية الميسرة : ص ١٣٦ .

وكان يحب الرياضة وكان أول من ركب إلى الميدان في القاهرة ولعب بالكرة وفرق فيه مئة وبضعا وثلاثين فرسا وسروج محلاة وخلع على الأمراء خلعا سنية[١٧].

- ولما مات ولي عهده ابنه علي عيَّن ابنه الآخر الأشرف خليل وكان ذلك في عام ٦٨٥هـ.
- كان مرن السياسة يقدر المواقف.فهو قد هادن وعقد الاتفاقات مع الصليبيين وحاربهم وكان يصر على إدخال بنود في الاتفاق تحمي أوضاع البلاد من تدخل الإفرنج في الشؤون الداخلية أو يجعل من بعض البنود الأخرى أسبابا لإعلان الحرب على الممالك الصليبية في الشام بعد أن يكون قد استكمل العدة وأخذ بأسباب النصر .
- وكان هذا شأنه في هدنته مع أمير طرابلس الصليبي كما سنرى وفي هدنته مع والي عكا الصليبي يقول **أمين معلوف:**

" إن نص المعاهدة التي عرضها على مملكة عكا لتؤلف محاولة فريدة من قبل هذا الإداري الماهر المستتير لـ"تطبيع" وضع الفرنج يقول النص :

" متى تحرك أحد من ملوك البحر الإفرنجية وغيرهم (...) لقصد الحضور لمضرة(...) السلطان أو مضرة ولده (...) فيلتزم نائب المملكة والمقدمون بعكا تعريف (...) السلطان بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد بمدة شهرين.وان وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون براء من عهدة اليمين في هذا الفصل .

وان تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم فأي من سبق إليه من الجهتين فيعرف الجهة الأخرى.وعلى انه أن قصد البلاد الشامية ـ والعياذ بالله ـ عدو من التتار وغيرهم من البر وانحازت العساكر قدامهم (...) فلكفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يداروا عن نفوسهم ورعيتهم وبلادهم..."[١٨].

وقد علق مؤرخ الحروب الصليبية ستيفن رنسيمان على نجاح قلاوون في جر عكا وطرابلس إلى معاهدتين تشكلان في مضمونهما ضمانا ضد المغول:

" وكان ذلك انتصارا دبلوماسيا لقلاوون إذ أن توحيد الفرنج لجهودهم على أحد جناحي جيشه ولو لم تقدم إمدادا من الغرب ، كان لا بد أن يعرقل لقتال المغول"[١٩].

(١٧) م .ن ، ص ٦٦٩ .

(١٨) أمين معلوف : الحروب الصليبية كما رآها العرب ترجمة د. عفيف دمشقية ص٣١٢ـ٣١٣.

(١٩) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣، ص ٦٦١.

- (أراد المنصور قلاوون مرة أن يبني مصطبة عليها رفرف يقيه حر الشمس ليجلس عليها ، فكتب له الشجاعي تقدير مصروفها أربعة آلاف درهم ، فتناول الورقة من يد الشجاعي ومزقها وقال : " اقعد في مقعد بأربعة آلاف ! انصبوا لي صيوانا إذا نزلت ، ولا أخرج من بيت المال لمثل هذا شيئا)[٢٠].
- كان من أبرز فتوحاته وأعماله العسكرية والجهادية تحرير طرابلس ثم هدمها وأعاد بناءها من جديد ومن مبانيها التي لا تزال تحمل اسمه المسجد الكبير في طرابلس المعروف بالمسجد المنصوري (نسبة إلى المنصور قلاوون) وقد أنشده الشعراء مخلدين ذكراه في فتح طرابلس وقال فيه **شهاب الدين محمود:**

"فإنْ تكُ قد فاتتك بدرٌ فهذه
بما أنزل الرحمنُ من نصره بدرُ
ولما غدَتْ لا فخر مثل افتتاحها
أبى الله إلاّ أن يكون لك الفخرُ"

ولمّا ردَّ الله عليه " ضالة العز ـ طرابلس ـ بعد أن ، فاتت آخرين غيره " ، كبيبرس وصلاح الدين ، كما قال قلاوون نفسه ، في رسالة التهنئة التي أرسلها إلى قادة وملوك المسلمين ومنهم ملك اليمن ختم رسالته تلك بقوله الإيماني البالغ الذي يكشف سجاياه ومواقفه: " ونرجو بقدرة الله ولطفه أن نقترع ممالكهم دروة دروة ونأتي إلى عقد قراهم فنحلها عقدة عقدة ونخلي ديارهم ونعيد كلمة الإيمان إلى أوطانها إلى أن نلقى الله عز وجل بيض الوجوه ونجد في مجازاته ما نرجوه والله تعالى يثبت في صحائف المولى أجر السرور بهذه المتجددات التي يعظم بها أجر الحامد الشاكر ويجعل له أوفى نصيب من ثواب الغزوات" .

قال فيه المؤرخ عماد الدين إسماعيل أبي الفدا وقد عاصره وكان معه في جيشه لما فتح طرابلس:

" كان السلطان الملك المنصور...ملكا مهيبا حليما قليل سفك الدماء كثير العفو شجاعا فتح الفتوحات الجليلة مثل المرقب وطرابلس التي لم يجسر أحد من الملوك مثل صلاح الدين وغيره على التعرض إليهما لحصانتهما وكسر جيش التتار على حمص وكانوا من جمع عظيم لم يطرق الشام قبله مثله ولا يحتمل هذا المختصر ذكر فضائله رحمه الله تعالى ورضى عنه"[٢١] .

(٢٠) المقريزي :السلوك لمعرفة ملوك الدول ، ج ٢ ، ص ٥٣٧.

(٢١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٤

وقال فيه خير الدين الزركلي في الأعلام (قاموس تراجم الرجال والنساء) : "وأغار التتار على بلاده فقاتلهم وظفر بهم وكان من أجلّ الملوك " المماليك قدرا " ومن أكثرهم آثارا " شجاعا كثير الفتوحات أبطل بعض المظالم ، ومن آثاره "البيمارستان" بين القصرين".

- واصدر السلطان قلاوون في شعبان ٦٨٨ هـ.مرسوما قضى إلا يستخدم – أحد من أهل الذمة – اليهود والنصارى– في شيء من المباشرات الديوانية فصرفوا عنها[٢٢].
- وللمنصور قلاوون آراء ومواقف دقيقة في الخلافة والحكم وولاية العهد وتعيين الولاة وتنظيم المجتمع ومعاملة غير المسلمين والتجارة والمال والاقتصاد والعلم والطب...وقد أثبتنا في نهاية الكتاب ، في فصل خاص ، تلك الآراء مما يساعد على تسليط الأضواء على شخصية هذا القائد الفاتح الذي يرتقى به إلى مصاف العظماء.
- توفي المنصور **قلاوون** ليلة السبت في السادس من ذي القعدة ٦٨٩هـ/١٢٩٠ م بعد أن رأس حملة عسكرية خرج بها من مصر بهدف تحرير عكا من الصليبيين غير انه عاد محمولا على الأكتاف فقد مات – رحمه الله – قبل أن يغادر حدود مصر...وبويع بالملك ابنه السلطان الأشرف خليل ...

وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوما وعشرة نحو سبعين سنة وخلفه ابنه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل.

* * *

(٢٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ص٦٥٣ .

الفصل الثالث

الظروف الدولية والإقليمية
قبل تحرير طرابلس

١ – عندما تولى المنصور **قلاوون** السلطنة في شهر رجب ٦٧٨هـ/١٢٧٩م كان الخطر المغولي يتجدد عبر محاولات المغول المتكررة للهجوم على بلاد الشام رغم هزيمتهم الكبرى في عين جالوت عام ٦٥٨هـ.

ويبدو أن حلفا أو تفاهما قد حصل بين القوى الصليبية العالمية وبين المغول، فأم **هولاكو** ، قائد المغول ، نصرانية نسطورية وقائد قواته **كتبغا** نصراني أرمني ٠ وكان من شأن ذلك تسهيل التحالف بين البابا ولويس التاسع من جهة وبين المغول من جهة أخرى ففي ترابط الاثنين معا قوة خارقة بإمكانهم (حسب ظنهم) أن تبيد المسلمين وتحقق ما عجز كل فريق عن تحقيقه منفردا .

وهكذا نشأ تحالف دولي ظاهر أو خفي وثني صليبي ضد الإسلام والمسلمين٠٠٠ وظهر المغول – أو هكذا قيل لنصارى الإفرنج وأهل البلاد – (على انهم الثائرون لنصرة المسيحية... وقد أرسلهم الله لتحطيم الإسلام) حسب زعمهم[١].

٢ – غير أن السلطان **قلاوون** وكان خبيرا بشؤون بلاد الشام عبر جولاته العسكرية مع الظاهر بيبرس ومراقبته لتطور الأحداث الدولية والمحلية ولخصوصيات الإمارات الصليبية وحكامها ، قد وجد من الحكمة أن يحاول الفصل بين القوى الصليبية المحلية وبين المغول ، فيهادن الأولى ليتفرغ لمقاومة الآخرين فدخل في مهادنة الفرسان الاسبارتية في عكا لعشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام في ١٢محرم من ١٢٨١/٦٨٠ وبعد شهرين تقريبا في ٢٧ ربيع الأول كانت قد انتهت المفاوضات مع بوهمند السابع صاحب طرابلس فجدد الهدنة المعقودة أصلا مع الظاهر بيبرس على شروط أخرى شملت أمورا إدارية كالإشراف على بعض النواحي في كونتينية طرابلس الممتدة حتى إنطاكية في الشمال ، وأمورا اقتصادية وتجارية مختلفة ومسائل عسكرية بامتناع الطرفين عن تجديد أو أحداث بناء القلاع بجوار مناطق سيطرة الطرفين.

على أن أهم بنود الاتفاق كانت سياسية وعسكرية في آن معا وهي التي قصدها **قلاوون** من تلك المهادنة وهي :

أ – لكل من الطرفين الحق في الدفاع عن ممتلكاته في حال عدوان أجنبي (ويقصد قلاوون هنا التتار فبلاده هي المعرضة لا بلاد بوهمند) .

(١) د. سيد الباز : المغول ، ص ٢٢١ .

ب ـ على **بوهمند** أن لا يتعاون مع أعداء السلطان (طبعا هنا التتار أيضا) وان لا يتفق معهم.

ج ـ وتعتبر الهدنة سارية المفعول لمدتها ولا تتغير بتغير وضع الطرفين بالنسبة للإفرنج والتتار.

وجاء في نص الهدنة : " ولا ينتقض ذلك بموت أحد من الجهتين ولا بتغيره، ولا برجل غريبة من الفرنج أو التتار بل تكون هذه الهدنة باقية ومتى جاءت رجل غريبة يداريهم (أي **بوهمند** حاكم طرابلس) عن بلاده وعن نفسه ولا يدخل في مشورة تؤدي إلى اعتماد سوء أو مكروه ولا يحسن لأحد من أعداء مولانا السلطان ولا يتفق عليه برمز ولا خط ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة فتقرر الحال على ذلك وعادت رسل كل جهة إليها "(٢) .

٣ ـ ولا شك أن هاتين المهادنتين في عكا وطرابلس ، أراحت قلاوون وكانت نصرا سياسيا كبيرا له جعلته يتحرك بحرية لدفع خطر المغول وليتربص بالصليبيين الدوائر خاصة في إمارة طرابلس.

يقول ستيفن رنسيمان في كتابه تاريخ الحروب الصليبية :

" كان الايلخان أباقا ـ زعيم المغول ـ حريصا على أن يقاتل المماليك قبل أن يستطيع قلاوون توحيد مركزه وإذ لا زال سنقر نائب دمشق السابق يتحدى المصريين في شمال سوريا عبر نهر الفرات في نهاية سبتمبر ١٢٨٠ م جيش مغولي ودخل حلب حيث نهب الأسواق وأشعل الحريق في المساجد...

" وحوالي ذلك الوقت...ظهر في عكا سفير مغولي قدم لينهي إلى الفرنج أن الايلخان اقترح أن يرسل إلى سوريا في الربيع التالي جيشا مؤلفا من مئة ألف رجل وليلتمس منهم أن وَعَدُوه بالرجال والذخائر...

" على أن نبأ الغارة المقبلة للمغول أزعج قلاوون فعقد صلحا مع سنقر [نائب دمشق السابق الذي أعلن خصومته لقلاوون]...وأرسل إلى عكا يعرض عقد هدنة مع الطوائف الدينية العسكرية لمدة عشر سنوات...ودافعت الطوائف الدينية العسكرية عن الهدنة التي تم إبرامها في ٣ مايو وعقد بوهمند [صاحب طرابلس] هدنة مماثلة مع قلاوون في ١٦/يوليو، وكان ذلك انتصارا دبلوماسيا لقلاوون إذ أن توحيد الفرنج لجهدهم على أحد جناحي جيشه ، لو لم تقدم إمدادات من الغرب ، كان لا بد أن يعرقل خصمه لقتال المغول) (٣).

٤ ـ وبعد ذلك اخذ قلاوون يتطلع إلى وجوب إفهام أمراء الصليبيين في بعض الساحل الشامي سياسته القاضية بالقضاء على كل تحالف صليبي مع

(٢) راجع النص الهدنة في وثائق كتاب تاريخ طرابلس السياسي والحضاري . للدكتور عمر تدمري ، ص ٦٢٩ .
(٣) أمين معلوف : الحروب الصليبية كما رآها العرب ، ص ٣١٤

المغول فقرر في عام ١٢٨٥ م أن يحتل حصن المرقب لتطبيق سياسته من جهة ولإنجاح خطته في تهيئة الأجواء وتحرير طرابلس من جهة أخرى .وحصن المرقب يقع شمال طرابلس وكان بيد "الاسبتار" وكان هؤلاء الرهبان ـ الفرسان قد انحازوا إلى المغول وذهبوا إلى حد القتال إلى جانبهم في محاولة غزو جديدة قاموا بها عام ١٢٨١م. وهكذا فقد عزم قلاوون على جعلهم يدفعون ثمن انحيازهم.ويقول لنا ابن عبد الظاهر انه في ربيع عام ١٢٨٥ م:

" جهز [السلطان] المجانيق من دمشق (...) وكان قد جهز(...) زردخاناه عظيمة من مصر فيها أحمال كثيرة من النشاب وغيره (...) فرق على الأمراء وجهزت آلات من الحديد والنفط مما لا يوجد إلا في ذخائره وخزائن سلاحه (...) واستخدمت جماعة كبيرة من الصناع الذين لهم خبرة بالحصارات (...) ونصبت المجانيق (...) ومن جملة ذلك مجانيق إفرنجية ثلاثة (...) ومجانيق شيطانية أربعة (...في ٢٥ أيار/ مايو) كانت النقوب قد أخذت من تحت الخنادق(...) فسقط في أيديهم [أي الفرنج] (...) فأجابهم [أي **قلاوون**] إلى العفو والأمان (...) ومن له مال يتعلق بنفسه ينعم عليه به.

" ومرة جديدة عوقب حلفاء المغول من غير أن يتمكن من التدخل ٠ ولو أرادوا ذلك لما كفتهم الأسابيع الخمسة التي استغرقها الحصار لتنظيم حملة تنطلق من فارس . مع ذلك فقد كان التتار في تلك السنة ، ١٢٨٥ م ، أكثر عزما من أي وقت مضى على استئناف هجومهم على المسلمين ٠ وكان زعيمهم الجديد الخان أرغون حفيد **هولاكو** قد احتضن اعز الأحلام على قلب أسلافه : تحقيق تحالف مع الغربيين للإيقاع بالسلطنة المملوكية في فك كماشة ٠ وهنا قامت اتصالات منتظمة بين تبريز وروما لتنظيم حملة مشتركة أو متوافقة في توقيتها على الأقل.وفي عام ١٢٨٩م.استشعر **قلاوون** خطراً وشيك الوقوع ، وان لم يتمكن عملاؤه من تزويده بأخبار دقيقة محددة.وكان يجهل على الأخص أن خطة قتال دقيقة وضعها **أرغون** كانت قد عرضت خطيا على البابا وملوك الغرب الرئيسيين.وقد حفظ الزمن إحدى تلك الرسائل ، وكانت قد وجهت إلى العاهل الفرنسي فيليب الرابع الجميل ٠ ويعرض فيها الزعيم المغولي أن يبدأ اجتياح بلاد الشام في الأسبوع الأول من كانون الثاني/يناير ١٢٩١م.وكان يتوقع سقوط دمشق في منتصف شباط /فبراير والقدس بعد ذلك بقليل.

" ومن غير أن يعرف **قلاوون** ما كان يحاك إلا انه كان يدرك مخاطر أي تفاهم بين أوروبا والمغول وعلى هذا فقد ازداد قلقه وتعاظم ، فهو يخشى أن يتخذ غزاة الشرق أو الغرب من المدن الإفرنجية ببلاد الشام رأس جسر يسهل عليهم أمر دخولهم على سائر بلاد المسلمين وعلى الرغم انه بات مقتنعا بأن الوجود

الإفرنجي يؤلف خطرا دائما على سلامة العالم الإسلامي فانه كان يرفض الخلط بين أهل عكا وأهل النصف الشمالي من بلاد الشام ممن اظهروا علناً تعاطفاً مع المجتاح المغولي على عكس أهل عكا وعلى أي حال فانه لم يكن في وسع السلطان الذي يرعى عهوده أن يهاجم عكا التي لا تزال تحميها خمسة أعوام أخرى من معاهدة الصلح ، وعليه فقد صرف جهده إلى طرابلس التي سهّل عليه حاكمها نقض تعهداته ، وهكذا احتشد جيشه القوي في آذار/مارس ١٢٨٩ م. تحت أسوار المدينة التي غنمها ابن سان جيل **(صنجيل)** قبل مئة وثمانين عاما[٤] .

(٤) كمال الصليبي : منطلق تاريخ لبنان ، ص ٩٤ .إلا أن الأستاذ الصليبي اخطأ في زمن لوقا هذا فقد أعاده إلى عام ١٢٨٢ والصحيح أن في هذا العام أو قبله وسد أمر البطريركية إلى دانيال الحدشيتي وهو الذي جرى اعتقاله من قبل التركمان الفصيل المقاتل في الجيش الإسلامي الدمشقي أما لوقا النبهراني فقد تعاون مع القوات الإسلامية بقيادة نور الدين زنكي الذي تمكن من احتلال حصن المنيطرة القريب من جبيل الساحلية في جبل لبنان ، وكان لوقا هذا معارضاً لفرض الكثلكة أو الانحراف بالطقس الماروني الشرقي إلى الطقوس الغربية وعاش في النصف الأول من القرن الثاني عشر أي (١١٤٥ وما بعدها).

الفصل الرابع

موقف نصارى الجبال المحيطة بطرابلس

من المفيد هنا أن نعقد دراسة موضوعية لموقف نصارى الجبال المحيطة بطرابلس إزاء حملة قلاوون لتحرير المدينة ولموقفهم من الإمارة الصليبية وهي دراسة مهمة تعين على فهم الأحداث ودحض بعض الافتراءات والتحريف فنقول:

١ ــ بوجه عام لم يكن للنصارى في جبال الشمال المحيطة بطرابلس ، وهم الموارنة، عند قدوم الصليبيين ، قيادات سياسية أو عمل سياسي متميز فقد كانوا جماعات متفرقة كما كانوا على علاقة ممتازة مع المسلمين عبر العصور حتى انهم عند قدوم الصليبيين بقوا على ودهم للمسلمين خاصة وان الصليبيين على غير مذهب المارونية القديمة.

إلا أن استمرار الاحتلال الصليبي لبلاد الساحل أوجد نوعا من تطبيع العلاقات مع نصارى الجبال الذين بدأوا يتحولون تدريجيا إلى الكثلكة وتثور لديهم نزعات أدت بهم في بعض الأحيان إلى بروز شعور النفور من المسلمين والتعاون الأوثق مع الصليبيين رغم انهم كانوا لفترات طويلة مع المسلمين ضد الصليبيين بل انهم سلموا مسالك الأودية للقائد **ابن بزواج** على رأس الجيش الدمشقي الزاحف على إمارة طرابلس ــ كذلك فعل نصارى الكورة فيما بعد كما رأينا في فصل محاولات استرجاع المدينة ــ مما دفع صاحب طرابلس الصليبي ــ بعد انسحاب الجيش الدمشقي من الصعود إلى بشري والحدث فقتل منهم جماعة وخرَّب الديار ... وحمل أسرى منهم جرى قتلهم في طرابلس أمام الصليبيين .

ولن نعقد هنا مناقشة مطولة لوضع النصارى في بلاد الشام وعلى الأخص موارنة الجبال فقد بسطنا الأمر وناقشناه تفصيلا في كتابنا (قراءة إسلامية في تاريخ لبنان والمنطقة) على أن الأمر عِند بعض الموارنة الذين فضلوا الاتحاد مع الكثلكة وروما ــ كما ذكرنا ــ أخذ يتحول إلى التعاون مع الغزاة ضد مصالح البلاد ــ وفق ما ذكر المؤرخ الماروني **يوسف دبس** ــ وعطف بقوله : (مما يورث سكانها غوائل الخلاف).

٢ ــ بلغ الانشقاق في الطائفة المارونية ذروته في النصف الأول من القرن الثاني عشر فقام الموارنة الخارجون عن طاعة بطريركهم آنذاك وكذلك عن طاعة الفرنجة بانتخاب **لوقا النبهراني** بطريركا عليهم (واتخذ البطرك لوقا من قرية الحدث ناحية بشري مقرا حصينا له وأخذ يناهض الفرنجة في طرابلس)

وقد كان لهذا البطريرك الأثر الفعال في ترجمة التطلعات المارونية باتجاه سكان البلاد الأصليين من المسلمين...

٣ ــ ويبدو بعد مهادنة **قلاوون ــ بوهمند** ظهر في الحدث وحدشيت في جبال بشري البطرك دانيال ، راح يوجد لنفسه متنفسا (فاظهر التكبر والتجبر في نواحي طرابلس وخافه بوهمند السابع نفسه وشمخ بأنفه ولم تستطع قوات بوهمند أن تغلبه) وراح على ما يبدو يهاجم القرى المحيطة بطرابلس وبعضها مسلم سواء في الكورة أو في زغرتا وقد عقب المؤرخون المسلمون على حوادث عام ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م،على تصرف **دانيال** (لولا خوفه من سطوة مولانا السلطان لخرب تلك البلاد وفعل ذلك أو كاد) كما ذكر محي الدين ابن عبد الظاهر واضع سيرة السلطان قلاوون.

وقد أفسحت هذه التعديات المجال أمام العساكر الإسلامية بقيادة نواب السلطان قلاوون في تخوم كونتينية طرابلس لاغتنام الفرصة والتخطيط للتخلص من دانيال وتعدياته ولإظهار القوة أمام بوهمند الذي عجز عن ملاحقته فسيروا مجموعة من التركمان أمسكوا بدانيال وتابعوا أعوانه في مناطقهم المنيعة وقد جرى ذلك أيضا بالتعاون مع بعض النصارى من أهل الجبال الذين ضاقوا ذرعا بتصرفات جماعة دانيال.

٤ ــ زد على ذلك فقد كان على رأس مقدمي بلاد بشري وتوابعها المقدم سالم بين عامي ١٢٥٠ و١٢٩٢ وكان في توجهاته منسجما مع المماليك متفاهما معهم هذا الانسجام الذي اعتبره الأب بطرس ضو في كتابه تاريخ الموارنة ج ٣ ص ٤٦٤ انه (كان متواطئا مع المماليك) وهو قول ينبئ مدى إدراك الموارنة آنذاك لحسن العلاقة مع مواطنيهم المسلمين ضد الفرنجة ، وهو ما يؤكده المؤرخ دبس بان واقعة القبض على دانيال أخافت بعض موارنة البلاد ــ الذين انحرفوا ــ وبصّرتهم بغوائل الخلاف مع أهل البلاد المسلمين ويذكر بطرس ضو في كتابه المذكور أسماء مقدمين آخرين كانوا في مناطق الجبال كالمقدم سالم ، مع المماليك ، ويصفهم ضو بأنهم (خونة) فقال :

" ومثلما تواطأ مقدم بشري مع المماليك المعتدين لفتح حوقا وغيرها ، ومثلما تواطأ معهم أيضا ابن الصبحا الكفرسغابي "هكذا تواطأ معهم إحداها في بريسات. (١)".

فاذا كان أعيان الموارنة ومعهم أهلهم في تلك المناطق مع المماليك فأي تعسف يتعسفه مؤرخو الموارنة ليخترعوا وجود عداوة مستحكمة بين النصارى والمسلمين على ممر الأيام وبخاصة في العهد الصليبي وما قبله !!!

(١) بطرس ضو : تاريخ الموارنة ، ج ٣ ،ص٤٦٥

٥ ــ وبلاد بشري وتوابعها لم تكن أيام الصليبيين وقبلهم بلادا لا تواجد للمسلمين فيها أي أنها لم تكن حكرا على الموارنة النصارى بل أن مجموعات من المسلمين كانوا يعيشون في تلك البلاد بين المجموعات المارونية خلافا لتقديرات مؤرخين الموارنة وكانوا يتدارسون القرآن والإسلام.

وقد ذكر الإمام الفقيه الزاهد الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي الحسن بن أبي الفرج الجبائي (نسبة إلى جبة بشري) الطرابلسي الشامي المعروف بنزيل أصبهان وهو يروي قصة إسلامه : " كنا قوما نصارى فتوفي أبي ونحن صغار وكان أبي من علماء النصارى وهم يعتقدون فيه انه يعلم الغيب (...) فلما مات أخذتني والدتي إلى المعلم ليعلمني فقالت له : إن لي ثلاثة أولاد هذا أصغرهم ــ وأشارت إلي ــ وان أخاه الكبير احتاج إليه للكسب ولعمارة أرضنا وكذلك أحتاجُ لأخيه الأوسط للغرض نفسه وولدي الصغير هذا يضعف عن الكسب فخذه عندك ليتعلم • فقال لها المعلم : أما هذا الصغير فأعاني منه دون فائدة ولن يتعلم • ولكنني سآخذ ذاك ــ وأشار إلى أخي الأوسط ــ فأخذه وعلّمه ليكون مقام أبي ، فقدر الله أن وقعت حروب ، فخرجنا من قريتنا جماعة من المسلمين يقرأون القرآن إذا سمعتهم ابكي فلما دخلت ارض الإسلام أسلمت وعمري بضع عشرة سنة.ثم بلغني إسلام أخي الكبير وتوفي مرابطا ثم اسلم أخي الذي كان يعلمه المعلم ودخلت بغداد في سنة ٥٤٠ هــ.) (٢)

٦ ــ ومن جهة أخرى فقد أخافت حادثة تأديب دانيال وجماعته بوهمند ، صاحب طرابلس ، إذ رأى عسكر المسلمين يحققون ما عجز هو عن تحقيقه...مما جعله يلوذ بصمت مع خوفه من قوات السلطان قلاوون.

٧ ــ إن حادثة دانيال التي وقعت في ١٢٨٣ م• تكذب بذاتها ما أورده المؤرخ الماروني بطرس الشدياق في كتابه أخبار الأعيان حيث قال : " إن المردة ، لما حاصر قلاوون طرابلس عام ١٢٨٧ (كذا) ، (قتلوا من عسكره خلقا كثيرا ".

فأول أمر يلتفت إليه في رواية الشدياق ذكره الحصار في عام ١٢٨٧ م.في حين أن الحصار والفتح في عام ١٢٨٩.

وثانيها : إن موارنة بشري وتوابعها ــ كانوا قد أعانوا قوات نواب قلاوون في ١٢٨٣ للقبض على جماعة دانيال وان يكن تلك القوات قد خربت ودمرت ممتلكات وقرى الجماعة الذين ناصروا **دانيال**.

وثالثها : أن لا مصلحة للموارنة في الانتصار لصليبيي طرابلس أمام جيش السلطان قلاوون الذين خافوه من قبل أن يأتي ، فكيف بعد أن أتى ومعه مئة

(٢) د.عمر تدمري : الدكتور جعجع ليس أول مسلم في بشري ، مجلة التقوى الطرابلسية ، العدد ٥٠ ، تشرين الأول ١٩٩٥ :، ص١٠ــ١١ .

وأربعون ألف مقاتل ؟ وقد عبر جيش قلاوون بجنوده جبال لبنان ومعابرها الصعبة وصولا إلى طرابلس ، ومن الطبيعي أن يكون قد مر جيش قلاوون أو بعض فرقه على بلاد بشري حيث النصارى الموارنة ولا ريب انهم أعانوه بتسليم المسالك والمعابر كما فعلوا قبل مئة عام مع جيش **ابن بزواج** (كما رأينا من قبل في المحاولة الثانية لاسترجاع طرابلس) وقد جاء ذكر جبال لبنان في كتاب الملك الأشرف خليل ولد السلطان منصور إلى ولاة الأمصار ومنها إلى صاحب اليمن يزف بشرى فتح طرابلس فقال : " فامتطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ومعارج لا ترافق بها غير الرياح الهوج ، وانحطت تلك الجيوش من تلك الجنادل ، انحطاط الأجادل واندفعوا في يتلك الأوعار ، ولم يحفل أحد منهم بسرب لاصق ولا بجبل شاهق فقال: هذا منخفض أو عال ، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب ، حتى جروها بأسرع من جر النفس ، وأجروها على الأرض سفائن وكم قالوا : "السفينة لا تجري على يبس" [(٣)] .

رابعها : انه في حصار طرابلس وفتحها لم يقتل من جيش قلاوون إلا نفر يسير إذ سقط خمسة وخمسون شهيدا كما سنرى خلافا لما زعمته بعض مصادر التاريخ الماروني من أن عددا كبيرا من المسلمين تجاوز الآلاف قتلوا في معركة فتح طرابلس.

خامسها : وعلى افتراض صحة تعديات بعض الموارنة المتعاونين مع افرنج طرابلس ، على جيش السلطان وقتلهم نفرا منه إذ جاؤوه من الخلف ــ وهو ما ذكره **الشدياق** ضمن أغراض التضخيم والتحريف مخالفا بذلك (المؤرخين العرب والإفرنج معا) على ما يذكره مؤرخ طرابلس الشام حكمت شريف ص ٧٦ فان السلطان قلاوون ــ بعد أن انتهى من أمر طرابلس لم يسير قواته المنصورة إلى المردة في الجبال وكان قد أذن من قبل لقوات نوابه تخريب قرى دانيال فكيف إذا ما اعتدى عليه وعلى جيشه بعض النصارى إياهم الذين أدبهم من قبل !!! الأمر الذي يثبت عدم صحة هذه التعديات أصلا • ونفترض جدلا أن المنصور لم يخول جيشه أو بعض جيشه اجتياز جبال لبنان واتى طرابلس عن طريق البقيعة كما يقول ستيفن رنسيمان [(٤)] وعلى افتراض أيضا أن قلاوون لم يكن مطمئنا إلى نصارى الجبال لكان الواجب العسكري يفرض عليه أن يفرد لهم فصائل من جيشه الكبير لمنعهم من الوصول إلى خلف مواقعه أو لإرعابهم فيمكثون في جبالهم ينتظرون نتائج المعركة أو يدخل معهم في مناوشات جانبية بهدف إفشالهم ــ وهذا كله على افتراض جدلي أثبتنا عكسه يزعم أن الموارنة منظمون عسكريا

(٣) راجع نص الكتاب في الوثائق الملحقة بتاريخ طرابلس السياسي والحضاري ، للدكتور عمر تدمري ، ص ٦٤٣

(٤)ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٦٨٥

ولهم قيادة سياسية واحدة وانهم ضد سكان البلاد المسلمين...وهو افتراض لا صحة له وليكن مراجعة وقد ناقشناه ورددنا عليه في كتابنا "قراءة إسلامية لتاريخ لبنان والمنطقة" زد على ذلك وباعتراف مؤرخي الموارنة القدامى والمحدثين فان اكبر النافذين في موارنة ذلك الزمان كان في بشري وهو المقدم سالم وابن الصبحا الكفرسغابي وسواهما وفق ما رأينا وهؤلاء كانوا على تفاهم وود مع القيادة المملوكية والمسلمين إلى حد انهم اتهموا بالعمالة لهم فكيف يكون التعديات منهم !!!.

ومما يؤكد اختلاق رواية التعديات أن السلطان المنصور هدم سور المدينة وبنى مدينة جديدة مفتوحة على عمق الجبال وهو ما يؤكد اطمئنانه بوجه عام إلى نصارى الشمال لا العكس.

* * *

٨ ــ إن علاقة النصارى بالمسلمين كانت إلى زمن ماض ، حسن جوار ومواطنية، وان ظهرت الخيانة ففي بعضهم ــ كما كان الأمر عند بعض المسلمين أيضا ــ ولا يجوز تعميم الجزء على الكل وتضخيم الأمور أو اختلاق الوقائع لإثبات الشروخ أو إيجادها [(٥)] ...

وعلى خلاف روايات بعض مؤرخي الموارنة ، ما ذكرناه من قبل عند حديثنا عن ديمغرافية إمارة طرابلس في عهد الصليبيين من أن الموارنة مالوا إلى التآمر على صليبيي المدينة ــ من سكان طرابلس نفسها ــ وبفعل (خيانتهم) تلك كانت بعض هزائم الصليبيين وفق تعبير المؤرخ **وليم الصوري**.

(٥) راجع كتابنا القراءة الإسلامية لتاريخ لبنان ص ١٢٠ وما يليها وما كتبناه في هذا الكتاب وكتابنا السابق المشار إليه وهو ما يشكل مقدمة لدراسة وضع النصارى قبل احتلال الصليبيين وأثناءه وبعده ومما لا ريب فيه أن هناك صفحات طمست عن عمد وأخرى شوهت وكان ذلك كله بغية إيجاد الشروخ أو تضخيم الأمور !! ولن يسعنا هنا ذكر نماذج من مواقف وبطولات للنصارى إبان اجتياح الصليبيين لهم في مناطق مختلفة ومنها القدس الشريف إذ ذبحوا النصارى في كنائسهم والمسلمين في مساجدهم وبيوتهم • فان ذلك سيكون أن شاء الله إلى بحث مستقل فقدر النصارى في بلاد العرب والمسلمين أن يكونوا مع مواطنيهم المسلمين وقد كانوا في فترات طويلة كذلك حتى جاء من حاول إيجاد الشروخ مصطنعا تاريخا (لهم) هو للتناقض اقرب وللتضخيم الصق متوسلا الكذب نافيا تحريف التاريخ وتزويره على ملأ من الناس دون خجل أو حياء وقد يكون الأب بطرس ضو في المحدثين وفي كتابه (تاريخ الموارنة) شيخ المنحرفين وسفيه المزورين وكبير المبطلين الدجالين على الحقيقة والتاريخ .

الفصل الخامس

تربص قلاوون بكونتية طرابلس

١ ــ كان فتح طرابلس هاجسا للسلطان قلاوون وهو الذي خبرها بنفسه لما حاصرها من قبل جيش الظاهر بيبرس غير أن المعاهدة ــ الهدنة ــ مع كونت طرابلس جعلته في حالة تربص منتهزا الفرص للإيقاع بصليبيي البلد.

وقد كانت حادثة دانيال المنوه عنها آنفا الخطوة الثانية على طريق التخويف.

وكانت الخطوة الأولى أن قلاوون سمح لبعض نوابه على الشام الإيعاز إلى مسلمي القرى المحيطة بطرابلس ، وبخاصة أولئك الذين في الكورة ــ على المرتفعات حول طرابلس في جنوب شرقها والذين أسكنهم صلاح الدين فيها من قبل ، أوعز إليهم بمعاونة أمير جبيل الصليبي جاي الثاني ، بناء على طلبه ، وقد رغب بالاستيلاء على طرابلس عام ١٢٨٢م على أن تكون مناصفة بينه وبين القوات الإسلامية.

وبذلك لم ينقض قلاوون المهادنة مع كونت طرابلس إذ أن المسلمين حول طرابلس هم الذين كانوا يساعدون أمير جبيل الذي بناحيتهم!!! وكان السلطان **قلاوون** يعول بذلك على أحداث الإرباك داخل طرابلس والتقاتل بين الأمراء الصليبيين فيما بينهم ، إذ قد يفتح هذا الأمر ثغرة تمكنه من الاستيلاء على المدينة التي استعصت طوال عشرات السنين...

أما الخطوة الثالثة فقد كانت باستيلائه على حصن المرقب الحصين قرب بانياس في عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ؛ فبعد أن تأكدت اتصالات صاحبه بالتتار وشموخ نفسه بهم ضرب قلاوون الحصار عليه مدة ٣٨ يوما وفتحه يوم الجمعة ١٩ ربيع الأول وخرج من بقي فيه من الإفرنج إلى طرابلس أو صور كما رأينا من قبل.

أما الخطوة الرابعة فهي اتهامه المباشر لبوهمند السابع صاحب طرابلس بأنه نقض الاتفاق ــ الهدنة لما ساعد **بارتلميو** صاحب حصن المرقب ببناء حصن المرقية على البحر قريبا من طرطوس ، وهذا مخالف لنص الهدنة ، فأرسل إليه قلاوون بكتاب يقول فيه : " إن العساكر قد تفرغت وما بقي لها إلا أنت وهذا البرج ــ يعني المرقية ــ أنت الذي عمرته في الحقيقة ، ولولا أعانتك لما بني " فبادر بوهمند لإرسال جماعة من الإفرنجة ومعهم آلات الهدم وأمرهم بهدمه وجرى ذلك بإشراف مندوبين عن قلاوون وأطلق بوهمند سراح الأسرى المسلمين من أبناء الكورة الذين أعانوا صاحب جبيل أثناء غزوه طرابلس وذلك ترضية وإكراما، لقلاوون الذي قبل بمصالحة بوهمند على (أن لا يتعرض لتاجر

ولا يقطع الطريق على مسافر).

٢ ــ تمكن قلاوون بواسطة نائبه من مهاجمة اللاذقية والانفــراد بــها دون الإفرنج وأقام الدليل عند بوهمند انه من حقه أن يفعل ذلك وان ما فعله لا يتناقض مع اتفاق الهدنة وكان ذلك في عام ١٢٨٧ وهو العام الذي توفــي فيــه بوهمنــد السابع.

٣ ــ وهكذا لم يبق أمام قلاوون إلا طرابلــس ــ المدينــة مركــز الإمــارة الصليبية ــ وقد نشب فيها الصراع الداخلي اثر وفاة بوهمند السابع دون وريــث شرعي وانقسم الناس إلى فئات وفق منحدرهم من بلادهم الأصلية التي أتوا منها، فهنا البنادقة والبيارزة (نسبة إلى البندقية والبيرزا) وهناك الجنويون والاسبارتة، وأقيم في طرابلس حكم بلدي (قومون) بقيادة فرسان طرابلس وتجارها بدعم من جنوى بينما أصرت شقيقة بوهمند السابع المتوفى لوسي على المطالبــة بحقــها الشرعي في الملك ...وجاء أسطول جنوى لدعم أصحابه في طرابلس غــير أن الجنويين حرصوا على المرور بالإسكندرية وإعلام السـلطان قــلاوون بهدفــهم وانهم لم يخرجوا لقتاله بل لقتال خصومهم من أهل طرابلس الصليبيين.

هنا أدرك قلاوون أن الفرصة لاسترجاع طرابلس باتت قريبة وان عليــه أن يستفيد من هذا الصراع والاقتتال لصالح التحرير خاصة بعد أن اعلمه نائبه فــي الشام (بأن الإفرنج في طرابلس نقضوا الهدنة وأخذوا جماعة من التجار وغيرهم وصار بأيديهم عدة أسرى).

الفصل السادس

أحداث الفتح المبين وتحرير طرابلس

الثلاثاء ٤/ ربيع الثاني / ٦٨٨هـ .

٢٦ / نيسان / ١٢٨٩م.

فــإن تــكُ قــد فــاتتك بــدرٌ
فهذه بما أنزل الرحمن من نصره بدرُ

الشاعر شهاب الدين محمود

١ ــ في ١٥ محرم ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩ م.خرج السلطان منصور قـــلاوون من القاهرة على رأس قواته بهدف تحرير طرابلس ، وسط وداع إسلامي حــافل والدعاء بالنصر المبين.

كانت صورة طرابلس ، التي خبر حدودها ومواقعها من قبل عندما كان قائدا في جيش بيبرس ، تتراءى أمام عيني المنصور ، وكان أثناء زحفه الكبير ممعن التفكير في التدابير الواجبة ومنها القوات التي طلبها من نائبه على دمشق الأمير حسام الدين لاجين...

فطرابلس كما يقول هو عنها :

"ما نشدتها الأماني إلا عادت عنها وقد جرّت ذيول الهزائم ، مــرت عليها الأيام والليالي وعجزت عنها الملوك في العصور الخوالـــي لــم تــزل الملوك تتحاماها وإذا خاطرتها الظنون في بال ، تخشى أن تحل حماها ".

أما وقد أفضى أمر الملك إليه فقد عاهد الله (على أن نغزو أعداءه برا وبحرا ونوسع من كفر به قتلا وأسرا ونجعل شعار الجهاد منصوبة ونسترجع حقوقا للإسلام مغصوبة ونورد المشركين موارد الحرب المفضية بـهم إلى الهرب ونجليهم عن البلاد جلاء طوايف المشركين عن جزيرة العرب).

" هذه المدينة لها ذكر في البلاد منعة كانت قد ضربت دون القصد بالاسداد ٠ فُتِحَت في صدر الإسلام في زمن الصحابة الكرام في ولاية معاوية بن أبي سفيان وتنقلت في أيدي الملوك من ذلك الزمان وعظمت في زمن بني عمار حتى استهلت ولو بتطليق الإعمار وبنوا بها دار العلم المشهورة في التواريخ ٠ فلما كان في آخر المابة الخامسة المذكورة ظهرت طوايف الإفرنج بالشام واستولوا على البلاد وعادوا بها حكاما ولم تزل هذه المدينة بأيديهم إلى الآن ، وكان الخلفاء والملوك في ذلك الوقت كل منهم في شأن "[١]

بينما يصف طرابلس **الأشرف خليل** بن منصور قلاوون :

" وكانت طرابلس هي ضالة الإسلام الشريدة وإحدى أبقاته من الأعوام العديدة ٠ وكلما مرت شمخت بأنفها وتأنقت في تحسين منازه منتزهها وتزيين ريحانها وعصفها ومرت وهي لا تغازل ملكا بطرفها وكلما تقادم عهدها كثرت بالأفواج والأمواج من بين يديها ومن خلفها ، إذ البحر لها جلباب والسحاب لها خمار وليس بها من البر إلا بمقدار ساحة الباب من الدار كأنها في سيف ذلك

(١) من تهنئة السلطان إلى ملك اليمن منشور في وثائق كتاب تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ، للدكتور عمر تدمري ص٦٣٨

البحر جبل قد انحط أو ميل استواء قد خرج عن الخط وما قصد أحد شطها بنكاية إلا شط واشتط"[٢]

٢ ــ ومن دمشق وبعد أن وافته الحشود من مختلف البلاد الشامية خرج منها في العشرين من صفر ومعه جيش كبير يقدر بأربعين ألف فارس ومائة ألف من مشاة وكثير منهم تطوعوا خصيصا لما سمعوا النداء بتحرير طرابلس.

٣ ــ وسار السلطان قلاوون بجنده إلى طرابلس سالكا طريقا جبليا بين دمشق وطرابلس عبر جبال لبنان المطلة على طرابلس لجهة بشري والحدث في أيام شاتيات من شهر شباط وآذار/ فبراير ومارس وقد وصف قلاوون زمن سيره إلى طرابلس عبر جبال لبنان بقوله :

" وقصدناهم في وقت فيه أشتات الشتاء ولبست الأندية ندى الأنداء في طوق خفية المدارج أبية المخارج ملتبسة المسالك ممتنعة على السالك صيفها شتاء وصباحها مساء شايبة المفارق بالثلوج ، مزودة الجيوب على أكمام الغيوم من فروج ".

ويصف ابنه الملك الأشرف خليل جبل لبنان بقوله :

" قدر الله أن صرف مولانا السلطان إليها العنان وسبق جيشه إليها كل خبر ، وليس الخبر كالعيان ، وجاءها بنفسه النفيسة ، والسعادة قد أحرسته عيونها ، وتلك المخاوف كلهن أمان ، وقد اتخذ من إقدامه عليها خير حبائل ومن مفاجآته لها أمد عنان ، وفي خدمته جنود لا تستبعد مفازه، وكم راحت وغدت وفي نفوسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بخيولهم **من جبال لبنان تيجانا لها صاغتها الثلوج، ومعارج لا ترافق بها** غير الرياح الهوج ، وانحطت تلك الجيوش من تلك الجنادل انحطاط الأجادل ، واندفعوا في تلك الوعار اندفاع الأوعال ، ولم يحفل أحد منهم بسرب لاصق ولا بجبل شاهق فقال : هذا منخفض أو عال ".

٤ ــ غير أن ستيفن رنسيمان في كتابه تاريخ الحروب الصليبية ــ وكما ذكرنا من قبل ــ أشار بصورة غير مباشرة فضلا عن مصدر آخر أن قلاوون وصل أسوار طرابلس عن طريق سهل البقيعة في عكار على الطريق الساحلي من حمص إلى طرابلس...فقال : (...ومضت الأحزاب ــ الصليبية في طرابلس ــ في مشاجراتها إلى أن اجتاز جيش السلطان الضخم حوالي نهاية مارس ، البقيعة واحتشد أمام أسوار المدينة) [٣].

ويمكن التوفيق بين المصورين العربي والأجنبي بالقول انه من المحتمل أن يكون قلاوون قد قسم جيشه إلى قسمين فسار أحدهما من دمشق باتجاه حمص

(٢) م.ن

(٣) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٦٨٥

فالبقيعة فطرابلس والقسم الثاني انتقل من دمشق إلى بعلبك فجبال لبنان العالية مرورا ببشري والحدث إلى طرابلس وهو خط القائد ابن بزواج عام ٥٢٧هـ./١١٣٧م.كما أسلفنا في محاولات استرجاع طرابلس.

٥ ـ وإذ وصل المنصور أسوار طرابلس اتخذ الموقع الذي استحسنه من قبل ـ لما كان في جيش **الظاهر بيبرس** ـ في السفح المرتفع الواقع في أعلى نهر أبي علي الفاصل بين تلة القبة وتلة أبي سمراء المعروفة بتلة الحجاج عند القلعة ٠ ومرتفع القبة هذا عرف فيما بعد بقبة النصر نسبة إلى قبة المنصور قلاوون التي ضربها في هذا السهل الممتنع ومنه تمكن من السيطرة على الحي اللاتيني خارج طرابلس والذي خربه من قبل الظاهر بيبرس وعلى مرتفع حصن صنجيل ـ قلعة طرابلس ـ والذي هدمه من قبل بيبرس وشارك القلاوون في تخريبه...كما سيطر على منطقة الظاهرية ـ الزاهرية المحيطة بأسوار طرابلس حيث عسكر من قبل القائد **بيبرس** منذ أكثر من عشرين عاما.

٦ ـ وقبل الحصار وبعد وصول **قلاوون** وجنده جرت مفاوضات مع أهل المدينة فاشترط عليهم السلطان تسليم المدينة بالكامل فعرضوا عليه الصلح والأموال وإعمار مسجد، فرفض السلطان وأصر على التسليم الكامل ٠ يقول في ذلك مؤرخ الحملة شهاب الدين محمود (٤).

" فوصل رسل أهلها وتوسلوا بالذرايع وبذل الأموال والقطايع، وعمارة المئذنة والجامع فلم يقنع منهم بغير الإسلام أو تسليم البلد بجملته فاعتصموا بالأسوار وركنوا للقتال من وراء الجدار .

وهكذا قرر الصليبيون الاحتماء بأسوار المدينة الحصينة بانتظار المدد من البحر حيث شددوا على أوروبا وجوب إرسال قوات للدفاع عن الإمارة الصليبية طرابلس.

٧ ـ ونصب قلاوون تسعة عشر منجنيقا راح يرمي بها تلك الإمارة وأبراجها بينما عمل حوالي ألف وخمسماية من الرجال المهرة في نقب الأسوار وإيجاد الثغرات فيها في ظل قذف النار بصورة شبه متواصلة وحصار شامل من الشمال حتى الجنوب يتخلله أصوات المجاهدين بالتكبير بينما يرتفع الأذان للصلوات الخمس ـ في معسكر المسلمين ـ يشق عنان السماء ويترك بصماته على قلوب الصليبيين الوجلة...

ويقول شهاب الدين محمود في وصف حرب طرابلس : "قنصبنا مجانيقنا قبالة مجانيقهم التي نصبوها من وراء أسوارها ولم نزل نرميهم حتى عاد السور رميما والحجر الذي كان بأعلى الأبراج في أسفل الخندق هشيما وكثيرا ما كانت

(٤) د. عمر تدمري : من ملاحق تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ، ص ٦٣٣

تثير مجانيقهم فتقضي عليهم ببوارهم وتبشرهم من أول أمرهم بأدبارهم وتصيبهم قارعة بما صنعوا أو تحل قريبا من دارهم فرجعت عليهم العساكر المنصورة وفي عاجل الوقت ملكوا الباشورة (٥).

٨ ـ ويقول السلطان قلاوون في وصفه المعركة عبر رسالته : "ولم تزل أقران الزحف ترميهم بالفوارس ويأتيهم من البأس ما ترعد من هوله الفرايص ، ونقلب لهم ظهر المجن ، ونطرق أقبيتهم من الحرب بكل فن ، ونقرب الأسوار من الأسوار ونمزج لهم الأدواء في الأدواء ونبعث إليهم السهام برسل المنايا ونحذرهم أن يغترروا بما يسمعونه من حنو الحنايا٠٠٠ ونريهم من قساوة القسي ونسلك بهم من المضايقة كل مسلك ونجلو عنهم صور المنازلة فنخرجهم من مطلب إلى مهلك إلى أن وهى ملكها وسفل ما علا ورخص بها ما غلا وفتحناها وأبحناها وقد أخليناها مقفرة المغاني خالية الألفاظ من المعاني خاوية على عروشها موحشة من أنسها ، آنسة بوحوشها ، وقد أمست كالذي يتخبطه الشيطان من المس ، وأصبحت حصيدا كأن لم تغن بالأمس، وأما ما بقي من العدو بالساحل فقد تركناهم مسلوبين المرايا ، مشغولين بالروايا ، أذهلهم عدم النصير وأصابهم الخوف حتى يصير ، وتبدلوا لميل الهم الطويل عن يوم اللهو القصير ".

٩ ـ ويصف الأشرف قلاوون حصار طرابلس واستعادتها بكتابه إلى ملك اليمن بقوله:

" وشرعوا في التحصيل لما يوهي ذلك التحصين وابتناء كل سور أمام أسوارها من التدبير الحسن والرأي الرصين فما لبثوا إلا مقدار ما قيل لهم : " دونكم والاحتطاب ، ونقل المجانيق على الخيل وعلى الرقاب حتى جروها بأسرع من جر النفس وأجروها على الأرض سفائن وكم قالوا : " السفينة لا تجري على يبس " ٠ وفي الحال نقلت إليها ، ووجهت سهامها إلى منافذها وألقيت العداوة بين الحجارة من المجانيق وبين الحجارة من الأسوار فكم نقبت ونقبت من فلذة كبدها عن أسرار وأوقدت نيران المكايد ، وكم رمتهم بشرر كالقصر ، فوقع الحافر كما يقال على الحافر ".

" وما برحت سوق أهل الإيمان في إنفاق على أهل النفاق ، وأكابرهم تساق أرواحهم الخبيثة إلى السياق ، ورموا الإسلام بكل شرر وكل شر ، فكان السهم الذي يخرج منها لا يخرج إلا مقترنا بسهام ٠ وشرفات ذلك الثغر كالثنايا لكثرة من بها لا تفتر عن ابتسام ، وما زالت جنود الإسلام كذلك ومولانا السلطان لا ترى جماعة مقدمة ولا متقدمة إلا وهو يرى بين أولئك واستمر ذلك من مستهل

(٥) الباشورة : جمعها بواشير وباشورات ، حصن أو مقدم ما في الحصن أو بناية متقدمة على الحصن لإيقاف العدو في زحفه أو الحائط الظاهري للحصن ، راجع تعليق التدمري ، ص ٦٣٤ في المرجع السابق .

شهر ربيع الأول إلى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر ، فزحف عليها في بكرة ذلك النهار زحفا يقحم كل هضبة ووهدة وكل صلبة وصلدة حتى أنجز الله وعده وفتحها وطلعت سناجق الإسلام الصفر على أسوارها ودخلت عليهم من أقطارها وجاست الكسابة خلال ديارها فاختارها مولانا السلطان لنفسه ملكا وكان أخذها — أي يوم سقوطها بيد الصليبيين — من مائة وثمانين سنة في يوم الثلاثاء واستردت في يوم الثلاثاء".

١٠ — ومن مراجعتنا لسير الحملة والحصار وأحداث الفتح المبين يتبين لنا أن ما سبق وتوقعه السلطان قلاوون من قبل من حتمية انهيار الصف الداخلي المضطرب في مدينة طرابلس قد تحقق؛ فوحدة الصف التي خيمت مؤقتا على صليبيي طرابلس عندما قرروا مواجهة قلاوون عادت فتفتتت تحت تأثير الحصار والتخويف وضخامة القوات والتصميم على فتح المدينة فقد جعل الكومون الحاكم في طرابلس (ونبلاء المدينة لكونتينية لوسيا) مطلق السلطة في داخل المدينة وأرسل الداوية قوة بقيادة مارشالهم جفري فنداك وتولى قيادة الاسبارتية مارشالهم ماثيو كلير مونت ، وتوجهت الكتيبة الفرنسية من عكا بقيادة يوحنا جرايللي ، وكان بالميناء أربع سفن جنوية ، وسفينتان للبنادقة، فضلا عن سفن صغيرة أخرى، كان لبيزا بعضها.وأرسل الملك هنري من قبرص ، أخاه الأصغر املريك ، الذي نصبه منذ زمن قريب كندسطبلا لبيت المقدس ، في جماعة من الفرسان ، وأربع سفن • وفي تلك الأثناء هرب الى قبرص عدد كبير من غير المحاربين بعد أن اجتازوا البحر ".

ويتابع رنسيمان (٦) ...في وصف عمليات الهروب من طرابلس قائلا: " وناضل وسرعان ما انطلقت المراكب تحمل البنادقة مع ما تمكنوا من حمله فارين هاربين وتبعهم أهل جنوى وقادة المدافعين ووقع اضطراب شديد في المدينة وكل بات يسارع إلى الإبحار والهرب ومن لم يتمكن من الإبحار اخذ يستعد للمصير المحتوم".

١١ — وسط هذه الظروف شدد السلطان قلاوون حملته وقرر حسم الموقف فجمع الطلائع في جيشه التي سوف يشن بها هجومه الأخير وخطب فيهم آمرا : " بلبس دروع الجهاد والتحلي بمرارة الصبر على الجلاد وأن يومضوا عروق صفاحهم ويرسلوا سهامهم ويجعلوا التقوى أمامهم ويهدموا بنيان أهل العناد.ويعتمدوا في قتالهم وفي سائر أمورهم على القريب المجيب ".

ثم قاد الطلائع مبتدئا هجومه الأخير ودخلت قواته عبر الثغرات التي أحدثوها في أجزاء السور المتهدمة وقتلوا خلقا كثيرا من الصليبيين قيل : سبعة

(٦) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٦٨٥ و ٦٨٦.

آلاف ، وتعقبت القوات الزاحفة من فر منهم إلى الجزيرة الصغيرة الواقعة قبالة الميناء (والمعروفة اليوم بجزيرة عبد الوهاب) ووصلوها على خيولهم التي خاضت البحر وسط التكبير والتهليل وفرحة المقاتلين فقتلوا من فر إليها وأسروا النساء والأطفال.

١٢ — ويؤرخ **أبو الفدا** (٧) وهو سليل الأسرة الأيوبية وغدا من أتباع المماليك وقد حكم بعد ذلك حماة وأرخ للسنوات الأخيرة من الوجود الإفرنجي في الشرق وكان حاضرا في جيش قلاوون مقاتلا ومؤرخا فقال : " يكتنف البحر مدينة طرابلس وليس بالإمكان مهاجمتها من البرّ إلا من الجهة الشرقية عبر ممر ضيق.وبعد أن حصرها السلطان نصب في مواجهتها عددا كبيرا من المجانيق من كل الأحجام وشدد عليها الخناق ".

وبعد قتال دام شهرا سقطت المدينة بيد قلاوون في السابع والعشرين من نيسان/إبريل أو ٢٦ منه.

ويضيف أبو الفدا الذي لا يسعى قط إلى إخفاء الحقيقة أن عسكر المسلمين دخلوها عنوة ، فانكفأ أهلها باتجاه الميناء حيث نجا بعضهم بالسفن ، ولكن معظم الرجال قتلوا وسبيت النساء والأطفال ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة.

" وعندما انتهى الفاتحون من القتل والتخريب أمر السلطان بهدم المدينة ومساواتها بالأرض ".

" وكان على مسافة قليلة من طرابلس في عرض البحر جزيرة صغيرة بها كنيسة.وعندما ملكت المدينة التجأ إليها كثير من الإفرنج مع عائلاتهم • ولكن عساكر المسلمين ألقوا بأنفسهم في الماء وسبحوا إلى الجزيرة فقتلوا كل الرجال الذين لجأوا إليها وعادوا بالنساء والأطفال مع الغنائم • وذهبت أنا نفسي بعد المذبحة إلى الجزيرة في قارب ، ولكني لم استطع البقاء لشدة نتن الجثث ".

١٣ — ويؤرخ رنسيمان في كتابه الحروب الصليبية ص (٦٨٥ — ٦٨٦) عن سقوط طرابلس سنة ١٢٨٩ فيقول : " كانت طرابلس في العصور الوسطى تقع على البحر ، على طرف شبه الجزيرة التي تقوم عليها في الوقت الحاضر ضاحية الميناء • ولم تكن متصلة بقلعة تل الحجاج ، التي لم تبذل فيما يبدو محاولة للدفاع عنها • أما المدينة ذاتها فكانت منيعة الاستحكامات الدفاعية • ومع ذلك فانه على الرغم من انه صار للمسيحيين السيطرة على البحر ، فان ما كان للمسلمين من التفوق في عدد الجيش ، ومن توافر أدوات الحصار ، دل على انه لا سبيل إلى مقاومتهم • فلما انهار برج الأسقف الواقع في الركن الجنوبي الشرقي للأسوار البرية ، وبرج الاسبتارية الذي يقع بين برج الأسقف والبحر ،

(٧) أمين معلوف : الحروب الصليبية كما رآها العرب ، ص ٣١٦.

بعد أن تعرضا للقصف الشديد ، قرر البنادقة انه من المستحيل المضي في الدفاع.فبادروا بشحن سفنهم بكل أمتعتهم ، ثم اقلعوا إلى خارج الميناء وما ارتكبه البنادقة من خطأ أزعج الجنويين ، إذ ارتاب أمير البحر الجنوي زكريا في أن البنادقة يحاولون سرقة بعض سفنه.على انه أيضا استدعى رجاله ، وغادروا المدينة بكل ما استطاعوا أن ينقذوه من المتاجر.على أن رحيلهم آثار الفوضى بين المسيحيين ، وفي صبيحة ذلك اليوم ، ٢٠ إبريل سنة ١٢٨٩ ، أمر السلطان بشنّ هجوم عام ، فتدفقت جموع المماليك إلى داخل المدينة بعد أن اجتازت السور الذي يقع إلى الجنوب الشرقي ، والذي تعرض للانهيار.

وناضل سكان المدينة ، وقد استبد بهم الذعر ، في سبيل الوصول إلى السفن الراسية بالميناء . أما الكونتيسة لوسيا وأماريك أمير قبرص ومارشالا الطائفتين الداوية والاسبتارية ، فانهم أبحروا سالمين إلى قبرص ".

١٤ – ومهما يكن من الأمر فقد دخل السلطان قلاوون طرابلس وكان ذلك في الساعة الواحدة من بعد ظهر الثلاثاء في الرابع من شهر ربيع الثاني سنة ٦٨٨هـ الموافق ٢٦ نيسان ١٢٨٩ م.وقد أحنى ظهره خشوعا لله وحمدا وهو يكبر دامعة عيناه ، ينبض قلبه بنبضات الفرح والسرور أن كتب الله على يديه تحرير هذا الثغر العزيز والذي تمرد على قوات المسلمين سحابة مائة وست وثمانين سنة متحصنا بأسوار منيعة قل مثيلها في البلاد ، فقد كان عرضه يتسع لثلاثة خيالة يسيرون معا وارتد عنه من قبل قادة المقاومة والفتح الزنكي وصلاح الدين والعادل وبيبرس...

وقتل من الإفرنج يومئذ سبعة آلاف وأسر ١٢٠٠ وتمكن الآخرون من الفرار بينما سقط في جيش قلاوون خمسة وخمسون شهيدا وقيل خمسة وثلاثون وكان من بين الشهداء الأمير معن الطرابلسي الملقب بعز الدين أيبك...وقد استشهد أثناء الحصار في شهر ربيع الأول حيث أصابه سهم في حدقته فخالط دماغه وأودى بحياته ودفن بظاهر طرابلس في قبور الشهداء قرب قلعة طرابلس كما ذكر **الذهبي** في تاريخ الإسلام [8] .

١٥ – وبعد الفتح سرعان ما قرر السلطان قلاوون موقفا عسكريا – وقائيا مشتركا فهدم ما بني من الأسوار والبيوت والدور حتى جعل طرابلس – التي هي الميناء اليوم – خرابا وقاعا صفصفا بينما أبقى على ما فيها من معدات الصناعة كأنوال غزل النسيج حيث قرر المقريزي أنها كانت (أربعة آلاف نول.

١٦ – وقال أحد الشعراء وهو يصف تدمير المدينة القديمة في أعقاب الفتح المبين :

(٨) د.عمر تدمري : تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ص ٤٢٣

وعلى طرابلس نزلت فأصبحت

خبرا يقول نزيلها : كانت هنا

وقال المؤرخ ابن حبيب الحلبي شعرا :

يا أيها الملك المنصور عسكره

لا زلت محترما في حضرة القدس

فاز الملوك بأنواع الفتوح ولا

كمثل فتح سمعنا عن طرابلس

١٧ – قال ابن كثير في وصف تحرير طرابلس :

" ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستماية فيها كان فتح مدينة طرابلس : وذلك أن السلطان قلاوون قدم بالجيوش المنصورة المصرية صحبته إلى دمشق، فدخلها في الثالث عشر من صفر ، ثم سار بهم وبجيش دمشق وصحبته خلق كثير من المتطوعة، منهم القاضي نجم الدين الحنبلي ، قاضي الحنابلة ، وخلق من المقادسة وغيرهم ، فنزل طرابلس يوم الجمعة مستهل ربيع الأول ، وحاصرها بالمجانيق حصارا شديدا ، وضيقوا على أهلها تضيقا عظيما ، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا، فلما كان يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة فتحت طرابلس في الساعة الرابعة من النهار عنوة ، وشمل القتل والأسر جميع من فيها ، وغرق كثير من أهل الميناء وسبيت النساء والأطفال، وأخذت الذخائر والحواصل ، وقد كان لها في أيدي الفرنج من سنة ثلاث وخمسماية إلى هذا التاريخ ، وقد كانت قبل ذلك في أيدي المسلمين من زمان معاوية ، فقد فتحها سفيان بن نجيب لمعاوية ، فاسكنها معاوية اليهود ، ثم كان عبد الملك بن مروان جدد عمارتها وحصنها واسكنها المسلمين ، وصارت آمنة عامرة مطمئنة ، وبها ثمار الشام ومصر ، فان بها الجوز والموز والثلج والقصب ، والمياه جارية فيها تصعد إلى أماكن عالية ، وقد كانت قبل ذلك ثلاث مدن متقاربة ، ثم صارت بلدا واحدا، ثم حولت من موضعها كما سيأتي الآن.ولما وصلت البشارة إلى دمشق دقت البشائر وزينت البلاد وفرح الناس فرحا شديدا ولله الحمد والمنة..

ثم أمر السلطان الملك المنصور قلاوون أن تهدم البلد بما فيها من العمائر والدور والأسوار الحصينة التي كانت عليها ، وان يبنى على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن، ففعل ذلك فهي هذه البلدة التي يقال لها طرابلس ، ثم

عاد إلى دمشق مؤيدا منصورا مسرورا محبورا ، فدخلها يوم النصف من جمادى الآخرة [٩] ".

١٨ ــ وللمؤرخ ابن حبيب أيضا وصف نثري لفتح طرابلس وهدم المدينة القديمة وبناء أخرى جديدة فقال:

" فيها ــ أي في سنة ٦٨٨ هـ./١٢٨٩ م.ــ عزم السلطان الملك المنصور قلاوون على فتح طرابلس الشام ، وتوجه إليها بجيوش الإيمان وعساكر الإسلام وعاجلها بالحصار ، وشد في أخذها عقدة الإزار وأمر المسلمين بلبس دروع الجهاد ، والتحلي بمرارة الصبر على الجلاد.وأن يرسلوا سهامهم ويجعلوا التقوى أمامهم • ويهدموا بنيان أهل العناد ، ويقابلوا البحر بكل بحر من الجياد • ويعتمدوا في قتالهم بل في سائر أمورهم على القريب المجيب ، واجتهد في فتحها وثابر على هدم صرحها، وضايق أصحابها ، وأرعب جندها وأحزابها.ونصب عليها المجانيق ، وسامها بآلات التخريب والتحريق.ولازمها ثلاثين يوما وزيادة، واستجد بفرسان المشيئة والإرادة ، إلى أن فتحها بالسيف وأرغم أنوف أهل الجنف والجيف. ودخلها العسكر المنصور عنوة ، وحطّموا ما بها من الوهدة والربوة وقتلوا وفتكوا وسفحوا الدماء وسفكوا.وسبوا وغنموا ، وحكموا بما علموا.ونزل إلى المراكب من الفرنج شرذمة ، وقابلوا ظلمة البحر بوجوههم المظلمة.فلم ينج منهم إلا القليل ، ذلك جزاء من كفر وصد عن السبيل.ثم هدموها وحرقوها ، وشتتوا شمل ذخايرها وفرقوها.ثم أمر السلطان ببناء نظيرها بسفح الجبل ، أبعدها عن البحر لمصلحة من حل بها ورحل فبنيت حسبما أمر به ونص عليه [١٠] ".

١٩ ــ يقول المقريزي في السلوك لمعرفة دول الملوك [١١] : " في يوم الخميس عاشر المحرم خيم السلطان بظاهر القاهرة ، ورحل في خامس عشرة واستخلف ابنه الملك الأشرف بالقلعة والأمير بيدرا نائبا عنه ووزيرا وكتب عند الرحيل إلى سائر ممالك الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس وسار إلى دمشق فدخلها في ثالث عشر صفر وخرج منها في العشرين منه إلى طرابلس فنازلها ، وقد قدم لنجدة أهلها أربعة شوان من جهة متملك قبرص فوالى [السلطان] الرمي بالمجانيق عليها والزحف والنقوب في الأسوار ، حتى افتتحها عنوة في الساعة السابعة من يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر ، بعد ما أقام عليها أربعة

(٩) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٣ .

(١٠) من وثائق كتاب تاريخ طرابلس للتدمري ، ص ٦٣٥ .

(١١) راجع نص التهنئة التي بعثها محي الدين بن عبد الظاهر عن نفسه إلى السلطان في ملاحق تاريخ طرابلس السياسي والحضاري للدكتور عمر تدمري ، ص ٦٤٥.

وثلاثين يوما ، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا وعمل فيها ألف وخمسماية نفس من الحجارين والزراقين. وفر أهلها إلى جزيرة تجاه طرابلس فخاض الناس فرسانا ورجالا وأسروهم وقتلوهم وغنموا ما معهم ، وظفر الغلمان والاوشاقية بكثير منهم كانوا قد ركبوا البحر فألقاهم الريح بالساحل وكثرت الأسرى حتى صار إلى زَرَدْخاه [١٢] السلطان ألف ومائتا أسير.واستشهد من المسلمين الأمير عز الدين معن ، والأمير ركن الدين منكورس الفارقاني وخمسة وخمسون من رجال الحلقة وأمر السلطان بمدينة طرابلس فهدمت وكان عرض سورها يمر عليه ثلاثة فرسان بالخيل ولأهلها سعادات جليلة منها أربعة آلاف نول قزازة وأقر [السلطان بلدة] جبيل مع صاحبها على مال أخذه منه واخذ بيروت وجبلة وما حولها من الحصون.

وعاد السلطان إلى دمشق في نصف جمادى الأولى ، واستقر العسكر على عادته بحصن الأكراد مع نائبه الأمير سيف الدين بلبان الطباخي ونزل البَرَك إلى طرابلس من حصن الأكراد وأضيف إلى الطباخي ، واستقر معه خمسماية جندي وعشرة أمراء طبلخاناه ، وخمسة عشر أمراء عشرات واقطعوا اقطاعات ثم عمر المسلمون مدينة بجوار النهر فصارت مدينة جليلة ، وهي التي تعرف اليوم بطرابلس .

وقدم على السلطان [وهو بطرابلس] رسل سيس يسألون مراحمه " ثم يقول: " وفيه توجه الأمير سيف الدين التقوي ومعه ستماية فارس لينزل بطرابلس وهو أول جيش استخدم بطرابلس بعد فتحها وكان العسكر [قبل ذلك] بالحصون ".

٢٠ ــ ويذكر المؤرخون انه في تلك الأثناء وعند دخول المسلمين مدينة طرابلس كان ابن السلطان الأشرف خليل ولي عهده في القاهرة وسط مجلس علم يتلى فيه القرآن ويدعون الله للقوات المسلمة من أجل تحرير طرابلس الغالية ونصر السلطان وفي لحظة تجل وتنلل لله سبحانه أعلن الأشرف خليل أمام جمع القراء والعلماء انه يشعر الآن بأن طرابلس العزيزة قد فتحت وان السلطان قد دخلها...وسار النبأ وسط القاهرة واستبشر الناس بمقولة الخليل وما هي إلا مسافة الطريق حتى وردت الأخبار بفتح طرابلس في الساعة المذكورة على ما يرويه ابن الفرات .

" وقرر السلطان بعد أن أنهى عمليات الهدم بناء المدينة الجديدة بعيدا عن البحر ثلاثة أميال ليحميها من أية هجمات محتملة وهي المنطقة المعروفة اليوم بالأسواق الداخلية وما حولها ووضع أسس الجامع الكبير الذي حمل اسمه ليكون

(١٢) زردخاه هي السلاح خاناه ، ومعنى هذا اللفظ المركب "بيت الزرد" وكان بها جميع أنواع السلاح: "السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المانع "

منطلق التخطيط لبناء المدينة فكانت الأبواب الأربعة كل باب يؤدي إلى حي جديد".

٢١ ــ وقد وصف المؤرخ **ابن الحلبي** عمليتي الهدم والبناء فقال :

"...ثم هدموها وحرقوها وشتتوا شمل ذخايرها وفرقوها ثم أمر السلطان ببناء نظيرها بسفح الجبل ، أبعدها عن البحر لمصلحة من حل بها ورحل • فبنيت حسبما أمر به ونص عليه وهي الآن معروفة به منسوبة إليه ، ثم عاد إلى الديار المصرية منصورا ورجع ولسان الحال ينشده :

لقد شكر الإسلام منك عزيمة

إذا قربت كانت من النجم أبعد

٢٢ ــ وسرعان ما أقيمت المباني الجديدة لتعلن بناء المدينة وليستقر فيها جيش مملوكي وتستدعي السلطات المسلمة عائلات تركية ومصرية وشامية ليستقروا في المدينة الحبيبة التي غدت تعرف (بالمملكة الطرابلسية الشريفة)...

٢٣ ــ سيَّر المنصور قلاوون بنبأ الفتح إلى مختلف الأمصار والبلدان وقد وصل خبر الفتح إلى دمشق ساعة ظهر الجمعة والمسلمون في المسجد الأموي فتلا النبأ نائب واليها وكبر الناس وفرحوا وسرعان ما أقيمت السرادقات والاحتفالات في كثير من بلدان مصر والشام ...

" ولما عمَّت هذه البشائر أي فتح طرابلس سيَّر مولانا السلطان البشرى فقعقع بها البريد لتتلى بأمر مولانا على كل من ألقى السمع وهو شهيد ، وكما عمَّ السرور بذلك كل قريب ، قصد أن يعم الهناء كل بعيد ".

ولئن لم يعثر على نصوص كتب القلاوون التي سيَّرها إلى أمصار المسلمين فان كتابا كان قد وجهه السلطان قلاوون إلى الملك المظفر ملك اليمن قد حفل بالكثير ويظن أن الكتب الأخرى شبيهة بكتابه إلى ملك اليمن .ولأهمية هذا الكتاب نثبت ، فضلا عما سبق أن أثبتناه، بعض نصوصه التي تشير إلى خلفيات المنصور في تحرير المدينة والى عمق إيمانه وصدق جهاده والى وضعه النفسي والروحي قبل الفتح وبعده • يقول السلطان قلاوون في البشرى التي يزفها إلى ملك اليمن ــ ومثلها إلى سائر حكام أمصار المسلمين :

" التهاني من عاداتها أن تستدعي سرور القلوب وتستخرج الحمد من خبايا الألسنة وتسري في النفوس مسرى الأرواح في الأجسام...لا سيما تهنية دلت على ادالة الحق على الباطل وتقاضت الديون لمنسية...وتستدعي المزيد من لطف الله بدينه الذي ارتضاه..."[١٣] .

(١٣) انتبه إلى هذا التعبير إذ أن احتلال طرابلس كان بمثابة دين على المسلمين عليهم تقاضيه .

" وهذه الخدمة[١٤] تقص من أنباء البشرى...ويظهر (منها) عناية الله بهذه الأمة التي خصها (منها) ، خص عدوها بالمقت، وان حقوقها لا تضاع وان اغتصبت في وقت ، وهو إلهنا بما تثنى من فتح طرابلس الشام وانتقالها بعد الكفر اللام إلى الإسلام ، وهو فتح طال عهد الإسلام بمثله...ومرت عليها الأيام والليالي وعجزت عنها الملوك في العصور الخوالي لم تزل الملوك تتحاماها وإذا خطرتها الظنون في بال تخشى أن تحل حماها"[١٥] .

" ولما أفضى الله إلينا أمر الملك...عاهدناه على أن نغزو أعداءه برا وبحرا ...ونسترجع حقوقا للإسلام مغصوبة...فلما أمكننا الله تعالى منهم بالفرصة أخذناهم بالعزيمة في أمرهم دون الرخصة...فزلزلنا أقدامهم وأذقناهم مرة بعد مرة... " .

" وهذه المدينة لها ذكر في البلاد ومنعة...فتحت في صدر الإسلام في زمن الصحابة الكرام في ولاية معاوية بن أبي سفيان وانتقلت في أيدي الملوك من ذلك الزمان وعظمت في زمن بني عمار...وبنوا فيها دار العلم المشهورة في التواريخ... فلما كان في آخر المائة الخامسة المذكورة (أي حوالي ٥٠٠ هجري) ظهرت طوايف الفرنج بالشام واستولوا على البلاد...ولم تزل هذه المدينة بأيديهم إلى الآن " .

وينتهي السلطان قلاوون في كتابه قائلاً :

" ونرجو ، بقدره ولطفه ، أن نقرع ممالكهم دروة دروة ونأتي إلى عقد قراهم عقدة عقدة ونجدد للأمة قوة سلطانهم ونعيد حكم الإيمان إلى أوطانها إلى أن نلقى الله عز وجل بيض الوجوه ونجد في مجازاته ما نرجوه والله تعالى يثبت في صحايف المولى أجر السرور بهذه المتجددات التي يعظم بها أجر الحامد...".

وقد تلقى السلطان قلاوون عددا من كتب التهنئة بالنصر ومن بين تلك التهاني كتاب جاء فيه :

" وينتهي بهذا الفتح الذي كم مضى ملك وفي قلبه منه حسرة وما ادخر الله لمولانا السلطان أجره وفخره فالحمد لله على هذا النصر العزيز وهذا الفتح المبين والظفر الذي أعطاه الله إياه في شهر وقد أقامت جموع الكفر حتى حازت بعضه في مدة سبع سنين وله الشكر على أن جعل الكفر من بعد قوة أنكاثا وجعل أخذ مدينة طرابلس من الكفار في يوم الثلاثاء وكان أخذها من المسلمين في يوم الثلاثاء وله المنة في رد الأخيذة...ورد ابقاها على المسلمين بعد أن أقامت هاربة

(١٤) أي هذا الكتاب والرسالة .

(١٥) إشارة إلى مدى تحصن طرابلس ومناعتها وقدرتها على الصمود وهو ما عاشه هو مع السلطان الظاهر بيبرس عندما حاصرها...

عند الكفار ماية سنة وستا وثمانين سنة والله يلحق بها في الفتح أخواتها من المدن...مثل عكا وصور وصيدا [١٦]".

٢٤ ــ غير أن من أعظم القصائد التي قيلت في فتح طرابلس مخلدة أحداثه كاشفة عن خلفياته تلك التي ألقاها شهاب الدين محمود بمناسبة فتح طرابلس الشام في سنة ٦٨٨ هـ./ ١٢٨٩ م.يمدح فيها السلطان قلاوون ويهنئه بالفتح وهي منقولة من كتاب (عيون التواريخ للكتبي) وعدد من المراجع الأخرى كما نقل ذلك الدكتور عمر تدمري في ملاحق كتابه تاريخ طرابلس.

والشاعر شهاب الدين كان في جيش قلاوون وشارك في الحملة وعاين طرابلس والمعركة التي جرت فيها فكان وصفه لها شعر ملحمة أرخ للحدث وللتحرير ولبناء طرابلس الجديدة .ولأهمية هذه القصيدة التي يجب أن تحتل مكانا مرموقا في تاريخ طرابلس وان يتناقلها الأجيال وان تدرس في مدارسها لما فيها من صور ومعان عميقة فنثبت هنا نصها التالي :

علينا لمن أولاك نعمته الشكرُ / لأنك للإسلام يا سيفهُ ذُخْرُ
ومنّا لك الإخلاص في صالح الدُّعا / إلى من له في أمر نُصْرَتِكَ الأمرُ
ولله في إعلاء مُلْكِكَ في الورى / مُراد وفي التأييد يوم الوغى سرُ
ومثل الذي أعطاك ربُّك فابْتَهِلْ / إليه يكون الفتحُ إنْ شِئتَ والنصرُ
فإنْ تكُ قد فاتتك بدرُ فهذه / بما أنزل الرحمنُ من نصره بدرُ
نهضْتَ إلى أعلى طرابلس التي / أقلّ عناها انّ خندقها البحرُ
وقد ضمَّها كالطوق إلاّ بقيّة / كبحر وأنت السيف لاح له النحر

(١٦) سميح الزين : تاريخ طرابلس قديما وحديثا ، ص ١٢٦

ممنّعة بكرٌ ، وهل في جميع ما / تملّكته الأ ممنّعة بكرُ
وكم من حصون قد فتحت شواهق / مصابيحها في الأفق أنجُمُه الزُهرُ
ومن دون سوريْها عقاب منيعة / يزلّ إذا ما رام أوطأها الذرُ
وما برحت ثغراً ولكن على العدى / عليها بحكم الدهر فانثغر الثغرُ
وكانت بدار العلم تُعرفُ قبْلَها / فمن أجلِ ذا للسيف في نظمها نثرُ
ولما غدت لا فخر مثل افتتاحها / أبى الله إلا أنْ يكون لك الفخرُ
ولا أجر عند الله مثل فكاكها / فبُشْراك يا مَنْ خصّه ذلك الأجرُ
فكم مرَّ من دهر وما مسَّها أذىً / وكم راح من عصر وما راعها حصرُ
وكم ليث غاب رامَها في جيوشه / وراح ولم يبرد له بالمنى صدرُ
ففاجأتها بالجيش كالموج فانثنت / تميد وقد أربى على بحرها البرُ
فظلت لدى بحرين أنجاهما لها / وأقتله العذب الذي جره مصرُ
وأقسم ما فاجأتها بل تقدمت / إليها سرايا جيشك الرعب والذعرُ

وأنذرها ما كان من فتـح غيرهـا
وحذّرهـا لـو كـان ينفعـها الحـذرُ
وما كتمتها ركْضُ جيشك أرضـها
ولا سـكنت إلا وفـي نفسـها أمـرُ
بلى إنْ تكن لم تسمع الركْضَ كونـها
مسـالكها صـمٌّ فـذاك لـها عـذرُ
كأنّ المجانيق التي أوترت ضُحـىً
عليـها لـها فـي شـمّ أبراجـها وتـرُ
تحلّق في جـو السـماء وترتمـي
إليـهم كمـا ينقـضّ مـن حـالق نسرُ
أصابعها تومـي إليـهم ليسجدوا
فيقبّـل منـها دون سـاكنها الجُـدْرُ
وتمطرهم من كل قطـر حجـارةً
لقد خـاب قـوم جـادَهم ذلـك القطْـرُ
مُسلّطة ورهاء تفتِك فـي الـورى
وليـس علـى أحجارهـا فيـهم حجـرُ
وليست بخنساء العرانين إنْ بَـدَتْ
لناظرهـا يومـاً وفـي قلبـها صخـرُ
لها شرر كالقصر يرمـي عليـهم
ولا بُـرج يسـتعصي عليـه ولا قصـرُ
تخلّق وجه السـور منـهم كأنّما
غـدت وعليـها بـالذي فعلـت نـذرُ
ومن تحتها تلـك النقـوب كأنـها
إذا ما تمشّت في ضمـير الـثرى سـترُ

تروض الثرى كالراح فهي بلطفـها
يليـن لـها القاسـي ويستسـلم الوعـر
إلى أن غدتْ فوق الفضاء وتحتـه
معلّقـة فـي الجـو ليـس لـها قعـرُ
فزلزلتها بـالركض فانـهدّ ركنـها
ولم يبـق مـن دون المنايـا لـها سـترُ
وألقت أعاليـها المجـانيق تحتـها
ففـي كـل قطـر مـن خندقـها جسـرُ
فهاجمتها في أول الجيش فـاحتوى
عليها وباقي الجيـش خلفـك لـم يـدروا
وأطلقت فيها طائر السيف فـاغتدى
وليـس لـه إلا رؤوسـهم وكـرُ
كأن شعاع الشمس فوق احمـراره
علـى زرقـة فيـه لنـاظره جمـرُ
لقيتهم صفـر الوجـوه فمـا أتـى
لـها الليـل وهـي مـن دمـهم حمـرُ
ولاذوا بباب البحر منك فمـا نجـا
إليـه سـوى مـن جـرّه مـن دم نـهرُ
ولم ينـج إلا مـن يخـبّر قومَـه
ليـدروا وإلاّ مـن تغمـده الأسـرُ
فللّه كم بيـضٍ وسـمرٍ كواعـبُ
على رغمهم قد حازت البيـض والسمر
وكم فـارس مـن قيْـده ودمائـه
مراكبـه دُهـم وألوانـها شُـقرُ

يميل كما مال الشريف وإنَّما
به سكرات الخوف والخذل لا السكرُ
تبلج ثغر الدين فيها وأشرقت
أسرّته وانجاب عن نوره الكفرُ
وولّى ضلال الشِركِ عنها ووجهه
عبوس ووافاها الهدى وله بِشْرُ
وفي نعتك المنصور سرّ لو أنهم
وعوه لما قاموا أمامك بلْ فرّوا
وفي هُلكهم يوم الثلثا بشارة
إلى أنَّ في الدارين تثليثهم خسرُ
أما سمعوا إنْ لم يروا كسرك العِدَى
بحمص إلى أنْ ليس يُرجى لهم جبرُ
وكانوا كموج البحر لا حدَّ يحتوي
عليهم ولا يأتي على عدّهم حصرُ
أتوا كظلام الليل زيا فمزّقت
ظلامهم وهنا أسنتك الزهرُ
وكان لهم في الأرض صيت وسُمعة
فلم يبق في الدنيا لهم بعدها ذكرُ
بلى سمعوا أخبار جيشك قبلها
فلمّا التقوه صغَّر الخبرَ الخبرُ
أمدَّهم جيرانهم بحُماتهم
ويعجب ذاك المدّ من دأبه الجزرُ
فلم تُغْنِ عنهم ذاك شيئا ولو أتوا
إليهم كموج البحر أفناهم البحرُ

قسمتهم شطرين غير غريقهم
فللسيف شطر والقيود لها شطر
محوت شعار الكفر عنها فما عسى
يقوم به في وصف أفعالك الشعر
وماذا به يثني عليك مفوه
ولا قدره يأتي بذاك ولا قدر
ولكن دعاء وابتهال بأنه
يعز على رغم الأعادي لك النصر
وإن تملك الأقطار شرقا ومغربا
فلا بر يستعصي عليك ولا بحر

* * *

وسنرى في صفحات قادمة من هذا الكتاب وبخاصة في الفصول الاولى من القسم الثالث من هذا الكتاب : بيئة طرابلس المستجدة وتبدل المناخ فيها ، موقع المسجد الكبير وهل كان برجا صليبيا ،كما يزعمون ، وقصة بناء المسجد وانه وحدة هندسية كاملة).وكيف تعامل السلطان منصور مع المدينة القديمة التي كانت على البحر والتي هي طرابلس ما قبل الفتح الاسلامي وبعده ومدينة آل عمار قبل السقوط بيد الصليبيين واثناء الاحتلال الذي استمر زهاء قرنين من الزمن... اذ ان المنصور امر بدكها الى الارض وهدمها تهديما كاملا وامر ببناء اخرى بعيدة بضعة كيلومترات عن البحر فكانت طرابلس المستجدة مملوكية البناء اسلامية الطابع وسطها المسجد الجامع الذي تفرعت عنه الازقة والحارات وبنيت المدارس والمساجد والمستشفيات وتزايد سكان المملكة الطرابلسية الشريفة واصبحت مقرا لنائب السلطان المملوكي وتعاظمت التجارة والزراعة وغدت بحق ثالث مدينة في بلاد الشام كلها بعد دمشق وحلب.

مَا بَعد فَتح طرابلس (المحروسة)

يجمل بنا أن نستقرئ ، ولو بصورة موجزة ، بعض النتائج والأحداث التي ترتبت على فتح طرابلس وتحريرها من الإفرنج واستعادتها إلى صف أخواتها من مدن وأمصار المسلمين.فنقول إنّ:

* **أولى هذه النتائج :**

القوة المعنوية الرائعة التي سرت في العالم الإسلامي آنذاك ولنا أن نتصور كيف أن الاحتفالات عمت مدن مصر والشام وكيف نصبت السرادقات الخيام وارتفعت الزينة التي ازدانت بها الشوارع والأحياء والدور حتى ندرك معنى قول المؤرخ والمفسر ابن كثير :"فسر الناس بهذا النصر غاية السرور ".

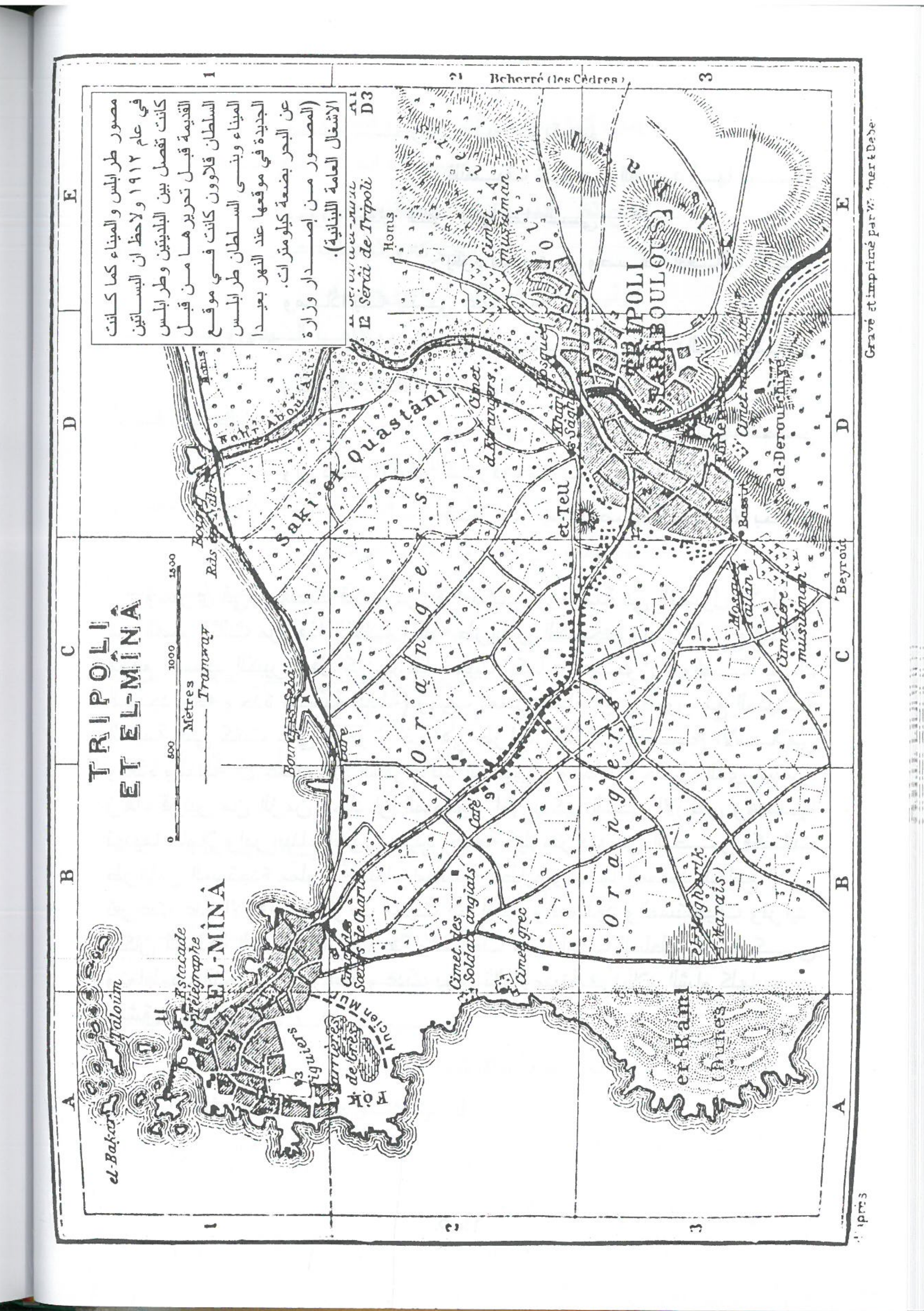
* **وثانيها :**

إن الرعب قد القي في نفوس الصليبيين المقيمين فيما تبقى بأيديهم من مدن بلاد الساحل في الشام وفي أهل أوروبا بالذات وقد تمكن السلطان قلاوون من أن يوظف هذا النصر المبين بمعاهدة المهادنة مع ملكي صقلية وأرغون (وهي مقاطعة كبيرة في شمالي اسبانيا على حدود فرنسا) حيث تحولت هذه المعاهدة إلى ما يشبه التحالف مع السلطان والصداقة معه ومع شعوبه وقد مهد الملكان لمفاوضتهما مع قلاوون بإطلاق أسرى المسلمين الموجودين لديهما وأرسلا إليه هدايا ثمينة تزلفا له وكانت المعاهدة في ١٢٩٠/٤/٢٥ م.وكان من بين بنودها امتناع الملكين عن نجدة (نصارى سوريا بسلاح أو مال أو بأي شيء كان ولا يعاونان البابا أو ملوك النصارى أو الروم أو التتار إذا حارب أحد هؤلاء السلطان) والمقصود هنا بالنصارى الإفرنج إذ أن النصارى من أهل البلاد الأصليين لا ملوك لهم ولا يشكلون بذاتهم قوة متميزة فضلا عن أن أكثرهم مع المسلمين حتى أن نصارى طرابلس كانوا أحد عوامل هزائم الصليبيين في كونتينية طرابلس... كما رأينا.

وقد كان السلطان المنصور يهدف من هذه المعاهدة دق اسفين الخلاف بين ملوك أوروبا المعنيين بأمر مناطق الاحتلال في بلاد الشام تمهيدا للقضاء عليهم إلا أن المنية عاجلته فلم يحقق كامل أهدافه في قتال الصليبيين وتحرير سائر البلاد منهم...

* **وثالث النتائج على الصعيد الدولي والإقليمي :**

إن أهل جنوى كانوا ممن أقام في طرابلس قبل تحريرها وكانت لهم علاقات تجارية مع الإسكندرية والعديد من الثغور الإسلامية قد تمكن منهم الرعب من السلطان وحرصوا على مهادنته وقد ظهر ذلك عقب الاعتداء على مركب



مصري تجاري في غرض البحر عندما اعتدى عليه بعض الهاربين من طرابلس من أهل جنوى حيث تحولوا إلى قراصنة بحر فقتلوا من فيه واستولوا على المركب ففر الجنويون التجار الموجودون في الإسكندرية خوفا من انتقام السلطان منهم فرد السلطان قلاوون باعتقال جميع الجنويين في سائر الثغور الإسلامية بينما قررت جنوى أمرين :

١ ـ استنكار عمل قراصنة البحر ورفض التجائهم إلى جنوى.

٢ ـ الإيعاز إلى إفرنج عكا بمعاهدة السلطان والصلح معه وكان ذلك في عام ١٢٩٠م.

* <u>ورابع هذه النتائج على الصعيد المحلي :</u>

سيَّر قلاوون وهو مقيم في طرابلس سرايا من جيشه على الخط الساحلي جنوبا فحرر القلمون واستولى على حصن أنفة المنيع وخربه واستلم البلدة ، ثم استولى على البترون وسائر الحصون الموجودة في المنطقة...وسرعان ما حضر إليه في طرابلس صاحب جبيل برتلميو الذي امتنع عن انجاد صليبيي طرابلس أثناء الحصار مما جعل السلطان قلاوون يمتنع عن دخول جبيل وتحريرها وآثر أن يترك ذلك ، على ما يبدو ، إلى ما بعد تحرير صيدا وصور وعكا وكان يرجو من خلال (برتلميو) رصد سائر تحركات الصليبيين ٠٠٠ وكان أن تساقطت تلك المدن الواحدة تلو الأخرى ابتداء من عام ١٢٩٠ م إلى أن خرج الصليبيون نهائيا من الساحل والبلاد عامة في عام ١٢٩٧م.

* <u>وخامس هذه النتائج وعلى الصعيد المحلي أيضا :</u>

سكنت طرابلس الجديدة المدينة المفتوحة أسر تركية وتركمانية ومصرية وشامية فضلا عن بعض سكان المناطق الريفية المحيطة بها وعن سلالات الأسر الطرابلسية القديمة التي نزحت عنها إبان الاحتلال الصليبي الطويل.

وقد نشأ عن هذه الأجناس والألوان سكان طرابلس الذين استمروا فيها منذ أن فتحها المنصور قلاوون منذ سبعماية سنة.

ومن هنا يمكن أن نفهم وجها آخر في علاقات الود التي تربط بين سكان طرابلس والأتراك والمصريين وأهل بلاد الشام عامة فهي منهم واليهم.

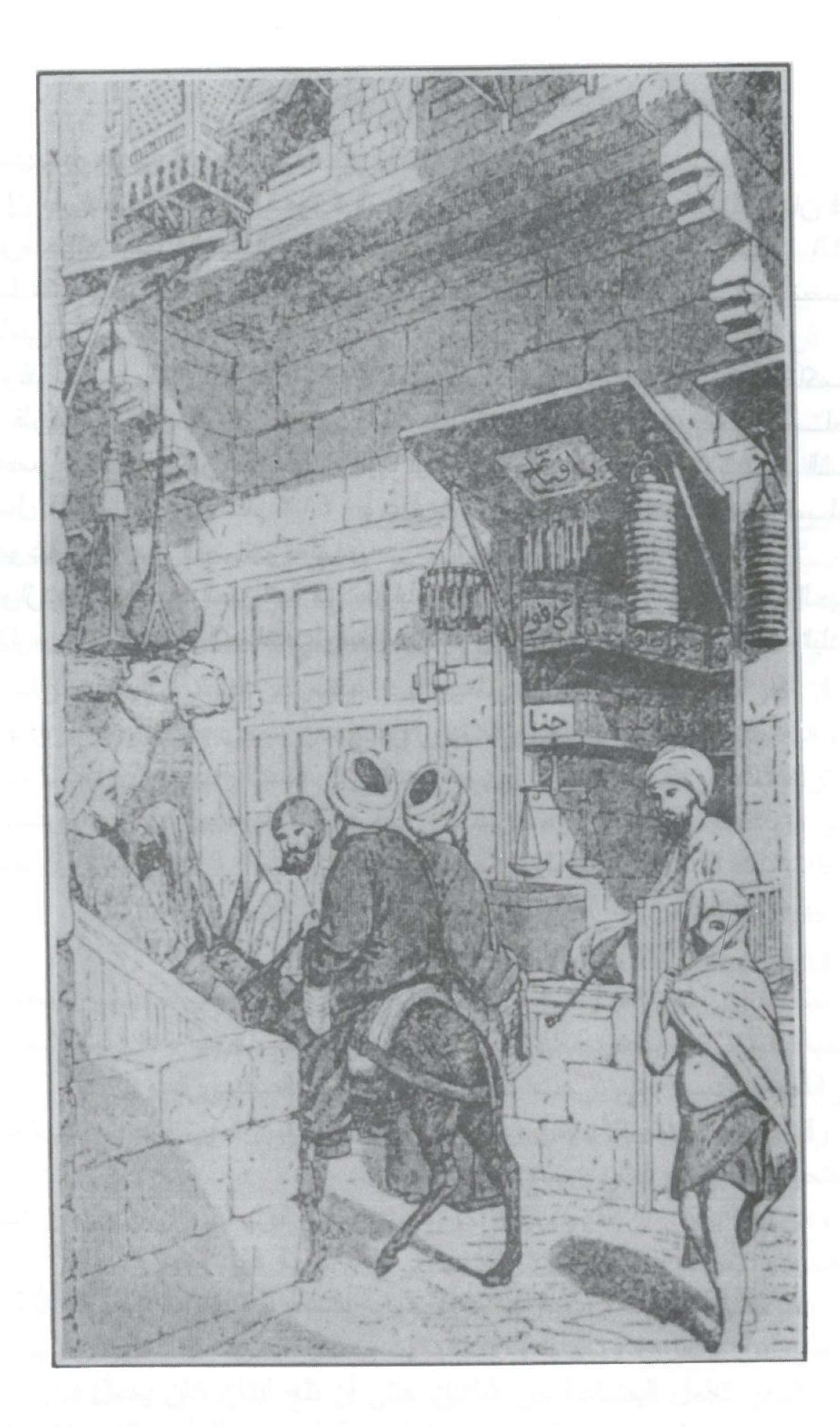
وبعد ابتناء المدينة واعتبارها مركز نيابة للسلطنة ازدهرت الحركة التجارية بين طرابلس المحررة ودمياط والإسكندرية ومصر عموما فكانت المراكب تشق عباب البحر تحمل البضاعة بين البلدين حتى أن ثلج لبنان كان يحمل من الضنية إلى القاهرة، فقد ازدهرت هذه التجارة (الغريبة) يومها إذ أن سكان بلاد الثلج في الشمال وعلى الأخص الضنية راحوا يجمعون الثلج في لباد ويأتون به إلى الميناء لينقل على المراكب المصرية التي كانت تنطلق به الى دمياط ، حيث

تواصل سيرها في النيل صعودا حتى القاهرة.

إن طرابلس دخلت في الحوزة المملوكية وعين حاكمها من قبل السلطان في القاهرة حيث استمر العهد المملوكي فيها سحابة قرنين من الزمان حتى ١٥١٦ عندما انتقلت طرابلس من المملوكيين إلى العثمانيين كما انتقلت سائر أمصار المسلمين..

وقد أحصى المؤرخان لتاريخ طرابلس د. سالم و د. تدمري تسعين حاكما على طرابلس خلال القرنين عندما كانت طرابلس تابعة للمماليك عينهم السلطان في مصر كما خرج من طرابلس واليها ليكون سلطانا في القاهرة وبلاد الشام وحصل ذلك مرتين في عام ١٤١٢ وعام ١٤٢١ فطرابلس أمدت قضاء السلطنة بمجموعة طيبة من القضاة والعلماء.

وازدهرت الحياة العمرانية في طرابلس إذ أشاد معظم ولاتها المرافق الحيوية والمدارس والمساجد والحمامات ومعاهد العلم وجددوا بناء القلعة وبوابات البلد .



الطراز التقليدي الأصيل لحوانيت أيام زمان . احد اسواق القاهرة في العهد المملوكي ،
وطرابلس ليست الا صورة مصغرة عنها
نقلا عن مجلة تاريخ العرب والعالم ص ٧٧ العدد ١٥٧ سنة ١٩٩٥م/١٤١٦هـ

الفصل السابع

مواقف وآراء للسلطان منصور قلاوون في الحكم والسياسة والجهاد وتنظيم البلاد

وللمنصور قلاوون مواقف وآراء في الدين والحياة والمال والاقتصاد والحكم والعلم والطب والجهاد جاءت في مختلف كتبه ورسائله وعهوده ومواثيقه وعلاقاته مع نوابه وولاته وعساكره ، ونفرد في ما يلي مجموعة من تلك المواقف والآراء تصلح أساسا لتقويم الرجل وتحديد آفاقه وخلفياته وتشكل مدخلا مقبولا لدراسة كاملة عن عهد السلطان وحركته السياسية والجهادية...

ولا ينتقص من هذه المواقف والآراء كونها في أكثرها من إنشاء القاضي محي الدين عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء في عهد المنصور ذلك أن المنصور يحدد أساس تلك الكتب ثم تصاغ ثم تقرأ عليه ثم يوقعها فيصوغها هذا بأسلوبه دون الخروج عن إرادة السلطان وهي طريقة لا تزال يعمل بها في مختلف دواوين الرؤساء والملوك والوزراء فلكل منهم كاتب ينشئ الرسالة أو الكتاب أو البيان أو القرار أو النداء إلا النادر الذي لا يقاس عليه

ومن هذه الآراء والمواقف أقواله التالية :

١ - **في نظرته إلى الخلافة العباسية والتفويض من الخليفة**

" وجب على من له في أعناق الأمة المحمدية مبايعة رضوان ، ومن وجبت له البيعة باستحقاقه لميراث منصب النبوة ، ومن تصح به كل ولاية شرعية يؤخذ كتابها منه بقوة ، ومن هو خليفة الزمان والعصر ، ومن بدعواته تنزل بالنصر عليكم معاشر الإسلام ملائكة النصر ، ومن نسبه بنسب نبيكم - منشج وحسبه بحسبه ممتزج ، أن يفوض ما فوضه الله إليه من أمر الخلق ، إلى من يقوم عنه بفرض الجهاد والعمل بالحق ، وان يوليه ولاية شرعية تصح بها الأحكام ، وتنضبط أمور الإسلام ، وتأتى هذه العصبة الإسلامية يوم تأتي كل أمة بإمامهم من طاعة خليفتهم هذا بخير إمام ، وخرج أمر مولانا أمير المؤمنين - شرفه الله - أن يكون للمقر العالي ، المولوي ، السلطاني ، الملكي ، المنصوري اجله الله ونصره ، وأظفره وأقدره وابده وأيده ، كل ما فوضه الله لمولانا أمير المؤمنين من حكم في الوجود وفي التهائم والنجود ، وفي المدائن والخزائن ، وفي الظواهر والبواطن ، وفيما فتحه الله وفيما سيفتحه ، وفيما كان فسد بالكفر والرجاء من الله انه سيصلحه ، وفي كل جود ومنّ ، وفي كل عطاء ومن ، وفي

كل هبة وتمليك ، وفي كل تفرد بالنظر في أمور المسلمين بغير شريك ، وفي كل تعاهد ونبذ ، وفي كل عطاء واخذ ، وفي كل عزل وتولية ، وفي كل تسليم وتخلي ، وفي كل إرفاق وإنفاق ، وفي كل إنعام وإطلاق ، وفي كل تجديد وتعويض ، وفي كل حمد وتفويض، ولاية عامة تامة محكمة ، منضدة منظمة ، لا يتعقبها نسخ من خلفها ولا من بين يديها ،نعم ينتهي إلى ما نصبه الله للإرشاد من سنة وكتاب ، وذلك من شرع لله أقامه للهداية علما ، وجعله إلى اجتياز الثواب سلما ".

فالواجب أن يعمل بجزئيات أمره وكلياته ، وأن لا يخرج أحد عن مقدماته ، والعدل فهو الغرس المثمر ، والسحاب الممطر ، والروض المزهر ، وبه تتنزل البركات ، وتخلف الهبات ، وتربى الصدقات ، وبه عمارة الأرض ، وبه تؤدى السنة والفرض ، فمن زرع العدل اجتنى الخير، ومن احسن كفى الضرر ، والضير والظلم فعاقبته وخيمة ، وما يطول عمر الملك إلا بالمعدلة الرحيمة ".

" والرعية فهم الوديعة عند أولى الأمر ، فلا يخصص بحسن النظر منهم زيد ولا عمرو".

" والأموال فهي ذخائر العاقبة والمآل ، والواجب أن تؤخذ بحقها ، وتنفق في مستحقها".

" والجهاد برا وبحرا ، فمن كنانى الله تفوق سهامه وتجرى منشآته في البحر كالأعلام ، وتنشر أعلامه ، وفي عقر دار الحرب يحط ركابه ، وجيوش الإسلام وكماته ومراؤوه وحماته ، فهم من قد علمت شدة باس ، وقوة مراس ، وما منهم إلا من شهد الفتوحات والحروب ، واحسن في المحاماة عن الدين الذؤوب ، وهم بقايا الدول".

" والثغور والحصون فهم ذخائر الشدة ، وخزائن العديد والعدة ، ومقاعد للقتال ، فاحسن لها التحصين ، وفوض أمرها إلى كل قوي أمين ، والى كل ذي دين متين ، وعقل رصين ونواب الأمصار، فاحسن لهم الاختيار، وأجمل لهم الاختبار ".

" وأما ما سوى ذلك ، فهو داخل في حدود هذه الوصايا النافعة ، وزمام كل صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته ، هو تقوى الله ، قال الله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته".

" فليكن ذلك نصب العين ، وشغل القلب والشفتين وأعداء الدين من أرمن وإفرنج وتتار ، فأذقهم وبال أمرهم في كل إيراد للغزو وإصدار ، وثر لان تأخذ

للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثأر ، واعلم أن الله نصيرك على ظلمهم ، وما للظالمين من أنصار"(١٧).

٢ – موقفه من الحكم من خلال ولاية العهد

وفي ١٧/جمادى الاخرة /٦٧٩ = ١٣/١٠/١٢٨٠ م.قلد المنصور قلاوون ابن الملك الصالح علي ولاية العهد وجاء في وصاياه التي ضمنها تقليد العهد ما يلي(١٨):

" أما الوصايا فقد لقنّا ولدنا وولي عهدنا ما انطبع في صفاء ذهنه وسرت تغذيته في نماء غصنه...فاتق الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ، وانصر الشرع فانك إذا نصرته ينصرك الله على أعداء الدين وعداك ، واقض بالعدل مخاطبا ومكاتبا حتى يستبقي إلى الإيعاز به لسانك ويمناك ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر عالما انه ليس يخاطب غدا بين يدي الله عن ذلك سوانا وسواك ، وانه نفسك عن الهوى حتى لا يراك الله حيث نهاك ، وحط الرعية ، ومر النواب بحملهم على القضايا الشرعية وأقم الحدود ، وجند الجنود ، وابعثها برا وبحرا من الغزو إلى كل مقام محمود واحفظ الثغور ولاحظ الأمور ، وازدد بالاسترشاد بآرائنا نورا على نور ، وأمراء الإسلام الأكابر وزعماؤه ، فهم بالجهاد والذب على العباد أصفياء الله وأحباؤه، فضاعف لهم الحرمة والإحسان • واعلم أن الله اصطفانا على العالمين وإلا فالقوم إخوان ، لا سيما أولو السعي الناجح والرأي الراجح ، ومن إذا فخروا بنسبة صالحية قيل لهم : نعم السلف الصالح، فشاورهم في الأمر ، وحاورهم في مهمات الأمور في كل سر وجهر.وكذلك غيرهم من أكابر الدين هم من تحايا الدول وذخائر الملوك الأول ، أجرهم في هذا المجرى ، واشرح لهم بالإحسان صدرا وجيوش الإسلام هم البنان والبنيان فوال إليهم الامتنان واجعل محبتك في قلوبهم بالإحسان إليهم حسنة المربي وطاعتك في عقائدهم قد شغفها حبا : ليصبحوا بحسن نظرك إليهم طوعا، وليحصل كل جيش منهم من التقرب إليك بالمناصحة نوعا والبلاد وأهلها فهم عندك الوديعة فاجعل أوامرك لهم بصيرة وسميعة".

" وأما غير ذلك من الوصايا ، فسنخولك منها بما ينشأ معك توأما ، ونلقنك من آياتها محكما فحكما "(١٩).

(١٧) راجع النص كاملا في صبح الأعشى للقلقشندي ج ١٠ ، ص ١١٦ من عهد رفعه القاضي محي الدين بن عبد الناصر للسلطان المنصور قلاوون عن الخليفة الإمام ابن العباس احمد الحاكم بأمر الله.انظر تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور لمحي الدين بن عبد الظاهر ص ٢٣٨ وما يليها.

(١٨) راجع النص كاملا في المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ ـــ ٢٠٣ .

٣ ــ في أدب الحزن على وفاة ولي عهده علي :

كان قلاوون قد جهز جيشا قويا وأراد الخروج من مصر إلى الشام ومعه ولي عهده الملك الصالح علي وذلك في ٦٨٧ هـ.والمرجح انه كان ينوي بهذا الخروج طرابلس واستعادتها من الصليبيين فإذا بالمرض الشديد يحل بولي العهد الملك علي ، ولما يخرجا من القاهرة بعد وثقل المرض على الملك علي ثم توفي في ٤/شعبان /٦٨٧هـ. ودفن بتربة والدته قريبا من السيدة نفيسة بالقاهرة وتألم السلطان المنصور على ولده وحزن عليه وجلس للعزاء في الديوان الكبير وأنشئت كتب العزاء إلى أكابر النواب في البلاد وأمر فيها المنصور قلاوون (أن لا يتعرض أحد لقطع شعر ولا إلى تغيير زي ولا لبس حداد) وقال المنصور في كتبه :

" نحن إلى الله تعالى الذي جزانا بالصبر المثوبة الباطنة والظاهرة وكان من غرضنا أن نجعله ملكا في الدنيا فجعله الله ملكا في الآخرة " [٢٠] .

٤ ــ وصية جامعة من المنصور قلاوون إلى ولي عهده ابنه الخليل ومنها دستور الحكم وأساليبه منها[٢١] :

" أما الوصايا فأنت يا ولدنا الملك الأشرف ــ أعزك الله ــ ...فعليك بتقوى الله عز وجل فإنها ملاك سدادك ، وهلاك أضدادك ، فاجعلها نصب عيني أمرك ونهيك ، والشرع الشريف ، فهو قانون الحق المتبع ، وبه يتمسك من أشار ، وهو جنة والباطل نار : "فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز " فلا تخوج في كل حال عن لوازمه وشروطه ، ولا تتكب عن معلقه ومنوطه ".

" والعدل فهو مثمر غروس الأموال ، ومعمر بيوت الرجاء والرجال، وبه تزكو الأعمار والأعمال ، فاجعله جامع أطراف مراسمك ، وافضل أيام مواسمك، ولا تفرد به فلانا دون فلان ، ولا مكانا دون مكان ، واقرنه بالفضل " إن الله يأمر بالعدل والإحسان " .

" وأحسن التخويل ، وأجمل التنويل ، وكثّر لمن حولك التموين والتمويل ، وضاعف الخير في كل مضاف لمقامك ، ومستضيف بإنعامك ، والثغور فهي

(١٩) تاريخ هذا التقليد بدأ في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٧٩ هـ.١٢٨٠ م. ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٠،ص ١٧٣؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٧/ص ١٨٧ ؛ محي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٢٠٢ وما يليها .

(٢٠) م.س ، ص ٢٨٨ ، ويبدو أن وفاة ولي العهد علي أرجأ الخروج إلى الشام وفتح طرابلس إلى أوائل المحرم من العام الجديد ٦٨٨ هـ. حين خرج المنصور من حبسه في العاشر من محرم ٦٨٨هـ./١٢٨٩م. بعد أن رتب أوضاع مملكته في مصر .

(٢١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٠ ، ص ١٦٦ ؛ محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ص ٢٤٨ وما يليها.

للممالك، وبها حفظ البلاد من كل مار من الأعداء مارد وأمراء الجيوش فهم السور الواقي بين يدي كل سور وما منهم إلا كل بطل بالنصر مشهور وهم ذخائر الملوك ، وجواهر السلوك وما منهم إلا من له خدمات متحببا ولمرابعهم مخصبا، ولمصالحهم مرتبا ، ولآرائهم مستصوبا ، ولاعتضادهم مستصحبا ، وفي حمدهم مطنبا ، وفي شكرهم مسهبا . والأولياء المنصوريون الذين هم كالأولاد ، ولهم مكانة من قبلنا ، وهم المساهمون فيما ناب ، وما برحوا للدولة الظفر والباب ، فاسهم لكل منهم من احترامك نصيبيا وأدم لهم ارتياحك " .

" وكما أنا نوصيك بجيوش الإسلام ، كذا نوصيك بالجيش الذي له الجوار المنشآت في البحر كالأعلام، فهو جيش الامواه والأمواج ، وما سميت شوانيه عربانا إلا ليجتمع بها لنا ما اجتمع لسليمان ، ، من تسخير الريح والطير فيصبح لك جيشان كل منهما ذو كر وفر هذا في بر بحر ، وهذا ببحر بر وبيوت العبادات فهي التي إلى مصلى سميك "خليل" الله تنتهي محاريبها ، وبها لنا ولك ، وللمسلمين سرى الدعوات وتاويبها ، فوقها نصيبها المفروض غير منقوص ، ومر برفعها ، وذكر اسم الله تعالى فيها للأمر المنصوص. وأخواتها من بيوت الأموال الواجدات الواجبات ، من حيث أنها كلها بيوت الله عز وجل : هذه للصلاة ، وهذه للصلوات ، وهذه كهذه في رفع المنار، وجمع المبار ، وإذا كانت تلك مما أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فهذه ترفع ويذكر فيها اسمه ، حتى على الدرهم والدينار، فاصرف إليها اجتهادك فيما يعود بالتثمير ، كما يعود على تلك بالتنوير ، وعلى هذه باشحانها بأنواع الصروف ، كاشحان تلك باستواء الصفوف ، فإنها إذا أصبحت مصونة، أجملت بحمد الله المعونة ، وكفلت بالمئونة، وحدود الله فلا يتعداها أحد ، ولا يرأف فيها ولد بوالد ولا والد بولد ، فأقمها وقم في أمرها حتى تنضبط أتم الضبط ، ولا تجعل يد الفتك مغلولة إلى عنقها ، ولا تبسطها كل البسط ، فلكل من الجنايات والقصاص شرط شرطه الله وحدَّ حده ، فلا يتجاوز أحد ذلك الحد ، ولا يخرج عن ذلك الشرط والجهاد ، فهو الدين المألوف من حيث نشأ ونشأتك ".

" ونرجو أن يكون الله قد خبأ لك من الفتوحات ما يستنجزها لك صادق وعده، وان ينصر بك جيوش الإسلام ، في كل انجاد واتهام وما النصر إلا من عنده " .

" وبيت الله المحجوج من كل فج ، المقصود من كل نهج ، فسير سبيله ، ووسع له الخير ، وأحسن تسبيله ، وأوصل من برّك لكل من الحرمين ما هو له، لتصبح ربوعه بذلك مأهولة ، واحمه ممن يريد فيه بالحاد بظلم ، وطهره من مكس وغرم ، ليعود نفعك على البادي والعاكف ، ويصبح واديه وناديه مستغنين

بذلك عن السحاب الواكف " .

" والرعايا ، فهم للعدل زروع ، وللاستثمار فروع ، ولاستلزام العمارة شروع، فمتى جادهم غيث أعجب الزراع نباته ، ونمت بالصلاح أقواتهم ، وصلحت بالنماء أوقاتهم، وكثرت للجنود مستغلاتهم ، وتوفرت زكواتهم وتنورت مشكاتهم ، والله يضاعف لمن يشاء".

٥ ــ في الوالي :

" إذ اصبح الأول من عددها وقطب ملكها الذي على تدبيره مدارها ، وعلى تقريره اقتصادها ٠٠٠ والى نسبه إمارته جملتها وتفصيلها ولجمعهم على الطاعة فان الطاعة ملاك الأمر للآخر وأسس الخير للبادي والحاضر " [٢٢].

٦ ــ في الولاية للأكفأ :

" رأينا أن لا يمتطي صهوة العز إلا أهلها .. ولا يتسلم رأيها إلا من تعقد عليه الخناصر ولا يتسلم ذروتها إلا من هو أحق بها وأهلها في الأول والآخر".

وقال: " احسن المحاسن أن يولى من يقول له المنصب : أهلا وسهلا لا سيما إذا رجع الحق به إلى نصابه ... وعاد المنصب إلى ربه الذي هو أولى به"[٢٣].

وقال : "... وليوف المنصب حقه ولا يحرم ذا استحقاق ما استحقه فان حرمان المستحق يوقف غيره "[٢٤].

٧ ــ في تقدير الوالي للرعية :

" ولنعلم أن لكم منهم بيتا به... يرثها الولد عن الوالد و نرجع من ذلك البيت إلى ذلك الواحد فليحفظ الأنساب ولير لهم الأسباب ... فليرتب ذلك اجمل ترتيب وليسلك فيه حد مهذب وتهذيب " .

٨ ــ ويؤكد على الولاة برفع الظلم عن الرعية وينصحهم في الجلوس لسماع العامة:

" ينتصبان ــ أي الوالي والأمير ــ في أوقات العادة في باب القلعة لكشف مظالم الرعية والبر ويعتمدان إنصافهم وتلبية داعيهم وسماع كلمهم وكف ظالمهم

(٢٢) من تقليد الأمير فخر الدين على عربان الشام المحروس ، ذكره ابن الفرات ، ج٧ ، ص ١٧٧.

(٢٣) م.ن ، ج٨، ص٢٢ ؛ ومحيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٢٢١

(٢٤) م.ن ، ص ٢٢٣

وإعانة مظلومهم واعتماد ما يجب من العدل وبسطه في الرعية وكف الأيدي العادية"[٢٥].

٩ ــ في أصول التموين والتخزين والتوزيع :

" الذخائر والغلال يجتهد في تحصيلها بالقلعة ولا تخزن غلة جديدة على غلة عتيقة وكل هري يخزن فيه غلة يحرر أمرها وتشال عيبتها في كيس وتجعل في الخزانة ويختم عليها ولا يصرف من الجديد قبل نفاذ العتيق ..." [٢٦].

١٠ ــ في التنظيم والحراسة :

" أبواب القلعة إذا أغلقت في كل ليلة تبيت المفاتيح عند النائب في المكان المعتاد بعد ختم الوالي عليها على العادة وإذا تسلمها يتسلمها بختمها على العادة".

" وعليهما أي النائب والوالي ــ أن لا يمكنان أحدا من الرجال المرتبين بالقلعة المحروسة وان يخل بنوبته ولا يفارقها ولا يخرج من القلعة أحد من الرجال إلا بدستور ويعود في يومه "[٢٧].

١١ ــ في تشييد الدواوين وتنظيمها :

" لا يداخل الوهم في الوثوب به ليس ، وكيف لا ، والمال كما قيل عديل النفس ... فليعمل بتقوى الله عز وجل ، في السر والجهر والنهي والأخذ والإعطاء والاسخاط والإرضاء ، ولا يخرج عن سنن الحق أن قال أو فعل ، أو فصل أو جمل ، أو ولى أو عزل، ولا يظلم لنا مخلوقا فاشد الظلم من ظلم لغير ولا يفعل إلا ما يحمد الله والناس فيه الحسنين من سيرته وسيره، ومهما تعين لنا من مال في جهة من الجهات فلا يتركه ولا يبقى مسلكا لخلاصه إلا ويسلكه . والوصايا في الأموال كثيرة ، وفي الأمور الديوانية غير محصورة ، وبالمباشرة يحصل الإطلاع وبالمطالعة للأحوال تنحسم للخونة موّاد الأطماع واجل الوصايا حسن الضبط ومقابلة اللفظ في تحرير الأمور للخط بحيث يعلم كل ذي قدر وقدرة"[٢٨].

١٢ ــ في الولاة من غير المسلمين :

عين المنصور واليا على بلاد النوبة نصرانيا واخذ منه اليمين والعهد الذي منه :

(٢٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٣/ص٩٩ ؛ محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ١٩٥.

(٢٦) م.ن ، ص ١٩٦.

(٢٧) م. ن ، ص ١٩٦.

(٢٨) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج٧،ص ١٨١ ؛ محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ١٩٩

" إني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته ــ أي مرضاة المنصور ــ ... وإنني لا اترك شيئا من السلاح ولا أخفيه ولا أمكن أحدا من إخفائه...وإنني سمعت من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به السلطان في وقته وساعته ولا انفرد بشيء من الأشياء...)[٢٩].

١٣ ــ البراعة السياسية في صياغة الهدف مع الصليبيين الإفرنج :

مثل عليها :**هدنة طرابلس :**

" تقررت الهدنة مع متملك طرابلس الشام "بيمند بن بيمند" ــ ملك الإفرنج ــ لمدة عشر سنين كوامل متواليات أولها السابع والعشرين من شهر ربيع الأول من هذه السنة (٦٨٠ هـــ تموز ١٢٨١) وفيها:(ولا يدخل إلى طرابلس غلة محمية للابرنس، ولا غيره إلا ويؤخذ الموجب عليها ، وعلى أن الابرنس لا يستجد خارج مما وقعت الهدنة عليه بناء يدفع ولا يمنع وكذلك السلطان لا يستجد بناء قلعة ينشئها من الأصل في البلاد التي وقعت الهدنة عليها، وعلى الشواني في الجهتين أن تكون آمنة كل طائفة من الأخرى ، ولا ينقض ذلك بموت أحدهما ولا بتغييره وان يحسن لأحد من أعداء السلطان ولا يتفق عليه برمز ولا خط ، ولا مراسلة ولا مكاتبة ولا مشافهة"[٣٠].

١٤ ــ في وحدة المواطنية في البلاد والنظر في مصالح الناس

" لما ألقاه الله سبحانه إلينا من مقاليد الأمور وجعله في أيدينا من صلاح الجمهور ، واثقا من نصره العزيز ، ومن آتاه نصره فهو المنصور ، نراعي أحوال الرعايا ونوجب ملاحظة البرايا، لنعم بحياطتنا سائر الأمم ونحفظ لكل أمة مالها من ذمم فنحن بحمد الله معتنون بمصالح الرعية ، وان اختلفت مللهم وآراؤهم ، وتفرقت مذاهبهم وأهواؤهم ، خلقا شريفا منا وسجية مباركة تنسب إلينا ، وتروى عنا ، تحمل كل أمة على شروعها ونسلك بها سبل اصلها وفرعها، ونعتمد حفظ نمامها ، ويساوى في المعدلة بين قويهم وضعيفهم ، ونساهم في الحق بين شريفهم ومشروفهم ".

" فالحمد لله على هذه النعمة التي علت النعم ، وأهمتنا حسن النظر في مصالح الأمم"[٣١].

---

(٢٩) م.ن ، ص ٢١١ ؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج٧ ، ص ٢٠٦.

(٣٠) م.ن ، ج٨ ، ص ١٨ ؛انظر تشريف الأيام ص ٢١٦

(٣١) م. ن ؛ انظر تشريف الأيام ، ص ٢٣١

١٥ ــ في تنظيم الطائفة اليهودية في مصر ووضع قواعد في التنظيم المدني لغير المسلمين :

" ولما كان الشيخ الجليل الربيس الكافي أبو الحسن المتطبب ممن تقدمت له رياسة على أبناء جنسه وقام له شاهد على نبله من سلفه ، ومن نفسه.وكان صدرا في أهل ملته ، وربيسا في مذهبه وشرعته ، قد شهر في عشيرته بديانته ، وعرف في قومه بكفاية وأمانة ، اقتضت الآراء الشريفة أن نجعل له الحديث في أهل ملته ، والرياسة على قومه وأمته ، وخرج الأمر العالي لا زال حاكما على الأمم،مالكا للعرب والعجم،أن يفوض إليه رياسة اليهود على سائر طوائفهم،الربانيين والقرابين، والسامرة بالقاهرة ومصر المحروستين، وسائر الديار المصرية تقديما له على كل قائل يقوله،ومقتد بفعله وعلماء بما هو عليه الحياطة لأمور رعيتنا به التي يعنينا ملاحظتها،وثقة منه بما يأخذ به نفسه من حراسة أحوالها التي يلزمنا تعهدها، ومحافظتها " .

" وامرنا أن يعتمد في حق من ولیناه أمرهم إصلاح فاسدهم،وتقويم ما يدهم، وان يحملهم على منهج دينهم الذي يدينونه ، ويسلك بهم سنن معتقدهم الذي يعتقدونه،وان يحسن السيرة فيهم بما يقضى باستقامة أحوالهم، ويقضي إلى انتظام شملهم،وتألف أفعالهم وأقوالهم، لتخلص لنا طاعتهم ، وتصح لنا نصيحتهم ".

" فليأتمر معاشر طوائف اليهود والسمرة بأمره،وليقفوا عند حكمه وزجره،ولا يخالف أحد منهم ما يحكم به من نص شريعته له،وعليه،ولا يعارضه في الحق من ورائه،ولا من بين يديه، ولا يفتح مجلس في صلاة إلا بأمره،وحكمه، ولا يخرج أحد من الجميع من تقدمه ورسمه، ولا يتجره عليه متجره،ولا يتوجه إلى غير حلمه متوجه،وله أن يستتيب من يختاره من نواب الربيس المتقدم وغيرهم من يختاره،وله أن ينصب لكل طائفة من يرتضى من تلك الطائفة،ليحكم فيهم بمذهبهم ورأيهم،ومن شاققه أو وافقه أو عانده أو خالفه،فله أن يؤدبه،ويقيم عليه الحد،ويحرمه بمقتضى شريعته على ملته"[٣٢].

١٦ ــ في تعيين شيخ مشايخ الصوفية وآداب التصوف وواجبات المشيخة

اختار مشايخ الصوفية شيخا عليهم ورغبوا بذلك إلى المنصور قلاوون الذي اصدر أمره وفيه :

" فليتقدم الشيخ شمس الدين حرسه الله تعالى وليجلس في المكان الذي يجلس شيخ الشيوخ فيه وليفعل في هذا المنصب الجليل ما يقتدى كل أحد به ويقتفيه ، والوصايا كثيرة ، لكنها شرعت لغيره وهو ــ اعزه الله ــ غني عنها لما نتحققه من دينه وخيره ، فليعمل جماعة المشايخ بالتلطف وخفض الجناح والتعطف ".

---

(٣٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٣، ص ٢٩٠ ؛ محيي الدين بن عبد الظاهر: تشريف الأيام ، ص ٢٣١

" وليعلم انه ولى على صوفة ، فليتخلق لهم بأخلاق التصوف وهو الذي يتحقق بعلمه انهم هم الذين يحسبهم غيره – وحاشاه – أغنياء من التفف ، وليلن لهم جانبه ما استطاع من حوله وليستجلب قلوبهم بنفوله وحوله وليستعطف منهم في يومه ما لا يستطعفه غيره في حوله ، وليرق لهم قلبه ، فإنا نخشى لينه أن ينفضوا من حوله ، وليمعن النظر في أمور الأماكن الموقوفة على هذه الجهات ، وليصلح منها ما أمكنه ، وليجدد منها ما اخلقته الأزمنة، وليراع من أمرها ما يجب أن يراعى ، وليشيد منها ما تهدم أو تداعى ، إلى أن تعود إليها عمارتها ، وترجع لها نضارتها ، ويزكو ريعها ويأنس ربعها ، ويصفو شربها ويخصب جدبها ، ويزجو ارتفاعها ، وتجري على السداد أوضاعها ، وليتلاف من أمرها ما فات ، وليستدرك فارطها فيما هو آت ، ولينصب لجباية خراجها الأمناء ، وليرتب لخرجها الأكفاء ، وليصرف ذلك كله في مصارفه ، متبعا في ذلك كله رضى الله تعالى ، وشرط واقفه ".

" ولينظر في مصالح المشايخ الصوفية نفع الله بهم ، وما شرطه الواقفون رحمهم الله لهم من مطعم ومشرب ، وحلوى وملبوس، وما تمتد إليه الأطماع وتشرئب إليه النفوس ، وما لعله قد شرط لهم في الأيام ، وقرر لهم في الجمع والشهور والأعوام ، فليحملهم فيه على نية من وقفه عليهم ، وليجعل نفسه أحد المتصدقين في إيصال ذلك مهنأ إليهم وليكن ممن ولى أمرا فأجاد فيه الولاية واحسن"[33].

١٧ – دعوة التجار في بلاد السند والهند والصين واليمن للتجارة والإقامة في بلاد مصر والشام وترغيبهم بذلك

ان من أراد من الصدور الأجلاء الأكابر التجار ، وأرباب التكسب ، وأهل التسبب ، من أهل هذه الأقاليم التي عددت ، والتي لم تعدد ، ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا أن أقام أو تردد – النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها الظليلة أفياؤها ، وأفناؤها فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ، ولا إلى ذخيرة ، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصر، ولا تهجر للإفراط في الخصر ، والمقيم بها في ربيع دائم ، وخير ملازم ، ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه ، إذ أصبحت دار إسلام بجنود تسبق سيوفهم العذل، قد عمر العدل أوطانها ، وكثر سكانها واتسعت أبنيتها إلى أن صارت ذات المدائن ، وايسر المعسر فيها فلا يخشى سَوْرَة المدائن، إذ المطالب بها غير

(٣٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٨،ص٢٩ ؛ محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٢٣٤–٢٣

متعسرة ، والنظرة فيها إلى ميسرة، وسائر الناس وجميع التجار لا يخشون فيها من يحور ، فان العدل قد أجار .

"فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم فليأخذ الاهبة في الارتحال اليها والقدوم عليها ليجد الفعال من المقال اكبر ، ويرى احسانا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالاكثر ، ويحل منها في بلدة طيبة ربها غفور ، وفي نعمة جزاؤها الشكر – ولا يجازى الا الشكور – وفي سلامة في النفس والمال ، وسعادة تجلى الأحوال ، وتمول الآمال ، ولهم منا كل ما يؤثرونه ".

وجاء في المرسوم أيضا

" هذا مرسومنا إلى كل واقف عليه من تجار شأنهم الضرب في الأرض (يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله) ليقرأوا منها ما تيسر لهم من حكمه ، ويهتدوا بنجمه ، ويقتدوا بعلمه ، ويمتطوا كاهل الأمل الذي يحملهم على الهجرة ، ويبسطوا أيديهم بالدعاء لمن يستدنى إلى بلاده الخلائق ليفوزوا من إحسانه بكل نضارة وبكل نظرة ، ويغنموا أوقات الريح فإنها قد أدنت قطافها"[34].

١٨ – في نقد العهود السابقة التي لم تول العلم أهميته

" رأينا كل من تقدمنا من الملوك وان سلك في سياسة الرعية احسن سلوك ، وقد اهتم بعلم الأديان ، وأهمل علم الأبدان وأنشأ كل منهم مدرسة ، ولم يحفل ببيمارستان ، وغفل عن قوله : {العلم علمان}.ولم يأخذ أحدا من رعيته بالاشتغال ما فعلوه "[35].

١٩ – في العلم :

" ولما كان العلم كما روى من أن العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان تعين علينا أن نحسن في هذين العلمين النظر...وأردنا أن نحفظ على رعيتنا ما هم مفتقرون إلى حفظه من صحة الدين والبدن وعلما انه لا يعذر على القيام بالفرائض إلا من صح من بدنه ما ظهر ومن دينه يعلن فأنشأنا لهذه العلمين الشريفين من المعاني المباركة...ونصبنا لذلك من العلماء والحكماء من اخترناه ورضيناه لما اختبرناه "[36].

(٣٤) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٣، ص ٣٤٠ ؛ محيي الدين بن عبد الظاهر: تشريف الأيام ، ص ٢٣٦–٢٣

(٣٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج٨ ص ٢٥ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١١ – ص ٢٥٣

(٣٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج٨ ، ص ٢٢ ؛ محيي الدين بن عبد ، تشريف الأيام ، ص ٢٢١ – ٢٢٢

وقال : " فنحن إما في تجنيد جنود شاع خبر نصرها للإسلام، وإما في تجهيز ركب وسبيل إلى بيت الله الحرام ، وإما تشييد أماكن مباركة تبقى وجوه برها على الدوام ، فمنها ما يتلى فيه كتاب الله سبحانه وتعالى ، وحديث نبيه عليه الصلاة والسلام ، ومنها ما تلقى فيه مذاهب الأربعة الأئمة، وترفع فيه للعلوم أعلام ، ومنه ما يطلب فيه الدواء للداء ، ويرجى فيه الشفاء من الأسقام ، إقامة لمنار علمي الأديان والأبدان ، وحفظا لصحتي الأبدان والأديان" (٣٧) .

٢٠ — في أصول التدريس والتفرغ وصفات المدرس الناجح :

" ولا بد لهذه الأماكن من أئمة ينتصب كل منهم لإقرار علمه ويجري من طلبته على حكمه ويتفقهون عليه في مذهبه وقد اخترنا لكل مذهب إماما قلدناه أحكاما واحكمنا أمر توليته أحكاما... فليحمد الله على ما خصه به من الأهلية ، ووهبه له من الأولوية ، وليتلق هذه النعمة بشكر يزيده من فضلها ، ويفئ عليه من ظلها ، ولينتصب لاقراء مذهبه المبارك ، وتقرير قواعده الخمس، وليعلم أن تفقه رجل واحد من طلبته عليه ، خير له مما طلعت عليه الشمس ، وليجعل آيات مذهبه ظاهرة مبينة وأسباب أدائه قوية مكينة ، وليؤيد رأيه ، ولينصر دينه ، فان النبي يقول : { يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل ، يطلبون العلم ، فلا يجدون عالما اعلم من عالم المدينة } .

" وليلق طلبته بوجه طليق ، وثغر باسم ، وليقسم لهم من تهديهم وتلهيهم ما ينسيهم أشهب ، وابن القاسم ".

" وليتعهدهم بملازمة دروسهم ، وحفظ ماضيهم ، وليحسن في استعادتهم ما حفظوه، تقاضيهم • ولينصف كبيرهم في بحثه ، وليسعف صغيرهم بحضه على الاشتغال ، وحثه.وليحسن التلطف مع الطلبة والإيناس ، وليستعمل في تعليمهم الذكر والفكر والحواس"(٣٨).

٢١ — في الطب ورياسته :

" ولما كانت رياسة الأطباء ، هي المنصب لمتوليه الأمانة على الأرواح ، والتصرف في الأشباح والتصريف لذوي الصلاح ، ولمباشرة الحكم في التجريح والتعديل وعليه فيمن ينصب للعلاج والمداواة التعويل ، تعين أن نختار من ينصب لذلك ويرتب ، وان تنتخب له من الرجال المهذب .

وقال : " وليلق هذه التولية احسن ملقى ، وليصرف لها وجها طلقا ، وليحكم في أموره بالقسط ولينصف في القبض والبسط ، ولينظر في أحوال المتصرفين

(٣٧) م.ن ، ج٨ ، ص ٢٧؛ م.ن ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦

(٣٨) م.ن.، ج٨ ، ص ٢٧ ، م.ن ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨

من الأطباء الطبايعية وليكتف عن أمور الكحالين والجرايحية ، وليقرهم على قواعدهم التي رقوا إليها ، وليجرهم على عوائدهم إلا من ظهرت منه كبيرة وهو مصر عليها ".

٢٢ — في محاربة منتحلي علم الطب :

" وليتقدم إليهم بالتثبت والاتفاق على ما يستعملونه بالحديد ، وان لا يتعوض أحدهم لعمل إلا وعليه من الحكماء المعروفين شهيد ".

" وليكشف أمور من يقعد على الطرقات ، ويعتمد في أفعاله الموبقات ممن يعمل بالحديد وغيره، ولا يؤنس من شره ، ولا يطمع في خيره فليمنعنه من الجلوس، وليصرفه عن أذى الأجساد ، وتلف النفوس ومن سمع انه في الضواحي والبلاد يتعاطى ، ولا يبذل في مباشرته احتياطا فليكتب بمنعه وليجتهد في ردعه، وليختبر كل متظاهر ، أو متستر بهذه الصناعة ، وليحقق ما عنده فيها من بضاعة• فمن ثبت انه أهل للتصرف فليصرفه مع الجماعة ، ومن لم يثبت انه أهل فلا يمكنه أن يطلق لسانه " (٣٩).

٢٣ — في إجازة رئيس الأطباء التدريس وإطلاق يده في العمل الطبي :

" وليكن مقيما بالقاهرة مرفها من الأسفار والبياكير متوفرا على ما هو مخصوص به من تدريس البيمارستان المنصوري ".

" وهذا المنصب الأثير معطيا لهاتين الرتبتين حقهما من جميل التدبير وجليل التأثير ، فإنا ما وليناه هذا المنصب النفيس ، وجمعنا له بين الرياسة والتدريس ، إلا وقد أقمناه في دولتنا مقام ابن سينا ، وكيف لا ، وهو الشيخ الرئيس وسبيل كل واقف على هذا التوقيع من النواب كافة تقوية يده على المصالح المعروفة به في هذا المكتوب الكريم وإعانته على سلوك طريقه المستقيم والوقوف عند أوامره ونواهيه وأحكام أحكامه المتقنة ، والعمل بما فيه فانه هو الأصل " (٤٠).

وقال : " وليبذل النجاة من الأمراض والشفاء من الأسقام ، فانه ابن سينا الأوان ، وليجمع عنده شمل الطلبة ، وليعط كل طالب منهم ما طلبه،وليبلغ كل متمن من الاشتغال أربه، وليشرح لهم صدره ، وليبذل لهم من عمره شطره ، وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره ، وليرهم ما خفي عنهم منه جهره ، وليجعل منهم جماعة طبائعية ، وطائفة كحالين وجرائحية ، وقوما مجبرين، وبالحديد عاملين ، وآخرين بأسماء الحشايش ، وقوى الأدوية وأوصافها عالمين ،

(٣٩) محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣

(٤٠) م.ن ، ص ٢٢٤.

وليأمر كلا منهم بحفظ ما يجب حفظه ، ومعرفة ما يزيد به حظه ، وليأخذ بما يصلح به لسانه ولفظه ، ولا يفتر عنهم في الاشتغال لحظة ، وليفرد لكل علم من علوم الطب طائفة ، ولكل فن من فنونه جماعة لمحاسنه عارفة ، وليصرف إليهم من وجوه فضائله كل عارفة ، وليكشف لهم ما أشكل عليهم من غوامضه ، فليس لها من دون إيضاحه كاشفة "[٤١]

٢٤ ــ في معاوني رئيس الأطباء :

" وأما أخواه القاضي علم الدين والقاضي موفق الدين[٤٢] فليعرفا القاضي مهذب الدين حق التقدمة والسن والفضيلة التي تركن إليها النفس ، وتطمئن ، وليرعيا له حرمة الاخوة وليعلما أن شد العضد بالأخ نعمة في حق النبوة ، ولينزلا أنفسها في احترامه بمنزلة البنوة ، وليرفعاه عن إذلال الاخوة إلى آداب البنوة ، ونصب من ينصب ، وأقام من يقام إليه وإذا أشكل عليهما أمر فليستوضحاه من لدنه ، وليحلاه لديه ولا يقطعا أمرا ولا يفصلاه إلا بحضرته وبين يديه ، وهو اعزه الله تعالى متى انفرد كان كافيا ، فلا سيما إذا حصل الاتفاق واجتماع الآراء "[٤٣] .

٢٥ ــ في تخريج الأطباء :

" ومن وصل إلى حد التزكية فليقبل عليه بوجه القبول ، ومن استحق الإذن والتصريف فليرجع فيه إلى كلام الحكماء العدول ، وليوف المنصب حقه ، ولا يحرم ذا استحقاق ما استحقه ، فان حرمان المستحق يوقف غيره ، ولا يرغب في علم إذا لم يرجُ طالبه خيره ، ولا يعط الحكمة غير أهلها ، فيظلم ولا يمنعها عن أهلها فيأثم"[٤٤] .

٢٦ ــ في النظر في أمور الأشربة والعقاقير والأدوية :

" ولينعم النظر في أمور الأشربة والعقاقير والأدوية ، فلينظر في مجموعاتها ومفرداتها وبسائطها ومركباتها مما جرت العادة باختياره ، وليتقدم بالاحتراز فيها ، وان لا يباع منها إلا ما لا شك في جودته واختياره • وليأخذ من رغب

---

(٤١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٥٣ ؛ محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٢٣٠

(٤٢) هم اخوة ثلاثة أطباء علماء أولاد ابن خليفة ريس الطب في زمانه وقد قلدهم المنصور رئاسة الطب في أيامه وجعل القاضي مهذب الدين رئيسا والأخوين الآخرين أعوانا له .

(٤٣) ابن الفرات :تاريخ الدول والملوك ، ج٨/ص ٢٢ ؛ محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٢٢٣ـ٢٢٤

(٤٤) محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤.

في هذا العلم بالاشتغال بالمصنفات ، وعلم التغذية ومعرفة المسائل، وحفظ الفصول وبحث القانون والكليات "[٤٥] .

٢٧ ــ في إنشاء المستشفى المنصوري :

" وأنشأنا بيمارستانا يبهر العيون بهجة ، ويفوق الأبنية بالدليل والحجة، ويحفظ الصحة والعافية على كل مهجة ، لو حله أشفى لعوجل بالشفا، أو جاءه من أكمده السقم لاشتفى ، والعافية على كل مهجة ، أو اشرف عليه العمر بلا شفاء لعاد عنه بشفا ، ووقفنا عليه من الأوقاف المبرورة ما يملأ العينين ويطرف سماع جملته الأذنين ، ويعيد عنه من أمه مملوء اليدين ، وأبحنا التداوي فيه لكل شريف ومشروف ، ومأمور وأمير ، وساوينا في الانتفاع به بين كل صغير وكبير وغني وفقير".

" وعلمنا أن لا نظير لنا في ملكنا ، ولا نظير له في إتقانه ، فلم نجعل لوقفه وشرطه من نظير ، وجعلنا فيه مكانا للاشتغال بعلم الطب الذي كاد أن يجهل ، وشرعنا للناس إلى ورد بحره أعذب منهل، وسهلنا عليهم من أمره ما كان الحلم به من اليقظة أسهل ، وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس ، وينتفع به الرئيس من أهل هذه الصناعة والمرؤوس ، ويؤتمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس"[٤٦] .

٢٨ ــ تخريج الأطباء من المستشفى المنصوري :

" لينشر في هذا المكان المبارك من أرباب هذه العلوم قوم بعد قوم ويظهر منهم في الغد ــ إن شاء الله تعالى ــ أضعاف من هو ظاهر منهم اليوم"[٤٧] .

٢٩ ــ حجة وقف قلاوون للمستشفى المنصوري في القاهرة عام ٦٨٣ هــ ١٢٨٤م وهي تعتبر بحق دستورا لكل مستشفى وعلامة حضارية سامقة في فكر قلاوون وممارساته نقتطف منها ما يلي :[٤٨] المستشفى ...(لمداواة مرضى المسلمين على اختلاف أجناسهم وأوصافهم ، وتباين أمراضهم وأوصابهم ، من أمراض الأجسام وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت ، واختلال العقول التي حفظها أعظم المقاصد والأغراض،وغير ذلك مما تدعو حاجة الإنسان إلى صلاحه وإصلاحه،بالأدوية

---

(٤٥) م.ن ، ص ٢٢٣.

(٤٦) م.ن ، ص ٢٢٨.

(٤٧) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٥٣ ، محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٢٣٠

(٤٨) د.مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ، ص ١٥٠ وما يليها .

والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب،يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم،(ويصرف ناظر الوقف) ما هو معد فيه للمداواة من غير اشتراط لعوض من الاعواض **وإجراء النفقات على من يقوم بمصالح المرضى به** من الأطباء والكحالين،والجرائحيين وطباخي الشراب،وصانعي المعاجين والاكحال والأدوية والمسهلات المفردة والمركبة،والمعاجين والمراهم والأدهان والشربات والفرش والقدور والالآت المعدة للانتفاع بها في مثله.ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في كل يوم،وزبادي فخار برسم أغذيتهم،وأقداح زجاج وجرار برسم أشربتهم،وزيت للوقود،وبماء من بحر النيل المبارك،**ومراوح خوص للمرضى.لأجل استعمالهم إياها في الحر**،ويباشر المطبخ بهذا المارستان وما يطبخ به للمرضى من مزاور ودجاج وفراريج ولحم وغير ذلك،**ويجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم في زبدية منفردة له من غير مشاركة مع مريض آخر**،ويعطيها ويوصلها إلى المريض إلى أن يتكامل إطعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وما وصف له بكرة وعشية.ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا المارستان من الأطباء والكحالين والجرائحيين بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى،**مجتمعين ومتناوبين باتفاقهم على التناوب**،أو بإذن الناظر في التناوب،ويسالون عن أحوالهم وما يتجدد لكل منهم،من زيادة مرض او نقص ويكتبون **ما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره في دستورورق ليصرف على حكمه،ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالبيمارستان،مجتمعين أو متناوبين** وليكن جملة أطباء البيمارستان المبارك من غير زيادة عن العدد،ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف للقومِة **والفراشين الرجال والنساء** بهذا البيمارستان،ما يرى صرفه الى كل بحسب عمله على ان كلا منهم يقوم بخدمة المرضى،واصلاح شؤونهم،والقيام بمصالحهم،ويصرف الناظر ما تدعو الحاجة اليه **في تكفين من يموت بهذا البيمارستان** من المرضى فيصرف ما يحتاج اليه برسم غسله وثمن كفنه وحنوطه،وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته في قبره على السنة النبوية،ومن كان مريضا في بيته وهو فقير كان **للناظر ان يصرف اليه ما يحتاج اليه من حاصل هذا المارستان،من الاشربة والادوية** والمعاجين وغيرها،ومن حصل له الشفاء والعافية ممن هو مقيم بهذا البيمارستان صرف الناظر اليه **كسوة مثله** على العادة،وعلى الناظر في هذا الوقف ان يراعي تقوى الله سبحانه وتعالى سرا وجهرا) .

٣٠ ـ <u>في تنظيم الحجيج إلى بيت الله في مكة وإخضاعها لطاعته :</u>

طلب المنصور من أبي نمي صاحب مكة المشرفة يمين الولاء فكان منه :

" إنني ـ أي صاحب مكة ـ عدو لمن عاداهم صديق لمن صادقهم حرب لمن حاربهم سلم لمن سالمهم ".

" وإنني التزم ما اشترحته لمولانا السلطان ولولده في أمر الكسوة الشريفة المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة الشريفة في كل

موسم وان لا يعلوها كسوة غيرها ، وان اقدم علمه المنصور على كل علم في كل موسم ، وان لا يتقدمه علم غيره ".

" وإنني اسبل زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين والآمين لحرمه والحاجين والواقفين وإنني اجتهد في حراستهم من كل عاثر بفعله وقوله، ومتخطف للناس من حوله .

" وإنني أؤمنهم في سربهم وأعذب لهم مناهل شربهم ".

" وإنني والله أستمر بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصوري، وافعل في الخدمة فعل المخلص الولي " (٤٩).

٣١ ـ <u>في إشراك العالم الإسلامي ببشائر النصر :</u>

أرسل المنصور قلاوون رسائل النصر إلى حكام الأمصار والمدن والولايات وطلب منهم قراءتها للمسلمين في المساجد حتى يهنأوا بالنصر المبين فكان منها:

<u>أ ـ في فتح قلعة المرقب :</u>

" وهو حصن عظيم منيع ما زال مولانا السلطان الملك المنصور نصره الله ـ يدأب في أمره ويتحيل في تحصيله للإسلام ويستفيد الرأي والتدبير في افتتاحه وأصحاب جماحه ، لأنه كان قد أعجز الملوك ، ولم يقدر أحد منهم على التقرب منه فكيف النزول عليه ".

" فاقتضى الحال أن مولانا السلطان رأى اختيار الغنيمة بهذا الحصن العظيم أولى من التطويل في حصاره ، وان التأخير له آفات، والأولى الاهتمام بما هو آت ، وان الفرنج الذين بهذا الحصن أن سلموا من نار السيوف ، لا يسلمون من نار الحتوف ، أجابهم إلى العفو والأمان، ووثقوا بان قول مولانا السلطان هو أعظم من الإيمان فسيروا أكابرهم إلى الدهليز المنصور ، ولم يسألوا غير الأمان على النفوس لا غير ، وإلا يخرج معهم لا مال ولا سلاح متعلق بالحصن خاصة ".

" وسلموا الحصن جميعه في ثامن ساعة من نهار الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الأول ، وصعد الصنجق الشريف السلطاني المنصوري المنصور،وارتفعت السنة العالم بالأدعية لمولانا السلطان الذي أرتهم أيامه هذا الفتح الذي طالما تقاصرت عنه الهمم ، وشابت دون الإلمام به اللمم ، وطلع الملمون وأعلن أعلاه بالأذان والتسبيح ، والشكر لله على إهلاك عبدة المسيح، وإخلاء ديارهم منهم، وانهم لم تغن نيتهم شيئا عنهم.وكتبت البشائر إلى جميع الأقطار وسيرت به

---

(٤٩) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج٨ ، ص ١٨ ؛ محيي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ٢١١

البريدية إلى كل جهة. وطلع مولانا السلطان إلى الحصن يوم السبت ، واجتمع الأمراء الأكابر في خدمته ، وضرب مشورة بين يديه في هدم القلعة أو إيقائها.فمنهم من أشار بهذا ، ومنهم من أشار بهذا . ورأى مولانا السلطان يتّقد نوره نفاذا ، فرأى إيقائها لحصانتها ومنعتها ، وتحسينها وتزيينها ، وصمم على إيقائها حسرة في قلوب الكفار ، وعضدا للحصون التي لها عليها حق الجوار"[٥٠].

ب ــ في فتح طرابلس :

يقول السلطان قلاوون في البشرى التي يزفها إلى ملك اليمن ومثلها إلى سائر حكام أمصار المسلمين :

" التهاني من عاداتها ، أن تستدعي سرور القلوب وتستخرج الحمد من خبايا الألسنة وتسرى في النفوس مسرى الأرواح في الأجسام...لا سيما تهنية دلت على ادالة الحق على الباطل وتقاضت الديون المنسية...وتستدعي المزيد من لطف الله بدينه الذي ارتضاه... "

" وهذه الخدمة تقص من أنباء البشرى... ويظهر (منها) عناية الله بهذه الأمة التي خصها (منها) وخص عدوها بالمقت وان حقوقها لا تضاع وان اغتصبت في وقت وهو إلهنا بما تتنى من فتح طرابلس الشام وانتقالها بعد الكفر اللام إلى الإسلام وهو فتح طال عهد الإسلام بمثله...و (مرت عليها الأيام والليالي وعجزت عنها الملوك في العصور الخوالي لم تزل الملوك تتحاماها وإذا خطرتها الظنون في بال تخضى أن تحل حماها".

" ونرجو ، بقدره ولطفه ، أن نقرع ممالكهم دورة دورة ونأتي إلى عقد قراهم فنحلها عقدة عقدة ونجدد للامة قوة سلطانها ونعيد حكم الإيمان إلى أوطانها إلى أن نلقى الله عز وجل بيض الوجوه ونجد في مجازاته ما نرجوه والله تعالى يثبت في صحايف المولى اجر السرور بهذه المتجددات التي يعظم بها أجر الحامد..."[٥١].

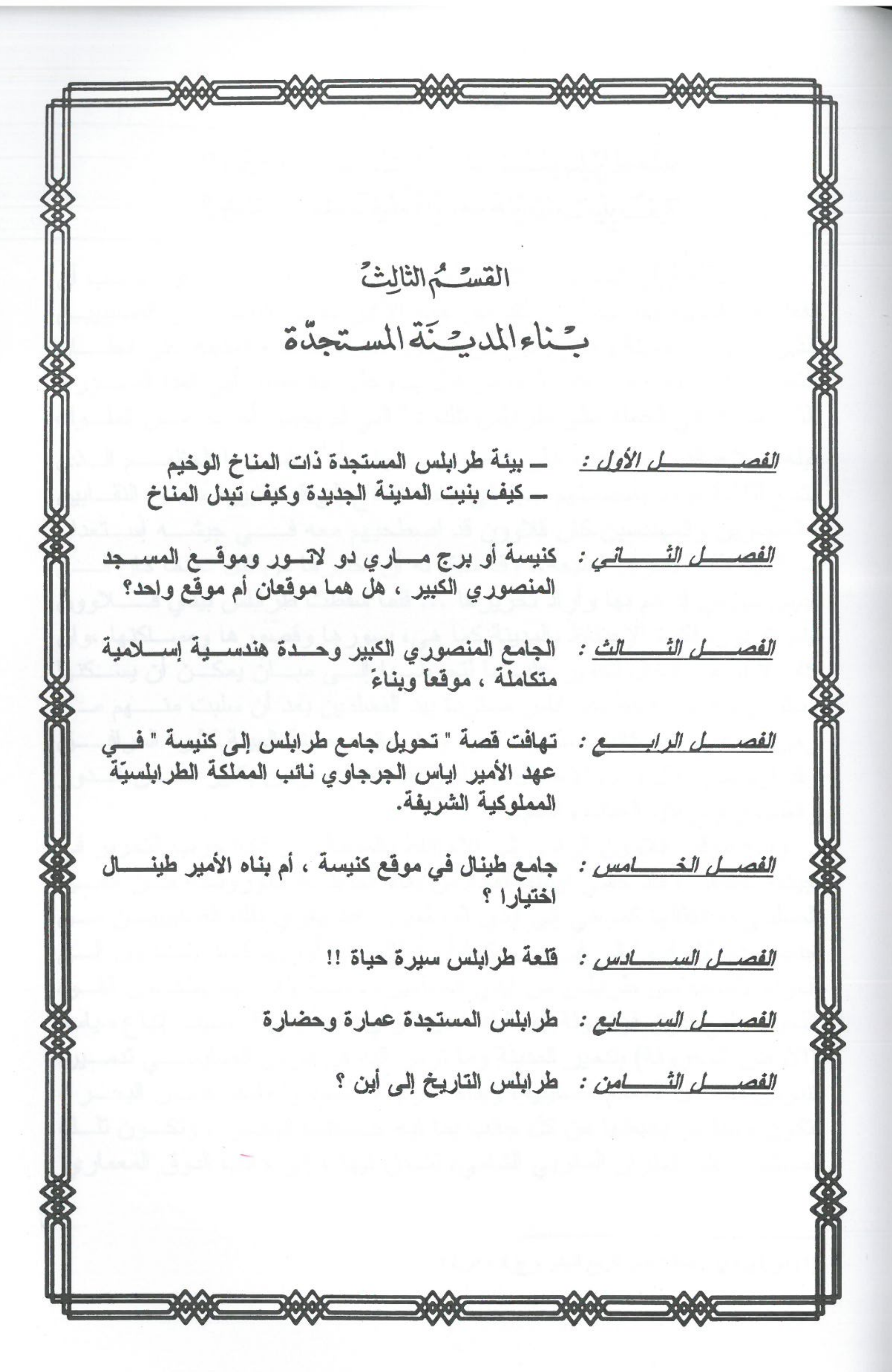
* * *

هذا وللسلطان قلاوون مواقف مختلفة جاءت عبر فتوحاته وتسيير شؤون مملكته نظمها كتاب تشريف الأيام في سيرة الملك المنصور لمؤلفه فخر الدين بن عبد الظاهر رئيس ديوان الإنشاء في عهده وقد نشر الكتاب وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالجمهورية العربية المتحدة عام/١٩٦١ تحقيق الدكتور مراد كامل ومراجعة الدكتور محمد علي النجار فليرجع إليه .

---

(٥٠) م.ن ، ج ٨،ص ١٧ ؛ م.ن : ص ٧٧ ــ ٧٩ ــ ٨٠

(٥١) مجلة الضياء الطرابلسية : عدد(٢) ،حزيران ١٩٨٩ م.، طرابلس / لبنان ، ص ٣٦



القسم الثالث

بناء المدينة المستجدة

الفصل الأول : ــ بيئة طرابلس المستجدة ذات المناخ الوخيم
ــ كيف بنيت المدينة الجديدة وكيف تبدل المناخ

الفصل الثاني : كنيسة أو برج ماري دو لاتور وموقع المسجد المنصوري الكبير ، هل هما موقعان أم موقع واحد؟

الفصل الثالث : الجامع المنصوري الكبير وحدة هندسية إسلامية متكاملة ، موقعاً وبناءً

الفصل الرابع : تهافت قصة " تحويل جامع طرابلس إلى كنيسة " في عهد الأمير اياس الجرجاوي نائب المملكة الطرابلسيّة المملوكية الشريفة.

الفصل الخامس : جامع طينال في موقع كنيسة ، أم بناه الأمير طينال اختيارا ؟

الفصل السادس : قلعة طرابلس سيرة حياة !!

الفصل السابع : طرابلس المستجدة عمارة وحضارة

الفصل الثامن : طرابلس التاريخ إلى أين ؟

الفصل الأول

بيئة طرابلس المستجدة ذات المناخ الوخيم !!!
كيف بنيت المدينة الجديدة وكيف تبدل المناخ ؟

١ ــ الراجح أن المنصور قلاوون لم يكن يملك التصور الكامل فيما يجب أن يفعله في المدينة بعد تحريرها.فقد كان همه الأكبر تحقيق النصر على الصليبيين الذين عصوا بالمدينة زهاء قرنين من الزمن .فقد استعصت المدينة على أبطال التحرير الذين سبقوه ــ كما أثبتنا من قبل ــ وعلى حد تعبير أبي الفدا المؤرخ الذي شارك في الحملة على طرابلس تلك : " التي لم يجسر أحد من الملوك قبله،صلاح الدين ، وغيره على التعرض ــ لها ــ "[١] ، فسورها العظيم الذي يتسع لثلاثة جنود بأحصنتهم جنبا إلى جنب احتاج إلى قوة كبيرة من النقابين والحجارين والمهندسين.كان قلاوون قد اصطحبهم معه في جيشه إستعدادا لمواجهة تلك الأسوار المنيعة.، وقد سبق له أن اختبرها من قبل عندما كان في جيش بيبرس إذ هم بها وأراد تحريرها ... فلما سقطت طرابلس بيدي قلاوون بادرته فورا فكرة الإحتفاظ بالمدينة كما هي، بسورها وقصورها ومساكنها ،وان كان لا بد من إدخال تحوير عليها لتحويلها إلى مبان يمكن أن يسكنها مسلمون.وهكذا يحتفظ بطرابلس مستردة بيد المسلمين بعد أن سلبت منهم من زمن آل عمار.فقد كانت منذ ذلك العهد وما سبق ، حسنة الهيئة كثيرة المرافق وقد ازدادت خلال زمن الإحتلال الصليبي الممتد إلى قرنين بكثير من الدور والقصور ومراكز العبادة والعلم.

واجه موقف قلاوون الرامي إلى الاحتفاظ بالمدينة رأي قادة حرب التحرير في جيشه المظفر ، فقد خشي أولئك القادة من بقاء المدينة الموروثة من العهد الصليبي، وانتقالها كما هي إلى أيدي المسلمين ، فقد يغري ذلك الصليبيين من جديد.، فهؤلاء فروا إلى قبرص.، كما أن أمثالهم في أوروبا قد يتنادون إلى العودة لاستخلاص طرابلس من أيدي المسلمين، خاصة وانهم يملكون القوة البحرية التي تفوق قوة دولة المماليك.فكان الرأي العسكري الحصيف إتباع سياسة (الأرض المحروقة) بتدمير المدينة وما ترمز إليه في الزمن الصليبي تدميرا تندرس معه كل المعالم الصليبية، وبناء أخرى مستجدة وإبعادها عن البحر، لتكون وسط بر يحيطها من كل جانب بما فيه جانب البحر ، وتكون تلك المستجدة على الطراز المغربي الشامي، تتحقق فيها ، إلى جانب الذوق المعماري

---

(١) ابن الوردي : تتمة مختصر تاريخ البشر ، ج ٤ ، ص٢٤

السائد آنذاك لدى النخبة المعمارية في الجانب المسلم ، جوانب عسكرية يسهل معه الدفاع عن المدينة المستجدة في حال تعرضها لأي هجوم محتمل[٢] .

٢ ــ إن تدمير المدينة الصليبية يكشف معنى عند المهاجمين الفاتحين.، فقد يقضي تدميرها بصورة نهائية على أية أفكار من الجانب الصليبي في العودة إليها بهدف الإسترداد، بينما قد يحيي بقاؤها سليمة في نفوس الخارجين رغبة العودة لاسترداد ما فقدوه وغسل عار الهزيمة المرة ، خاصة وأن طرابلس هي في موضع استراتيجي مهم على الساحل الشامي الطويل من شأنه أن يحمي المدن الساحلية الأخرى التي لم تسقط بعد ، وصولا إلى عكا في أقصى الجنوب.

زد على ذلك ، فإن بناء مدينة مستجدة بعيدة عن البحر ومفتوحة على الشرق ليس فيه أدنى خطر.، إذ أن عامة أهل الجبال "الوطنيين" مع التوجه الإسلامي المنتصر.، فبعضهم مسلمون ، وبعضهم الآخر من النصارى ، وكان معظم هؤلاء مع السكان المسلمين الوطنيين ومع الجيش المسلم الزاحف.فالفصيل التركماني من جيش قلاوون ومنذ سنوات قريبة في عام ١٢٨٣ م، زحف على أعالي الجبال مؤدبا المجموعة التي كان يرئسها البطرك دانيال، والتي شكلت عبئا على أهلهم النصارى وعلى السكان المحليين المسلمين ، وأيضا على السكان الصليبيين ــ كما رأينا ــ من قبل...[٣] وكان على بلاد بشري يومئذ المقدم سالم الذي لم يخف طيلة فترته التي امتدت عشرات السنين تعاطفه المطلق مع الجيوش الإسلامية الزاحفة، سواء تلك المؤدبة في بشري أم تلك الراغبة بتحرير طرابلس.

---

(٢) حدث ذلك فعلا ، إذ وقعت لاحقا هجمات صليبية متعددة انظر ما أوردناه في فصل حاكم طرابلس المملوكي اياس الجرجوري من هذا الكتاب ، وانظر أيضا طريقة البناء المتبعة في طرابلس المستجدة في آخر هذا الفصل.

(٣) راجع ما كتبناه في هذا الكتاب في فصل "موقف النصارى في جبال لبنان" ، وهو فصل يحتاج إلى حشد مزيد من التحليل والدراسة.ويكفي هنا أن نشير إلى أن السلطان قلاوون لم يعمد إلى إرسال قوة من جيشه باتجاه الجبال العالية لينتقم من نصاراه.فلو أن هؤلاء ، كما تقول بعض المصادر وبخاصة المؤرخ الأب الشدياق ، وكرر معه القول كثير من الذين كتبوا في التاريخ، لو انهم شاركوا الصليبيين ضد جيش قلاوون وقتلوا منه بضعة آلاف لما كان من الممكن أن يبني قلاوون مدينة مفتوحة على الشرق لا سور لها ، فهي بذلك تكون مهددة دوما من زحف أهل الجبال من النصارى "القاتلين" !!! زد على ذلك ــ لو كان هذا قد حدث لكان قلاوون قد انتقم من هؤلاء الذين ضربوه من الخلف ، وقتلوا الآلاف المؤلفة من جنده !!! في حين أن قلاوون بعد تهديم طرابلس القديمة اخذ يبني طرابلس المستجدة دون سور مفتوحة على جبال لبنان ! ثم ذهب جنوبا يستعيد المدن التي على الساحل!! علما أن أحدا من المؤرخين العرب الذين عاصروا الفتح بل شهدوه ، كأبي الفدا ، لم يتكلموا عن مقتل آلاف من جند قلاوون بفعل هجوم من نصارى لبنان ، إنما تحدثوا عن بضعة وخمسين شهيدا سقطوا في القتال ضد الصليبيين . وعلاوة على ما تقدم فان الرواية التي أثبتناها في فتح طرابلس ، أن قلاوون قد عبر في جزء من جيشه بلاد بشري ، واستلم معابر الطرق والأودية نزولا إلى طرابلس يؤكد اطمئنان قلاوون إلى سكان الجبال وذلك عكس ما نقله الأب شدياق ، ويعني هذا في مجمله أن قلاوون كان متأكدا من مسلك أهل الجبال ، ويعتبرهم جزءا من رعيته متعاطفين معه منقادين لفتوحاته ، وتلك رؤية مهمة في تفسير بناء مدينة لا سور لها...

وذلك طيلة فترته، وهو ما أكده الكاتب عبد الله إبراهيم أبو إبراهيم ــ في كتاب جديد ــ من انه : ساعد في إحتلال المدينة بعض سكانها المسلمون والموارنة بوقوفهم على الحياد في جبة بشري يوم ضربها المماليك منذ سنوات ضربة قاضية ، ولا سيما بعدما ساءت علاقات موارنتها بالصليبيين بعد غزوة بزواج ، بسبب التواجد اليعقوبي المؤيد للمماليك فيها)[٤].

٣ ــ ويبدو أن مثل هذه المناقشة الموضوعية لواقع السكان المحيطين ببقعة طرابلس وأرباضها وجبالها جرت فعلا بين أركان جيش قلاوون ومستشاريه ، قبل أن يتخذ السلطان قراره الأخير بهدم طرابلس القديمة وتسويتها بالأرض لتندرج ذكرى الوجود الصليبي في ذاكرة التاريخ المتتابع.

وعلى هذا يمكن أن نفهم النص الذي أورده ابن الفرات في تاريخه[٥] :" وعندما فتح الملك المنصور مدينة طرابلس أمر بإبقاء المدينة وإنزال الجيش بها ، فأشير عليه أن هدمها أولى من بقائها ، فأمر بهدمها فهدمت ، وكان عرض سورها بمقدار ما يسوق عليه ثلاثة فرسان بالخيل" وهكذا " أمر السلطان فهدمت ، ودكت إلى الأرض "[٦] أو كما يقول ابن كثير أمر بأن تهدم المدينة بما فيها من العمائر والدور والأسوار الحصينة التي كانت عليها"[٧] " وإقامة مدينة أخرى لطرابلس على ضفتي نهر طرابلس " كما ذكر المقريزي وابن الفرات[٨].

وكنا قد قرأنا مع المقريزي قوله : " وأمر السلطان بمدينة طرابلس فهدمت...ثم عمر المسلمون مدينة بجوار النهر فصارت مدينة جليلة وهي التي تعرف اليوم بطرابلس " .

٤ ــ ويأتي شيخ الربوة ، عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصالحي ، وكان قد عاصر زمن الفتح المبين قائلا : " وبنيت هذه المستجدة في سفح جبل من أذيال جبل لبنان بكورة من أكوار طرابلس ، بعدها عن طرابلس القديمة المهدمة نحو خمسة أميال على شاطئ نهر بحري إلى البحر وهي سهلية جبلية بحرية برية..."[٩]

---

(٤) عبد الله ابراهيم : موسوعة تاريخ لبنان عبر أجيال من فجر التاريخ حتى الاستقلال ، ج ٤ ص ١٦٨ .

(٥) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج٢ ص٨٠

(٦) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ص ٢٣.

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٣.

(٨) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ص ٧٤٨ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٨ ، ص ٨١٨ .

(٩) محمد كرد علي : الفيحاء والشهباء ، مجلة المقتبس ، العدد ٧٦٠ ، ج٦ ، ص٧٦٠

ولا ريب أن شيخ الربوة كان دقيقا للغاية فالكورة في العربية أرض مخلاف كما جاء في لسان العرب ،[10] وتعني الطريق في أصل الجبل أو وراء الوادي ، ووصفها بالمخلاف تشبيه لها بالذي لا يكاد يفي إذا وعد ، مما يعني أن الكورة التي بنيت عليها طرابلس ليس فيها من الزرع أو البنيان ما يفيد فيذكر .ويؤكد ما ذهبنا إليه ما أورده ابن فضل الله العمري وقد نقله عنه أيضا ابن الشحنة في كتابه عن حلب ، وهو نص في غاية الأهمية لارتباطه بمناخ كورة طرابلس أو ربضها الذي بنيت فيه طرابلس المستجدة إذ يقول :

" ولما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة ذميمة المسكن ، فلما طالت مدة سكنها وكثر بها الناس والدواب وصرفت المياه الأجنة التي كانت حولها بقاع ، وعملت بساتين وتغيرت بقعتها بالحرث والعمل ونصب بها الأشجار وغرس الكرم ، خف ثقلها . وذهب وباؤها وقل وخمها.وقد كان اسندمر الكرجي بها نائبا فاستوخمها.وشكى إلى الحكيم الفاضل أمين الدين سليمان بن داوود وخامتها فأشار عليه بتكثير الجمال والدواب فيها ، ففعل ذلك هو وأمراؤه والجند فخف ما بها"[11].

٥ ـ وهذا النص الواضح يحدد بشكل صريح طبيعة مناخ طرابلس الجديدة حتى بعد بنائها بفترة لا تقل عن عشر سنوات ، واستمر فيها إلى سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م إذ أن واليها اسندمر قد تولى حكم (مملكتها) بتاريخ ٦٩٧هـ/١٢٩٨ م. وضمن هذه الفترة كان بعضا من أروقة طرابلس وشوارعها ومبانيها قد قامت ، ومع هذا فكان مناخها ثقيلا وبيئتها وخيمة وبقعتها ذميمة...فكيف يمكن أن تكون قبلا عندما لم يكن فيها سكان أو زرع أو دواب ؟؟ لا ريب أنها كانت اشد وخامة واكثر ثقلا واقبح ذمامة !!! هذا الواقع المناخي يكشف طبيعة ربض طرابلس آنذاك في الحقبة السابقة، وهو مناخ لا يسمح بالإقامة على أرضه،وهو المناخ الذي عولج ميدانيا، بعد أن بنيت طرابلس المستجدة عليه ، وبعد تشاور مع الطبيب الحكيم أمين الدين سلمان بن داوود ، الذي أوصى بتكثير الجمال والدواب.فلما طبق اسندمر الوالي النصيحة وفعل كذلك أمراؤه وأجناده ، إعتدل المناخ وقل الوخم وتضاءل ، أو كما قال ابن فضل الله : " فلما طالت مدة سكنها وكثر بها الناس والدواب وصرفت المياه الأجنة التي كانت حولها بقاع ، وعملت بساتين وتغيرت بقعتها بالحرث والعمل ونصب بها الأشجار وغرس الكرم ، خف ثقلها وذهب وباؤها وقل وخمها).

(١٠) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٥ ، ج ٩ .

(١١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأنصار في ممالك الأمصار ؛ ابن الشحنة : الدرر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ص ٢٦٣.

٦ ـ وقد يتوقف المرء حائرا إزاء مشورة الطبيب الحكيم بتكثير الدواب والجمال لمعالجة البيئة وتطبيبها وتقليل وخامتها...

فقد تكون نصيحة الحكيم المطبب قد جاءت أخذا بتوجيه النبي " كما رواه ابن ماجه: (الإبل عز أهلها،والغنم بركة،والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة)

ذكر الدميري في كتاب الحيوان : " ومن عجيب ما ذهبت إليه العرب أنها إذا أصاب إبلها العز (الجرب) كووا السليم ليشفى العليل "[12]

وجاء في دائرة المعارف[13] أن من " طباع الإبل ـ أنها ـ أقبل شيء للأدواء التي تعدي " ويعني هذا أن بمقدور الإبل الكشف المبكر عن وجود الأدواء،الأمر الذي يساعد على سرعة المعالجة وتدارك الأسباب وتحصين الناس والدواب.وعلاوة على ذلك ، فإن وجود الثروة الحيوانية تستتبع مجموعة أعمال زراعية ، من شأنها أن تزيد في الأراضي البور وتنويع المحاصيل ونصب النصوب.ولا يخفى أن من شأن تواجد الثروتين الحيوانية والزراعية الحصول على المزيد من الإنتاج الحيواني والزراعي الغذائي ، وهو الإنتاج الذي يترك مناعة في الجسم البشري يعينه على التكيف مع المناخ ، الذي بدوره يتكيف مع وجود الثروتين الزراعية والحيوانية المرتبطتين بالتكاثر البشري،وهي مؤثرات،على البيئة والمناخ،معروفة مدركة...وهكذا نجد أن فضل الله العمري يعقب في بحثه،أن المناخ قد تلطف وهو ما شاهده فقال : " فأشار عليه أن يستكثر بها من الجمال وبقية الدواب ففعل ذلك،وأمر الأمراء والجند فخف ما بها،وكان الأمر كما أشار إليه الحكيم "،وقد سبق للعمري أن أشار في مقدمة روايته انه لما (كثر الناس والدواب وصرفت المياه الأجنة...وعملت البساتين ونصب بها النصوب والغراس ، خف ثقلها وقل وخمها).

٧ ـ فإذا كان الإعمار والسكنى في ربض طرابلس ، بعد الفتح بعشرين عاما حيث قامت عليه طرابلس المستجدة مكانا وخيما ثقيلا تأذى منه السكان وفي مقدمتهم واليهم لاسندمر،فلنا أن نتصور كم كانت وخامته اشد قبل السكن والإقامة وتشييد المباني وشق الطرقات وعمل البساتين وصرف المياه الخ...!!!

ولا يمكن والأمر البيئي على ما تصورنا،أن يكون في ربض طرابلس وكورتها سكنا يذكر طيلة العهود الصليبية،وما قبلها،فطرابلس ـ كما هو معلوم ـ حتى سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩ م كانت ضمن سور ضخم يحدها شرقا ويحميها حتى البحر الذي يحيط بها من الجوانب الأخرى،وهي موقع الميناء اليوم...

(١٢) م.س. ، ج ١ ص ٤٣.

(١٣) فؤاد افرام البستاني : دائرة المعارف اللبنانية ، ج ٥ .

أما بعد أن تطبب مناخها وحسنت بيئتها واكتملت مبانيـها وتناسـق زرعـها ودوابها وكثر ناسها وعظمت تجارتها رحنا نسمع المؤرخ بدر الدين بن حبيـب الحلبي يقول عنها :

" ولعمري إنها بلدة لطيفة ، ومدينة أمطارهـا خفيفـة ، وملآتـها جديـدة ، ومحاسنها عديدة ، وماؤها دافق ، ومرعاهـا موافـق ، وأزهارهـا باسـمة ، ومناظرها لمادة الأسي حاسمة ، وهي برية بحرية ، شامية مصرية ، يجلب إليها هدية النوتي والفلاح.وتسمع بأوطانها تغريد الحاوي والمـلاح تغلـو بواديـها ، وتسمو بندى ناديها ، وتزهو بأنسها ، وتفخر بجنات رشعينها ، وقناة ابرنسـها ، وتظهر العز بقبة نصرها ، وتنهر من ماثلها بلسان رأس نهرها ، ولها قلعة ذات إشراق وحسن ومنظر، وبها قضاة أربع ، وترد إليها تجـار الإفرنـج بـأنواع البضائع ، ويحملون منها القطن الكثير وأمتعة الهند المختلفة وهي بنـدر عظيـم ولها حصون وقلاع " ؟؟

أما غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري ، فيصف طرابلس عاصمة المملكة الطرابلسية بقوله : " وأما المملكة الطرابلسية ، فإنها مملكة جيدة ، أعظم مدنـها طرابلس وهي مدينة حسنة بها جوامع ومدارس وأسـواق وحمامـات وعمـائر حسنة، وهي على شاطئ البحر المحيط ، يقال إنها شامية مصرية لحسن هيئتها ، وهي تشتمل على عدة مدن وأقاليم وقلاع وقرى ، وقيل : إن المملكة الطرابلسية وتوابعها تشتمل على قريب من ثلاثة آلاف قرية "[١٤].

وكان ابن فضل الله العمري الذي أثار أمر بيئة طرابلس المحكي عنه آنفـا ، عاد ليوضح طبيعة مناخها الجديد بعد أن أكد انه قد " خف ثقلها وذهب وباؤهـا وقل وخمها " فقال: (ولها نهر يحكم على دورها وطبقاتها ، يتخرق المـاء فـي مواضع من أعالي بيوتها التي لا يرقى إليها إلا بالدرج العلية ، وحولـها جبـال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذوات أشجار وكروم ومروج وأغنام ومعـز ، ومجتمع بها الجوز واللوز وقصب السكر والبلح ، ويعمل بها السـكر ، ويـهوي إليها وفود البحر وترسي بها مراكبهم موضع زرع وضرع وهـي الآن مدينـة ممتدة كثيرة الزحام ذات مارستانين ومساجد ومدارس وزوايـا وأسـواق جليلـة وحمامات حسان موصوفة وجميع أبنيتها بالحجر والكلس مبيضا ظاهرا وباطنا ، تحيط بها غوطتها ويحيط بغوطتها مواضع مزروعاتها بديعة المشـرف تحسـن بعين من يشرف من هضبة عليها"[١٥] وشابهه في ذلك وحاكاه شـيخ الربـوة ــ الذي أشرنا إليه قبل ــ في وصفه طرابلس المستجدة...."والنهر يجري من تحتـها

(١٤) نقلا عن ملاحق كتاب تاريخ طرابلس الحضاري للدكتور تدمري ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ .

(١٥) فضل الله العمري : مسالك في الأنصار في ممالك الأمصار .

إلى سقي الأراضي ويصب في البحر الرومي ، ولا يكاد يوجد مـن دار بغـير شجر لكثرة غرق أرضها بالمياه..."[١٦] وهي صورة ، لعمري ، تعطي طرابلـس المستجدة جمالا رائعا نادرا ...ومن اجل هذا سميت بالفيحاء منذ أن تم تأسيسـها في أواخر القرن السابع الهجري ، الثاني عشر الميلادي.وهو وصـف يوازيـه بأسلوب آخر ما قاله ابن بطوطة عندما زار طرابلس سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤ م ، أي بعد فتحها وبنائها بنحو ثلاثين عاما إذ قال:" ثم وصلت إلى مدينة طرابلـس وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام ، تخترقها الأنـهار وتحفـها البسـاتين والأشجار ويكتنفها البحر بمرافقه العميمة والبر بخيراته المقيمة ، ولها الأسـواق العجيبة والمسارح الخصيبة ، والبحر على ميلين منها ، وهي حديثة البناء ، وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زمانا ، فلما اسـترجعها الملك الظاهر ــ الصواب المنصور ــ خربت واتخذت هذه الحديثة..."[١٧]

* * *

٨ ــ وما يؤكد خلو ربض طرابلس من بناء ، حيث أقيمت طرابلس المستجدة، هو أن المنصور قلاوون لما أمر بهدم القديمة وبناء أخرى مستجدة في (نيل مـن أنيال جبال لبنان) كما قال شيخ الربوة ، وعند النهر كما قال المقريـزي وابـن فضل الله العمري وسواهما...فوض أمر نيابة الفتوحات في طرابلس وأمر بنـاء المستجدة ، إلى نائبه سيف الدين بليان الطباخي ، الذي كان نائبـا أيضـا علـى حصن الأكراد.فكان سيف الدين هذا يقيم في حصن الأكراد ويأتي إلـى منطقـة طرابلس في زيارات متتابعة ، فيما كان يرسل مفارز من جيشه إلـى طرابلـس لحمايتها من جهة ، ولبدء الإعمار فيها من جهة أخرى.وهكذا نقرأ مع المـؤرخ يني، وهو مؤرخ طرابلسي ، عندما علق على التحفـة النابلسـية فـي الرحلـة الطرابلسية للسيد عبد الغني النابلسي ، قال : (ويؤخذ مما روى المؤرخ النـوري انه لما استرجع المسلمون طرابلس من الصليبيين سنة ٦٨٨ هـ المعادلة لسـنة ١٢٨٩ مسيحية ، كانت المدينة القائمة عند البحر قد صار معظمها خرابا.كـان نائب السلطة في الفتوحات والسواحل يقيم في حصن الأكراد ويرسل حامية منـها لخفارة طرابلس فراح الأمير سيف الدين بليان الطباخي يبذل جـهده فـي بنـاء المدينة الجديدة عند النهر"[١٨]

(١٦) محمد كرد علي : الفيحاء والشهباء ، مجلة المقتبس .

(١٧) ابن بطوطة :تهذيب الرحلة ، ص ٥٢ ــ ٥٣ .

(١٨) الرحلة المذكورة هي للشيخ عبد الغني النابلسي ونقل ذلك الشيخ طه الولي في بحثـه المخطـوط (قلعـة أبـراج طرابلس)، ص٧.

ومما لا شك فيه لو أن هناك مبان صليبية في ربض طرابلس كانت قائمة وهي مقولة يجب أن يرددها بعض المؤرخين دون ما سند أو توثيق، أو أن (حيا لاتينيا) كان في منطقة الربض اسفل القلعة، قرب النهر في واد كان يعرف بوادي الكنائس لم يهدمه قلاوون ولم يدكه إلى الأرض كما فعل في المدينة القديمة التي على البحر، أو لم يهدم من قبل الظاهر بيبرس في غزواته ومحاولاته لاسترجاع طرابلس ، لكان قد ذكر ذلك المؤرخون وهم قد ذكروا خلاف ما ذكر فقد أكدوا أن البساتين والأنهار لم تسلم من حركة بيبرس في سياسة الأرض المحروقة فكيف بمبان ودور وكنائس ـ على افتراض وجودها ـ علما أن قلعة صنجيل قد دكها بيبرس وهدمها وأحرقها...؟

٩ ـ نقول : على افتراض وجود (حي لاتيني) قد قبل ناسه التآلف مع مناخ ثقيل وخيم، كما وصفنا من قبل ، وهو مما لا يقبله عقل إذ أن من يحاول الإقامة خارج مدينة مسورة مهددة في كل حين بعدوان محتمل ، يحتاج إلى مرغبات ومشجعات اقلها مناخ طيب رقراق ٠ فكيف إذا فقد كافة العوامل البيئية والصحية والأمنية فأنى له أن يستقر ؟ ومع هذا وعلى افتراض وجود (حي لاتيني) أبقاه الظاهر بيبرس والمنصور ولم يمسه بسوء ٠ فالسؤال يفرض نفسه لماذا لم يستخدم قلاوون ذلك الحي للإقامة فيه ؟ ولماذا أيضا لم يستخدم نائبه الأمير سيف الدين بلبان الطباخي ذلك الحي الفارغ من السكان ، ومبانيه سليمة وأروقتها مرفوعة وكنائسها زاهية في واد سموه بوادي الكنائس ؟!! بل نجده يختار حصن الأكراد البعيد عشرات الأميال عن طرابلس ، ليأتي في استمرار بحركة دائمة مع جنده الذين يرسلهم أيضا بانتظام ليبنوا (المدينة الجديدة عند النهر) ـ كما ذكر جورج يني نقلا أيضا عن سوبر نهايم ـ فما كان من المسلمات والبديهيات أن يستخدم الأمير بلبان الحي اللاتيني المزعوم في وادي الكنائس الذي لم يذكره مؤرخ عربي مسلم حضر فتح طرابلس أو زامنه أو عاش في المدينة بعده كأبي الفدا أو النويري ؟؟!

١٠ ـ إن الحي اللاتيني ووادي الكنائس وردا في المصادر الأجنبية ، ونقلهما المؤرخون العرب والمسلمون المحدثون دون ما مناقشة أو تمحيص ودون ما محاكمة أو تعليل ...وراح الواحد ينقل عن الآخر حتى غدا وادي الكنائس في طرابلس كأنه حقيقة ، والحي اللاتيني كأنه حي عاش واستمر...وهما في الحقيقة والواقع لم يكونا إلا في مخيلة مطلق الفكرة أخذا من وجود مستجد لكنائس عديدة في حي من أحياء طرابلس في فترات الحكم العثماني تخصيصا وفي أواخره تحديدا[19] ،علما انه من المحتمل أن يكون نصارى طرابلس الوطنيون الذين

(١٩) راجع ما كتبناه حول بناء الكنائس في طرابلس بعد الفتح القلاووني ص ٢٦٢ من هذا الكتاب .

ساهموا، بطريقة ما ، في فتح طرابلس قد عادوا إلى طرابلس المستجدة وبنوا فيها كما بنى المسلمون كما سنبين لاحقا...غير أن تسميات حي الكنائس أو وادي الكنائس أو منطقة الكنائس والنصارى في طرابلس العثمانية ، لا تمت بأية صلة بمسميات متوهمة لزمن ما قبل الفتح القلاووني لطرابلس أي الزمن الصليبي !!!

فإذا ما ذكر أبو الفدا ، مؤرخ الحملة المنصورية ، كنيسة صغيرة في جزيرة صغيرة تقع قبالة طرابلس القديمة ، حيث عبث بها بعض الناس الزاحفون ، هل يعقل أن يغفل عن واد للكنائس وعن حي لاتيني وعن كاتدرائية ماري دو لاتور، وفق ما وصفه الواصفون في مخيلات صنعها بعض المشترطين أو بعض المؤرخين المتوهمين ؟؟

وإذا ما ذكر المؤرخون العرب كالمقريزي الذي تولى نظارة الجيش في طرابلس في فترة ما بعد الفتح بسنوات قليلة (توفي سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) إن إقامة الأمير سيف الدين بلبان الطباخي كانت في حصن الأكراد وانه كان ينتقل منه واليه ويضاعف انتقاله المستمر من والى حصن الأكراد ومضاعفة جهوده لإقامة المدينة الجديدة عند النهر في ربض طرابلس المحررة المستجدة إذ كان بديهيا أن يستفيد الأمير سيف الدين من المباني التي لم يهدموها وان لا ينتقل إلى حصن الأكراد كما أن المقريزي كان قد ذكر وادي الكنائس والحي اللاتيني والدور والقصور وماري دو لاتور ؟؟ ...

١ ـ ومن العودة إلى ما ذكره بعض المؤرخين في أمر وادي الكنائس نجد أن هذه العبارة جاءت تفسر منطقة (ما) تحدد أبعادها كأن تقول : " أقام الصحابي سفيان الأزدي حصنه على تلة الحجاج أو تلة صنجيل ، أو تلة أبي سمراء..." وهذه التسميات عرفت في زمن متأخر بمئات السنين عن بناء حصن سفيان الأزدي غير أن التسمية هذه أشارت وبينت ووضحت ورسمت معالم منطقة حصن سفيان بحيث يمكن للقارئ أن يتصور مكان حصن سفيان بشكل لا لبس فيه.

وعلى هذا السبيل قول الدكتور عبد العزيز سالم : " كان موضع طرابلس المستجدة معسكرا لقوات صنجيل بأدنى القلعة الموسومة بهذا الاسم ، يقال له وادي الكنائس "[20] وهو قول يحتاج إلى مزيد من التحقيق ، على ما ذكرناه آنفا من تعريف المكان بمقاربته إلى ما استجد.فقول د.سالم أن المدينة الجديدة بنيت بأدنى القلعة الموسومة باسم صنجيل إنما أراد به مزيدا من توضيح المكان فذكر انه ـ أي مكان المدينة الجديدة ـ كان موقعا لعسكر صنجيل.

وباعتبار أن الزمن قد مضى وتجاوز تحديد موضع المعسكر جاء الوصف الجديد ليحدد الموقع بما يستوعبه القارئ ، وهو واد يقال له "وادي الكنائس".وهو

(٢٠) د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام،ص ٣٧٢.

وصف من عنديات الدكتور سالم لا من وصف أبي الفدا...إذ عزا د. سالم قوله أن موقع طرابلس المستجدة هو موقع معسكر قوات صنجيل ، إلى أبي الفدا مؤرخ حملة قلاوون.وذكر أن هذا القول ورد في (المختصر من تاريخ البشر،ج ١٣٨/٤) ومن العودة إلى المختصر المذكور في باب فتوح طرابلس أو الصفحة المحددة (١٣٨) لم نجد لهذا القول أصلا.ولعل د.سالم قد وجده في غير المختصر ولغير أبي الفدا وهو ما لا يغير من الأمر شيئا.

وليس من مانع يمنع أن يكون لقوات صنجيل في بدايات حصار طرابلس معسكرا لإقامة الجنود.والمعسكرات دائما معسكرات مؤقتة، تنتهي بانتهاء مهامها، ويبقى المركز الرئيسي الذي هو الحصن.وهكذا عندما سقطت طرابلس القديمة ــ (الميناء) لم يعد لهذه المعسكرات من ضرورة.إذ الحصن هو مركز يؤدي خدمات محددة ومطلوبة.ومما يؤكد ذلك ، انه لو كان للمعسكر ديمومة حتى في عهد صنجيل قبل سقوط طرابلس ، لما تمكن قاضي طرابلس فخر الملك بن عمار من اختراق الحصن وقتل من فيه وحرقه ومن ثم عودته إلى مدينته في الميناء سالما...ولما تمكن بزواج، بعد أربعين عاما تقريبا ، من الاختراق أيضا ومن قتل كونت طرابلس بونز[٢١] ولما تمكن الظاهر بيبرس بعد أكثر من مئة وعشرين سنة ، وقبله الملك العادل الأيوبي أخو صلاح الدين ، من احتلال الحصن وحرقه وتدميره بالكامل ، ولما تمكن بيبرس نفسه من التمركز ، ولفترة، في المنطقة التي عرفت باسمه (الزاهرية) يحيط بطرابلس بوهمند السادس الواقعة على البحر بغية فتحها وإسقاطها...إذ أن أسفل القلعة أو حصن صنجيل مطل ومشرف على منطقة (الزاهرية).وهكذا فان الموقع هو الموقع ، وهو إياه الذي عرف فيما بعد بحي الكنائس وهو أسفل حصن صنجيل موقع طرابلس المستجدة وهو الذي عقب عليه د.سالم بقوله : " لكن هذا الموقع كان معروفا بركود ريحه وكثرة مستنقعاته " ثم ذكر ما ذكره فضل الله العمري كما قدمنا.

١٢ ــ غير أن ما أثبتناه آنفا من خلو أرباض طرابلس القديمة التي على البحر من مبان أو سكن أو حي لاتيني تبعا للتحليل والدراسة الذين أسلفنا ، نجد إزاءه موقفين متضاربين للدكتور عمر تدمري :

أ ــ موقف أبرزه في مقال بحثي بعنوان : "مدينة طرابلس في العصرين الحكومي والعثماني "[٢٢] ونقرأ فيه :

(٢١) انظر ما كتبناه حول هذه الواقعة في فصل (الخلفية السياسية لبني عمار) من هذا الكتاب ، وانظر معركة بن بزواج ومحاولات السيطرة المتعددة على حصن صنجيل من قادة التحرير في فصل (محاولات استرجاع المدينة) من هذا الكتاب .

(٢٢) عمر تدمري : نشرة في كتاب أصدره البنك العربي بالتعاون مع الجامعة الأمريكية في بيروت بعنوان "طرابلس المدينة القديمة".

" كان العمران في عهد الصليبيين يشمل المدينة القديمة التي كانت على ساحل البحر (الميناء حاليا) وبعض المواقع في المدينة الداخلية عند سفح القلعة، وبشكل خاص في محيط القلعة من جهة الغرب حيث محلة "المهاتوة" ومن الشمال حيث محلة باب الحديد ومن الشمال الشرقي حيث محلة "تحت الساباط" التي كانت تعرف قديما بـ "محلة اليعقوبية" ، ويمتد العمران نحو الشمال الغربي حيث "محلة التربيعة"، وعندما فتح المسلمون المدينة هدموا المدينة الساحلية القديمة وأفادوا من الحي اللاتيني في الداخل وأضافوا عليه عمارتهم وسرعان ما اتسعت المدينة المستجدة في كافة الاتجاهات." .

ب ــ أما الموقف الآخر فنقرأه عند الدكتور تدمري عن محلات طرابلس القديمة ومواقعها في بحث قدمه إلى المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان الحقبة العثمانية[٢٣] فهو يقول عن منطقة حصن صنجيل هي " المنطقة المجاورة لقلعة طرابلس...وهي المعروفة الآن بمحلة المهاترة..."[٢٤] ثم يعود ليؤكد " وأخيرا عرفت ــ ولا تزال ــ بمحلة المهاترة "[٢٥] وعندما يشرح كلمة المهاترة في هامش البحث[٢٦] يقول نقلا عن مراجع صدرت في العهد المملوكي "المهاترة ، مفردها : مهتار ، وهو لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت فيقال: مهتار الشرابخاناه، ومهتار الطشت خاناه، ومهتار الركاب خاناه.(صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي ــ ج ٥/ ٤٧٠ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ــ ج ٩ /٤٧ حاشية ٣ العصر المماليكي في مصر والشام للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ــ القاهرة ١٩٦٥).

وعن محلة باب الحديد يقول[٢٧] " محلة باب المدينة هكذا ورد اسمها في الدفتر العثماني الأول لسنة ٩٢٥ هـ/ ١٥١٩ م.مما يؤكد أن الاسم يعود إلى عصر المماليك وفي الدفترين العثمانيين اللاحقين رقم (١٠١٧) ورقم (٣٧٢) ورد اسمها : (باب المدينة المعروف بباب الحديد) وفي الدفتر الرابع العائد لسنة ٩٧٩ هـ/ ١٥٧١ م ٠ اصبح اسمها فقط: (باب الحديد) ؛ وهكذا اصبح يرد في سجلات المحكمة الشرعية ، ولا يزال حتى الآن.

ويستطرد فيقول : " تعتبر هذه المحلة قلب طرابلس القديمة وهي مفتاح الطريق إلى القلعة ولهذا كان نواب السلطنة في عصر المماليك يهتمون دائما

(٢٣) إصدار الجامعة اللبنانية ــ كلية الآداب الفرع الثالث ، أيار ١٩٩٥.

(٢٤) م.ن ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧.

(٢٥) م.ن، ص ١٠٦ ــ ١٠٧.

(٢٦) م.ن ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧.

(٢٧) م.ن ، ص ١١ ــ ١١٢.

ببوابتها الضخمة المصفحة بالحديد فنسبت المحلة إلى بابها الحديدي وقد تمكن الفرنج في إحدى غزواتهم سنة ٧٦٩هـ./١٣٦٧ م.بقيادة ملك قبرص من اقتلاع باب المدينة ونقلوه إلى شاطئ أرمينية الصغرى (الساحل الجنوبي الشرقي من تركيا حاليا) وجعلوه بابا لقلعة "جور هيجوس" .

وأما (تحت السباط) كما يقول د.تدمري فإنها (المنطقة الممتدة عبر النهر ــ نهر أبو علي ــ وعلى حافتيه في موقع تكية المولوية...وتضم المحلة المعروفة الآن بــ " تحت الساباط" التي تقع في أسفل القلعة لجهة النهر)[٢٨] .

والسباط أو الساباط كلمة عربية صحيحة تعني السقيفة بين داريـن وتحتها طريق[٢٩] وليست الكلمة أجنبية كما توهمها البعض تحريفا لكلمة (sous sabot) وكانت المنطقة تعرف بمنطقة الطواحين لوجود عدد منها عند النهر وقد وردت المحلة باسم محلة الطواحين في الدفتر العثماني الأول الصادر ١٥١٩ على ما يقول الدكتور تدمري غير أن الاسم تبدل إلى اسم "حارة اليعقوبية " في الدفتر العثماني الثاني ويقول د.تدمري معلقا " أخذت اسمها من طائفة اليعاقبة التي كانت تسكن المحلة " وذهب انهم كانوا موجودين منذ عهود الصليبيين.

غير انه من المحتمل أن بعض اليعاقبة وهم من الموارنة وكانوا يعرفون بهذا الاسم قبلا[٣٠] قد عادوا إلى طرابلس المحررة وسكنوا فيها في العهدين المملوكي والعثماني حيث تظهر دفاتر المالية العثمانية عدد العائلات في مناطق ومحلات بطرابلس في الأعوام ١٥١٩ ــ ١٥٣٧ ــ و ١٥٥٥ وتبين أن النصارى كانوا يسكنون إلى جانب المسلمين وفي بعض الأحيان يتجاوز عدد عائلات النصارى عائلات المسلمين[٣١] .

أما (محلة التربيع) كما سماها د . تدمري في بحثه المنشور بالتعاون مع الجامعة الأميركية فهي محلة (التربيعة) المعروفة الآن واسمها ــ كما يقول د.تدمري ــ في بحثه الآخر[٣٢] ــ يعود الى عصر المماليك وهي منسوبة إلى

(٢٨) م.ن ، ص ١١٥ ــ ١١٦.

(٢٩) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٧ .

(٣٠) اليعقوبية أو اليعاقبة فرقة نصرانية كانت تؤمن بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي طبيعة بشرية لا طبيعتان الهية وبشرية وكان الموارنة منذ وجودهم مؤمنون إيمان اليعاقبة حتى بدايات ١١٨٠م عند بدء التحول في الإيمان إلى الطبيعتين (راجع ما كتبناه في هذا الشأن في كتابنا قراءة إسلامية في تاريخ لبنان والمنطقة حتى سنة ١٨٤٠ ص ٥٠ وما بعدها) ويبدو أن فصيلة من اليعاقبة كان لا يزال متواجدا مع الفتح القلاووني حول طرابلس وقد عرف الموارنة أيضا باليعاقبة لوحدة النظرة بينهما للسيد المسيح وان جرى بينهما ــ في فترات من الزمن ــ قتال ودماء ...

(٣١) م.ن.، ص ١١٦.

(٣٢) م.ن.، ص ١١٦.

الأمير علم الدين سنجر الحمصي الذي كان يتولى وظيفة شاد الدواوين بطرابلس سنة ١٣٢٤/٧٥٢...

وهكذا يتبين من مواقع المحلات التي أشار إليها د.تدمري أنها محلات صليبية شكلت حيا أو أحياء لاتينية (في الداخل) أفاد منها المسلمون بعد أن هدموا المدينة الساحلية القديمة وأضافوا على الحي أو الأحياء المذكورة عمارتهم...!!! أن تلك المواقع هي قلب المدينة المستجدة بل هي إياها ، وهو تناقض كشفه د.تدمري بنفسه ويبدو انه قد عدل عن موقفه الأول بموقفه الثاني المستجد عام (١٩٩٥) وهو الموقف الأصلي للدكتور تدمري إذ كان يعتبر أن الظاهر بيبرس هدم حصن صنجيل وما كان يقوم بقربه من مبان قبل عشرين عاما من فتح طرابلس بقيادة قلاوون فهو يذكر في كتابه تاريخ طرابلس السياسي والحضاري : "نزل قلاوون بقواته عند سفح مرتفع القبة في يوم الجمعة مستهل شهر ربيع الأول حيث نصب هناك قبته السلطانية واشرف بذلك على المباني الصليبية التي سبق أن هدمها الظاهر بيبرس قبل نحو عشرين عاما على ضفتي النهر بما فيها حصن صنجيل." ويعني هذا النص ــ لدى د.تدمري ــ أن المباني الصليبية المتفرقة على النهر قرب القلعة هدمها الظاهر بيبرس مع القلعة وهي بالتالي ليست حيا بل لم تتكامل لتؤلف حيا.وهي عند تحرير طرابلس بقيادة قلاوون كانت مبان مهدمة متفرقة وبذلك لا يصح القول أن المسلمين عندما فتحوا المدينة القديمة التي على البحر ابقوا الحي اللاتيني (المزعوم) الواقع خارج المدينة عند المدينة المستجدة وأفادوا منه وأضافوا عليه كما ذهب ــ خطأ ــ الدكتور عمر تدمري.

ويؤكد ما ذهبنا إليه أن الرحالة برخارد عندما زار طرابلس في العهد الصليبي وقبل نحو اقل من أربعين سنة من تحريرها أي بتاريخ ١٢٥٣ كتب وصفا لخارج المدينة الواقعة على البحر أي السهل المجاور لها والبالغ طوله فرسخ وعرضه نصف فرسخ ووصفه بالجنة للعديد من كروم العنب والزيتون والتين وقصب السكر الموجودة فيه ثم ذكر المنطقة التي تبعد عن المدينة الصليبية الواقعة على البحر بنحو ثلاثة فراسخ وهي المنطقة التي تمتد إلى جبل لبنان ، حيث أقيمت طرابلس المستجدة وينبوع الحدائق الذي هو رشعين ــ حيث يتحول إلى نهر كبير هو نهر أبي علي ، ويذكر برخار جبل تربل حتى يصل إلى قبر يوشع في منطقة المنية اليوم...ولم يتحدث عن وجود مبان ولا حي ولا أحياء لاتينية في منطقة نهر أبي علي، ولا على ضفتيه أو على إحدى ضفتيه ، وإنما ذكر السهل المروى من نهر أبي علي ومياه رشعين التي في منطقة زغرتا القريبة من طرابلس وذكر (وجود أماكن عبادة كثيرة،وأيضا كنائس متعددة")[٣٣] ،

(٣٣) من ملاحق كتاب تاريخ طرابلس السياسي والحضاري للدكتور عمر تدمري .

فلو أن هناك مبان صليبية عند سفح القلعة وحي أو أحياء لاتينية في موقع السويقة وتحت الساباط وباب الحديد والمهاترة وليس المهاتوة والتربيعة وليس التربيع كما احب أن يسميهما د.عمر تدمري في بحثه المنشور بالتعاون مع البنك العربي والجامعة الأمريكية ــ فلماذا اسقط ذكر هذا العمران الصليبي خارج أسوار مدينة الصليبيين السائح برخارد وهو الذي لم يترك ماء ولا شجرا ولا سهلا ولا جبلا حتى القبر أثبته وراح يعلق عليه.؟

* * *

١٣ ــ إن كنا قد اختلفنا مع بعض المؤرخين ومنهم د.عمر تدمري حول وجود أو عدم وجود حي لاتيني خارج طرابلس الصليبية القديمة الواقعة على البحر إلا أن للدكتور تدمري دراسات وشروحات مهمة حول طريقة بناء طرابلس المستجدة في موقعها التي انطلقت منه ابتداء من الجامع المنصوري الكبير وقد أجاد في وصف مدينة المماليك في الشرق (طرابلس) فقال :

" ويعتبر الجامع المنصوري الكبير الذي تم بناؤه سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م.المحور الأساس لعمارة طرابلس المملوكية ، ومن حوله أقيمت الأسواق التي تباع فيها الأشياء النفيسة مثل الذهب والفضة والحلي والعطور والتوابل والكتب والبخور وماء الورد والزهر والمسابح والخيطان والحبال والورق وغيره من الأشياء التي لا تنفر المترددين على الجامع أو تؤذي حاستي الشم والأبصار ، ولا تسبب ضجيجا فتؤذي السمع وتشوش على المصلين والمتعبدين ولهذا أقيم سوق الصياغين بالقرب من الباب الشمالي للجامع ، وهو الباب الرئيسي وأقيم سوق.العطارين في الجهة الشرقية من الجامع ، وهو الباب الرئيسي وأقيم سوق العطارين في الجهة الشرقية من الجامع حيث تنفتح عليه بوابتان. أما الباب الرابع فينفتح في الجهة الغربية حيث البساتين التي تفوح منها رائحة زهر البرتقال والليمون."

ولما كان المماليك لم يبنوا سورا للمدينة فقد أقاموا برجا دفاعيا صغيرا على مقربة من الباب الغربي (أي للجامع الكبير) واتبعوا في بناء الأسواق والدروب والأزقة والمسالك نظام التعرج والانحناءات والطرق المسقوفة بالدور والمساكن لتوفير اكبر قدر ممكن من الحصانة والحماية ، بحيث تبدو المدينة كلها وكأنها كتلة عمرانية واحدة يحميها سور من البيوت والدور السميكة الجدران المبنية بالحجارة الرملية التي تقوى على مقاومة قذائف المهاجمين والغزاة.وأقيمت فوق كل مفصل أو تقاطع دار لها نوافذ حربية تشرف على كل الاتجاهات ، تحتها بوابات خشبية غليظة مصفحة بالحديد والمسامير الكبيرة تقفل عند المساء وعند كل إحساس بالخطر.وروعي في بناء المساجد والمدارس والحمامات والخانات أن تكون حصينة متينة البنيان سميكة الجدران.وفي نهاية كل زقاق أو عند كل

منعطف في زقاق طويل أقيم جدار حجري سميك فتحت فيه نوافذ عمودية ضيقة لرشق السهام ، واتخذ في الزقاق الواحد اكثر من منعطف بهدف كسر حدة أي هجوم وتقليل كثافة المهاجمين فيسهل بذلك التصدي لهم.وأقيم عند كل سوق بوابة وعند أطراف المدينة عدة بوابات كانت تتجدد أو تزيد كلما زاد امتداد العمران وفي سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس التي يرجع تاريخها إلى سنة ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦ م.أسماء عشرات البوابات في مختلف أنحاء المدينة وأسواقها.

" كان يراعى بناء مدرسة أو مسجد أو مصلى عند كل بوابة وفي الغالب تقام عند كل بوابة مدرستان إحداهما في الخارج والأخرى داخل البلد وتكون المدرسة الخارجية للوافدين على المدينة الذين يصلون في الليل بعد أقفال البوابات فيبيتون فيها إلى الصبح.كما روعي عند تخطيط أحياء طرابلس ومحلاتها أن تكون المساجد والمدارس والحمامات والخانات في وسط الأسواق الرئيسية وبجوار بعضها لحاجة التجار والمسافرين والوافدين الذين ينزلون في الخان ويذهبون إلى الحمام للنظافة من وعكة السفر ويؤدون فرائض الصلاة مع الجماعة في المسجد أو المدرسة القريبة من مكان نزولهم وتجارتهم فنجد على سبيل المثال وحمام القاضي الملاصق لخان العسكر بجوار جامع التوبة وحمام الحاجب بالقرب من المدرسة الزريقية القريبة من خان المنزل وحمام العبد الملاصق لخان الصابون بجوار المدرسة الطواشية وهكذا.

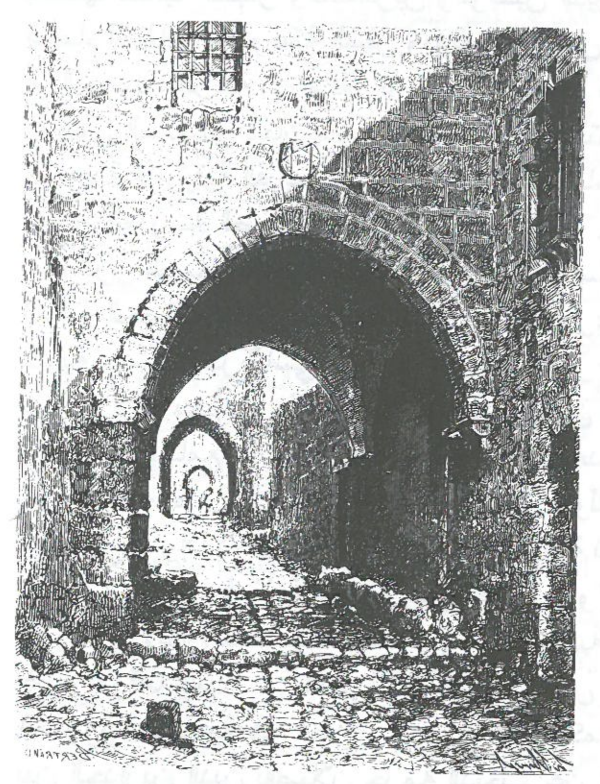
وتبرز السمة الدفاعية واضحة في مآذن المساجد التي هي اقرب إلى الأبراج العالية الحصينة ، كبرج مئذنة الجامع المنصوري الكبير وجامع العطار وجامع التوبة ومسجد البرطاسي ومسجد الحجيجية وبرج مئذنة جامع طينال الفريد من نوعه والذي يحتوي على سلمين لولبيين يقومان فوق بعضهما البعض ويقضيان إلى داخل الجامع وخارجه عبر بوابتين إذا صعد إنسان عبر البوابة من داخل الجامع فانه يصل إلى أعلى المئذنة ثم يدور حولها نزولا ليخرج من الباب الخارجي ، وإذا دخل إنسان اقرب وفي اللحظة نفسها من الباب الخارجي ، فانه يصعد إلى أعلى المئذنة أيضا ويدور حولها نزولا ليصل إلى داخل الجامع دون أن يلتقي الاثنان ببعضهما مطلقا ، وهذه الخاصة تمتع بها جامع طينال دون غيره لموقعه بعيدا عن العمران بظاهر طرابلس ووسط البساتين واقتضت الضرورة الدفاعية هذا الطراز الحربي الفريد كما أقيم في جامع طينال ممر سري بين الجدارين الذين يفصلان حرمه الداخلي عن الحرم الخارجي يسمح باختباء قيم الجامع أو حراسه.

" كما أن مدرسة الأمير شهاب الدين قرطاي الملاصقة للجامع المنصوري الكبير من جهة الشرق يوجد تحتها على امتداد مساحتها [قاعة] ترتفع عن مستوى سطح الأرض مقدار نيف ومترين ، كانت تستخدم مخزنا لمختلف أنواع

الأسلحة والذخيرة وكذا فعل نواب السلطنة وأفراد المماليك عندما شيدوا الأبراج على ساحل طرابلس للدفاع عنها بدلا من بناء سور حول المدينة[٣٤] ".

١٤ ــ وهكذا تبدل مناخ ارباض طرابلس وتحولت البقاع حول النهر وعلى ضفتيه صعودا إلى حارات حول القلعة والنهر وعلى امتداد ثلاثة كيلومترات مربعة، لتشهد ولادة طرابلس المستجدة ولتستمر في متحف للتاريخ المتحرك ولتصبح طرابلس نيابة سلطنة مملوكية ، ولتشهد حركة تجارية وزراعية وصناعية ودار علم ومعرفة ، ولتصبح مفصلا مهما على امتداد التاريخ الوسيط في العهود المملوكية والعثمانية حتى الحرب العالمية الأولى...

١٥ ــ وفي إصدار للاونسكو عن الآثار التاريخية في مدينة طرابلس باللغة الفرنسية[٣٥] تحت عنوان "المماليك" جاء فيه شرح مقبول نشير إلى تعريبه فيما يلي :



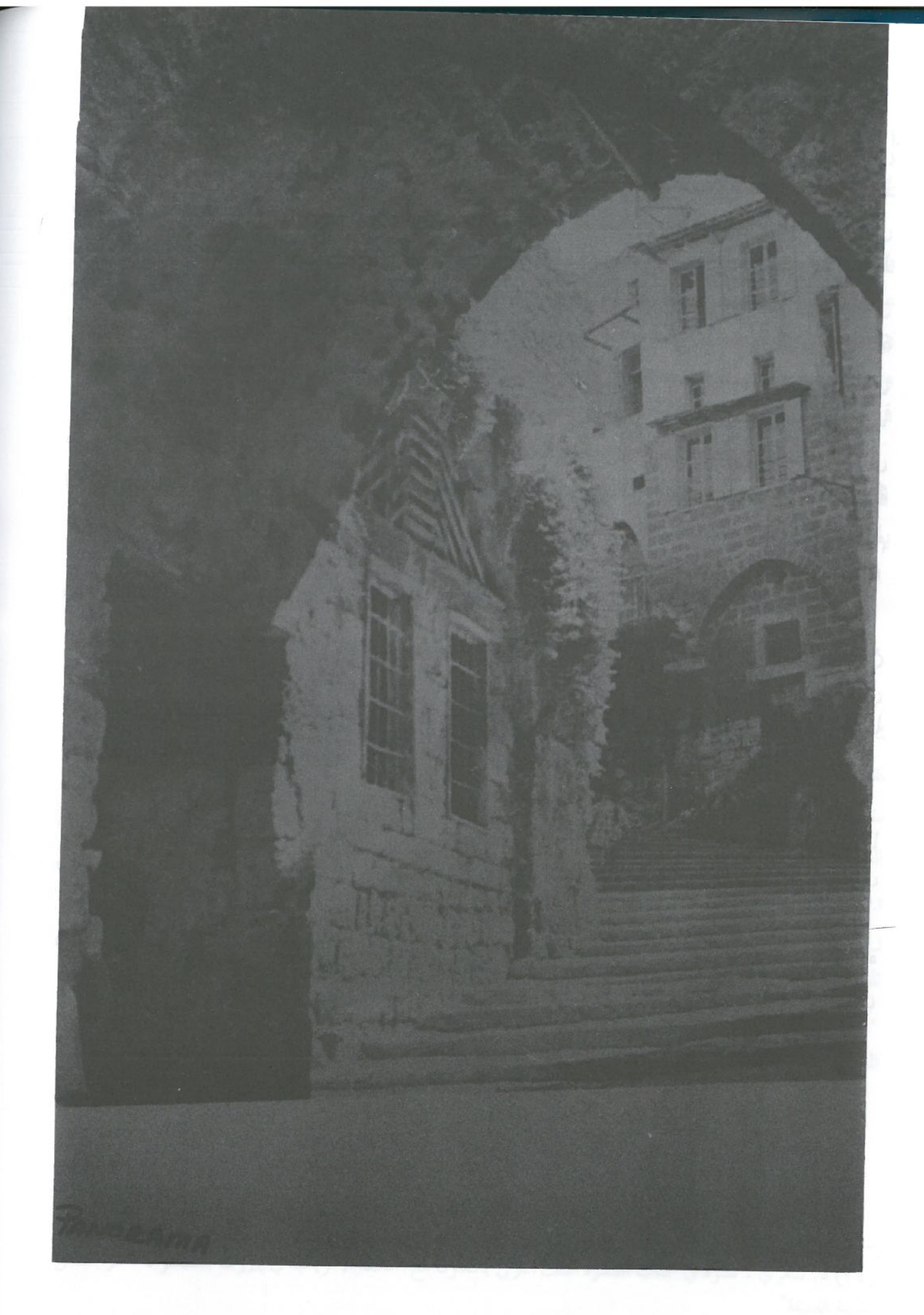
شارع في طرابلس رسم كليرجيه عن صورة فوتوغرافية منشورة في كتاب ارض الذكريات في بلاد سوريا وفلسطين ولبنان والاردن ، رحلة الدكتور لورتيه عميد كلية الطب في ليون ١٨٧٥ ــ ١٨٨٠ . ط١ ١٩٦٣ ، شركة المطبوعات (الصورة رقم ٣).

(٣٤) د. تدمري : نشرة في كتاب أصدره البنك العربي بالتعاون مع الجامعة الأمريكية في بيروت بعنوان " طرابلس المدينة القديمة".

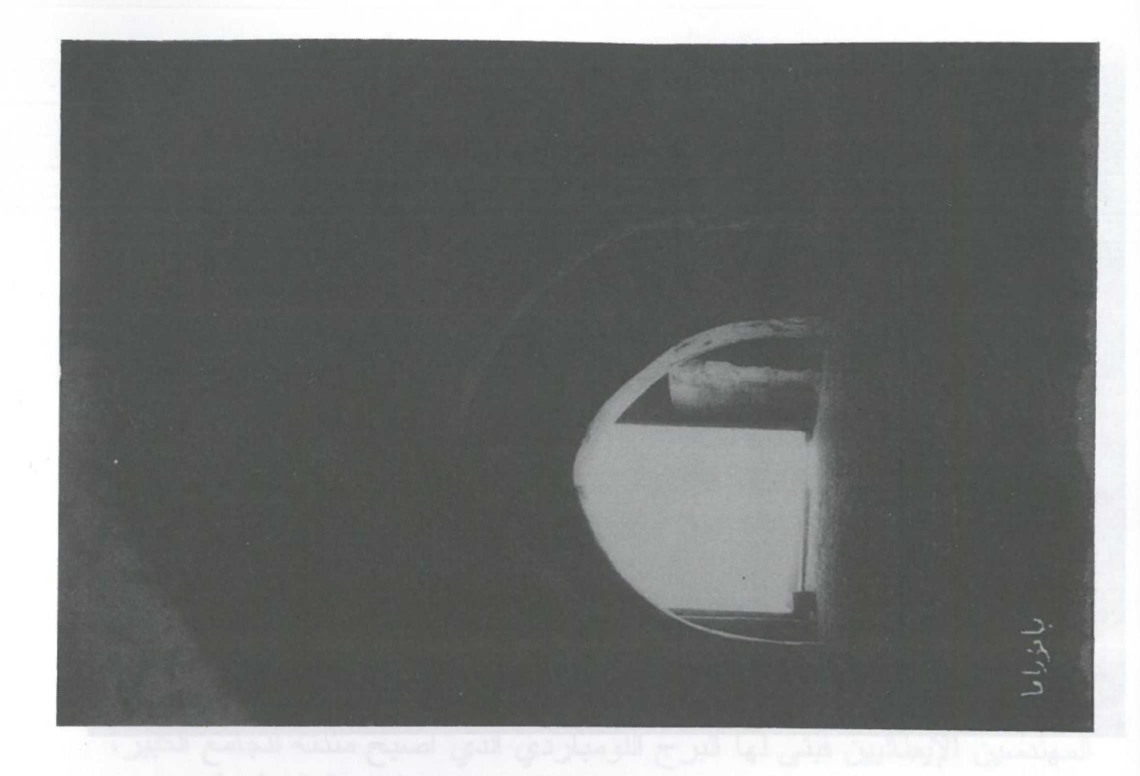
(٣٥) monuments historiques - rapport de l'Unesco muses et monuments V1 ; 1953 منشور باللغة الفرنسية ضمن دراسة باسم Tripoli etude analytique et plan directeur.

" حوالي عام ١١٨٩ م.حاول صلاح الدين، سيد القدس، أن يستعيد طرابلس ولكن دون جدوى...فالمدينة لم تسقط إلا بعد قرن من الزمن تحت ضغط سلاطين المماليك الذين كانوا يريدون تحرير سوريا من المغول والصليبيين معا.فبعد الاستيلاء على إنطاكية (في أيار ١٢٦٨م) سيطر بيبرس على محيط طرابلس التي هاجمها فيما بعد السلطان قلاوون.واستولى عليها بعد ٣٤ يوما من الحصار (٢٧ نيسان ١٢٨٩م) [والصحيح ٢٦ نيسان]...ولكي يحميها من عودة الصليبيين المحتملة الذين كانوا قد طردوا إلى قبرص ٠ وربما أيضا ليحميها من الهزات الأرضية !!! أعاد قلاوون بناء المدينة على بعد ثلاثة كيلومترات تقريبا من البحر على سفح هضبة القلعة وبنى قلاعا على طول الشاطئ التي كان يفترض بها أن تمنع الوصول إلى المدينة...هذه هي نقطة البداية للمدينة الحالية التي حول [قلاوون] بناءها إلى داخل الأراضي ، والتي احتفظت باسمها القديم (طرابلس) رغم انتقالها إلى المكان الجديد ، بينما في مكان المدينة القديم (الميناء) فإن الاسم اليوناني (تريبولس) للمرفأ يذكر وحده بتاريخها القديم" .

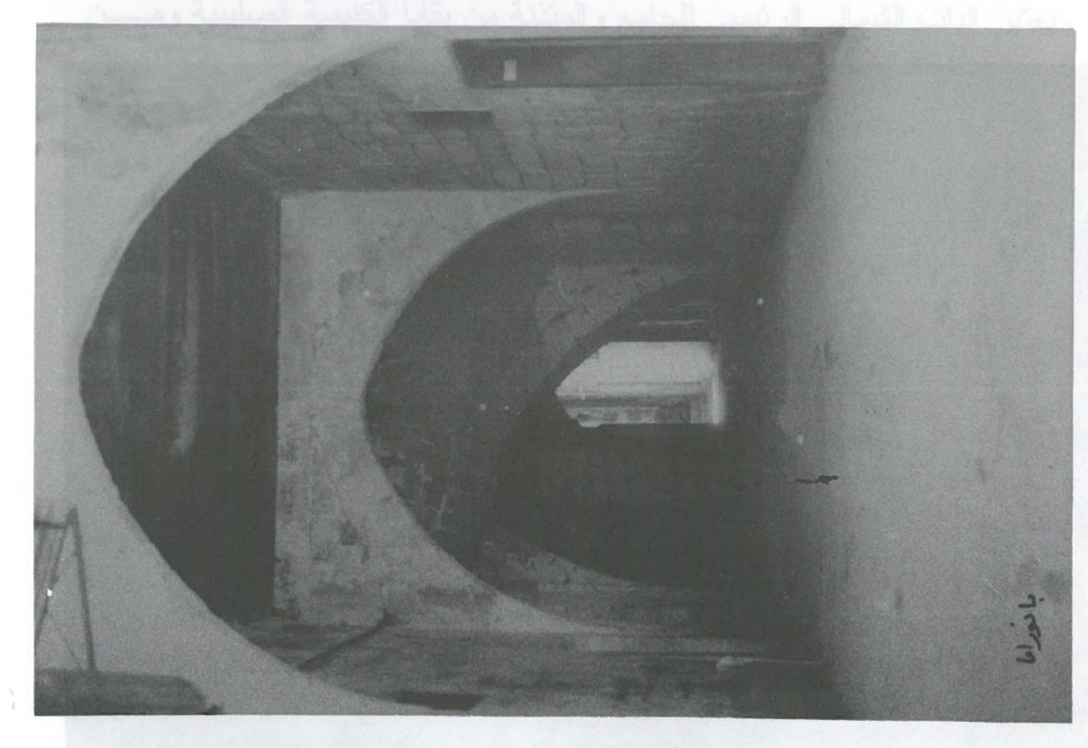
ويتابع التقرير : " إذن فان طرابلس (الجديدة) كمركز مديني ، هي من صنع السلاطين المماليك ، الذين جعلوها واحدة من مراكز الأقاليم في امبراطوريتهم.وكونها كانت مفضلة لديهم ، فإنما استعادت سريعا ازدهارها التجاري والصناعي والثقافي.، فتأسست المدارس الدينية بأعداد كبيرة لنشر المذهب السني.ويشهد على نشاط طرابلس وثروتها الآثار التاريخية والنصوص . لقد كانت مدينة مزدهرة صاحبة اكبر مرفأ في سورية.مساجدها وحماماتها وأسواقها وباحات البضائع كانت مشهورة...المواد التجارية الأساسية كانت الحرير ــ الذي كان يصنع في طرابلس نفسها وفي الجوار ــ والزيت والصابون والعقاقير كالبوتاس والصودا وغيرها " كما ظهرت العديد من المراسيم في هذه الفترة كان موضعها جلب الإمتيازات لهذه الصناعات أو لتنظيمها ، لذلك نجد أن أكثر صروح طرابلس أهمية وعددا تم إنشاؤها في هذا العهد" .



' طلعة ' في طرابلس ودرج وبيوت



ازقة في طرابلس



الفصل الثاني

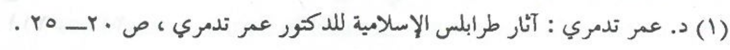
كنيسة أو برج ماري دولاتور ومَوقع المسجد المنصوري الكبير، هل هما موقعان مختلفان أم موقع واحد؟

١ ـ تكاد الرواية التي تقول إن موقع الجامع المنصوري الكبير في طرابلس هو موقع كنيسة تتكرر في جميع كتابات مؤرخي هذا الجامع على الأخص من الأجانب ومنهم انتقلت إلى مؤرخينا من نصارى ومسلمين...!!!

وتقول الرواية التي كررها الدكتور عمر تدمري في كتابه (آثار طرابلس الإسلامية) أن القديسة ماري دي لاتور أقامت في أوائل القرن الثاني عشر ميلادي (أواخر القرن الخامس هجري) في الفترة التي كانت تحاصر فيها من قبل الصليبيين بقيادة ريموند دي سان جيل) "وأن هذه الكنيسة تهدمت بالزلازل عام ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م." ثم " أعاد بناءها بوهمند الرابع.الذي استعان بأحد المهندسين الإيطاليين فبنى لها البرج اللومباردي الذي اصبح مئذنة للجامع الكبير، ويعتبر الباب الشمالي الرئيسي للجامع والمئذنة من بقايا الكنيسة الصليبية ومن المرجح أن هذا الباب كان بابا للكنيسة الصليبية... ومن آثار البوابة القديمة للكنيسة العمودان الرخاميان القائمان عند طرفيها بزخرفة قوطية وقد دفن بوهمند السادس فيها ونبش المسلمون الفاتحون قبره [(١)].

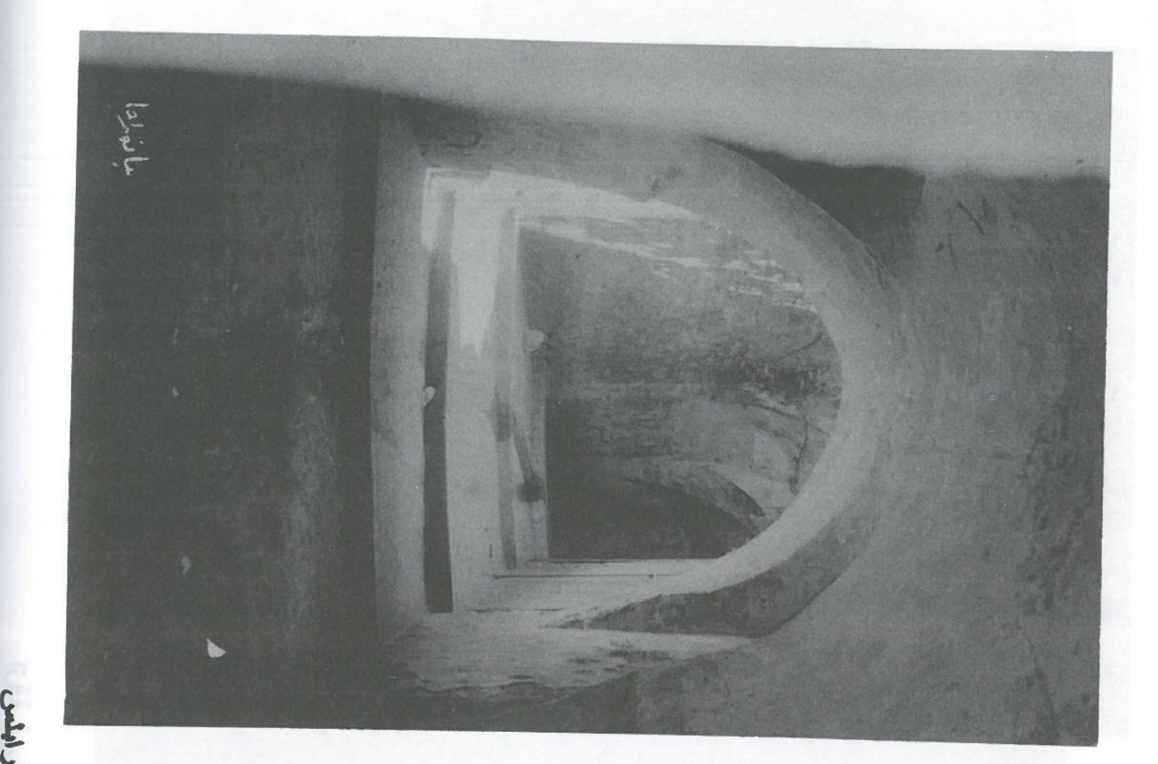
٢ ـ ويقول سميح الزين وهو أيضا أحد مؤرخي طرابلس المحدثين في كتابه أن أهم مساجد طرابلس الجامع الكبير المنصوري الذي أمر ببنائه المنصور قلاوون على أنقاض كنيسة قديمة أقامها الصليبيون أطلقوا عليها اسم كنيسة سان جيل... [(٢)].

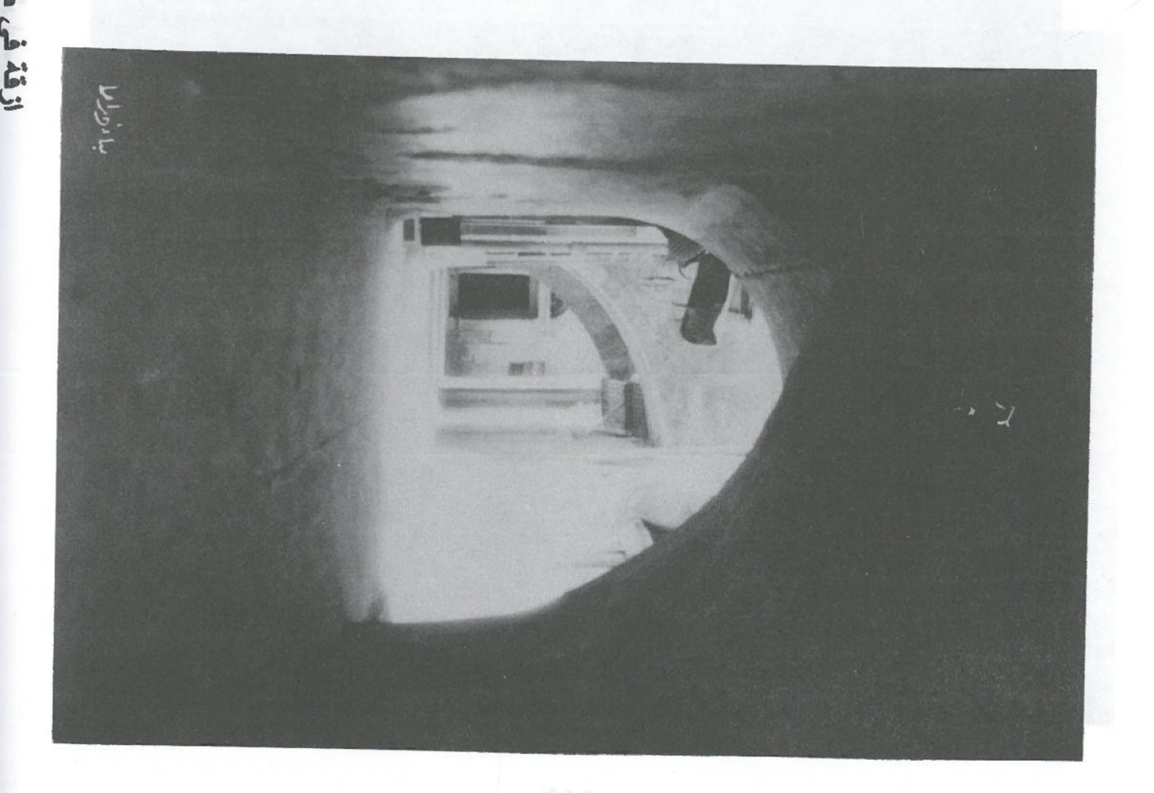
٣ ـ ويقول فيليب حتي المؤرخ اللبناني المعروف " أما الجامع الكبير في مدينة طرابلس، فيقوم على الموقع ذاته الذي كانت تقوم عليه كاتدرائية صليبية تعرف بكاتدرائية القديسة مريم وقد شيدت هذه الكاتدرائية في أوائل القرن الثاني عشر،غير أنها خربت في الزلزال الذي وقع عام ١١٧٠ م. ثم أعيد بناؤها في القرن الثالث عشر،وعندما وقعت طرابلس في أيدي المسلمين بعد تحريرها من الصليبيين هدمت الكاتدرائية وأقيم مكانها جامع هو الجامع الكبير.وقد احتفظت



(١) د. عمر تدمري : آثار طرابلس الإسلامية للدكتور عمر تدمري ، ص ٢٠ــ ٢٥ .

(٢) سميح الزين : تاريخ طرابلس قديما وحديثا ، ص ٤١٦.





أزقة في طرابلس

بعض نوافذه وأبوابه ببقايا تدل على اصلها الصليبي ، وهنالك كنائس ومعابد أخرى عديدة هدمت ولم يبق لها من أثر "[3].

٤ ـ ويقول الدليل الأخضر :

"جامع طرابلس هو الكنيسة الكاتدرائية القديمة التي بناها الصليبيون في النصف الأول من القرن الثاني عشر أطلقوا عليها اسم القديسة ماري دي لاتور.وقد خربت في سنة ١١٧٠م.من خلال زلزال رهيب أعيد بناؤها في القرن الثالث ثم خربت من جديد في سنة ١٢٨٧م.فبني في موقعها الجامع الكبير الحالي من قبل السلطان الاشرف خليل في سنة ١٢٩٤ م مما يدل على ذلك كتابة منقوشة على جهة البيت الرئيسي.ولم يبق من الكاتدرائية القديمة إلا آثار قليلة جدا منها :

أ ـ المدخل الشمالي الذي ما زال في مكانه دون أن يدخل عليه أي تغيير.

ب ـ المدخل الغربي للفناء ، وهو من بقايا المدخل القديم.

ج ـ المدخل الشمالي ويرجح أنها بيت ناقوس قديم أو برج.فردان بمجموعة ذات طراز عربي[4].

٥ ـ والراجح أن الدليل الأخضر قد اعتمد ما قاله سوبرنهايم :

" أقيم في مدينة طرابلس المحدثة على الضفة اليسرى من نهر أبي علي : وهو من أعظم المساجد الجامعة لطرابلس أقامه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل في سنة ٦٩٣هـ/.١٢٩٤م.، وكان موضع هذا الجامع كنيسة أقيمت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي تعرف باسم سان جيل ، في الوقت الذي كان ريموند دي سان جيل يحاصر مدينة طرابلس القديمة من حصن صنجيل القائم على تلة الحجاج ، وقد تهدمت هذه الكنيسة في جملة ما تهدم من أبنيتها عقب الزلزال العنيف الذي حدث سنة ١١٧٠ م.وشاهد بنيامين التطيلى آثاره المدمرة عند زيارته لتلك المدينة "[5].

٦ ـ وفي دليل طرابلس السياحي نقرأ ما يلي :

" كان موضع هذا الجامع كنيسة أقيمت في أوائل القرن الثاني عشر ميلادي في الوقت الذي فيه ريموند دي سان جيل عاصر مدينة طرابلس...وان هذه الكنيسة تأثرت بزلازل سنة ١٢٨٧ م.الذي أحدث أضرارا جسيمة ثم تهدمت على أثر دخول جيوش المماليك في مدينة طرابلس ١٢٨٩ م وبقيت منها أجزاء استغلها مهندس الجامع في بنائه ، ولا نستبعد أن يكون المنصور قلاوون قد منع

---

(٣) فيليب حتي : لبنان في التاريخ ، ص ٣٨٥ .

(٤) لبنان الدليل الأخضر ، ص ٢١١ ـ ٢١٢.

(٥) م.س. ، ص ٤٠١.

بناء بيت للصلاة في نطاق الكنيسة دون أن يهدم برجها اللومباردي أو جدرانها الخارجية ، أي انه اشتغل الجدران القديمة وبابها الرئيسي وبرجها بعد أن انتزع منه النواقيس...)[6].

٧ـ أما بروس كوندي (Bruce Condé) فقال ما ترجمه[7]

"حالا وبعد سقوط طرابلس الصليبية في عام ١٢٨٩ م.والدمار الشامل للمدينة في الميناء، الظافر السلطان قلاوون اختار مكانا حول جبل الحجاج كموقع لمدينة المماليك الجديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر وأعيد بناء بوج القديسة مريم كمئذنة وأقيم الجامع حول باحة مكشوفة جنوب البرج ، وبوابة صليبية شرق البرج الفت المدخل الرئيسي للجامع ، كما هو اليوم.

والبوابة من عمل بيزنطي صليبي ، وعواميد رخامية بيضاء يمكن أن يكون مكان العمادة عند المسيحيين في هذه البقعة ، وقد جعل ممر موزاييك رخامي أنيق الشكل مدخلا للمدرسة القرطائية خارج البوابة الشرقية عواميد صليبية ، حروف ونقوش فرنسية من القرون الوسطى ووجدت مبعثرة في جميع المساجد والمدارس وحمامات طرابلس المملوكية ولا يوجد أي بناء للقديمة إلا البرج اللمباردي ".

٨ ـ وفي تاريخه للكنيسة المطلق عليها اسم (القديسة ماري دي لاتور) ولبرجها اللمباردي وما أصيبا به من خلال زلازل يقول كوندي : "حول قلعة سان جيل عند أسفل جبل الحجاج ، ارتفع بناء بشكل منفصل عن شاطئ طرابلس في أيام الفرنسيين ، اشتمل على كنيسة القديسة مريم.وشهد في عام ١١٧٠ هذا البرج الفرنسي وكنائسه دمارا بسبب زلزال لكن مع نهاية القرن أعيد بناء كل شيء ، تحت حكم السلالة النورمندية بإعادة كنيسة القديسة مريم ، برج جميل لومباردي ارتفع على الذوق الإيطالي بأمر من بوهمند وقد قاوم البرج زلزال ١٢٨٧ ولكن الزلزال عام ١٢٨٩ م (أو المماليك) دمروا بقية الكنيسة ما عدا بضعة بوابات." .

٩ ـ وحده الدكتور عبد العزيز سالم في كتابه طرابلس الشام[8] حاول أن يطرح إشكالية حول البوابة القوطية المنسوبة إلى كنيسة القديسة ماري بعد أن أورد نص سوبر نهايم في رحلة إلى سوريا المثبت أعلاه...فقال : (من المحتمل أن تكون هذه البوابة قد انتزعت من الكنيسة القديمة ووضعت في مدخل الجامع المنصوري لتكون شاهدا ماثلا يسجل انتصار المسلمين على الصليبيين كما فعل

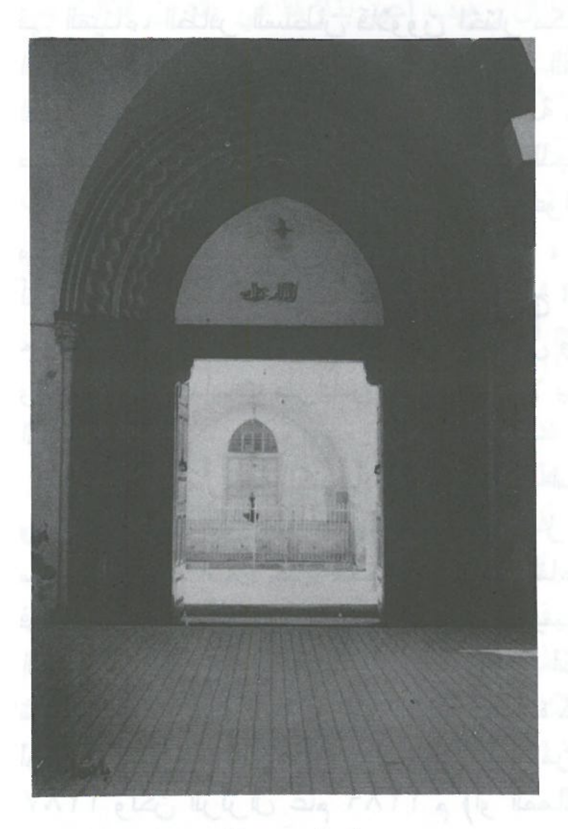
---

(٦) منذر عوض :دليل طرابلس السياحي ، ص ٩٥.

see lebanon - tripoli of lebanon - our capital of the north . (٧)

(٨) م.س.، ص ٤٠١ . وما أشار إليه في كلامه هو ما نقله عن سوبر نهايم المثبت نصه في الفقرة (٣) من هذا الفصل .

الأشرف خليل بعد ذلك ببوابة كنيسة سان جان بعكا التي انتزعها الأمـير علم الدين الوادراي متولي تخريب عكا وصور وعثليث وغيرها من قلاع الصليبيين التي فتحها الأشرف خليل وحملها إلى القاهرة حيث نصبها العادل زيـن الدين كتبغا في المدرسة التي نسبت فيما بعد إلى الناصر محمد بن قلاوون في شارع بين القصرين بالنحاسين " .



بوابة الجامع المنصوري الشمالية قبل نزع الالوان على زخارفها وكانت ملونة بالابيض والاخضر كما هو حال الزخرفة فوق المحراب . وعلى هذه البوابة يدور صراع لاثبات هوية الجامع.

(صورة رقم ٩)

بوابة الجامع الكبير

ولئن جاءت إشكالية د.سالم في هامش الصفحة الوارد فيها نص سوبر نـهايم إلا أنها تكشف بذور الشك في نفسه حول هذا التحقيق ، غير انه اكتفى بذلـك ولم يتابعه بمناقشة وتحليل...ذلك انه اعتمد في وصف الجامع على المصادر الأجنبية فحسب ولم يستقرئ الأمور بنفسه.وهكذا ردد مع المستشرقين الرحالة القول بـأن برج كنيسة سانت ماري اللومباردي قد تحول إلى مئذنة فيقول د.سالم : " ومئذنة الجامع هي البرج اللمباردي الذي أشرنا إليه وهي مئذنة تنفتح في أوجهها نوافذ ذات طراز تقوم عقودها على أعمدة صغيرة."

١٠ ـ وهكذا يمكن أن نوجز ما تقدم بما يلي :

أ ـ كنيسة القديسة ماري دو لاتور بنيت في فترة حصار طرابلس بقيادة سان جيل.
هدمت هذه الكنيسة بزلزال ١١٧٠ م وأعيد بناؤها بواسطة مهندسين إيطاليين.
بنى قلاوون جامعه على أنقاض الكنيسة وبابه الرئيسي الشمالي هو باب بيزنطي ـ صليبي ، من بقاياه العمودين الرخاميين وزخرفة قوطيـة ، ومئذنتـه بـرج الكنيسة ، وان بوهمند السادس دفن في الكنيسة (د.عمـر تدمـري نقـلا عـن آراء مستشرقين).

ب ـ ان اسم الكنيسة حيث بنى قلاوون جامعه هو كنيسة سان جيـل (سـميح الزين)

ج ـ بنى قلاوون جامعه مكان كاتدرائية مريم وبقي من آثارها نوافذ صليبيـة (فيليب حتي)

د ـ كنيسة ماري دو لاتور هدمت مرتين بزلـزال ١١٧٠ وبزلـزال ١٢٨٧ والزلزال الأخير نفاه د.تدمري بشدة وقد بنى السلطان جامعه مكانها وبقيـت آثار منها :
البوابة الشمالية والبوابة الغربية وبرج الكنيسة التي تحولت إلى مئذنة (الدليل الأخضر)

هـ ـ بنيت كنيسة ماري دو لاتور أثناء حصار صنجيل لطرابلـس (سـوبر نهايم)

و ـ هدمت الكنيسة والبرج بعد أن انتزع النواقيس (دليل طرابلس السياحي)

ز ـ بنى قلاوون جامعه في باحة مكشوفة عند برج القديسة ماري اما بوابـة الجامع الشرقية فهي من عمل الصليبيين وكذلك البرج...(كوندي)

ح ـ طرح د.عبد العزيز سالم إشكالية حول البوابة الرئيسية ، وان كان قـد كرر أقوال دو لاتور دون أي سند .

وقبل مناقشة هذه (المقولات) نسارع إلى إثبات أمرين :

أولهما : إن أيا من المصادر العربية التي أرخت للحصار الصليبي لـم تتجاوز ترميم وتوسيع حصن سفيان الازدي ، الذي تحول إلى حصن سان جيل ولم يذكر أي منها بناء برج مريم المذكور في مكان الجامع المرسوم.

ثانيهما : إن المصادر الأجنبية والعربية ذكرت أن سان جيل قد بنى كنيسته فـي حصنه مكان مشهد فاطمي مثمن الأضلاع ، بعد أن كان غني النفس بتملك القدس والكنيسة المثمنة فيها "...وقد ذكر المؤرخون أن سان جيل إذ شدد الحصار علـى حصن سفيان تمكن من احتلاله وهو الحصن الذي تحدث عنه نـاصر خسـرو ، كما احتل المشهد المثمن الزوايا ، فضمهما إلى بعضهما وأضاف عليهما ، محولا

الموقع إلى حصن حربي يفي بحاجاته.....ومن طريف ما يرويه مؤرخون غربيون أن ريموند سان جيل عندما رأى المشهد الفاطمي المثمن الزوايا اعجب به ، ورأى فيه صورة مصغرة عن كنيسة (سان سبيلكر) في بيت المقدس ولما كان حلمه أن يكون ملكا على بيت المقدس ، لم يتحقق ، فقد اعتبر استيلاءه على ذلك المشهد تعزية له ، فأبقى عليه وحوله إلى كنيسة بعد أن ألغى محرابه وبنى من حوله الحصن أو بالأصح ما أضافه من بناء على الحصن القديم [٩] .

ومن الطبيعي أن يكون الصليبيون على امتداد فترة حكمهم قد ادخلوا إضافات على الكنيسة حتى غدت كما وصفها كتاب (أبنية الصليبيين الحربية) لكميل انلار الذي قال :

" بنى الصليبيون في قلعة طرابلس أو حصن صنجيل ، كنيسة رائعة لم يزل منها جدار يستدل منه أنها كانت ذات حصن وحيد الروعة والفخامة ، يحيط به صف من الأعمدة عليها أقواس مزدوجة متشابكة ولها صدر (حنية) ذو قناطر مزدوجة ترتكز على دعائم نصفية أيضا بشكل صلبان ٠ وفوق الأبواب كوى ذات نقوش نادرة ضخمة كانت تطلى بالدهان الرخامي".

١٢ – وقد تبين لنا من قبل كيف أن بعض المؤرخين أطلقوا على برج مريم اسم كنيسة سان جيل.وهكذا يبدو أن التباسا بينا لدى المؤرخين قد وقع ، والراجح أن الكنيسة المزعومة "كنيسة أو برج مريم" ليست إلا كنيسة سان جيل في الحصن.وقد يكون سان جيل قد أطلق عليها اسم القديسة مريم أو برج القديسة وهذا الافتراض يتلاءم مع الوقائع والتحليلات المثبتة لاحقا.

زد على ذلك أن حصار طرابلس والذي استمر سبع سنوات ، لم يكن ليوحي بالاستقرار للصليبيين.فقد كانت حملات فخر الملك وبني عمار المستمرة ومناوشاتهم المتمادية مانعة للصليبيين القادمين من بناء كنائس ، خاصة خارج أسوار تحصيناتهم ، وقد تحدث المستشرقون عن كنيسة ذات فخامة متميزة بالنقوش والزخارف والأعمدة الرخامية وباب بيزنطي صليبي وسوى ذلك مما لا يكون عادة إلا بعد الإنتصار أو في زمن الاستقرار...ويصعب أن يكون زمن حصار شديد ومقاومة عنيفة !!!

١٣ – وعلاوة على ما تقدم فان وجود كنيسة في موقع الجامع الكبير اسفل حصن سان جيل ، يفترض وجود مساكن وأحياء رافقت بناء الكنيسة أو تأخرت عليه ن بعد سيطرة الصليبيين على طرابلس بني عمار وسقوطها بين أيديهم ن ويستتبع ذلك حتما أن تكون طرابلس في عهد بني عمار وزمن الحصار وبعد السقوط والاحتلال (طرابلسين) ، أولاهما الأساسية التي على البحر ، وثانيهما

(٩) راجع ما كتبناه في الفصل الخاص بقلعة طرابلس في هذا الكتاب .

صليبية بالكامل عند سفح هضبة أبي سمراء اليوم أو تل الحجاج وحصن صنجيل.وتترتب على ذلك نتيجة طبيعية هي أن الصليبيين عندما استولوا على طرابلس الواقعة على البحر وسعوا حدودها فبنوا السور في غير محله الذي كان في زمن بني عمار ، وأقاموه عند النهر ليكون حصن صنجيل خطا دفاعيا متقدما في السور الكبير لطرابلس الموحدة الإسلامية الصليبية...!!! إذ لا يمكن للصليبيين الذين شيدوا طرابلس الجديدة بأحياء وبيوت وحارات أن يدعوا ما بنوا خارج الأسوار ويكتفوا بطرابلس بني عمار وهذا يفترض بداهة ضم الجديد إلى القديم وعدم ترك الجديد خارج الأسوار !!!

غير إنه من المتفق عليه بين جميع المؤرخين أن مثل هذا الأمر لم يكن بل كان عكسه ، فعندما احتل الصليبيون مدينة بني عمار الواقعة على البحر حصنوها ودعموا سورها حتى غدا من اعظم الأسوار ،.فهو الذي يتسع لسير ثلاثة فرسان على خيولهم وهو نفسه الذي سمح للصليبيين بأسر المدينة في وجه الفاتحين الزنكي وصلاح الدين والعادل وبيبرس.

إن الواقع التاريخي المتفق عليه حول السور وحول مدينة الصليبيين طرابلس، يشير بوضوح إلى أنه لا مباني خارج أسوار طرابلس ولا كنائس إلا ما كان من مبنى الحصن المضاف على حصن سفيان وقلعة بني عمار ومشاهدهم في هضبة الحجاج (أبي سمراء اليوم) ، وإلا ما كان داخل حصن صنجيل من كنيسة أوجدوها على موقع مشهد فاطمي مثمن الأضلاع ..إن أحدا من المؤرخين العرب والنصارى القدماء لم يقل خلاف ذلك كما أن اكثر المستشرقين تبنى هذه الحقيقة الساطعة ، فقد أكد كوندي ، كما رأينا في مقدمة هذا البحث " أن الظافر قلاوون بعد سقوط طرابلس الصليبية في عام ١٢٨٩ م ، والدمار الشامل للمدينة في الميناء ، اختار مكانا حول جبل الحجاج كموقع لمدينة المماليك الجديدة في القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر " .

١٤ – ومع وضوح ما تقدم وثباته وكفاية دلالاته ، إلا أن ما أثبته الدكتور عمر تدمري في كتابه الآثار الإسلامية في طرابلس ، بمعرض ذكره كنيسة ماري دو لاتور من أن بوهمند السادس حاكم طرابلس الصليبي قبل الأخير الذي عاش أيام بيبرس وخسر أمامه المواقع ، قد دفن في هذه الكنيسة التي قام عندها الجامع المنصوري الكبير واستفاد من بوابتها وبرجها اللمباردي وان المسلمين الفاتحين مع المنصور قلاوون فتحوا قبر بوهمند ورموا بعظامه إلى الكلاب على حد تعبير المؤرخ ابن كثير كما سنرى..وهذا يدفعنا إلى مزيد من البحث والتدقيق حول الكنيسة المزعومة وحول قبر بوهمند السادس لنجد في النهاية أن بوهمند دفن في برجه في طرابلس الصليبية الواقعة على البحر ولا علاقة لقبره بكنيسة ماري التي زعم مؤرخون محدثون أنها كانت في موقع الجامع الكبير.

وما قدمناه[١٠] من بحث حول ارباض طرابلس خارج أسوارها القديمة ، وحول بناء المستجد بأمر من المنصور قلاوون بعد أن هدم الواقعة على البحر ، وما يتعلق بالبحث من دراسة لمناخ المدينة المستجدة وبيئتها ، وما سندرسه[١١] عند إحاطتنا بقصة بناء الجامع ووصفه والدراسة المعمارية الهندسية له...يشكلان أساسا عريضا وإطارا عاما في الرد الموضوعي على استحالة وجود كنيسة في موقع الجامع...إلا أن مسألة قبر بوهمند السادس سوف تشكل زاوية جديدة ــ كما سنرى ــ يمكن منها تأكيد ما ذهبنا إليه.

* * *

وعلى هذا نقول :من المرجح أن لا سكن خارج طرابلس القديمة أي في ارباض طرابلس حيث بنيت طرابلس المستجدة...بإستثناء ما كان في القلعة من حامية...أو ما كان من إقامة مؤقتة للمزارعين في السهول وعند النهر.وهذه الإقامات لا تستتبع ، في ظل الظروف الماضية إنشاء حي...فمن المعلوم أن الأعمال العسكرية بين المسلمين والصليبيين ، على امتداد التاريخ في العهود الصليبية ، كانت سائدة ومستمرة بحيث لا يحمي الناس إلا الأسوار العظيمة.وكثيرا ما وقعت الحروب والمناوشات المفاجئة بين الطرفين باستثناء فترات الهدن.فغارات المقاومين والمجاهدين المسلمين محتملة في كل آن وهي مكلفة في الأنفس والأموال.وهذا أمر محسوب لدى كل مقيم صليبي وخاصة في الفترات الأخيرة إذ أن تكاثر هجمات المماليك بقيادة بيبرس وبعده قلاوون على أطراف الكونتينية واحتلالهما لكثير من المواقع والحصون والبلدان والقرى والتي تعتبر خطوطا أمامية ودفاعات مهمة عن مدينة طرابلس ، تجعل من الإقامة خارج أسوار المدينة ضربا من المجازفة والمخاطرة غير المأمونة...وعلى هذا فقد رأينا كيف أن محاولات استعادة المدينة المختلفة كانت تتركز على القلعة وعلى أرباض طرابلس في السهول وكثيرا ما قطع الجيش المسلم الأشجار وغور الأنهار وخرب القلعة وما يحيط بها حتى إذا ما جاء بيبرس في حملاته لاستعادة طرابلس خرب حصن صنجيل واحرقه وقطع الشجر وغور النهر وخرب القرى على ما ذكره المؤرخون[١٢] وقد زاد القلقشندي أنه أيضا (هدم كنائسها) سواء في داخل الحصن أو عند مجرى النهر أو في تلك القرى .

(١٠) راجع الفصل السابق (المدينة المستجدة ذات المناخ الوخيم ...) .

(١١) راجع الفصل الثالث من هذا القسم حول بناء الجامع المنصوري الكبير .

(١٢) اليونيني والذهبي والنويري ، ومن أضاف هدم الكنائس القلقشندي في صبح الأعشى والمقريزي في السلوك . قارن بذلك ما ورد في طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي للدكتور السيد عبد العزيز سالم ، ص ٢٦٧ ؛ تاريخ طرابلس الحضاري والسياسي للدكتور عمر تدمري ، ص٤٠٢ .

١٥ ــ ومن المؤكد تاريخيا أن لا تجديد قد حصل للحصن أو في أرباض طرابلس بعد هجوم بيبرس في حملته الأولى عام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م.حيث اعتبر ــ المؤرخون أن تلة الحجاج وحصنها وأرباض المدينة وسهولها قد سقطت ،من الوجهة العسكرية ، ولم يعد بالإمكان الدفاع عنها أو بها عن المدينة .

وقد تحدث التاريخ عن بوهمند السادس الذي سقطت عاصمته إنطاكية بيد الظاهر بيبرس بتاريخ ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م.وهو في طرابلس . فقد كان بوهمند ملك إنطاكية وكونت طرابلس وتوفي في ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م.وكان يخشى من بأس بيبرس الذي روعه بالهجوم وأخذه إنطاكية وحصن الأكراد وحصن عكار وكثير من البلدان والقرى وبهدمه حصن صنجيل وبرسائله المرعبة المتوعدة،[١٣] فكان أن أدرك بوهمند صعوبة الدفاع من خارج المدينة أو إعادة إعمار حصن سنجيل فالتفت إلى بناء برج في طرابلس في ذلك الزمان (الميناء القديمة) ليتمكن من رؤية تحرك العدو ، فيتمكن من الدفاع عن المدينة دون أن يباغته بيبرس وجيوش المماليك.

١٦ ــ ويرجح أن يكون هذا البرج قد بني في الجزيرة مقابل الميناء والتي تعرف اليوم بجزيرة عبد الوهاب...وهي الجزيرة التي هاجمها جيش قلاوون إبان الفتح لطرابلس ويقال انه كان فيها كنيسة سنطماس وقد التجأ إليها نفر من الصليبيين هروبا من طرابلس فخاض المسلمون البحر على خيلهم وقتلوا من التجأ إليها واسروا النساء والولدان وهي التي زارها بعد الفتح مباشرة المؤرخ أبو الفدا[١٤] .

وقد كشفت أعمال الحفر في الجزيرة المذكورة في الثلاثينات من القرن العشرين على عظام تعود لصليبيين ، ويقول المرحوم طه الولي : " بيد أننا كي نرضي فضول الذين يصرون على وجود آثار صليبية في طرابلس حتى اليوم ، نذكر لهم أن الفعلة الذين كانوا يعملون في بناء بعض المخازن التجارية الخاصة بآل عبد الوهاب في إحدى الجزر المقابلة لشاطئ الاسكلة (الميناء) وجدوا في باطن الأرض بقايا عظام رميمة دلت التحاليل التي أجريت عليها بأنها من بقايا الصليبيين الذين هدم المماليك كنيسة سنطماس فوق رؤوسهم عند لجوئهم إليها هربا من شغار سيوف المسلمين وأسنة رماحهم.

وتقول مجلة المشرق اليسوعية أنه : " بينما كان بعض الفعلة يحفرون في ميناء طرابلس الشام ، عثروا على صفيحة رخامية عليها اثر كتابي من عهد الصليبيين ، فحفظت كي ترسل إلى المتحف اللبناني في الثغر (بيروت).

(١٣) راجع نص أحد هذه الكتب إلى بوهمند المثبتة في فصل محاولات استرجاع المدينة في القسم الثاني من هذا الكتاب .

(١٤) ابن الوردي : تتمة المختصر في تاريخ البشر ، ج ٤ ، ص ٢٣.



الرقيم المنقوش باللغة الفرنسية القديمة التي تعود الى بوهمند السادس صورة رقم ١٠

وقالت الصحيفة المذكورة :

" لغة الرقيم الفرنسية القديمة التي كانت مع اللاتينية لغة الصليبيين الرسمية ، والكتابة تظهر في عشرة أسطر وهي كاملة إلا بعض حروف باهتة ، وحروف غيرها مفقودة بسبب العطب اللاحق بها في أسفل الصحيفة من جهة اليمين ، وترجمتها : باسم الروح القدس، أنا بيمون ، بنعمة الله ، أمير إنطاكية وكونت طرابلس ، أمرت بصنع هذا البرج من أموال مشيخة أهالي طرابلس سنة ١٢٦٨م.لتجسد سيدنا المسيح "(١٥) .

وتتابع المجلة المذكورة قائلة :

" وكان صاحب هذه الترجمة ، بوهمند السادس ، خلف أخاه بوهمند الخامس سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م.في إمارة إنطاكية وكونتيه طرابلس ٠ وسقطت في أواخر سنة ١٢٦٨م.مدينة إنطاكية في يد السلطان المملوك بيبرس فلجأ بوهمند إذ ذاك إلى طرابلس وبنى البرج المذكور (بالمينا) كي يتمكن من الدفاع عن المدينة

(١٥) راجع شكل الرقيم في قسم فصل المصورات والرسوم والصورة.

وكانت وفاته سنة ١٢٧٤م ، أما مشيخة أهالي طرابلس فكانت لجنة من سكانها تدير شؤون المدينة (البلدية).

١٧ ــ وانطلاقا من هذا الرقيم العائد لبرج بوهمند الذي عثر عليه في الجزيرة نتأكد من وجود البرج الذي يرجح أن يكون مبنيا وفيه كنيسة صغيرة أو كان بناؤه على شكل كنيسة.

فإذا علمنا ذلك رجحنا أن يكون بوهمند السادس قد دفن في البرج ــ الكنيسة الذي أمر ببنائه.، ذلك أن العادة قد جرت في دفن الرئيس أو الزعيم أو الملك أو الكونت.في مكان شيده أو في مكان يشيد لأمره يبنى عليه بناء عظيم يليق برفاته أو بذكراه حسب اعتقادهم .

كما أن العقل والمنطق يوجبان أن لا يدفن (عظيم القوم) في مكان يكون معرضا لهجمات العدو الأمر الذي يحتمل أن تقع رفاته بين يديه وهو أمر لا يقبل به قوم من الأقوام فكيف بابن هذا الحاكم وأعيانه ورعيته وبالتالي لا يمكن أن يكون بوهمند السادس قد دفن في ربض طرابلس أي في سهولها بعيدا عن أسوارها وهي منطقة كما بينا ساقطة عسكريا بيد الظاهر بيبرس وجيشه المملوكي وقد تعرضت لكثير من الهجمات والتخريب ، فلا يعقل مطلقا أن يدفن كبير القوم في كنيسة في ربض طرابلس [على افتراض وجود تلك الكنيسة] وهي في مطلق الأحوال تحت رحمة المهاجمين الذين يكنون لبوهمند السادس كل حقد وهو المهدد من قبل الظاهر بيبرس الذي يريد أن (ينتزع قلبه ويشويه)(١٦).فلا يعقل أن يضعوا جثمانه في مكان لن يتمكنوا من الدفاع عنه وهو ساقط بأيدي العدو حكما وواقعا وقد يتمكن العدو ــ في أية لحظة ــ من تنفيذ تهديده ووعيده والعبث بجثمان الكونت الأمير !!

فإذا كان بوهمند السادس قد أمضى اكثر سنوات عمره وفترة حكمه في قتال بيبرس والمماليك الفاتحين قادة ذلك الزمان وحكام مصر والشام، فمن الطبيعي أن يكون البرج الكنيسة في الجزيرة ابرز معالمه ومن الطبيعي أن يكرمه ابنه بوهمند السابع وارث الحكم في طرابلس وسائر أسرته ونبلائه وأعيانه في برجه في الجزيرة.

ومما يؤكد ذلك ان بوهمند السابع الذي حكم طرابلس بين عامي ١٢٧٤ــ١٢٨٧ أي الى ما قبل تحرير طرابلس على يد السلطان قلاوون لعامين صك نقدا جعل رسم الحصن او البرج الذي شيده بوهمند السادس على وجه ذلك النقد ، رمزا لتخليده وتكريمه بالاشارة الى قبره من الكنيسة التي شيد ... ولا يمكن ولا يجوز مجاراة من زعم أن رسم الحصن إنما يعود إلى حصن صنجيل

(١٦) من كتاب بيبرس إلى بوهمند .

الذي كان قد أخرقه الظاهر بيبرس وهدمه أثناء حصاره لطرابلس عام ٦٦٦هـ/١٢٥٨م ولم يجدد الحصن بعد ذلك ولم يعد يدخل في استراتيجية الإمارة الصليبية في طرابلس ، فلا يعقل ان يضرب بوهمند السابع عملة برسم حصنا خربا .ولا يعني لأمير كونتينية طرابلس شيئا ، بينما حصن بوهمند السادس يعني له الكثير.



الصورة مأخوذة من كتاب العملات الشرقية وقيمتها(عالم الاسلام، ميشيل ميتشينر) (الصورة رقم ١١)

نقد بوهمند السابع قبل تحرير طرابلس
ويبدو برج والده بوهمند السادس على وجه النقد

وعلى هذا يكون بوهمند السادس قد دفن في برجه ــ الكنيسة ــ إمعانا في أبعاد رفاته عن أعدائه...وتكريما له.

إلا أن القدر جعل رفاته تحت "عبث" الفاتحين.

فما إن انتصر المسلمون الفاتحون ودخلوا طرابلس القديمة في الميناء عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م.حتى انتقل فريق منهم ــ على خيولهم إلى الجزيرة (برج بوهمند) فقتلوا من فيها من رجال ومن الطبيعي أن يكونوا قد عبثوا بالبرج ــ الكنيسة قبل أن يصدر الأمر السلطاني من المنصور قلاوون بهدمه أسوة بسائر معمور طرابلس القديمة الواقعة في الميناء.

١٨ ــ وتأسيسا على ما تقدم فمن الممكن أن يكون المسلمون الفاتحون قد عبثوا بقبر بوهند السادس خاصة وان بوهمند السادس كان معروفا لديهم ولدى السلطان قلاوون جيدا عندما كان أميرا في جيش بيبرس عندما حاصر طرابلس واخضع قراها واحتل الحصون والقرى وبالتالي إنطاكية فقد كان بوهمند يمثل قمة الحقد على المسلمين وقد ظهر ذلك بتحالفه مع التتار رغبة منه في استراجهم إلى مناصرته ضد المسلمين ليشكل معهم فكي كماشة ، إلا أن التتار ردوه خائبا...

وقد ذكر ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية انه (...لما توفي ــ أي يمند بن يمند بن بيتدر كما جاء اسمه عند ابن كثير ــ دفن في كنيسة طرابلس ولما فتحها المسلمون في سنة ثمان وثمانين وستماية نبش الناس قبره..)[١٧].

ونص ابن كثير يؤكد دفن بوهمند السادس في كنيسة طرابلس...

وطرابلس، كما هو معلوم ، في زمن الصليبيين ومن قبل كانت في الميناء اليوم، وكنيسة طرابلس تعني كنيسة من كنائس المدينة القديمة وهي لن تكون بحال كنيسة خارج أسوار طرابلس وإلا كان ابن كثير قد قال كنيسة في ربض طرابلس...وهو الربض الذي أكدنا انه ساقط عسكريا وهو مخرب أو مهدم ومقطوع الشجر ومغور النهر...ولا يمكن بحال من الأحوال تفسير (طرابلس التي تحدث عنها ابن كثير) هي طرابلس السلطان قلاوون أو طرابلس المستجدة فالمؤرخون عندما يتحدثون عن طرابلس قبل الصليبيين وفي أيامهم إنما يقصدون تلك التي كانت قائمة على البحر.

وهكذا نرى أن ما ذهب إليه الدكتور عمر تدمري أنه عندما تولى بوهمند السادس ٦٧٣هـ/١٢٧٥م دفن في داخل هذه الكنيسة[١٨] ــ يعني كنيسة القديسة ماري دي لاتور التي قال : إنها " أقيمت في أوائل القرن الثاني عشر ميلادي في الفترة التي كانت طرابلس تحاصر من الصليبيين بقيادة ريموند دي سان جيل"[١٩].وذلك إنطلاقا من قول ابن كثير من أن المسلمين قد نبشوا قبر بوهمند الذي دفن في كنيسة طرابلس ــ كما رأينا ــ إن هذا القول خاطئ في جانبيه أي إن بوهمند قد دفن في كنيسة،وإن طرابلس ابن كثير هي طرابلس قلاوون التي بنيت فيما بعد،وهو ما يؤكد عكسه في غير موضع،فهو يقول بأن قلاوون قد بنى طرابلس المستجدة بعيدة عن البحر وعن طرابلس القديمة التي هدمت ودكت إلى الأرض .

ونحن من قراءتنا هذه لم نقصد بالتأكيد تأريخا لبوهمند السادس ، ولا يعنينا كثيرا أين دفن لولا أن رواية الدكتور التدمري أعلاه قد وردت [من دون قصد منه] وكأنها تأكيد أو دعم لقول من قال أن الجامع المنصوري الكبير في طرابلس قد أقيم في مكان كنيسة والتي لم يبق من آثارها سوى البرج والبوابة الرئيسية ذات الطراز القوطي[٢٠]،ترديدا منه لمن قال ذلك وفي مقدمتهم كوندي...!!.

١٩ ــ وبعد أن تأكد لنا أن بوهمند السادس قد دفن في برجه أو في كنيسة في الميناء، (طرابلس القديمة)،حصرنا حجة وجود كنيسة اسمها كنيسة مريم على حد تعبير فيليب حتي أو ماري دو لاتور على حد تعبير الباقين كوندي والدكتور

(١٧) المرجع المذكور ، ج ١٣ ص ٢٦٩ .
(١٨) د.. تدمري : آثار طرابلس الإسلامية ، ص ٢٢ .
(١٩) م.س.، ص ٢٠.
(٢٠) م.س ، ص ٢٢.

تدمري ودليل لبنان الأخضر وسواهم أو كنيسة سان جيل على ما ذهب إليه سميح الزين وسوبر نهايم فإننا نجد أن الرواية تكاد تكون متطابقة بوجود كنيسة في اسفل قلعة صنجيل،بينما اختلف هؤلاء على الاسم وعلى تاريخ البناء ولم يذكر حتي أو كونداي (وهما الأصل في الرواية) أي سند أو أثر تاريخي موثوق يمكن أن يساعد على الركون إلى هذه الرواية.

فكوندي في كتابه،يعتمد التقرير دون ذكر المراجع والمصادر وكتابه هذا عبارة عن رحلات قام بها مع الاستماع إلى نفر من الناس منهم الأمير موريس الشهاب مدير إدارة الآثار اللبنانية (وكان مشهودا له بتحيزه ضد التاريخ الإسلامي) [٢١] يقول كوندي في مقدمة كتابه see Lebanon الطبعة الثانية " وقد اعتمدت فيها المعلومات على الدكتور ديمتري برامكي المسؤول عن متحف الجامعة الأمريكية آنذاك والأمير موريس شهاب ثم فريد شهاب".

وليس الاختلاف هو فقط على اسم الكنيسة كما رأينا ، بل يشمل الإختلاف تاريخ بنائها ، فبينما يذكر فيليب حتي أنها بنيت في أوائل القرن الثاني عشر،يذهب الدليل الأخضر إلى أنها بنيت في النصف الأول من القرن الثاني عشر،في حين ذكر كوندي أن تاريخ بنائها يعود إلى أيام الفرنسيين وقد امتد حكمهم حتى ، وبينما يشير سوبر نهايم إلى أن الكنيسة التي تحمل اسم سان جيل،قد بنيت في الوقت الذي كان سان جيل يحاصر طرابلس من حصنه القائم على تلة الحجاج،وكان ذلك بتاريخ ١١٠٢ ـ ١١٠٧.

ولئن إتفق هؤلاء أن الكنيسة الأولى قد تهدمت بفعل زلزال ١١٧٠م.ثم بنيت على الأسرة البوهمندية الإيطالية التي حكمت طرابلس...إلا أنهم اختلفوا فيما بقي من الكنيسة بعد زلزال ١٢٨٧ م.الذي ينفي د.عمر تدمري حصوله ، أو بفعل اكتساح جيش قلاوون لطرابلس،فبينما يذكر البعض إقامة الجامع المنصوري ضمن بقايا الكنيسة،مستخدما جداره الشمالي مع البرج الذي تحول إلى كنيسة وبابه الشمالي يذكر آخرون ومنهم كوندي أن ما بقي من الكنيسة هو البرج اللومباردي الذي تحول إلى مئذنة !!!

إن هذا الاضطراب المبين بين المؤرخين المحدثين (الذين لم يعتمدوا على مستند أو وثيقة في هذا الشأن) يكفي وحده لإحاطة المسألة بستار كثيف من الشكوك حول صحة البناء برمته،مما يستدعي دراسة متأنية حول بناء جامع المنصور قلاوون وهو ما سنراه في الصفحات التالية.

---

(٢١) طه الولي : قلاع وأبراج طرابلس الشام .

الفصل الثالث

الجامع المنصوري الكبير

وحدة هندسية إسلامية متكاملة...موقعًا وبناء

قد يتخيل المرء بعد مطالعته للنقوش الموجودة على الباب الشمالي للجامع الكبير [١] في طرابلس والبابين الشرقيين والنقيشة الموجودة في وسط الرواق الشرقي...وبعد قراءته لبعض النصوص في كتب التاريخ أو الرحلات والمدونات عن المسجد ، أن بناء المسجد قد مر بمراحل متعددة وانه بالتالي بني دون تصميم عام وذلك رغبة بالإفادة من (بقايا موضع كنيسة) ومن (برجها) الذي تحول إلى مئذنة ؟؟

وبما أننا أثبتنا ، من قبل ، عدم صحة هذا الافتراض...وجب أن نتحدث عن التاريخ الإنشائي لبناء المسجد نفسه.

* * *

١ ـ الناظر إلى واقع المسجد المنصوري الكبير في طرابلس والى مصوره المنشور مع هذا الكلام (الشكلان رقم ١٢) ، يتبين أن المسجد وحدة كاملة منسقة منسجمة رسما وبناء وحجرا، له مزايا فن العمارة الإسلامية وخصائصها البسيطة الخالية من الزخارف ومشتقاتها وتوابعها إلا ما كان منها للدلالة على مكان بارز في المسجد كالمحراب والمدخل العام.(راجع ملحق الصور الملونة الخاصة بالمسجد الكبير في موضعها من القسم الرابع من هذا الكتاب).

---

(١) راجع القسم الخاص بصور الجامع المنصور الكبير في فصل المصورات والرسوم والصور من هذا الكتاب . كما يراجع مقطع الرسم للرواقات والمئذنة بعد ان رسمها فريق هندسي من جامعة بيروت الاميركية في ذات الفصل (بالاسود والابيض).

هذا التقرير الموضوعي هو صحيح تاريخا أيضا ، فقد بني المسجد في أرض مخلاة اختارها مهندسو حملة المنصور قلاوون والبناؤون الذين اصطحبهم مع جيشه لأجل نقب الأسوار ودكها وما قد يحتاجه الفتح من أعمال تدميرية ثم أخرى إنشائية فيما لو قدر الله على يديه الفتح المبين.، وهذا ما كان ...

طرابلس بنيت على تخطيط مدني الجامع في وسطها

بما أن قلاوون قد انتهى إلى قرار هدم المدينة الواقعة على البحر ، وأمر ببناء أخرى مستجدة بعيدة عن البحر ، كما رأينا ، كان لا بد من وضع تنظيمي شامل لمدينة الغد طرابلس الجديدة.

وقد كانت العادة إذا فتح العرب أرضا اختاروا فيها الموضع الملائم لإنشاء مدينة لهم فيها، وكان أول ما يختطونه من الأبنية هو المسجد الجامع الذي يجعلونه في وسط الموقع ويبنون باقي مؤسساتهم ومساكنهم حوله[٢].

وعلى هذا لا يمكن أن نقبل (كما لم يقل بذلك أحد) أن المدينة قد بنيت دون تخطيط خاصة في السنوات الأولى من التحرير ، وعلى الأخص في عهود ولاتها بلبان الطباخي وعز الدين وأسندمر[٣].

٢ ـ يمكن القول بكثير من الروية أن مهندسي السلطان قلاوون ، ضمن معطياتهم الهندسية، وعلى جاري العادة في بناء المدن العربية والإسلامية ، وبعد معاينتهم الأرض الواقعة على ضفتي نهر طرابلس الذي يجري بين موقعي القبة وأبي سمراء الحاليتين ، قد وجدوا أن الساحات في هذه المنطقة الممتدة جنوبا وشمالا خير موقع للمدينة العتيدة ، حيث يبقى النهر فيها.ثم رأوا أن يبدأوا بالإعمار في المنطقة الجنوبية الغربية للنهر في اسفل هضبة أبي سمراء ، حيث كان حصن صنجيل القائم على حصن سفيان الازدي.فوضع المهندسون تصميما أوليا حظي بموافقة السلطان قلاوون وقادة التحرير الذين تحملوا مع السلطان قرار الهدم وإعادة البناء...فجاءت طرابلس المستجدة نموذجا لمدينة إسلامية يعتبر المسجد الجامع فيها المركز ، وتتفرع عنه الأزقة والحارات والمحلات والشوارع فتمتد المدينة المستجدة بامتداد تلك الحارات...وتكبر في عمق الساحات

(٢)طه الولي : المساجد في الإسلام ، ص ٥٥٨.

(٣) ذكر المهندس الحاج علي الشلبي المسؤول عن الجامع الكبير أن المؤرخ المصري المعروف الدكتور عبد العزيز سالم ألقى محاضرة في بهو الجامع في طرابلس،أعلن فيها صراحة أن موقع الجامع استخدمه المنصور قلاوون كمعسكر لقواته ، وذلك قبل البدء باعمار الجامع .

Section BB
0 5
65m

من رسومات الفريق الهندسي التابع لجامعة بيروت الأميركية : المئذنة والرواق الشمالي وأبواب بيت الصلاة (الشكل رقم ١٢)

الموجودة في سهول ضفتي النهر ، وهي المساحة الكبيرة لمدينة المماليك الفريدة التي غدت مبنية على ثلاثة كيلومترات مربعة...

وهكذا كان المسجد الكبير منفتحا في تصميمه على بقاع تنفتح عليها الحارات والأزقة وسائر حاجات المدينة...فكان للجامع أربع بوابات متصلة بصحنه ، وفق التصميم الإسلامي العام للمساجد الكبيرة الجامعة :

•ـ الحرم أو بيت صلاة تنفتح أبوابه على فناء كبير

•ـ ورواقات على جوانب هذا الفناء الذي بات يعرف بصحن الجامع

٣ ـ ومن العودة إلى الطبيعة الجيولوجية للأرض التي تم اختيارها للمسجد الجامع ، نجد أنها مستوية حتى القسم الشرقي حيث يرتفع عن صحن المسجد وفنائه وحرمه بحوالي ثلاثة أمتار ليبدأ مع هذا القسم الشرقي منبسطات وهضبات تشكل بحق أرضا نموذجية لحارات وأزقة ، يمكن لهما أن تمتدا شمالا باتجاه النهر ، وغربا باتجاه السهول شرقي البحر، لتلتقيا مع الباب الشمالي للمسجد • وتشكل هذه الفسحات ، التي ستبنى كأزقة وحارات ، سوارا سكانيا طيبا للمسجد تلتقي بحارات أخرى قد تنشأ جنوبي الجامع وقبليه في السهول المحيطة المديدة فيغدو المسجد الجامع وسطا مركزيا للمدينة المستجدة.

وقد قدر المهندسون ، كدفاعات أولية ، إلى أن يعمر ما حوله ، فالضفة الشرقية المرتفعة عن الجامع حيث ستشاد بوابتان ، خير دفاع عنه ، ويبقى له دفاعان واجبان في غربه وشماله، باعتبار أنه لا يوجد سور للمدينة المستجدة.فكان برج المئذنة الذي ، افترض بناؤه على كتف البوابة الشمالية ، على جاري الهندسة في بناء المساجد ، أن تأتي المئذنة مجاورة أو على كتف الباب الرئيسي للمسجد ، وقد اختير لها شكل البرج الحربي الذي ينسجم مع شكل المئذنة العربية المستطيلة ــ المربعة...

وبقي الدفاع الغربي فافترضوا له أن يأتي برج حربي على بعد أمتار معدودة من باب المسجد الغربي يتولى الدفاع عن المسجد ، إذ أن السهول الغربية كانت متلاصقة مع ساحة المسجد كان من المقدر لديهم أن تبنى المساحة الغربية بعد المساحة الشرقية.

وفي كل الأحوال فان جدران الجامع (في بيت الصلاة ــ وبخاصة القبلية والغربية) يجب أن تكون قوية متماسكة وذات سماكة متميزة ، تشكل بذاتها دفاعات للجامع وتنفتح في أعلاها نوافذ تأخذ شكل فتحات حربية ، بحيث يكون عرضها في داخل الحرم أكثر إتساعا في خارجه.

٤ ـ وهكذا رسم المهندسون بناء شاملا للمسجد الجامع المنوي إنشاؤه في المدينة المستجدة، ابتداء من المرتفع الشرقي وبامتداد حوالي ستين مترا أو مائة

ذراع ، يهبط إليه من اثنتي عشر درجة في بابين شرقيين ، ينفتح أحدهما على داخل بيت الصلاة أو الحرم والثاني على صحن المسجد حيث الرواقات الثلاث...

وبهذا يغدو المسجد الجامع في رسم المهندسين وحدة متكاملة :

أ ـ بيت للصلاة في الجهة الشمالية باتجاه مستقيم مع القبلة الجنوبية ـ الشرقية ، إبتداء من الضفة الشرقية حيث ترتفع عن أرض المسجد مقدار ثلاثة أمتار ، ويمتد ستين مترا أو مائة ذراع طولا وبعشرين ذراع عرضا ، وبجدار قبلي ذي سماكة مميزة (١٣٠ سنم) تنفتح في أعلاه نوافذ حربية • ولبيت الصلاة أبواب سبعة تنفتح على فناء المسجد ، وله أيضا باب خارجي في الجهة الشرقية ، يصعد منه بدرج يتصل بالمعمور من الأزقة !!

ب ـ صحن للمسجد بذات منسوب أرض بيت الصلاة.

ج ـ رواقات : شمالي يتوسطه الباب الرئيسي للجامع والمئذنة التي هي بذاتها برج حربي ، وشرقي يقع بابه في وسطه بمقابلة الباب الغربي

وغربي يقوم فيه الباب، وعلى بعد عشرة أمتار منه برج حربي...

د ـ وللجامع محور أساس ، يمتد من البوابة الشمالية إلى باب بيت الصلاة القائم في وسط الجدار المطل على الصحن والأقل حجما من الأبواب الأخرى ، فإلى محراب المسجد القائم في وسط جدار القبلة... ويشكل هذا المحور منتصف الجامع.

٥ ـ هذا التخطيط التقريبي للمسجد الجامع ترجم عمليا برسم تفصيلي :

أ ـ فالحرم أو بيت الصلاة يتألف من مساحة تمتد مئة ذراع بعشرين ذراعا أو بطول ٥١،٥ م بعرض ١١،٣٠ م ، وبسقف يقوم على أربعة عشر دعامة مربعة تعلوها قنوات متعارضة ، يقسم ست منها الحرم إلى بلاطين ، أما الأسطوان السابع فمندمج مع الجدار الغربي للحرم • وتقوم في وسط البلاط القبلي عند المحراب قبة ترتكز إلى مقرنصات متقوسة بينما المحراب ينتصب من ارض المسجد إلى ارتفاع ٢,٧٠ م وبعرض ٢،٢٦ م ، في تجويف في جدار القبلة بارتفاع عن ارض المسجد قدره متران وسبعون سنتمترا وبعرض متران وست وعشرين سنتمترا ، وعن يمين المحراب يقوم المنبر الخشبي المزخرف الجميل...بينما تنفتح أبواب على صحن الجامع ضمن الدعائم ، الاسطوان السبعة التي يقوم عليها السطح.وفي جدار الجامع القبلي ست نوافذ ، تقوم كل نافذة على ارتفاع ثلاثة أمتار وسبعون سنتمترا من أرض المسجد وبامتداد مترين ، وبعمق الجدار الذي هو بسماكة ١٣٠ سنتمترا وبعرض ١٠٧ سنتمتر ، وتتناوب النوافذ

في الجدار القبلي بازاء كل اسطوانتين باستثناء موقع المحراب.بينما قامت في الجدار الغربي ناحية البلاط الأول نافذة من المسجد بذات الشكل والتصميم[٤] .

ب ـ ولما كان في التصميم التفصيلي للمسجد رواقات منفتحة على الصحن ، جاء تصميم داخل الحرم بأسلوب الهندسة الذي يمنح لونا من الحركة على البناء ، فأعطى جانبي الحرم ارتفاعين غربي وشرقي ينسجمان مع الارتفاع البسيط للرواقات الخارجية عن صحن الجامع وكأنهما امتداد لها ، وهكذا فان ارض بلاطي الحرم تمتد دون ارضي الرواقين الغربي والشرقي في الحرم وخارجه (بقطع النظر عن تاريخ تنفيذ الرواقات وهو ما سنبينه لاحقا).

وبهذا كان للحرم ـ كما بينا ـ مرتفعان.أولهما عن يمين الداخل ابتداء من العضاضة الثانية حتى الجدار الغربي بعرض حوالي ٨ أمتار...وثانيهما شرقي يمتد من أول العضاضة السابعة حتى الجدار الشرقي بارتفاعين أحدهما ثلاثة أرباع المتر من جدار القبلة حتى بداية الباب الشرقي ليبدأ انخفاض حوالي ربع متر لتأتي معه الفسحة أمام الباب الشرقي بذات ارتفاع ارض الرواق الشرقي المنفتح على صحن الجامع .

وفي هذا المجنب الشرقي يقوم محراب صغير استحدث في عام ٨٨٣هـ./١٤٨٧ م وقد أمر به والي طرابلس ازدمر الاشرفي.وترافق هذا المحراب مع حاجز خشبي فصل المجنب الشرقي عن حرم الجامع ليصبح هذا المجنب بمثابة مصلى صغير يمكن أن تؤدى فيه الصلوات لمن فاتته الجماعة الأولى ثم أزيل هذا الحاجز مع مطلع هذا القرن العشرين ميلادي.ولا تزال هذه الفسحة من بيت الصلاة مكانا لصلاة النساء في المسجد ، ولاستماع عظات المدرسين خاصة في شهر رمضان حيث توضع ستر من قماش الكتان الأبيض.

ج ـ أما أبواب الحرم السبعة التي تفتح على الصحن فترتكز إلى سبعة عقود أو دعامات أو اسطوان وفي وسط الباب الأوسط أي الرابع ، يقوم باب الحرم الرئيسي المواجه للمحراب وللمنبر وهو اقل عرضا من الأبواب الأخرى الثلاث (عن اليمين غربا، وثلاث عن اليسار شرقا) والجدار الشمالي لأبواب الحرم

---

(٤) جرى استحداث نافذتين كبيرتين على امتداد الحائط الغربي للبلاط الأول من بيت الصلاة اسفل النافذة الحربية وذلك لتحقيق مزيد من التهوئة ولمشاهدة المقبرة المتصلة بالجدار الغربي والبساتين والحارات كما تم استحداث باب في الجدار الغربي للبلاط الثاني من بيت الصلاة ويؤدي هذا الباب إلى المقبرة الملاصقة المشار إليها ويقول المهندس الحاج علي الشلبي المسؤول عن الجامع أن هذه المقبرة كانت لأعيان وعلماء ولا يزال فيها قبر لجد العائلة الميقاتية وقد اندرست القبور الأخرى وتحولت المقبرة الصغيرة إلى حديقة وقد اغلق الباب المذكور بحيث لا يستخدم اليوم .
من جهة أخرى وبعد بناء المدرسة القرطاوية الملاصقة للجامع الكبير على جداره الشرقي جرى أيضا استحداث باب صغير يصعد إليه بسلم من المجنب الشرقي لبيت الصلاة يؤدي إلى داخل المدرسة التي تقام فيها الصلوات الجامعة باستثناء الجمع كما استحدثت نوافذ لمدرسة القرطاوية تطل على الرواق الشرقي للجامع .

السبعة متناسق بالكامل بحيث يوجد ، عند الزاوية العليا لبداية الباب الثاني وبداية الرواق الغربي إفريز نافر (كالظفر) تقوم عليه قبوة الباب في أعلى الجدار يقابله إفريز مماثل في نهاية الباب الخامس باتجاه الشرق...وهذان الإفريزان (الظفوان) يشكلان فن المهندس أو المهندسين المصممين للمسجد الجامع.وعند كل من الإفريزين يبدأ الرواقان الغربي والشرقي...فوجودهما بالشكل الذي هما فيه يشكلان علامتين للرواقين،فضلا عن انهما يشكلان عقدا مميزا جامعا للأبواب الخمسة لحرم المسجد وكأنها تتدلى منه بشكل متناسق جميل...ويقوم باب على الرواق الغربي وآخر على الرواق الشرقي[٥] (انظر الصورة الملونة الخاصة بالافريز الظفر رقم ١٤) .

إن الإفريزين الظفرين ، المشار إليهما آنفا واللذين لم ينتبه أليهما المؤرخون من قبل، ولا المهندسون المحدثون الذين رفعوا علامات المسجد واحداثياته ورسموه وفق خرائط ولا السواح الاثاريون ، ليشكلان دليلا ماديا قاطعا على أن المسجد قد صمم بالكامل ، من قبل المجموعة الهندسية على الشكل الذي هو عليه.وهو دليل متقدم يكشف مزيدا من وحدة التصور الهندسي في بناء المساجد الإسلامية ، ويمنح التخطيط الهندسي لفرقة المنصور قلاوون الهندسية قدرة متفوقة على تصور المبنى الجديد ولو تم بناؤه على سنوات وفي فترات متعاقبة.

د ـ والمسجد كله مع بيت الصلاة والرواقات والأبواب الخارجية ، مبني على أساس محور وسطي أشرنا إليه من قبل ، وهو المحور الذي يمتد من البوابة الشمالية إلى باب بيت الصلاة القائم في وسط الجدار المطل على الصحن والأقل حجما من الأبواب الأخرى ، فإلى محراب المسجد القائم في وسط جدار القبلة...ويشكل هذا المحور منتصف المسجد الجامع، ويفسر لماذا كان الباب الوسطي في الجدار الشمالي لبيت الصلاة أقل إتساعا من الأبواب الأخرى، ولماذا كان الباب الشمالي الخارجي عند المئذنة هو الباب الرئيسي في الجامع.فالباب الوسطي والباب الشمالي وهما أمام المحراب لهما نفس العرض تقريبا.فالباب الشمالي بعرض ٢٣٦ سنتم والباب الوسطي بعرض ٢٤٠ سنتم.بينما يبلغ عرض المحراب ٢٢٦ سنتم وهي عروض كما نرى متقاربة ، وإن كانت متفاوتة في بضعة سنتمترات لا يتوقف عندها في بناء ضخم.وهو ما يؤكد أيضا أن بناء الجامع كان بتخطيط هندسي واحد ، وان بناء الباب الشمالي كان مع بناء بيت الصلاة والمحراب ، وان المهندس أوجد هذا المحور بحيث يغدو الداخل إلى

---

(٥) وقد بقي الباب المؤدي إلى الرواق الشرقي كما هو بينما تعدل موضع الباب المطل على الرواق الغربي حيث استحدثت عنده وضمن الرواق الغربي غرفة حجرية صغيرة عرفت بغرفة الشعرات وهي الشعرات الثلاث المنسوبة إلى النبي " ، والتي خص بها السلطان عبد الحميد الثاني طرابلس فاستحدثت لها هذه الغرفة حيث حفظت في إحدى خزاناتها.واستبدل الباب الأساس ببابين صغيرين ، أحدهما بين الغرفة وبيت الصلاة والآخر من بيت الصلاة إلى ما تبقى من الرواق الغربي في مواجهة الغرفة ، وهو ما اعتبر كممر يقي من الحر والمطر .

الجامع من الباب الرئيسي في مواجهة القبلة ، فيرى من الباب الخارجي المحراب في عمق الحرم ، مع ما يمنح ذلك خشوعا وتبتلا ويستحسن هنا الإشارة إلى أن الميضأة في وسط الجامع مقابل البابين لم تلحظ في المصور الأول وإنما بنيت متأخرة عن البناء الجامع ، كما أن الأبواب الخشبية في الجدار الجنوبي لبيت الصلاة المطل على الصحن ركبت متأخرة أيضا في فتحات الجدار.

٦ ــ ومما يؤكد أن الشكل ، الذي عليه المسجد اليوم ، هو ما رسمه مهندسو قلاوون ابتداء ليأتي وفق تصميم المساجد الجامعة في المدن الإسلامية الكبرى بعناصرها الأساسية.(حرم وصحن ورواقات وأبواب) وقد بني بيت الصلاة أو الحرم بعيدا عن المئذنة والبوابة الرئيسية مسافة اثنين وأربعين مترا ، ويعني هذا أن إرادة المهندسين ذهبت إلى وجود صحن ورواقات يطل عليهما الحرم ضمن أبعاد ومساحات حددت بدقة عند وضع التصميم العام للمسجد.

ويمكن أن نقول بكثير من الطمأنينة ، أن تصميم الجامع مدروس بعناية وان تنفيذه لم يكن عشوائيا بمعنى أن أي بناء فيه ملحوظ أساسا في التصميم العام وقد تقيد بالتصميم المهندس البناء سالم الصهيوني العجمي (باني المسجد) والمهندس محمد البلعلبكي (باني الرواق الشرقي) ولم يأت هذا التصميم ضمن أذواق هندسية متعددة...كما قد يخيل للبعض.

٧ ــ وعلى هذا فالمسجد الكبير وحدة هندسية مكتملة ، جاء على نمط المساجد في العواصم والمدن الإسلامية الكبرى إبان الفتوحات الأولى ، بسيطا في مبناه ، خاليا من الزخارف إلا ما هو في بابيه الشرقي والشمالي وفي عمودي المحراب والاستدارة فوقه التي تنفتح فيها دوائر جاءت على شكل زهرة متفتحة يتوسطها اسم الجلالة...ثم أضيف إليه بعد اكثر من ربع قرن منبر خشبي ذو زخارف غاية في الروعة والتنسيق.

ومن الطبيعي أن يأتي البناء بسيطا لا زخارف فيه فهو أول بناء أسس في المدينة المستجدة التي لم يكن فيها بناء.وقد بني كمركز محوري للمدينة التي من المفترض أن تبنى سريعا لتسكن...فلا يعقل أن يزخرف مسجد في بقعة لا سكن فيها...ووقت الزخرفة وماله يجب أن يتداولا في حارات ومساكن...فضلا عن أن بقعة المدينة بقعة حربية معرضة لأي هجوم صليبي محتمل.وعلى هذا فيكفي مسجد يبنى بأحكام ، قوي في أساساته ذو جدران ودفاعات...يلبي حاجة ذلك الزمان للصلاة وللتجمع.، ثم يبقى رمزا للعمارة الإسلامية المتواضعة ذات الجوانب الجهادية ، دون إسراف أو بذخ، يوحي بالطهارة والرقة والخشوع والتزهد ويوفر العلم والمعرفة ، وهذا لعمري دور المسجد الجامع.

٨ ــ والبساطة في المساجد التي تبنى بعد الفتح والتحرير ، سمة من سمات الفاتحين المسلمين.فقد تحدث اللواء حسن حسني عبد الوهاب مؤرخ تونس الكبير

عن جامع الزيتونة الذي اختطه أول الفتح العربي الاسلامي القائد الأموي حسان بن النعمان الغساني حوالي ٨٠هـ ــ ٦٩٧ م فكان تخطيطه في غاية البساطة على ما جرت به العادة والضرورة في منشآت الغزاة السابقين ، إذ كانت همتهم منصرفة بكليتها إلى عمليات الفتح وتحرير البلاد ، لا إلى البناءات وزخرفتها...)[٦] ويلاحظ أنه أعيد بناء مسجد الزيتونة وتم تجديده إلى الأحسن والأحلى والأجمل وبقي المسجد الكبير المنصوري في طرابلس على جاري بنائه أيام الفتح والتحرير في العهد القلاووني المجيد فبقي أثرا جهاديا رائدا على ممر الزمان والوجود.

مساجد جامعة شكلت خلفية لبناء الجامع المنصور :

٩ ــ ومن المفيد هنا أن نذكر بعض المساجد الجامعة التي كانت في أساس بناء الجامع المنصوري الكبير ، وشكلت خلفية حية لمهندسيه.

أ ــ **المسجد النبوي** في المدينة المنورة وهو أول مسجد في الإسلام ، بناه رسول الله ﷺ عند دخوله يثرب وقد جاء بناؤه على الشكل التالي :

" صفوا النخل قبلة ، وجعلوا عضاضتيه حجارة وجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مئة ذراع وفي الجانبين مثل ذلك ، ويقال كان اقل من مائة ، وجعلوا الأساس قريبا من ثلاثة اذرع على الأرض بالحجارة ثم بنوه باللبن...وجعلوا له ثلاثة أبواب باب في مؤخره وباب يقال له باب الرحمة...وجعلوا طول الجدار بسطة (أي مقدار قامة الرجل العادي) وعمده كانت جذوع النخل وسقفه جريدا".

"...ثم إن النبي ﷺ عندما بنى مسجده الشريف في المدينة المنورة جعل له ظلتين: ظلة القبلة ــ جنوبا وظلة الشام ــ شمالا ، وجعل بين هاتين الظلتين رحبة تتصل بهما ، وهذه الرحبة هي التي تحولت في المساجد الأخرى إلى ما هو معروف في اليمن باسم "الصحن" وإذا كانت الظلة يراد منها وقاية المصلين من حرارة الشمس أو برودة الجو أو تيار الهواء أو نزول المطر فان لصحن المسجد مقابل ذلك غاية هامة إذ منه يدخل النور إلى بيت الصلاة الذي لا نوافذ فيه وكذلك فان من هذا الصحن يدخل الهواء إلى ذلك المكان عند اكتظاظه بالناس في أوقات الصلاة...حتى بعد أن اخذ الناس في فتح القمريات والنوافذ في المساجد فان الصحن بقي من العناصر المتممة لها واصبح المكان المفضل لإقامة أحواض الوضوء والمرافق الصحية...كما ساعد على استيعاب الفائض من المصلين..." .

(٦)طه الولي : المساجد في الإسلام، ص ٥٥٩.

يقول الدكتور احمد فكري عن الرواق في المسجد النبوي أو المجنبات ، " كان لمسجد الرسول " بالمدينة ظلتان ظلة القبلة وظلة الشام وبينهما رحبة المسجد وليس اتصال الظلتين بمجنبتين واحدة إلى الشرق وواحدة إلى الغرب غريبا عن نظام المسجد فما المجنبتان إلا ظلتان ضيقتان تحيطان بالصحن على نفس النمط التي كانت تحيط به الظلتان الأوليان[٧] ..".

أما الأذان في زمنه وفي مسجده ، كما يقول السمهوري ونقله الشيخ طه الولي في كتابه المساجد في الإسلام فقد : " كان على اسطوانة في دار عبد الله بن عمر التي في قبلة المسجد يؤذن عليها بلال ويرقى إليها بأقتاب[٨] والاسطوان مربعة يقال لها " المطمار"...كما أن بلالا كان يؤذن على منارة أي (اسطوانة) في دار حفصة بنت عمر التي تلي المسجد " ونقل عن الكنواري في (أوائله) أن بيت زيد بن ثابت رضي الله عنه كان أطول بيت حول المسجد ، فكان بلال يؤذن فوقه إلى أن بنى رسول الله " مسجده فكان بلال يؤذن على ظهره وقد رفع له شيء فوق ظهره أي فوق ظهر المسجد[٩] .

ومن المتفق عليه بين المؤرخين أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من بنى المئذنة على المسجد الجامع في دمشق ، بينما كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أول من بنى المئذنة في المسجد النبوي في المدينة المنورة ورفع فيه أربع مآذن للصلاة.

ومما تقدم يتحصل أن المسجد في تصميمه كان حرما مبنيا للصلاة مع مجنبات هي الرواق بينهما فسحة سماوية كما أن الأذان وهو الدعوة إلى الصلاة يرفع من مكان عال قد يكون ظهر المسجد أو سواه من البيوت العوالي...

ب ــ وقد بنى المسلمون في الكوفة **مسجدا شبيها بمسجد النبي** " في المدينة وكذا كان المسجد الأموي في دمشق ومسجد عمرو بن العاص وبعده الأزهر في مصر والزيتونة في تونس وكتبيه في الرباط والقيروان وقرطبة وسائر المساجد وكذا العديد من المساجد ، بنيت على مخطط هندسي محوري يبدأ بالمصلى أو الحرم أو بيت الصلاة يليه الصحن وعليه رواقات ومئذنة أو مآذن ترتفع هنا أو هناك من سطحه أو رواقه أو على مداخله الرئيسة...

---

(٧)طه الولي : المساجد في الإسلام ، ص ٣٠٤.

(٨) الأقطاب : مفردها قتب وهي (اكاف البعير) ، المؤلف من (أداة السانية من أعلافها وحبالها والجمع اقتاب) وقيل : القتب ما تحوى من البطن ، يعني استدار وهي الحوايا وأما الأمعاء فهي الاقصاب) راجع لسان العرب ، ج١ ص ٦٦٠ ، مادة قتب .

(٩) م.ن.، ص ٢٩٧.

فالمستشرق كوندي قال : "...إن عبد الرحمن الأول (في الأندلس) أراد أن يجعله ــ أي الجامع ــ مماثلا لجامع دمشق على أوسع نطاق..." أي إن المسجد الأموي بقرطبة هو صورة طبق الأصل عن المسجد الأموي بدمشق...غير أن المؤرخ محمد لبيب البتوني ذكر أن عبد الرحمن بنى مسجد قرطبة على نظام المسجد النبوي الذي بناه الوليد بن عبد الملك بالمدينة المنورة ، وقد اتخذ المسجد في مصلاه من القبلة إلى الجوف ، أي من الجنوب إلى الشمال ٢٢٥ ذراعا والعرض ١٠٥ اذرع أو كما يقول د.حسن يونس " ... ٧٥ مترا طولا و ٦٥ مترا عرضا يضاف إلى ذلك صحن فسيح تعدل مساحته مساحة بيت الصلاة تقريبا"[١٠]

ج ــ **الجامع الأموي في دمشق كما الجامع الأموي في بعلبك** هو من اشهر المساجد الأموية بعد الجامع الأموي في دمشق وهما يعتبران بحق ملهمين لمهندس مسجد المنصور الكبير في طرابلس.

ويرى البعض أن جامع بعلبك الأموي بني في عهد الصحابي أبي عبيدة بن الجراح، وقد تهدم في كثير من مبانيه وأعيد ترميمه من قبل مؤسسة الحريري في صيدا.

" ولجامع بعلبك الأموي أبهته ــ كما كان ــ إذ يعكس شكله الخارجي صورة العمارة الإسلامية المحمية من الخارج والبسيطة الشكل والمنفتحة على الداخل حيث الصحن التقليدي للعمارة.ويتألف من مربع مستطيل في اتجاه القبلة ، حيث الحرم الداخلي عبارة عن مساحة واسعة تقوم على ثلاثة صفوف من أعمدة الغرانيت المركزة على قواعد صخرية ناتئة ، يعلو كل عمود منها تاج مزخرف يتميز بأناقته وتناسقه.

والقناطر لمن هو واقف في الصحن دور المفتاح البصري للمدى الفضائي فيبدو البناء شفافا.ويحتل المحراب متوسط الجدار القبلي الأمامي والوقفة في فناء المسجد متعة في ذاتها انه سر شكل المربع ، شعور بالطمأنينة ، وإحساس بالأمان ، ولذة التعبد.

وقد استعمل في المسجد المستطيل شكل اللامحورية فامتدت القاعة عرضيا لكسر أي احتمال للمحورية في اتجاه القبلة.

وهناك عامل آخر على مستوى الفاردات المعمارية وهو انتشار الأعمدة بكثرة في قاعة الصلاة ، إذ أن دور الأعمدة هنا هو تنظيم الفراغ وذلك بتقطيع مساحة القاعة الضخمة أو تفتيت المساحة الكبرى جزئيات حيث توزيع الأعمدة بخطوط عرضية وخطوط عمودية على جدار القبلة • ومن شأن هذا التنظيم أن يشعر الإنسان لدى وجوده في أي نقطة من الإيوان بأنه مركز التقاء.

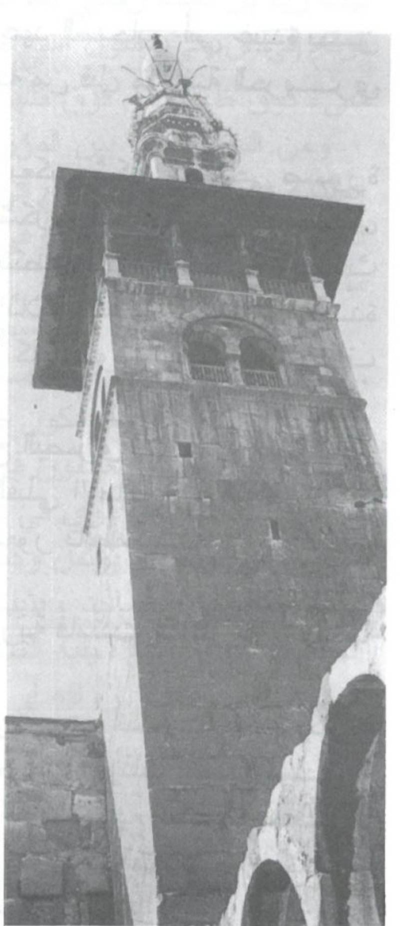
---

(١٠) م.س.، ص ٦٠٨.

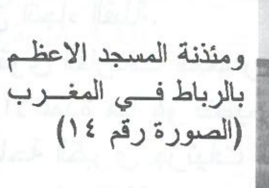
والصحن إلى جانب اللامحورية عنصر أساسي في تكوين بناء المسجد ، فهو قلبه وروحه وكل شيء يدور حوله ، فهو مبدأ إسلامي محوري ، إذ ينسجم مع ما يعطيه الطواف حول الكعبة من أجواء الانغلاق من الخارج والانفتاح على الداخل.

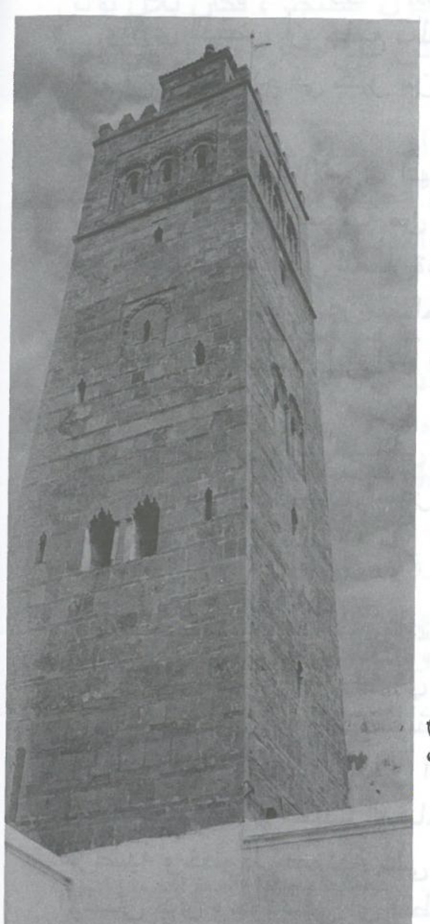
إن لا محورية المساحة الداخلية ردت الاعتبار إلى الصحن وأعطته الدور الأساسي، ليظل محافظا على وظيفته وصفاء هندسته من حيث انه مكن للتلاقي والتشاور في أمور المسلمين والصلاة في الفلاة.

من هنا ظل الصحن أو الفراغ ذو الشكل الصافي أمام أقسام المسجد الأخرى.وكلما زاد التوغل في مساحة البناء الداخلية ، تضاعف الشعور بالراحة النفسية والمدى البصري وكأنها نابعة من طبيعة الشكل المعماري [١١].



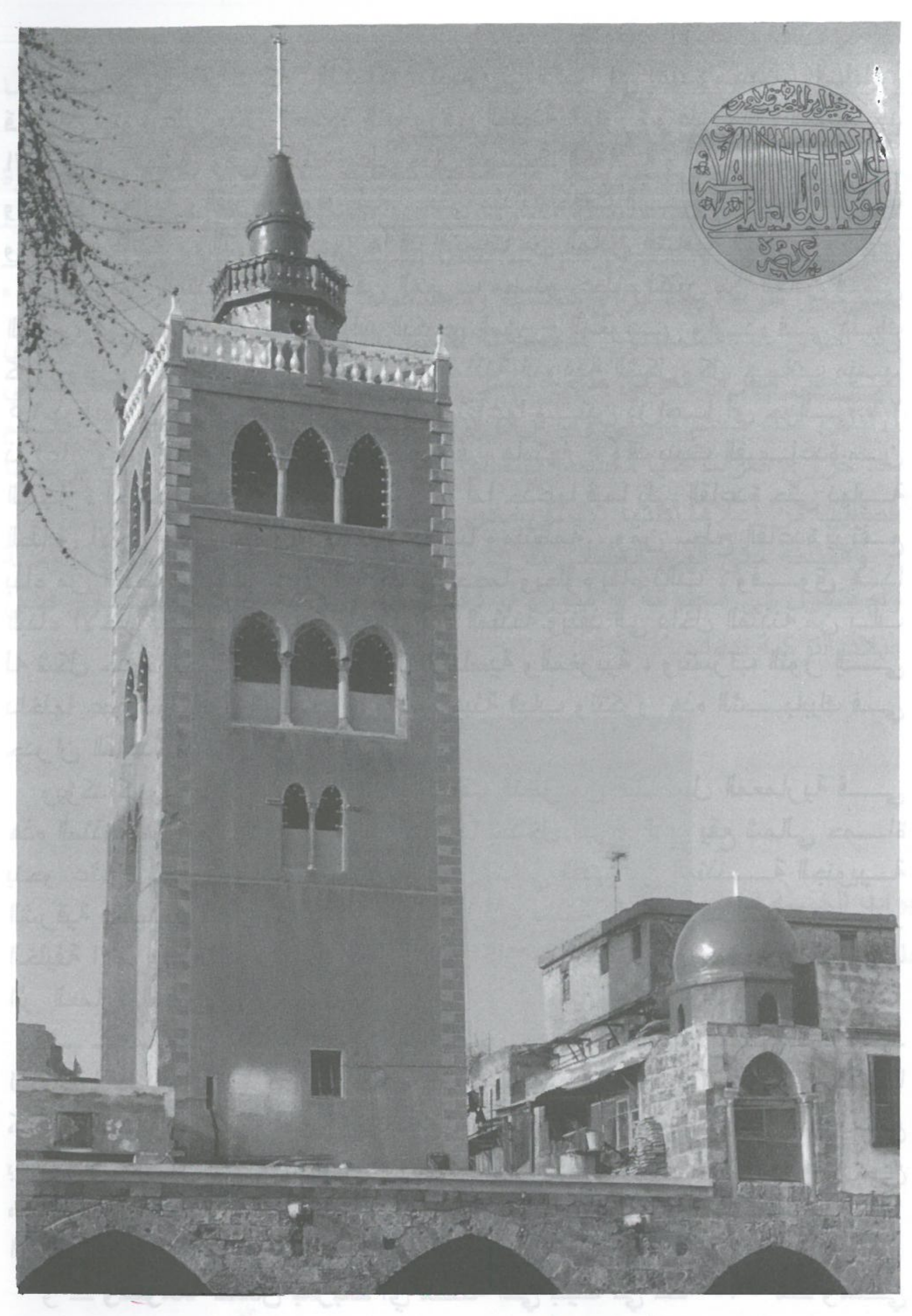
مئذنة العروس في الجامع الاموي الكبير في دمشق . اقدم مئذنة وأول مئذنة وهي نموذج المآذن التي انتشرت في المغرب والاندلس.
(الصورة رقم ١٣)





ومئذنة المسجد الاعظم بالرباط في المغرب
(الصورة رقم ١٤)

(١١) تحقيق نشرته النهار البيروتية ، بتاريخ الأول من أيار ١٩٩٧ للمهندس مازن الرفاعي .



مئذنة الجامع المنصوري الكبير وجزء من الرواق الشمالي
الصورة رقم ١٥
من تصوير المهندس خالد عمر تدمري

وعلى هذه الخلفيات كان المسجد المنصوري الكبير في عهدة مهندسي السلطان قلاوون فبنوه على مثال المسجد النبوي في المدينة المنورة وعلى مثال المسجد الأموي في دمشق وفي بعلبك وعلى مثال مسجد الكوفة والزيتونة وعمرو والأزهر وكتيبة والقيروان وقرطبة...حتى مئذنته كانت إلى مآذن المغرب والأندلس أشبه ، والتي هي بدورها قد اقتبست من المآذن الشامية السورية.

د ـ ولعل المئذنة القيروانية في المغرب مصدر عطاء لكثير من المآذن في العالم ، فهي كما يقول أبو عبد الله البكري المؤرخ المغربي وأيده في ذلك كروزوبيل ، المستشرق الإنكليزي، أن المئذنة المربعة الشكل، كل جانب منها ٢٥ ذراعا أي حوالي أحد عشر مترا وارتفاعها ستين ذراعا أي حوالي ٢٦ ذراعا...وهي واسعة في قاعدتها وضيقة في هامتها : وقد بنيت القاعدة من الحجارة الضخمة ذات القطع المتساوية ، أما جذعها فيما يلي القاعدة حتى نهاية الطابق الأول ، فإن حجارته متساوية أيضا ومنتظمة...ومن سطح القاعدة يرتفع بناء من الطراز نفسه ، إلا أنه أصغر حجما ويعلوه بناء ثالث ، وفوق هذا البناء الأخير يرتفع الجوسق وهو رأس المئذنة.وينفذ إلى داخل المئذنة من بلب له شكل حدوة الحصان على الطريقة الأندلسية والمغربية ، ويتسرب النور إلى داخلها عبر شبابيك فوق الباب من نفس هيئة الباب وتتكرر هذه الشبابيك في جدران القاعدة الثانية.

ويؤكد كروزويل ،: " أن أهم ما يستوقف النظر من التفاصيل المعمارية في هذه المئذنة هو معالجة مدخلها الذي يذكرنا بمدخل البرج الذي يقع شمالي حماة بنحو عشرة أميال، كما يشبه مدخل الجزء السفلي القديم من المئذنة الجنوبية الشرقية بالمسجد الكبير في حماه ٠ ونظرا لأن مئذنة القيروان قد أنشئت بأمر الخليفة الأموي (هشام بن عبد الملك) الذي كان مقر حكمه في سورية فلذلك نجد اثر العمارة السورية واضحا فيها".

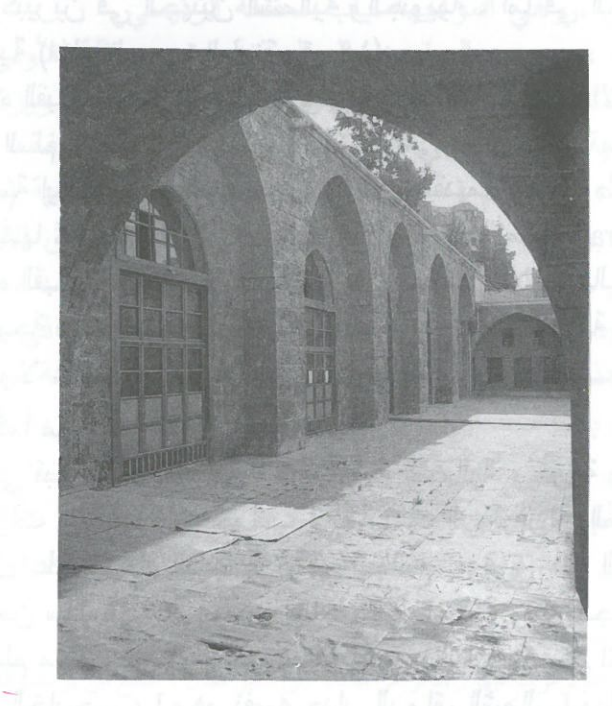
هـ ـ أما منارة اشبيلية في بلاد الأندلس ، فهي من اضخم المآذن إذ يزيد ارتفاعها على مائة متر ، ومساحة قاعدتها اكثر من ١٢٩ م٢ ، وهي أيضا كمآذن الأندلس مربعة ، اقتبس تصميمها من مئذنة جامع سيدي بن نافع بالقيروان.غير أن الصعود إليها كان بواسطة ممرات...وعند ثلثها الأوسط أربع طبقات من المجنبات الجانبية والعديد من الشرفات...)، وهي المنارة التي زورها الاسبان بتحويلها إلى أبراج أجراس أطلقوا عليها اسم الخيرالدا....

و ـ **وصومعة حسان بالرباط** أي مئذنته التي بنيت في سنة ٥٩٥ هـ وهي الباقية من مسجد السلطان يعقوب ٠ وحسان هو المهندس المغربي الذي صممها واقتبسها من طراز مئذنة اشبيلية ، وهي مربعة الشكل طول حدها ١٦،٤٠ م

وارتفاعها ٤٤م.ويصعد إلى هذه المئذنة من داخلها في طريق منحدر يصل ما بين هامتها وقاعدتها وهي طريق لولبية تحاذي المئذنة من جهاتها الأربع...[١٢]

١٠ ـ وفي رأي ساقه بكثير من الجدية غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب): " أن طلاب الهندسة الأوروبيين الذين تعلموا في بلاد المسلمين ، تأثروا بالفن المعماري الإسلامي وغدوا ـ عندما اصبحوا مهندسين في بلادهم ـ يستوحون طريقة بناء أبراج كنائسهم ومعابدهم من الفن الإسلامي المعماري " وقد أجرى غوستاف لوبون هذا مقارنة للعديد من أبراج الكنائس الأوروبية التي بنيت على الطراز العربي متأثرة بشكل المآذن الإسلامية التي كانت شائعة في الأندلس أثناء الحكم العربي وما تزال أبراج الكنائس التي بناها الاسبان في بلادهم بعد خروج العرب منها محتفظة بسماتها العربية الأصيلة بحيث لو نزعنا الصليب من أعلاها لظنها الإنسان مآذن إسلامية صرفة)[١٣]

والمئذنة حتى العهد العثماني تقريبا كانت في جميع المساجد الإسلامية مربعة ولم تتحول إلى اسطوانة أو مدورة أو ذات أضلاع إلا مع العهد العثماني في البلاد التركية بدءا...[١٤].



الأبواب الخمسة في الجامع المنصوري

(١٢) م.س. ، ص ٢٦٦.

(١٣) م.س. ، ص ٢٥٥ .

(١٤) م.س. ، ص ٢٥٦.

١١ ــ ولو عدنا إلى مئذنة الجامع المنصوري الكبير لوجدنا أن الوصف العام يكاد ينطبق على ما أسلفنا فهي نسخة مصغرة عن تلك المآذن العظيمة.

ومن الطبيعي أن تكون المئذنة مربعة فهي التي بنيت مع بناء الجامع بعد تحرير طرابلس، والمهندسون المسلمون آنذاك كانوا ينطلقون من معطيات أساسية تعتمد المآذن ذات الجوانب الأربع.

وقد بنيت المئذنة على مرحلتين :

المرحلة الأولى : قاعدة المئذنة وجسمها الأول

وهو ما بني في عهد المماليك ، ويشبه برجا عسكريا في سلمه وفي نوافذه ، يدخل إليه من باب صغير على طول قامة الرجل العادي بارتفاع ١٧٠ سنتم ، يليه قبوة صغيرة تقاطعت زواياها بمقرنصات وبأحجار متناوبة بلونين داكن وفاتح ترتكز إلى نقطة دائرية في الوسط.وترتكز أحجار القبة الصغيرة على أحجار اكبر منحوتة مجوفة تتكئ على أربع زوايا مجوفة بربع دائرة من ثلثي الحجر والثلث الباقي مسطح ، وترتكز هذه الزوايا من جهتيها الغربية والشرقية على حجرين كبيرين في الجهتين الشمالية والجنوبية ، أما في الجهتين الأخريتين فالاحجار عادية.(انظر الصورة الملونة رقم ١٩).

وتشكل هذه القبة ، وهي العلامة الأولى في المئذنة ، نقطة الارتكاز للسلم اللولبي (انظر السلم بالصورة الملونة رقم ٢٠) ، وهي قبة إسلامية بالكامل ٠ وقد أريناها لمهندسة إيطالية متخصصة بفن العمارة القديمة زارت طرابلس خريف ١٩٩٦ م واسمها كريستينا فوتي Christina Fote مدينة ماتارا Matara قرب روما فأكدت أن هذه القبة إسلامية ولا صلة لها بفن المعمار الإيطالي أو اللمبوردي القديم وهي نتيجة تؤكد صحة ما ذهبنا إليه من أن قاعدة المئذنة وجسمها الأول بناء مملوكي ولا علاقة لها ببرج لومباردي موهوم ورد ذكره عند بعض المستشرقين كما مر معنا آنفا[١٥].

١٢ ــ ويلي قبة مدخل المئذنة ، من الجهة الشمالية ، غرفة صغيرة سقفها عبارة عن قبوات متعاقدة ذات جوانب أربعة تمتد إلى جدران المئذنة الداخلية ولها نافذة تطل على مدخل الباب الرئيسي للجامع...وفوق هذه الغرفة غرفتان يصعد إليهما من سلم هي على يمين الداخل إلى المئذنة ومن الجهة الشرقية للقبة الصغيرة.والسلم مؤلف من درج من حجر كبير (حوالي ٨٠ سنتم لكل درجة) ملتصق بجدار المئذنة الخارجي ، [وهو نفسه جدار الرواق الشمالي] وبالجدار الخارجي للغرف التي في داخل المئذنة.وعلى السلم هذا نوافذ صغيرة للإضاءة ولإطلاق

(١٥) راجع ما كتبناه في الصفحة .

الأسهم ــ عند الضرورة ــ وللمراقبة.وتوجد نافذتان متقابلتان في وسط السلم تقابلها فتحة أخرى في الوجهة الأخرى الأعلى من السلم.

١٣ ــ وهكذا فان غرف المئذنة ثلاث بعضها فوق بعض

وقد كانت هذه الغرف مرتكزات للدفاع عن الجامع ومأوى للائمة والمدرسين ، ثم اتخذت فيما بعد وعلى مر قرون إلى القرن العشرين كخلوات للدراسة والاعتكاف في رمضان.

(والاعتكاف من السنن المستحبة في الإسلام . كسنة الاعتكاف في المساجد فترة من الزمن ، لا سيما في الأشهر الحرم أو في شهر رمضان المبارك بالذات، وذلك للانصراف إلى العبادة والتبتل وتلاوة القرآن الكريم ٠ وفي بعض المدن الإسلامية[١٦]، توجد مآذن تحتوي في جنباتها على بعض الحجر الصغيرة أعدت لإقامة الذين يرغبون في أداء هذه السنة المأثورة ، ومن يزور مئذنة الجامع المنصوري الكبير في طرابلس الشام فانه يجد فيها مثل هذه الحجر التي ما تزال حتى اليوم تستعمل من قبل المعتكفين في الأشهر المذكورة)[١٧] والغرف المحكي عنها هي :

ــ الغرفة الأولى ، وهي المواجهة لباب المئذنة الرئيسي

ــ الغرفة الثانية ، ويصعد إليها من سلم المئذنة وهي مماثلة للأولى الأرضية.

والغرفة الثالثة تتشكل من ثلاثة عقود وعقدها الرابع فيه بابها ويرتكز على العضاضتين الجنوبية والشمالية ٠ وتقوم فوق هذه العقود قبة لطيفة ، في وسطها نقطة ارتكاز (صورة ملونة رقم ١٩) ينطلق منه محور السلم اللولبية (صورة ملونة رقم ٢٠) إلى أعلى برج مربع له جنبات تشكل سطحا للطابق الأول للمئذنة وتنفتح عليه نافذتان من كل جانب من جوانب المئذنة الأربعة بأعمدة رخامية وتيجان...وتنتهي جدران البرج بإفريز مماثل للأفاريز الموجودة في جدار الرواق الشمالي...وتشكل هذه الأفاريز حدود أرضية الطابق الثاني للمئذنة حيث يستمر برج المئذنة بمدخل باب مستطيل ، يولج منه للسلم اللولبية الحجرية المرتكزة إلى محور عمودي الذي يرتكز بدوره على قبة الغرفة الثالثة كما أشرنا من قبل.ويصل هذا السلم إلى ارض الطابق الثالث من المئذنة وتنفتح عليه ثلاثة نوافذ في الجانبين الشمالي والجنوبي ونافذتان في الجانبين الجنوبي والغربي.

(١٦) تتميز المآذن المغربية بوجود غرف فيها . نذكر من المآذن على سبيل المثال : جامع ابن يوسف العتيق بمراكش ، المسجد العباسي بمراكش ، المسجد الأعظم بمكناس .

(١٧) طه الولي : المساجد في الإسلام ، ص ٢٥٨ ٠ غير أن الغرفتين الثانية والثالثة في مئذنة الجامع في طرابلس معطلة حاليا وكانت لحين سابق مأوى لقيم المسجد أما الغرفة الأولى الأرضية فتستعمل حاليا ليجلس فيها خطيب الجمعة مع بعض المصلين بعيد صلاة الجمعة ، وهي حاليا باستلام المهندس الحاج علي الشلبي ٠

إن جميع حجارة الدرج الذي يؤدي إلى هذا السطح هي من نوع الحجارة الملساء الضخمة وهي من نوع واحد ترتكز كما أشرنا إلى محور حجري واحد ، شأن العديد من المآذن الإسلامية الأخرى وتستمر هكذا حتى ارتفاع ٢,٥٠ م حيث يبدأ الطابق الأخير المستجد والمستحدث في عام ١٩٢٥ م[١٨] فيتحول السلم من الحجر إلى الباطون المسلح على ذات النظام المحوري ، ويرتكز هذا المحور الباطوني على حجر مستطيل نافر عن المحور الحجري الأساسي...وكان يرتكز على ذلك الحجر المستطيل قبل إنشاء الطابق الجديد ، الصاري الخشبي الذي كان يحمل العلم وثريا الإنارة الليلية التي كانت متكونة من سراج من زجاج في وسطه فتيل من قش مغلف بقطن ، ويملأ السراج الزجاجي بماء وزيت زيتون.

وارتفاع المئذنة المربعة ، وهي إلى المستطيل اقرب ، يقارب ٢٨ مترا مع الجوسق. وبناؤها المملوكي الأول يمتد إلى ٢١ م تقريبا ثم يأتي البناء المستجد بارتفاع حوالي السبعة أمتار بما فيه الجوسق أيضا.وعلى ارتفاع عشرة أمتار من القاعدة يضيق جسم المئذنة قليلا، ليضيق أيضا عند ارتفاع سبعة أمتار . أما عرض المئذنة في جهتيها الجنوبية والشمالية ٦ أمتار وفي جهتيها الشرقية والغربية ٥,١٠ م.

١٤ ـ وتقع المئذنة عن يمين الداخل قبل الباب الرئيسي للمسجد في فسحة على عرض المئذنة من جهتها الشرقية ، وهذه الفسحة شكلت مدخلا رائعا للباب الرئيسي.وأما البارز الظاهر في هذا المدخل اللطيف فهو قنطرة تشبه حدوة الحصان المفتوحة تتناوب فيها الأحجار السوداء والبيضاء، ليأتي بعدها الباب الرئيسي الذي ينفتح على صحن الجامع ويظهر أمامه المبضأة ومصلى صغير وبعدهما ، يأتي الباب الوسطي للحرم ، وفي مواجهته ينتصب المحراب في وسط الجدار القبلي وهو المحور الأساسي للجامع.وهكذا تبدو القنطرة المفتوحة إطارا مشتركا للباب الشمالي ولباب الحرم الأوسط الذي يليه المحراب بحيث تغدو القنطرة محرابا عاما وكأن حرم الجامع كله يبدأ من القنطرة المتناوب فيها الحجارة السوداء والبيضاء فيما تظهر زخرفة الباب الرئيسي كنقوش تحكي براعة مجموعة مهندسي السلطان منصور قلاوون وفي مقدمهم المعلم المعمار المهندس سالم الصهيوني العجمي.

---

(١٨) حدد هذا التاريخ الحاج علي شلبي أحد قيمي الجامع الكبير . ومن جميل ما يذكر ، أن باني هذا الطابق المستجد هو المرحوم شفيق الشرمند على نفقته الخاصة ، وقد انشأ عليه جوسق المئذنة والأعمدة الصغيرة حول الجوسق على حدود المئذنة وكان قد شيد رحمه الله مسجد القبة في حارة أبقار وأوقف له الأوقاف وقد دمر هذا المسجد إبان الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٨٢ ثم أعاد بناءه السيد الحاج فؤاد مسعود عام ١٩٩٤ ، وقد حدد هذا التاريخ الحاج علي شلبي أحد قيمي الجامع الكبير .

والباب الرئيسي في مجمله باب إسلامي الشكل والزخرفة وان استفاد مهندسه من أحجار وتيجان موروثة من عهود أخرى صليبية أو قوطية أو رومية أو إسلامية في عهود ما قبل الاحتلال الصليبي.(انظر الصورة الملونة رقم ٤) .

والأحجار وان كانت تأخذ هوية صانعيها إلا انه سرعان ما تتغير فتغدو تلك الأحجار المصنعة في تاريخ ما...، قطعة متميزة ، تحتل مكانة جديدة بموجب أمر من وضعها في النسق الجديد...ولا ينسب الرمز بهذا النسق إلا إلى صاحبه وإلا لتعدينا بالأحجار على الأفكار وبالصخر على البشر...ولأصبح الحجر المحور لا صاحب الأمر ولتجاوزنا على المستمر بالمندثر وهو أمر لا يقبل به عاقل ولا تقول به حضارة ولا أثر.

وكثيرا ما يتناوب الحجر المحفور أو المجوف أو المزخرف وكذلك الأعمدة في مبان أو مساجد أو كنائس أو تكايا أو مدارس...إلا أن المبنى لا ينعت إلا باسمه ، كما لا يجوز التعديل على الإسم نظرا لوجود أحجار أو مداميك قلدها مهندسها وضعا ما في مبناه الجديد.

إن طبيعة العمل المعماري يفرض الإفادة المطلقة من واقع الساحة الجاري عليها البناء ولا يهمل مهندس أو معمار أو بناء ما لديه من أدوات بحجة استخدام أجيال أخرى عدوة أو صديقة لتلك الأحجار أو المزخرفات أو الأشكال... وهي لا تبعد أن تكون أمورا جمالية تستهوي البناء والفنان والمهندس والمعمار... فوجودها في هيكل معين هو وجود فن بحد ذاته ولا يعني بحال وجود الهيكل برمته. والأمثلة على ذلك اكثر من أن تعد فتحصر.

١٥ ـ فقد رأينا من قبل كيف أن المهندسين الأوروبيين والإيطاليين والمباردين والقوطيين والروم وسواهم ، نقلوا عن المغرب والأندلس " الأشكال" كما نقلوا الزخارف ولو كانت عبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله وقد وضعت على رأس رسم تقريبي للمسيح عليه السلام.

فقد ذكر غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) انه قد تعدى اقتباس "الأشكال الهندسية" وطرق البناء إلى اقتباس الزخارف العربية...وهي زخرفة استخدمت الخط العربي أساسا لها وهي ذات انسجام عجيب . ويقول غوستاف لوبون : " زخارف المباني العربية ذات طابع خاص ، وهذه الزخارف مؤلفة من رسوم هندسية ممزوجة بالكتابات.

وللخط العربي شأن كبير في الزخرفة ،وتؤخذ الكتابات التي تستخدم في الزخرفة من القرآن في الغالب ، وأكثر هذه الكتابات استعمالا كلمة بدء سور القرآن ، وهي : "بسم الله الرحمن الرحيم" أو كلمة التوحيد ، وهي : " لا إله إلا الله محمد رسول الله .

والخط العربي صالح للزينة بطبيعته ، حتى أن رجال الفن من النصارى كانوا في القرون الوسطى وفي عصر النهضة يكثرون من استنساخه على المباني المسيحية تزيينا لها، وقد شاهد مسيو لونغيريه ومسيو لافوا وغيرهما الشيء الكثير منها في إيطالية ، ومما شاهده مسيو لافوا باب مبني على طراز رسم البيكار يحيط به إفريز مؤلف من كلمة عربية مكررة عدة مرات في كاتدرائية ميلانو ، وكتابة عربية حول رأس المسيح المصور فوق الأبواب التي أمر بإنشائها البابا اوجين الرابع في كنيسة القديس بطرس، وخطوط كوفية طويلة على قميص القديس بطرس والقديس بولس فيها " ومن دواعي أسفي عدم ترجمة ذلك الكاتب لتلك الكتابات، فلعل الكتابة التي حول رأس المسيح هي كلمة : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله".

ومن هذا القبيل ما فعله الصليبيون بعد احتلال طرابلس فقد عمدوا إلى ضروب النقود فأخذوا نقدا متداولا عليه كلمة (لا اله إلا الله) بأحرف زخرفية غاية في الانسجام ، فحسبوها زخرفة لا تحمل معنى ، فاستخدموها في نقدهم بعد أن أضافوا حرف T وهو الحرف الأول من طرابلس Tripoli (ملحق الصور انظر الصورتين ٣٩و٤٠).

ومن جهة أخرى ، فان حجرا أو أكثر عليه إشارة صليب استخدم في بناء الجامع الأزهر بالقاهرة ولا تزال...كما أني قد رأيت بنفسي كيف أن السلطان محمد بن قلاوون قد بنى له مهندسوه مسجده الذي في القاهرة في القلعة ، حيث جاوره مسجد محمد علي باشا الجديد...كيف أن هذا المسجد قد تكاثرت فيه أعمدته المختلفة الأحجام والمصادر وقد جلبوها من بلاد النوبة جنوبي مصر ، وكأنها تختصر الحضارات التي مرت على بلاد النيل ، وعلى تلك الأعمدة قامت سقوف الجامع وعلى أحدها رأيت الصليب والتقطت له صورة كما هو مبين في موضعه من ملحق الصور في هذا الكتاب (رقم ٩)

يقول غوستاف لوبون في حضارة العرب[١٩] " وجد العرب في جميع البلاد التي استولوا عليها ، عددا كبيرا من المباني الإغريقية والرومانية والبيزنطية المتداعية أو المهجورة ، فانتفعوا بأعمدتها وتيجان أعمدتها كما تشهد بذلك مبانيهم الأولى التي تضم عددا غير قليل من الأعمدة الغريبة المصدر ، ولكنهم ما كادوا يستنفذون ما وجدوه حتى اضطروا إلى إنشاء ما احتاجوا إليه منها بأنفسهم، فطبعوا عليه طابعهم الخاص ، كالأعمدة وتيجان الأعمدة العربية الخالصة التي ترى في قاعة الأسود من قصر الحمراء ، والتي لم تشتق كما قال مسيو برانجه من أي طراز آخر" .

(١٩) م.س. ، ص ٥٥١.

وذكر الاستاذ عبد الغني محمد عبد الله في مقال له عن الاصول المعمارية للاعمدة عند المسلمين[٢٠] فقال : " يمكن القول بأن العمائر الاسلامية الاولى وخاصة في العصر الاموي قد استعان منشئوها بالاحجار والأعمدة المتخلفة من عمائر العصور السابقة على الفتح ...) (وكانت الأعمدة من بين ما ورثه المعمار المسلم حيث استمرت لفترة ... الا انه مع مرور الوقت صار للمسلمين أعمدة خاصة بهم ذات تيجان...) وقال : " انه مما يجب التنبه الى ان (المسلمين قد استخدموا المواد ولم يستخدموا الاساليب وهندسة البناء الا في القليل النادر... فقد كانت لهم هندستهم المعماريه وفلسفتهم في فن العمارة).

وطبيعي وطرابلس المدينة تبنى من جديد أن تبنى من أحجار وزخارف ومقطوعات من المدينة المخربة المهدمة المدكوكة إلى الأرض ، والتي كانت على البحر سواء كانت صليبية العهد أم إسلامية ما قبل الصليبيين أو بيزنطية أو فنقية.وطبيعي أيضا أن تنقل الحجارة والتيجان والأعمدة وأي شيء اثري من مكانه إلى مكان البناء الجديد ، وفق اختيار ورأي المهندس أو المعمار وبإشارته، فيأتي الشكل الجديد بعد ان يستخدم موادا قد صنعت خصيصا تلبية لرأي المهندس، أو موادا وجدها بين ركام المتهدم فيكشف عنها الغبار ويضعها في المكان الذي يراه ، فتعطي لتلك الأحجار والأشكال بإرادته لونا جديدا في الإعمار ، وكأن الحياة قد دبت فيها من جديد ولكن بأسلوب آخر غير الذي صنعها من قبل أو استخدمها.(انظر الصورة الملونة رقم ٢٢ وصورة أعلى باب حمام عز الدين رقم ١٧ في فصل جامع طينال اللاحق).

١٧ ــ إنطلاقا من هذه المقدمات الطبيعية ، نجد أن الباب الرئيسي للجامع المنصوري الكبير باب إسلامي بالكامل ، فهو على شكل عقد مدبب يحتضنه صفان من زخرفة هندسية متموجة من دلات متصلة على شكل " زجزاج أو [زيكزاك] ، ويبرز من أعلى هذين الصفين على الآخر ويعلو الصف العلوي من هذين الصفين أفاريز بارزة وعددها ثلاثة تستند على إفريز أفقي يمتد على شكل رف تحت صقي الدلات من جانبيها ، ويقوم هذا الإفريز على عمودين صغيرين [من أحجار عادية مبرومة ومحفورة لتأتي متناسقة على شكل عمود] لهما تاجين من الطراز القوطيّ (انظر الصورة الملونة رقم ١٠).

وعتبة الباب هي قطعة رخامية واحدة من الحجر تستند على مسندين محدبين نقش عليهما معمار الجامع نقشا حدد فيه تاريخ البناء حتى اكتمل ، وفي أي عهد واسم مصممه وبانيه...وهو نقش على ذات القطعة الرخامية لا على خشب كما توهم الأستاذ عبد العزيز سالم .

(٢٠) مجلة العربي الكويتية ، عدد حزيران ١٩٨٦، ص ٨٨.

وطريف ما يذكر أن هذا الباب الذي وان كان غاية في الجمال والتناسق ، إلا أنه بسيط في تطريزه ونقوشه وزخارفه ، وينسجم مع البساطة العامة للمسجد.وهذا التطريز ينسجم أيضا مع الفن الإسلامي لهذه المحدوبات والتعرجات...وقد لفت المستشرق جان برشام في كتابه " رحلة في سوريا " ، إلى أن هذا الطراز المشار إليه هو طراز إسلامي (لشيوع هذا النوع من الزخرفة آثار طرابلس الإسلامية) ، وقد جاء تقريره هذا بعد أن وصف الباب بنحو ما نقلناه عنه أعلاه ، وقد اثبت النص الأستاذ عبد العزيز سالم في كتابه طرابلس الشام[21] وان يكن قد اخطأ الأستاذ سالم أيضا عندما أعلن أن الإطار البارز للباب : " ذو طابع لاتيني يحيط بباب إسلامي الطابع " وهذا تناقض فاضح ، وكان الأولى القول : " باب إسلامي قد استفاد من زخرفة تاج قوطي ركب على عمود من أحجار متراكمة حرفت ودورت لتأتي على شكل عمود وهما عن يمين الداخل ويساره في الباب الإسلامي." .

وقد رأيت زخارف " الزيكزاك " أو الخطوط المتكسرة المنتظمة ، والتي هي الأساس في زخرفة الباب الرئيسي كما فوق المحراب ، رأيت مثيلتها على مئذنة جامع السلطان الناصر بن قلاوون في القلعة في القاهرة مما يؤكد ، وحدة الفن المعماري لفريق قلاوون الهندسي خاصة وان مسجد القاهرة ومسجد طرابلس قد بنيا في وقت متقارب وان يكن المسجد المنصوري اسبق من الأول بقليل إنما في حقبة زمنية واحدة ...وقد التقطت للمئذنة وخطوطها صورا تجدها في موقعها من ملحق الصور من هذا الكتاب (رقم ٨ وانظر ايضا رقم ٧) ، وهو ما يؤكد قول برشام السابق الذكر " إن النقوش والخطوط والزخارف إسلامية".

١٨ ــ يبقى من الباب الرئيسي قفاه من الداخل المطل على الصحن فنجد فيه قوسا من الزخرفة كزهرة دوار الشمس (نافرة متأنقة مما يسهل المقارنة مع المحراب (الصورة الملونة رقم ١١) ، وهي الزخرفة المتكررة في الدائرة الموجودة في صدر حرم المسجد فوق المحراب ويتوسطها لفظ الجلالة ، وهي الدائرة الوحيدة المزخرفة التي تزين حرم المسجد (انظر الصورة الملونة رقم ٥).

ومن التدقيق في زخرفة محراب الحرم من الداخل يتبين أنها تكاد تكون قد جمعت أصول زخرفة الباب الشمالي ، فهي قد حوت المتعرجات والمتكسرات (الزكزاك) كما حوت (الزهرة) التي على الباب الشمالي المطل على الصحن ومزخرفات شبيهات بالزخرفة التي على البابين الشرقي والغربي كما

(٢١) م.س. ، ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣ : وقد وضعت بعض الإضافات على النص ضمن شكل [ ]
وقد اخطأ الأستاذ سالم بإعلانه أن النقش كان على خشب ، ويبدو انه قد وقع في إشكالية إذ ذكر من قبل أن عبارة (لا اله إلا الله محمد رسول الله) قد نقشت على خشب علقت على صدر طبلة العقد في العهد العثماني ، وقد أزيلت الآن.راجع المرجع نفسه بذات الصفحة.

سنبين...وكأنما أراد المهندس أن يجعل تلك الزخرفة في الحرم مثالا دالا على إسلامية زخرفاته التي على الأبواب.

١٩ ــ وأما البابان الشرقي والغربي المطلان على الصحن والمؤديان إلى خارج المسجد فهما في اصل بنائهما متشابهان من حيث الضخامة والسعة ، فكل من البابين هو دون الباب الشمالي الرئيسي وهو بعرض ٢١٠ سنتم ، وكان على كل منهما ذات الزخرفة التي لا تزال على الباب الشرقي من الخارج ، وهي زخرفة في غاية الجمال والإتقان تزين طبلة العقد الذي يرتكز إلى حجر كبير هو دون الحجر في الباب الشمالي ، إلا انه من ذات المنشأ وله ذات الاستدارة الخارجية .

وكان الباب الغربي[22] المقابل للباب الشرقي يتمتع بذات النقوش والسعة ، إلا انه في عهد قريب في عام ١٩٥٠ م ، قام أحد مشايخ الجامع وهو الشيخ جميل البارودي وهو من أهل العلم وصاحب متجر وعلى نفقته وبالإتفاق مع المسؤولين الدينيين بتوسعة الباب الغربي ــ نظرا للضرورات السكانية آنذاك ــ فنزعوا الزخارف وأنزلوا البلاطة من قمة الباب إلى مستوى الأرض لتشكل مدخل الباب من أسفله وزادوا في سعة الباب وعقده حوالي المتر تقريبا ، واصبح الباب الخشبي من ثلاث قطع بدل القطعتين اللتين لا تزالان للباب الشرقي ، وطينوا العقد وصبوا الجوانب بالإسمنت فتغيرت صورة الباب الغربي واصبح عاديا مشوها... ولا نزيد هنا إلا قولنا أن الذين قاموا بالتوسعة اجتهدوا فأخطأوا...فجزاهم الله عن المدينة ومسجدها الجامع كل خير وغفر له.

غير أن الباب الشرقي لا يزال كما أنشئ ، وعلى رخامه موجود نقش هو مرسوم للإعفاء من الضرائب اندثرت منه بعض الكلمات والحروف ، إلا أن المؤرخين نقلوا ذلك المرسوم ، وهو النقش الذي أمر به كافل المملكة الطرابلسية الشريفة بان ينقش في رخام الجامع الكبير بطرابلس[23]

الرواقات

٢٠ ــ ذكرنا أن الرواقات المطلة على صحن الجامع المنصوري هي مجنبات وجدت أمثالها في أهم المساجد في الأمصار العربية والإسلامية.

وصحن الجامع هو حاليا مربع بعرض تقريبي ٣٦م/٣٧ م تقوم على جنباته الرواقات الشمالية والغربية والشرقية ، بينما تطل عليه أبواب الحرم أو بيت الصلاة من الجهة الجنوبية.

(٢٢) نقلت هذه المعلومات عن المهندس الحاج علي الشلبي ، الذي عاش ولا يزال في رحاب المسجد ، وهو من مواليد ١٩٣١وقد عاصر نزع الزخارف وتوسعة الباب .
(٢٣) راجع النص في كتاب طرابلس الشام للدكتور عبد العزيز سالم ، وآثار طرابلس الإسلامية للدكتور تدمري .

وعرض الرواق الشرقي ٨،٢٥ م بينما عرض الرواق الغربي ٧،٨٠ م وعرض الرواق الشمالي ٥،٥٥ سنتم...فإذا أضفنا أطوال الصحن يحصل لدينا الرسم العام الذي شاده المهندس ، وهو إلى الاستطالة اقرب ، كما هي المئذنة (انظر الصورة الملونة رقم ١٥).

وقد بني الرواقان الشمالي والغربي في وقت متتابع مع بناء الحرم فالمئذنة مع الباب الرئيسي للمسجد هما الجدار الشمالي للرواق الشمالي، الذي له فتحات على الصحن ، وهو يرتفع مع الرواقين الآخرين الى ستة أمتار من أرض الصحن.

ومن المفترض أن يكون الرواق الشمالي قد بني مع المئذنة في زمن بناء بيت الصلاة ، فهناك الافاريز المزينة للعضاضات المطلة على الصحن هي من نوع الأفاريز المثبتة على البوابة الشمالية ومشابهة لتلك التي جاءت مع نهاية جدار بوابات الحرم المطلة على الصحن (انظر الصورة الملونة رقم ١٣) بينما اختفت تلك الأفاريز في عضاضات الرواقين الغربي والشرقي.

وبني الرواق الغربي في أعقاب بناء الرواق الشمالي وقبل بناء الرواق الشرقي.يؤكد ذلك وجود سقاطات للماء في أعلى جدار الرواق الشمالي والغربي وجدار الرواق القبلي المطل على الصحن بينما اختفت هذه عن الرواق الشرقي (انظر الصورة الملونة رقم ١٢)

من جهة اخرى فان وجود الافريزين الظفرين اللذين نوهنا عنهما في بداية هذا الفصل في الجدار الشمالي لبيت الصلاة المطل على الصحن (انظر الصورة الملونة رقم ١٤) ليؤكد ان مهندس الجامع وبانيه محمد الصهيوني اراد وضع علامة متميزة لبداية الرواقين الغربي والشرقي ــ عندما يبنيان ــ وقد جاءا بعد بناء الرواق الشمالي وبالتتابع .

غير أن التأكيد الأكبر يأتي من النقيشة الجدارية الرخامية التي أثبتت في وسط الرواقات الشرقية والتي ذكر فيها أن الذي أمر ببناء هذه الرواقات السلطان محمد بن السلطان المنصور قلاوون وانه قد انتهى باني الرواق منه في سنة ٧١٥هـ،(انظر الصورة الملونة رقم ١٦) والنص يقول :

" بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر،أمر بإنشاء هذه الرواقات تكملة الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الناصر العالم المجاهد

" المظفر،ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون خلد الله ملكه في نيابة

" المقر الشريف السيفي كستاي الناصري كافل المملكة الشريفة الطرابلسية أعز الله

" أنصاره بإشادة المقر العالي النووي محمد بن أبي بكر شاد الدواوين المعمورة أدام الله نعمته ،

" وكان الفراغ منه شهور منه خمس عشر وسبعماية على سيدنا محمد العبد

" الفقير إلى الله تعالى احمد بن حسن البعلبكي المهندز "

ومن هذا النص يتبين ما يلي :

١.ــ إن الرواقات تكملة الجامع ، ولا يعني جمع الرواقات أنها رواقات الجامع جميعها وإنما فتحات الرواق الشرقي المطل على الصحن وكأنَّ كلا منها رواق بذاته .

٢.ــ إن الفراغ منه (أي من بناء الرواق الشرقي) كان في شهور من عام ٧١٥ للهجرة

٣.ــ إن من تولى عمارته (أي عمارة الرواق الشرقي) هو المهندس احمد البعلبكي ، ولو كانت الرواقات الثلاثة قد بنيت من قبل المهندس البعلبكي في عام ٧١٥ هــ لكان قد ذكر ذلك ، وكان الفراغ منها بدلا من (منه) وتولى (عمارتها) بدلا من (عمارته).

٢١ ــ ويمكن أن تحصل على هذه النتيجة أيضا باستقراء بسيط لواقع الأرض في ذلك الزمن.

فقد ذكرنا أن الطبيعة الجيولوجية لأرض المسجد وما حوله أعطت ارتفاعا ملحوظا في الجهة الشرقية بحوالي ثلاثة أمتار وهي حماية للحرم والصحن كما هي حدود طبيعية.أما في الجهتين الغربية والشمالية فالأمر مختلف فهناك انبساط في الأرض ، الأمر الذي استدعى وجود برجين أحدهما المئذنة والآخر على بعد ٨ أمتار من جدار الرواق الغربي...

ومن الطبيعي أن يكون البناء في الرواق الشمالي كان أولا ثم تلاه الرواق الغربي..وكان ذلك ، على الأرجح ، مع انتهاء بناء المسجد في أوائل الشهر المحرم من عام ٦٩٣ هــ ١٢٩٢ م ، إذ أن النقيشة التي على رخام الباب الشمالي والتي أرخت لبناء الجامع ذكرت سنة ٦٩٣ هــ تاريخا لبناء الجامع المبارك والتي نصها :

"بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم وفاتح الأمصار ومبيد الكفار الملك الأشرف صلاح الدين والدنيا قسيم أمير

" المؤمنين مولانا السلطان المنصور سيف الدين والدنيا قلاوون الصالحي خلد الله ملكه

" في نيابة المقر العالي عز الدين ايبك الخزندار الاشرفي المنصوري نائب السلطنة بالفتوحات والسواحل المحروسة عفا الله عنه وذلك في سنة ثلاث وتسعين وستماية الحمد لله وحده

" وتولى عمارة هذه الجامع المبارك العبد الفقير

" لله تعالى سالم الصهيوني
" ابن ناصر الدين العجمي عفا الله عنه"

فإذا علمنا أن الأشرف خليل قد اغتيل يوم السبت ١٣ محرم ٦٩٣ هـ وفي الإسكندرية أدركنا أن المسجد كان قد انتهى بناؤه والنقيشة قد حفرت على بلاطة الباب الشمالي الرئيسي للمسجد قبل التاريخ المذكور ، أي في العشر الأوائل من محرم ٦٩٣هـ.

بينما الرواق الشرقي قد أنشئ في شهور من عام ٧١٥ هـ في عهد السلطان محمد بن قلاوون .

ونشير أخيراً إلى أن الرواق الشرقي هذا قد نقض في أوائل عام ١٩٠٠ م أي في ١٣١٠هـ ،. وقد أعاد بناءه قاضي البلد الشرعي أحمد سلطان المتوفى في ١٣٢٤ هـ[٢٤] على الشكل الذي كان عليه وقد أعيدت النقيشة الرخامية في مكانها ، كما أعيدت الحجارة التي تشكل لونا من رسم محراب منقوش في الحجر على جنبتي العضاضتين اللتين تليان الباب الشرقي (انظر الصورة الملونة رقم١٧) ، ويتألف كل منهما من ثلاثة تجويفات مزواة في أعلى أحجار ملساء مجوفة ترتفع إلى حوالي المتر والنصف وهذا الشكل يشبه الشكل الآخر في زاوية البرج الحربي الذي على الباب الغربي (انظر الصورة الملونة رقم ١٨)، وقد رأيت أمثاله في زوايا عضاضات الجامع الأزهر بالقاهرة ، مما يؤكد شيوع ذلك في الأبنية الإسلامية في تلك الأيام...وقد يكون بناء البرج الحربي في الجهة الغربية جاء مترافقا مع بناء الرواق الشرقي .

٢٢ ـ مما تقدم يتبين خطأ ما ذهب إليه (كوندي ومن سار معه) من أن برج المئذنة هو برج كنيسة ماري دو لاتور وان الباب الشمالي هو من بقايا الكنيسة وان الجامع الكبير قد بني في موقع الكنيسة المذكورة وهو ما ردده من بعده بعض المستشرقين وبعض الثقاة من مؤلفينا ومنهم الأستاذ عبد العزيز سالم ود.عمر تدمري...من دون تمحيص ولا دراية.

فقد ذكر الأستاذ سالم أن بوهمند عمل على ترميم الكنيسة الإفرنجية الخربة ، وترك مهندسوه الإيطاليون طابع بلادهم في البرج اللومباردي القائم حاليا بأعلى المدخل الشمالي للجامع • ويبدو أن هذه الكنيسة تأثرت كذلك بزلزال سنة

(٢٤) ولد في عام ١٢٣٤ هـ وسافر إلى الآستانة ومكث فيها ست سنوات حتى ١٢٦٢ ثم عُيّن لعلمه الغزير قاضيا على طرابلس، فتولاها حتى سنة ١٢٨٦ هـ أي أربعة وعشرين عاما ، وله مؤلفات فيها شرح مسهب لمقامات الحريري ورسالة في المسائل الفقهية ومراسلات في شؤون ومواضيع متنوعة ، وكان ينظم الشعر المتين وقال :

سُدنا ، ومن يخدم شريعة احمد — سلطان كل الأنبياء ، يسود

راجع تراجم علماء طرابلس وأدبائها لعبد الله نوفل .

١٢٨٧م[٢٥] الذي احدث فيها أضرارا جسيمة ، ثم تهدمت على اثر دخول جيوش المماليك الظافرة البناء ، ولا نستبعد أن يكون المنصور قلاوون قد قنع ببناء بيت للصلاة في نطاق جدران الكنيسة الخارجية حتى يفيد من برجها اللومباردي فيتخذها مئذنة للجامع ، ولعله استغل جدران الكنيسة القديمة وبابها الرئيسي وبرجها بعد أن انتزع منه النواقيس غير أن ابنه وخليفته السلطان الملك الأشرف خليل حول البوابة القوطية الطراز التي تتوسط جدار الجامع الشمالي إلى باب إسلامي الأسلوب ، والبوابة بصورتها الحالية وهي على شكل عقد مدبب ، سنجاته يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود[٢٦] .

بينما ذكر د. تدمري ما يلي : " يعتبر الباب الشمالي الرئيسي للجامع والمئذنة، من بقايا الكنيسة الصليبية التي أقيم على أنقاضها الجامع ، ويقول البحاثة والمؤرخون أن مئذنة الجامع كانت في الأساس برجا لومباردي الطراز ، وهو من بقايا كنيسة كانت تعرف باسم كنيسة القديسة ماري دي لاتور[٢٧] "

ويدعم د.تدمري بطريقة غير مرتبطة بالأصل ـ أن المسجد كان كنيسة وأن البرج لومباردي ما ذكره عن كونداي من أن الزخرفة التي هي فوق مدخل البوابة المطلة على الرواق الشمالي عبارة عن قوس من الزخرفة (بشكل صلبان نافرة متتابعة) ثم روي ما يقوله الأستاذ بروس كوندي " أنها زخرفة القوس اندرو وستجد مثيلا لها في الدائرة التي تعلو محراب الصلاة ومن الواضح أنها الزخرفة الوحيدة التي تزين صحن الجامع ولا تتفق مع البساطة المتناهية في عمارة الجامع الإسلامية "[٢٨] ثم يعود الدكتور تدمري ليبرر رأي كوندي في أن الزخرفة على قوس الباب الشرقي المطل على الصحن هي بيزنطية[٢٩].

وتكمن المشكلة بأن تساق المفردات وآراء المستشرقين ، (التي لا تعتمد على اصل ولا على دليل) ضمن البحث والتحقيق ، دون أن يشملها البحث ولا التحقيق...ثم يأتي من بعد ، من يعتمد على كلام مؤرخينا وكأنها حقائق قد حققت ومعلومات قد تبين صدقها ، فوضعت في مصافها بل بني الموضوع عليها لتأخذ حجما كبيرا وكأنها الحقيقة الخالدة.مع أن صاحبها المستشرق قد ابتدعها من عندياته أو من مقارناته غير المنتظمة ، ولم يأت عليها بدليل إلا استنتاجاته

(٢٥) ينفي د. تدمري وكثير من المستشرقين حصول زلزال في هذا العام .

(٢٦) د. عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، ص ٤٠١.

(٢٧) د. عمر تدمري : آثار طرابلس الإسلامية ، ص٢٠.

(٢٨) م.س.، ص ٣٢ ـ ٣٤ .

(٢٩) م.س. ، ص ٥٣.

الخاصة وهي استنتاجات يرد عليها ولا تسلم من التمحيص أو التجريح أو التعديل...

٢٣ ــ كنا قد أثبتنا من قبل أن بوهمند لم يبن كنيسة خارج طرابلس القديمة الواقعة على البحر ، وإنما ابتنى برجا له على الساحل أو على الجزيرة المقابلة حيث دفن(٣٠) وانه لا سكن خارج طرابلس القديمة في أرباض طرابلس حيث قرر المنصور إقامة المدينة المستجدة عليها(٣١) ، وان المسجد قد بني في مكان اختاره المهندسون الذين أشاروا على المنصور قلاوون هدم القديمة وبناء المستجدة، وان المستجدة مدينة إسلامية جاءت وفق التخطيط المدني الإسلامي فالجامع فيها محور للحارات والأزقة والشوارع والمؤسسات المدنية الأخرى ، وان المسجد الكبير قد جاء ضمن هذا النموذج في البناء بسيطا في بنائه وغير مزين إلا في أبوابه وفوق محرابه ، وان المئذنة والباب الشمالي إسلاميان بالكامل وان لا اثر كنسي في المسجد أو أبوابه أو أبراجه أو مئذنته وان الزخارف والمنحنيات والخطوط الحجرية المتكسرة (الزيكزاك) إسلامية بالكامل ، وان الزهرات في الأبواب وعلى المحراب إسلامية أيضا لا صلبان فيها .

٢٤ ــ يبقى عندنا أمران لا بد من إضافتهما ليأتي البحث التاريخي متكاملا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

أولهما البناء اللومباردي

وثانيهما ما ذكره د. تدمري في كتابه عن محاولة إعادة الجامع إلى كنيسة وذكر أنها حصلت في سنة ٧٩٣ هـ/١٣٩١.

إن اللمبارديين هم قوم سكنوا شمالي إيطاليا ، وكان لهم فن هندسي مميز ، اتخذ أصوله من الهندسة العربية الإسلامية في الأندلس والمغرب.

وكنا قد أثبتنا ما قاله غوستاف لوبون في (حضارة العرب) من أن المهندسين الأوروبيين تعلموا الفن المعماري الأندلسي ونقلوه إلى بلدانهم وتأثروا به حتى في نقوشه وخطوطه الكوفية ، حتى لكأنك ترى مئذنة المسجد في أوروبا وهي في الواقع جزء من كنيسة أو مؤسسة مسيحية...

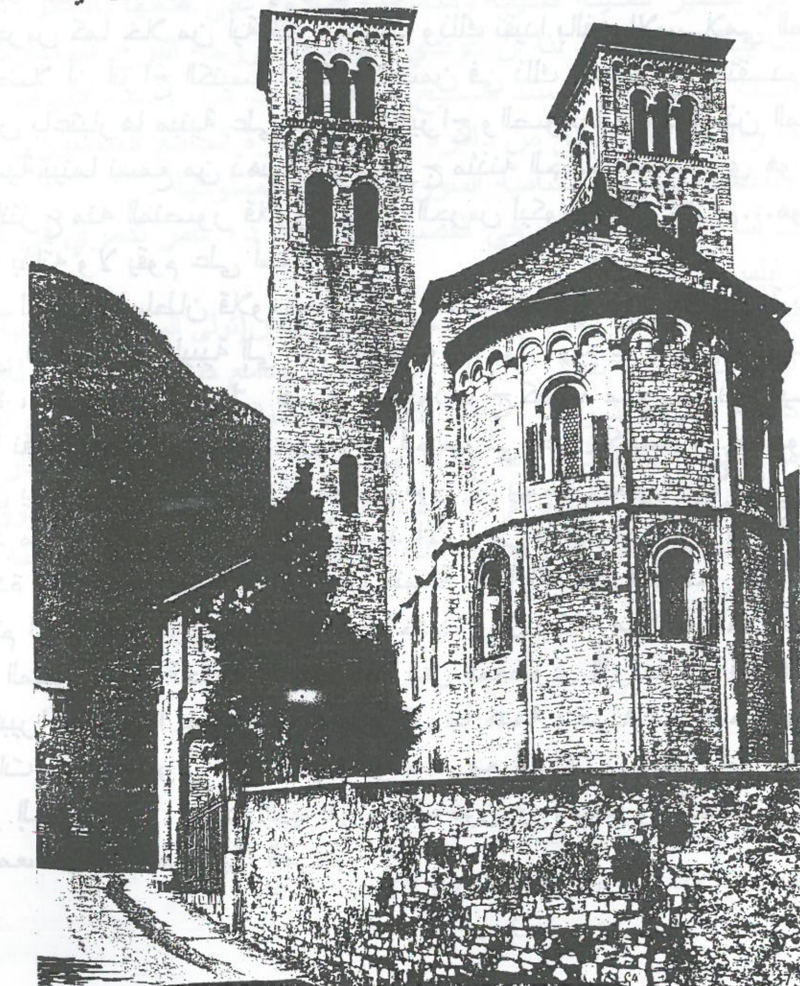
فإذا كان اللومبارديون وسواهم تأثروا بالفن الإسلامي ونقلوا ذلك إلى بلدانهم فلماذا تكون مئذنة الجامع الكبير في طرابلس الذي بدأ ببنائه السلطان قلاوون ومعه مهندسو حملته التحريرية وتولى عمارته المهندس سالم بن صهيون المعروف بالعجمي ، واستمرت عمارته حوالي الثلاث سنوات لماذا تكون هذه المئذنة برجا لومبارديا ؟ ولماذا لا تكون فنا إسلاميا استقى من مآذن اشبيلية

(٣٠) راجع ما كتبناه ، في الفصل الثاني هذا الكتاب ص ١٥١.

٣١ راجع ما كتبناه ، في الفصل الثاني من هذا الكتاب. ص ١٥١.

والقيروان وكتبية وسواها من مآذن العرب التي كانت في عهود مختلفة في المئات الأولى من الهجرة النبوية (مبدأ التاريخ الهجري) وقبل وقوع الحروب الصليبية ، قبل انتقال الفن الهندسي إلى أوروبا ؟ والمئذنة القيروانية ، كما أشرنا إليها في صفحات سابقة ، والتي بنيت في عهد الخليفة عبد الملك كانت نبعا ارتشفت منه كثير من المآذن والأبراج ، ومنها مئذنة الجامع الكبير في طرابلس.بدءا من المدخل الذي هو على شكل حدوة حصان إلى طريقة البناء والطوابق التي هي عليه والضمور في جسمها الأعلى عن جسمها الأسفل.وقد تأثرت بالمئذنة القيروانية إياها،على ما يبدو،الأبراج اللومباردية وسواها كما سنبين.

وتأكيدا لهذا المعنى ننشر صورة عن برج لكنيسة أو لمؤسسة لومباردية هي أشبه بمئذنة الجامع الكبير (راجع الشكل رقم ١٧) وقارن بها صورة مئذنة الجامع الكبير (شكل رقم ١٥ وكذلك المئذنة الاموية ١٣ والمئذنة المغربية ١٤) ننشر ذلك ولو أن هناك من سيدعي أن هذا الرسم يؤكد صحة اصل المئذنة اللومباردي.



الكنيسة الايطالية اللومباردية
الشكل رقم ١٧

وبدون تردد ، وبموضوعية شاملة نقول :

أ ـــ إن ايسر أمر على المستشرقين أن ينسبوا مئذنة الجامع الكبير في طرابلس إلى اللومبارديين لإشكالية التشابه خاصة وان فرقا أوروبية مختلفة استوطنت طرابلس في العهد الصليبي...ومن العسير عليهم أن نطلب إليهم إجراء التحقيق وتبين مصادر التشابه • فلئن اقتبس المسلمون الفاتحون مع المنصور قلاوون هندسة المئذنة من مساجد إسلامية عديدة منتشرة في بلاد الشام وبلاد المغرب و الأندلس فقد اقتبست أوروبا أيضا تلك الفنون الهندسية من المصادر نفسها...من هنا فالإشكالية بين الرسمين موجودة وكل من اللومبارديين ومهندسي حملة قلاوون نهلوا من العين نفسها .

ب ـــ البرج اللومباردي المشار إليه المستقى من فن العمارة الإسلامية الأندلسية والمغربية..بني عام ١٠٩٥م في بلدة كومو في ايطاليا وهو تابع لكنيسة سانت ابونديو S. Abondio أي زمن نشوب الحروب الصليبية...إلا أنه خلا من برج للجرس كما خلا من أية آثار لصليب وذلك تقيدا بالفن الإسلامي المستقى منه ، فضلا أن أبراج الكنيسة لم تكن تتضمن في ذلك التاريخ المتقدم مكانا للأجراس باعتبارها مبنية على محاكاة للأبراج والصومعات والمآذن المغربية والاندلسية،بينما نسمع من ذهب إلى أن برج مئذنة الجامع المنصوري هو برج كنيسة انتزع منه المنصور قلاوون مكان الجرس ليكون مكان الأذان...هو ادعاء متهافت بذاته ولا يقوم على أساس.

ج ـــ لقد دك السلطان قلاوون طرابلس القديمة التي كانت مليئة بالآثار والمباني العظيمة الصليبية إلى الأرض وسواها بها ، ولم يتردد في بناء مدينة مستجدة ، فهل يعقل ـــ على افتراض وجود برج كنيسة مكان المئذنة اليوم ـــ وهو ما نفيناه علميا في بحثنا عن موقع الجامع في فصل كنيسة دو لاتور هل يعقل أن يدع السلطان ذلك البرج العادي دون أن يهدمه ويسويه بالأرض ثم يقبل أن يشيد مسجده المنصوري وهو المسجد الأول بل هو البناء الأول في المدينة المستجدة على ارض كنيسة ومن بقايا كنيسة بينما الامتداد الأرضي في فلاة كبيرة تم اختيارها لتكون مكان المدينة الجديدة وكل مكان من تلك الفلاة صالح لإنشاء المبنى الأول الجامع ؟؟ وهل بلغ الفن المعماري اللومباردي في هذا البرج مبلغا كبيرا حتى غدا بقاؤه استثناء على كل ما هدمه وخربه من قصور وبيوت وعمارات ودور وشوارع وكنائس وأبراج... مع أن قلاوون كان بأمس الحاجة إليها أو إلى بعضها ، ليأوي إليها هو وجنده دون أن يضطروا للمبيت في العراء أو في معسكرات أقامها لهذا الغرض.

ولو أن قلاوون أراد أن يترك برجا لترك برج بوهمند [٣٢] الذي على الجزيرة وجعله منارة للمراقبة • غير أن قلاوون أراد أن يهدم كل شيء يمت إلى الصليبيين بصلة ، حتى لا يبقى لهم أي رغبة في العودة أو في بذل محاولة لاسترجاع مدينة غدت خربة لا تسكن وقد اندثرت آثارهم ومبانيهم وكنائسهم وأبراجهم فيها !!

إن شخصية قلاوون وفهمه للأحداث وتتبعه للأمور وموافقته على خطة أركانه بهدم المدينة والإصرار على بقائها خرابا وإعمار أخرى بعيدة عن الأولى في مكان لا سكن فيه ووخيم البيئة ، يؤكد بلا تردد أو أدنى شك ، إن قلاوون لا يمكن أن يقبل ببرج بسيط هو برج كنيسة متهدمة على افتراض وجودها ، ليبني عليه مسجده الجامع ويتخذ من البرج مئذنته المربعة • كما أن أركانه الذين أشاروا عليه بالهدم الكامل لا يمكن أن يقبلوا بأمر كهذا وهم قد رأوا عكسه أثناء التشاور في مصير المدينة القديمة ومبانيها وأصروا على هدمها بالكامل؟؟[٣٣]

وعندما يتأكد ذلك يتأكد لنا أن كوندي صاحب أطروحة البرج اللومباردي لم يسق ما ساقه عن علم أو مستند صحيح ، فيغدو بذلك هذا الادعاء متهافتا لا قيمة علمية له، والأجدر أن ينسخ من ذاكرة المدينة وذاكرة الجامع المنصوري وذاكرة مئذنته الأندلسية المغربية الشامية السورية العربية المملوكية .

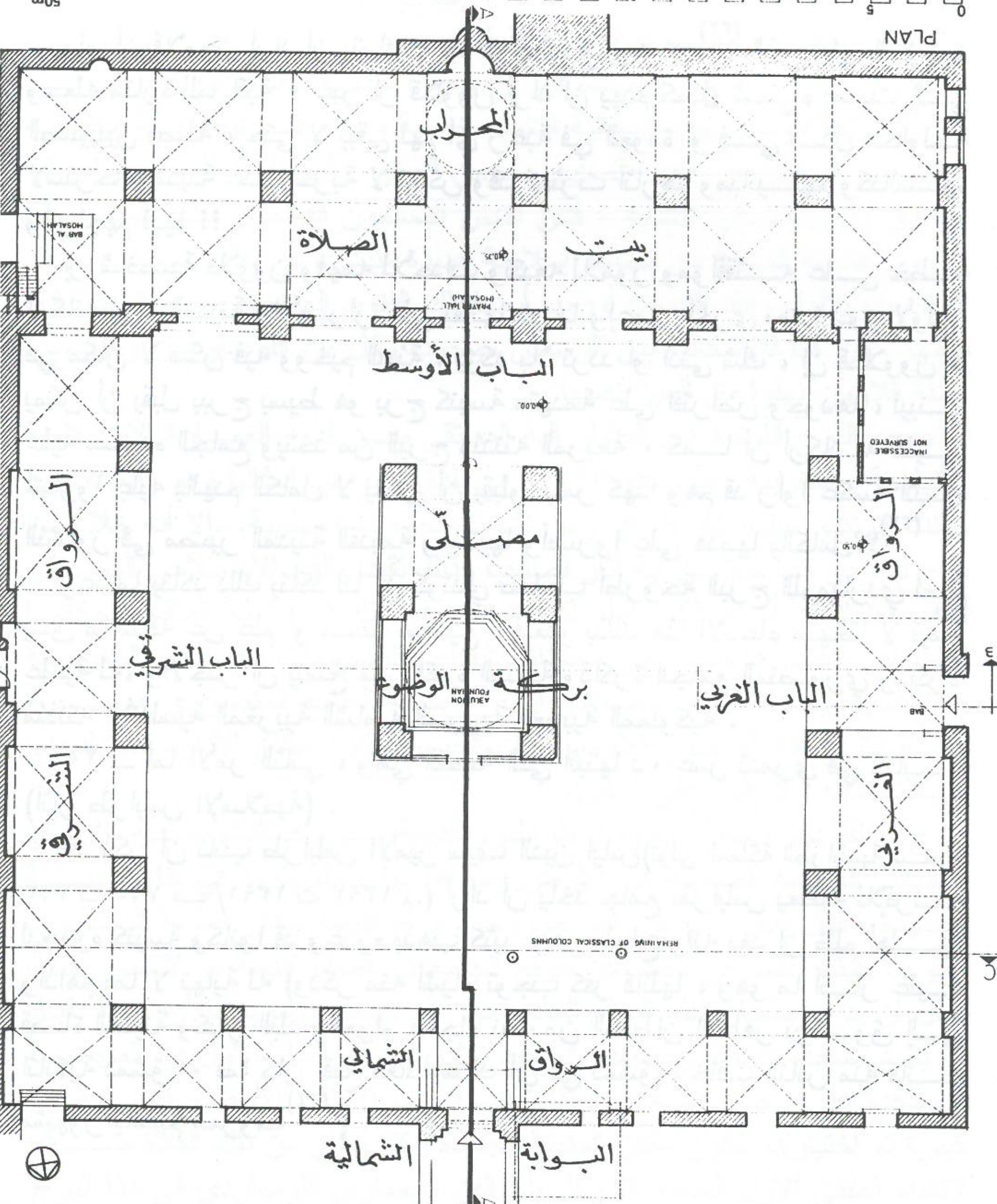
٢٥ ـــ أما الأمر الثاني ، وهي القصة التي أثبتها د• عمر تدمري في كتابه (آثار طرابلس الإسلامية) .

فقد ذكر أن نائب طرابلس الأمير سيف الدين اياس(تولى المملكة الطرابلسية سنة ٧٩٣ ت ٧٩٥ هـ /١٣٩١ ت ١٣٩٣ م) أراد أن يأخذ جامع طرابلس يعطيه للإفرنج ليعيدوه كنيسة وكانوا قد وعدوه بذهب كثير وهو طماع وانه بعد أن ظلم أهلها وأذاهم بما لا نهاية له (وذكر منه أشياء توجب كفر قائلها ، وهو ما أثار عليه قضاة المدينة وكبار البلد والعوام ، فجاء نقله من السلطان الظاهر برقوق إلى اتابكية دمشق • فما كان أقبح فعاله هناك أي في دمشق وخافت الناس منه فانه مشهور بالظلم معروف[٣٤]) .

(٣٢) راجع بحثنا في هذا الشأن ، في فصل كنيسة ماري دو لاتور من هذا الكتاب .

(٣٣) راجع فصل بناء المدينة المستجدة في هذا الكتاب .

(٣٤) م.س. ، ص ٦٠ ـــ ٦١.



المخطط العام للجامع المنصوري الكبير

(نقلا عن كتاب طرابلس المدينة القديمة ، إصدار البنك العربي والجامعة الأميركية في بيروت) لاحظ كيف أن محور الجامع الذي رسمناه يمر في منتصف البوابة الشمالية إلى بمنتصف بركة الوضـــوء فالمصلى الصغير فإلى منتصف الباب القبلي الأوسط إلى منتصف المحراب وهو المحور الذي يؤكـــد وحدة البناء الهندسي وهو ما أشرنا إليه في البحث ورأينا فائدة في رسمه هنا على المصور.

الفصل الرابع

تهافت قصة تحويل "جامع طرابلس إلى كنيسة" في عهد الأمير أياس الجرجاوي نائب المملكة الطرابلسية المملوكية الشريفة

٧٩٣هـ - ٧٩٥هـ

توطئة :

١ ــ أورد الدكتور عمر عبد السلام تدمري في كتابه (آثار طرابلس الإسلامية) تاريخا عن الجامع المنصوري الكبير وعن خطبائه ومدرسيه وأفرد عنوانا في التاريخ المذكور أثبت فيه (محاولة تحويل الجامع إلى كنيسة) ناقلا ذلك، بصورة أساسية ، عن محمد بن محمد صصري في كتابه (الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية).

٢ ــ والمؤلف صصري دمشقي.وقد وضع كتابه كتاريخ دمشق خاصة وما اتصل بها من أحداث، في عهد الظاهر برقوق ، في الأعوام ١٣٨٩ ــ ١٣٩٧ ميلادية ، وفق النص الإنكليزي لناشر الكتاب الدكتور وليم م. بريـنر ، أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا ــ بركلي . وقد جرى النشر عام ١٩٦٣م.عن مخطوطة للكتاب في مكتبة بودليان ــ اكسفورد.

٣ ــ وقبل أن نقرأ (المحاولة الموهومة) التي هدفت إلى تحويل " جامع طرابلس " إلى كنيسة بعد أن هم بذلك نائبها " الأمير اياس الجرجوري " لقاء ذهب موعود من الفرنجة ، علينا أن نقرأ مع الدكتور وليم ناشر الكتاب ، في مقدمته ، بعض ما جاء في لغة الكتاب من (خلل وركاكة) فيقول : " استبقينا للمؤلف أسلوبه الخاص رغم ما فيه من " الخلل والركاكة "

إن القارئ العربي لا يلبث أن يقف ، بعد إطلاعه على الصفحات الأولى من نص " الدرة المضيئة " ، على ما فيها من الإخلال بسلامة اللغة . ونحن نعتقد أن المؤلف نفسه لم يتوخ هذه السلامة ، ولم يقصد إلى مجاراة البلغاء في تأنقهم وافتنانهم ، وإنما صرف همه إلى غاية أخرى هي تدوين حوادث عصره كما تناهت إليه ، والى استعمال التاريخ لخدمة الأهداف الدينية عن طريق إيراده الحقائق المجردة في إطار ممتع من الشعر والفكاهة وبأسلوب موشى بالآيات والأحاديث المقتبسة.وهكذا نراه يستخدم للتعبير عن أغراضه هذه لغة شائعة فيها أحيانا من الضعف ما لا ترتضيه قوالب الفصحى ، ولكنها على كل حال تجري دائما مع طبعه وتلائم طباع معاصريه وأذواقهم.وهو أمر سنقف عليه بجلاء عندما نطلع على بعض الفقرات المنقولة عن الكتاب المذكور والمثبتة في مكانها من هذا البحث ، وقد جرى إيرادها ضمن "استكشاف" شخصية الأمير اياس

وبعض الأحداث التي مرت في حياته ضمن الفترة المذكورة التي كتب "المؤرخ" ابن صصري عنها " تاريخه " .

٤ ـ وبالرغم من أننا لم نتمكن من دراسة شخصية المؤرخ دراسة مستفيضة لكشفها، إلا أن ما أورده في كتابه شكل لونا من ألوان ذاته ، كما أن الكتاب هو إلى المذكرات وانطباعاتها أقرب وألصق.

ويتبين لنا من خلال قراءة "الدرة" أن مؤلفها كتبها على مراحل وبشكل يوميات • وقد يكون أضاف ، بعد انتهائه ، بعض الانطباعات إزاء بعض الأحداث فادخلها في تلك اليوميات ويبدو انه بعد أن علم بوفاة الأمير اياس في عام ٧٩٩ للهجرة ، كتب (أمورا) حول الأمير تعود إلى عام ٧٩٤ هـ لم يكن قد ذكرها في حينها رغم خطورتها ـ في حال صحتها ـ ورغم انه سبق أن اتهمه بالظلم والتعسف...ولسوف نقف ، من خلال البحث ، على مجموعة تفاصيل لن تسمح لنا ، بحال من الأحوال ، اعتماد (انطباعات) ابن الصصري وإيرادها كوقائع معتمدة لتاريخ المنطقة ، فضلا عن تواريخ مؤسساتها وجوامعها.

٥ ـ وباعتبار أن بحثنا يدور حول الجامع المنصوري الكبير في طرابلس عاصمة المملكة الطرابلسية الشريفة المملوكية • وحيث أن ابن صصري انفرد دون سائر المؤرخين بذكر خيانة نائب المملكة ومحاولته تسليم جامعها إلى الفرنجة ، كان لا بد أن نعقد دراسة عن الأمير اياس الجرجوري المتهم وان نعود إلى كتاب الدرة المضيئة وهو الكتاب الذي أورد الإتهام ، لنستطلع منه خبر اياس (الخائن !!) دون أن نسقط من المراجعة كتابي المقريزي في السلوك لمعرفة دول الملوك ، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة في حكام مصر والقاهرة.

وقبل أن نلج في الدراسة وتمحيص الإتهام ، يتعين أن نثبت أهم فقرات الاتهام كما وردت لدى ابن صصري في "الدرة" ، بعد أن أورد خبر موت الأمير اياس أو قتله أو كما أحب أن يتخيل تعذيبا بأمر من السلطان برقوق • ثم بعد ذلك نعقد دراسة عن الأمير اياس.ومن خلال تلك الدراسة الموجزة نرد على ابن صصري في اتهاماته ونعلن "براءة" الجامع المنصوري الكبير من القصة المختلقة التي أوردها ابن صصري ، وبالتالي براءة الأمير اياس من تلك القصص المختلقة أو المحرفة .

٦ ـ ونود هنا أن نستدرك لنقول إن هذا البحث لا يدافع عن الأمير اياس بقدر ما يدافع عن الجامع الكبير في طرابلس ويدفع بالتالي تهمة الخيانة العظمى عن الأمير المذكور وهو أحد نواب السلطنة المملوكية...فقد يكون الأمير ظالما وقد لا يكون وقد يكون بطاشا وقد لا يكون وقد يكون محبا للمال وللذهب وللجاه...ولكنه لن يكون بحال خائنا مرتدا ثم يستمر في ولايته بل وينتقل (أميرا كبيرا) اتابكا على عسكر الشام كما سنرى

٧ ـ يقول ابن صصري تحت عنوان (قتل اياس) :

" وفي شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، وصل من القاهرة مملوك الأمير الكبير جلبان ، وخبر نائب الشام أن السلطان قتل إياس حتى مات ، وأن السلطان أنعم على الأمير جلبان بخبزه وبيته وقد استراحت الناس من إياس ، قبحه الله تعالى ، ما كان اظلمه فانه ما كان في قلبه رحمة وفي الحديث : (ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء)[1] وفي الحديث : (أن الله يرحم من عباده الرحماء) وكانت أفعاله قبيحة ليس فيها دقة مليحة وكان يحب الإفرنج كثير ويقربهم ويمجد قدرهم وكانوا قد طمعوا في المسلمين في أيامه حتى كان يعبر إليه الرجل من أهل العلم ما يلتفت إليه ويدخل إليه الفرنج يقف لهم ويجلسهم إلى جانبه ويودهم ويتقاضى حوائجه وكان يميل إليهم كثير وما ذاك إلا كما قال بعضهم : " شبيه الشيء منجذب إليه ".

وأعجب ما جرى له معهم انه لما كان نائب طرابلس سنة أربع وتسعين وسبعماية أراد أن يأخذ جامع طرابلس يعطيه للإفرنج يعيدوه كنيسة وكانوا قد وعدوه بذهب كثير وهو طماع فقاموا عليه القضاة وكبار البلد والعوام وأرادوا يرجموه ثم أن السلطان عزله وأرسله الى دمشق أمير كبير وهكذا فعل في دمشق، قيل إن في بعض بلاده قطعة ارض وقف على مسجد بلد فطلبوها النصارى منه يوقفها على دير لهم ، فأعطاهم إياها ، وخلا المسجد بغير وقف ، قبحه الله تعالى على هذه الفعال.

وقيل : أنه قطع في بلاد الغور سبعين يد ظلم وقطع رجل رجل مسلم لكونه وطئ برجله صليب إفرنجي ، واخرب الغور وهربوا أهله منه ، وهو كان سبب هلاكه ، وكان من كبار الظلمة ، لا يرق لشاكي ، ولا يرحم عبرة باكي ، وبقيت أهل دمشق معه في ضيقه وهو لا يسمع من نائب ولا من حاجب • وقيل : انه دخل إليه في بعض الأيام رجل شريف له معه طلب فضربه بالعصي حتى كان يموت وهو يقول : " كرامة لله كرامة لرسول الله " ما يلتفت إليه وبجنبه إفرنجي يحدثه • ثم إن الإفرنجي شفع فيه فقبل شفاعته ، فقال له الشريف ، " أنا أقول لك" كرامة لله كرامة لرسول الله " ما تقبل وتقبل من إفرنجي ، اضربني حتى أموت، ولا أقوم بشفاعة عدو الله تعالى "[2].

* * *

إن النص أعلاه والذي يضم الاتهامات المساقة ضد الأمير اياس مبني أكثره للمجهول ـ كما ترى ـ وقد عبر ابن صصري عن ذلك بقوله (قيل)..وقد أورد

(١) روي الحديث بالنص التالي : (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء).

(٢) ابن صصري : الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، ص ١٩١ ـ ١٩٢.

المؤلف النص الاتهامي بعد إثبات وفاة الأمير اياس الجرجوري ، وهو أمر يحمل أكثر من علامة استفهام ويوحي بأغراض المؤلف التشويهية ، وعلى كل حال لا بد أن نسأل من يكون اياس هذا ؟

٨ ـ **هو الأمير سيف الدين فخر الدين اياس الجرجاوي** من (أمراء الألوف بالقاهرة) على ما يقوله المقريزي في كتاب السلوك في معرفة دول الملوك[٣] ،ويظهر اسمه في أول عمل رسمي له في دولة الظاهر برقوق عندما تولى نيابة صفد.

وإذ أراد منطاش نائب الشام في عام ٧٩٢ هـ الاستقلال عن السلطان الظاهر برقوق والتفرد بالملك دونه ، استحكم الصراع بينهما ونشبت الحروب وتعددت المعارك (واشتد الأمر على الناس)[٤] ،يقول ابن صصري في تاريخه (الدرة المضيئة) عن إحدى هذه المعارك الشرسة في دمشق ، بعد أن ذكر اشتداد الأمر على الناس والخوف من المناطشة قد بلغ حدا عظيما إذ أنهم : " في المدينة دائرين ينهبون إلى العصر وإذا بغبار سد الأقطار وذكروا أن الناصري وعسكر الشام قد وصل من ناحية المزه ففي الحال ركب منطاش وركب عسكره وطلع من كان في المدينة منهم ودخل الناصري إلى تحت القلعة والعساكر ودخل إلى الميدان وتقاتلوا ساعة ولم يقدر عليهم ودخل الليل وخرج الناصري...وبات الناس في أشر ليلة[٥]...واصبح نهار الخميس (من شهر رجب الفرد من عام ٧٩٣هـ) دق الناس البشائر في القلعة وذكروا أن نائب صفد أياس جايه [هكذا في الأصل ويعني سيجيء] إلى نائب دمشق الناصري ففرحت الناس وبقوا في هرج ومرج...ثم إن القتال اشتد وضُيّق على الناس الذين لجوا (في دعاء إلى الله تعالى أن يفرج عنهم هذه الضائقة) ، وهلك الفقير وانكشف حال الغني ولا بيع ولا شري [أي شراء] والناس منتظرين رحمة الله تعالى..."[٦] ثم يقول " ولما كان نهار الاثنين دقت البشائر وذكروا أن اياس واصل من صفد وانه جاية[قد جاء] على باب شرقي ومعه عسكر صفد ففرحت الناس به ووصل إلى تحت القلعة وركبت عساكر الشام وتقاتلوا قتال عظيم..."[٧] ويتابع (وركب ثاني يوم اياس والناصري والعساكر وبقي اياس وجماعته يقاتلوا من تحت القلعة الذي في

---

(٣) م.ن. ، ج ٣ ، ص ٨٨٢ .

(٤) م.ن. ، ص ٧٩.

(٥) م.ن. ، ص ٧٨.

(٦) م.س. ، ص ٧٩ . وبينت كثيرا من أخطائه اللغوية وعباراته الركيكة ، التي كثيرا ما تخل بالمعنى المقصود من المؤلف.

(٧) م.س. ، ص ٨٠.

جامع يلبغا "[٨] ويؤكد ابن صصري أن في هذه المعركة الطاحنة قد جرى ، (من قبل المناطشة) ، حرق بيوت وأيضا جامع تنكز ـ وهو من المساجد الجميلة في دمشق ـ ويعقب فيقول : "وكان حريق عظيم ، وصعب ذلك على الناس كيف احترق بيت الله تعالى وفيه مصاحف وكتب علم وحديث وغيرها[٩] ..."

٩ ـ ثم يقول : " وفي ثالث يوم ركب الناصري واياس ، وأتت إليه العساكر وطلب القضاة وقال لهم : "ما تقولوا في هذا الأمر ؟ قد طال الشر على الناس"، وغيرهم ، وغريم السلطان ما يطلع من البيوت حتى ينتصف واحد منه ، وقد هلكت الناس" فقالوا له : " ارسم أن ينادى في المدينة ظاهرها وداخلها بأن لا يتخلف أحد من العوام وأرباب الصنائع ، لا صغير ولا كبير ، حتى يخرج يجهد بنفسه في نصرة السلطان الملك الظاهر برقوق ، ومن تخلف راحت روحه وماله ونهبت دياره ".فنادت المشاعلية بتلك المناداة في المدينة وبراها، وخرجت حتى اليهود والنصارى وألزموهم بالقتال ، واجتمعت كل طائفة بطائفتها وكل سوق بسوقه وكل حارة بحارتها بقسي ونشاب وعدد وسلاح وكل من له مكنة على قدر حاله ، واجتمعت ناس كثيرة برا المدينة.ولما سمع منطاش أن الناصري قد جمع عليه العوام نادى في نواحيه " يا عوام أي من ضرب بحجر أو بعصاه قتل ونهب،ولا تدخلوا بيننا وتفرجوا علينا ! " فحارت الناس بينهم[١٠] .

١٠ ـ ثم ذكر ابن صصري وقائع معارك دمشق ومذبحة الجند الطرابلسيين الذين جاؤوا إلى دمشق لنصرة نائبها الناصري ، حيث تمكن منهم جند المناطشة ليل وصولهم وهم نيام من شدة التعب[١١] إلى أن ذكر انتصار الناصري ومناداته (بالأمان والاطمان [الاطمئنان]) ، وانشرحت الناس وراحت العساكر إلى بلادهم وطلعت الناس إلى بيوتهم وفتحوا دكاكينهم...[١٢] ، ثم يذكر ابن صصري أن السلطان برقوق وصل إلى الشام ونزل في حلب ، ثم ذكر أن السلطان قد اعتقل الناصري نائب الشام وعدة أمراء كانوا قد اتفقوا على قتله[١٣] ثم حكى دخول برقوق دمشق ثانية واحدث تغييرات شتى في الجيش والولاة والنيابات وحيث عين الأمير بطا نائبا على دمشق ، وهو رجل مشهور بالجودة وشاب حسن شكله

---

(٨) م.س. ، ص ٨١.

(٩) م.س. ، ص ٨١.

(١٠) م.س. ، ص ٨١ ـ ٨٢.

(١١) م.س. ، ص ٨٩.

(١٢) م.س. ، ص ٩٣.

(١٣) م.س. ، ص ١٠٠.

مليح [١٤] كما جعل حاجب الحجاب فيها الابطا المنجكي وكان حاجب جيد حاكم مليح رجل عاقل عارف بمصالح الناس وحبوه أهل دمشق وولى ارغون شاه نيابة صفد عوض اياس [١٥]

١١ ــ وما لم يقله ابن صصري هنا عن الأمير اياس (بعد الإنعام عليه) من قبل السلطان بنيابة طرابلس بعد صفد...قاله في مواطن أخرى إذ أن الأمير اياس نائب صفد خف للقاء السلطان في حلب ، إذ أن السلطان برقوق كما رأينا من قبل ، قد دخل حلب في الثامن من شوال ٧٩٣ هـ ...(ويوم الثلاثاء ثاني عشر الشهر حضر اياس من صفد ومن يومه خرج يلحق [بـ] السلطان).ويبدو أن السلطان برقوق قد أجرى في حلب عدة تشكيلات ومنتقلات وفق ما يقوله المقريزي : " ولي الأمير بطا الدوادار نيابة دمشق ــ كما رأينا ــ والأمير جلبان الكمشيفاوي رأس نوبة نيابة حلب والأمير فخر الدين اياس الجرجاوي في نيابة طرابلس والأمير دمرداش المحمدي في نيابة حماه وأنعم على قرادمرداش نائب حلب بإقطاع الأمير بطا...ثم سار من حلب من أول ذي الحجة يريد دمشق فوصلها في (الثالث عشر منه،وفي ثالث عشرينه ــ أي من ذي الحجة ــ توجه السلطان من دمشق يريد القاهرة[١٦]

بينما ذكر ابن صصري أن السلطان خرج من حلب بعد يومين أو ثلاثة من شهر ذي الحجة[١٧] وانه دخل دمشق في (ثامن عشر الشهر) [١٨] وانه قام ببعض التعيينات (في خامس عشرين) أو في (العشرين) [١٩] ثم يذكر انه في (ثاني عشرين خرج السلطان من قلعة دمشق يريد القاهرة[٢٠].

ويفهم مما تقدم ومن اختلاف التواريخ ، أن السلطان قد أجرى تعييناته في حلب ــ (ومنها تعيين الأمير فخر الدين اياس على نيابة طرابلس ــ في ذي القعدة ٧٩٣) ، بينما ذكر ابن صصري أن السلطان قد أجراها في دمشق في ذي الحجة قبيل مغادرتها إلى القاهرة.ويمكن التوفيق بين الأمرين أن قسما من التعيينات جرى في حلب في شهر ذي القعدة ومنها تعيين الأمير اياس في نيابة

(١٤) م.س. ، ص ١٠١.
(١٥) م.س. ، ص ١٠٣ ، أي (حاجبا جيدا وحاكما الخ ...) وأخطاء ابن حصري اللغوية لا تعد في كتابه.
(١٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ص ٧٥٣ ــ ٧٥٤ .
(١٧) ابن صصري : الدرة المضية ، ص ١٠١.
(١٨) م.ن. ، ص ١٠٣.
(١٩) م.ن ، ص ١٠٣ ، والتصحيح من ٢٥ إلى ٢٠ مأخوذ من هامش الكتاب ، وهو الأصح وفق تسلسل التواريخ .
(٢٠) م.ن. ، ص ١٠٩.

طرابلس ، وأن القسم الآخر قد جرى في دمشق في شهر ذي الحجة ومنها إسناد نيابة صفد التي كانت للأمير اياس إلى أرغون شاه.

١٢ ــ وعندما كان اياس نائبا في طرابلس ، عاد منطاش خصم السلطان برقوق إلى تحركاته وبخاصة في حلب ، وحاصر منطقة الباب فيها ، فبعث الأمير جلبان نائب حلب إلى نائب طرابلس اياس يقول له " انك تقوم تجيء بعسكر طرابلس فان عدو السلطان قريب من حلب حتى تتساعد عليه" ، فركب اياس وجاء إلى حلب ونزل في ميدان حلب [٢١] ،وبعد أن بقي عسكر طرابلس في ميدان حلب ثلاثة أيام رد نائب حلب جلبان اياسا إلى طرابلس خوفا على بلده[٢٢]،دون أن يحدد المؤرخ مصدر هذا الخوف ، فهل خاف جلبان على حلب من أياس وهو الذي استدعاه ؟ أم خاف على طرابلس من خطر دهمها ، فرد نائبها إليها ؟؟

١٣ ــ يقول المقريزي في كتابه السلوك[٢٣] : وفي ثالث عشرة ــ أي من محرم سنة ٧٩٥هـ ، قدم البريد بموت كمشفا نائب دمشق ، فاستقر عوضه تاني بك الأمير المعروف بتنم الحسني أتابك دمشق ، وأنعم بإمرته ــ أي إمرة اتابك دمشق ــ على فخر الدين اياس الجرجاوي نائب طرابلس ، ونقل دمرداش المحمدي نائب حماه إلى نيابة طرابلس ... "

يفهم من ذلك أنه بمناسبة وفاة نائب دمشق أجرى السلطان سلسلة متنقلات أوصلت اتابك دمشق إلى نيابتها واياس الجرجاوي إلى اتابكية دمشق ونائب حماه إلى نيابة طرابلس.تلك تراتبية في النيابات معروفة في العهد المملوكي،فنيابة دمشق أولا تليها نيابة حلب ثم نيابة طرابلس ثم نيابة حماه.أما اتابكية دمشق فهي القيادة العسكرية الأولى في بلاد الشام ، وتلي نيابة دمشق وهو ما سنبينه لاحقا[٢٤] لترابط تلك التراتبية بموضوع اياس الجرجاوي.إذ أن ابن صصري، في كتابه الدرة المضيئة ، ذكر أن اياس قد نقل من طرابلس " تأديبا " إلى اتابكية دمشق وأن أهل طرابلس وقضاتها وعلمائها ثاروا عليه لظلمه ولأمور عرفت عنه يكفر صاحبها • من ذلك انه كان يحب الفرنجة وكان قد هم بتسليم جامع طرابلس إليهم ليعيدوه كنيسة (وكانوا قد وعدوه بذهب) [٢٥] ،وهو ما سنبين بطلانه لاحقا.

(٢١) م.ن ، ص ١٣١.
(٢٢) م.ن ، ص ١٣٢.
(٢٣) المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ، ج ٣ ، ص ٧٨١ .
(٢٤) انظر نهاية هذا البحث ، ص ٩ وتاريخ طرابلس السياسي والحضاري ، ج٢ للدكتور تدمري ص ١٦ ــ ١٧.
(٢٥) ابن صصري : الدرة المضيئة ، ص ١٩٢.

١٤ ــ وخلال إقامته في دمشق اتابكا لعسكرها إلى جانب واليها ونائبها " تنم الحسني الملكي الظاهري أدام الله تعالى أيامه"[٢٦] على ما يقول به ابن صصروي، وقد تولاها في شهر المحرم سنة خمس وتسعين وسبعماية ، ولم يورد ابن صصري أي خلاف بين الرجلين ولا أية مظلمة أو تعد أو بأس من اتابك العسكر اياس ، الأمر الذي يؤكد وجود التفاهم بين النائب والأتابك سحابة أربع سنوات ووجود التعاون والانسجام الكامل إن لم نقل الود.ويبدو أنه قد وقع ــ فيما بعد ــ ما يفسد هذا (الود) بينهما،فانتقل الخلاف إلى الأبواب السلطانية في القاهرة في أواخر عام ٧٩٨ هـ بمبادرة من الأمير اياس .

يقول ابن صصري تحت عنوان (المشاجرة بين اياس وتنبك سنة ٧٩٩هـ) :

" في هذه السنة المذكورة ــ يعني أواخر عام ٦٩٨ هـ ــ تنافس نائب الشام واياس وقد روى بذلك أكثر الناس ، فعند ذلك طلب الأمير اياس الحضور إلى الأبواب الشريفة فأجيب إلى ذلك...في شهر القعدة من السنة المذكورة ، ووصل إلى القاهرة ودخل إلى السلطان فلم يلتفت إليه ، والذي حسبه انقلب عليه !!! .

ثم إن ملك الأمراء تنبك ــ حرسه الله تعالى ــ لما توجه اياس إلى عند السلطان خاف ، كيلا يتكلم في حقه بما لا يليق ، فطلب الحضور إلى الأبواب الشريفة ، فأجيب إلى ذلك فعمل تقدمة هائلة وأرسلها وخرج خلفها.

وقعد في القاهرة أياما في هناء وسرور وقد نصره الله تعالى وصار عدوه مقهور...فلله الحمد على ذلك...ثم إن مولانا ملك الأمراء خرج من القاهرة في خير وسلامة إلى الشام على نيابته معزوزا مكروما ...

١٥ ــ ويذكر ابن صصري في تاريخه أن دمشق عاشت في سنوات حكم تنبك والأمير اياس أياما صعبة من محل وقحط وجفاف وتعديات وحريق كبير ...[٢٧] ومما لا ريب فيه أن هذه الظروف القاسية توجد ارتباكات عديدة في الطبقة الحاكمة.ومن الطبيعي أن يقع خلاف بين الوالي وقائد الجيوش وهو أمر يوجد (التنافس) ، فيسعى كل منهما لكسب الحاكم الأكبر (السلطان) إلى صفه.

وهكذا وفي شهر صفر ٧٩٩ هـ .قدم الأمير تنم نائب الشام[٢٨] إلى السلطان، فأكرمه غاية الإكرام ثم (خلع عليه باستمراره على نيابة دمشق)[٢٩] على ما يقوله ابن تغري وأثناء إقامته في القاهرة شفع للأمير جلبان الكمشيفاوي المعزول عن

(٢٦) م.ن ، ص ١٩١.
(٢٧) م.س. ، ص ١٦٤ وما بعدها .
(٢٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج١٢ ص ٤٦.
(٢٩) م.ن. ، ص ٦٥.

نيابة حلب ، فقبل السلطان شفاعته[٣٠] واستدعى السلطان جلبان من دمياط فقدم بعد أيام وقبل الأرض بين يدي السلطان، فأنعم عليه السلطان بإقطاع الأمير اياس الجرجاوي ، وخلع عليه اتابكية دمشق عوضا عن اياس المذكور[٣١] .

١٦ ــ وبينما كان الأمير تنم يشفع بالأمير جلبان ويقترحه اتابكا على دمشق، أصدر السلطان أمره أن يُسلّم الأمير اياس الجرجاوي إلى ابن الطبلاوي (والي القاهرة) ليخلص منه الأموال فأخذه ابن الطبلاوي ، فالتزم بحمل خمسماية ألف درهم[٣٢] ،وبعث الأمير اياس مملوكه لإحضار ماله من دمشق فخلى عنه لمرضه،[٣٣] واختلف الناس في موته ، منهم من قال أنّه كان معه خاتم فيه سم فشربه فمات منه قهرا . مما فعله معه الملك الظاهر ، ومنهم من قال انه مات بمرضه والله اعلم بحاله[٣٤] على ما يقوله أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي صاحب (كتاب النجوم الزاهرة).ذلك أن الأمير اياس كان وفيّا للملك الظاهر برقوق ، وقد رأينا من قبل قتاله في دمشق وحلب فضلا عن استقرار نيابة صفد في عهده ، ومن بعدها المملكة الطرابلسية الشريفة.ويبدو أن اياسا هذا اشتد به المرض فمات قهرا ألما من السلطان ومن الأمير تنم صاحبه في دمشق.ونستبعد على التّو قصة الخاتم المسموم.بسبب أن والي القاهرة قد ترك الأمير اياس حرا بعد أن تمّت تصفية الحسابات المالية بالتزام الأمير اياس بدفع الخمسماية ألف درهم وابتعاثه مملوكه ليأتي بماله من دمشق ، فليس هناك من سبب يدعو إلى نحر نفسه بمص سمّ في خاتمه.وهذه الرواية قد تكون محتملة في حال وجود الأمير اياس في السجن ينتظر حكما قاسيا بحقه أما وقد سويت الأمور ، خاصّة وأنّ (التهمة) من الأمير تنم الحسني محصورة بأموال لم يؤدّها الأمير ايلس ، مما دفع الأمير عند إجراء الحساب مع والي القاهرة إلى أن يلزم نفسه بالتسديد ، فهذا ينفي قصة الخاتم المسموم .وقد ورد في النّصين التاريخيين المذكورين آنفا أن الأمير اياس التزم بدفع خمسماية ألف درهم ولم يُلزم بهذا الدفع من قبل والي القاهرة المُسلّم إليه الأمير اياس.ولم تتعد (المحاكمة) إلاّ الحساب المالي [وقد سوّي] فليس من مبرر إذن للانتحار.زد على ذلك أن صاحب النجوم الزاهرة شكك بقصة الخاتم المسموم بإيراده احتمال وفاته طبيعيا بسبب مرضه وتأكيده أن الله اعلم بحال الأمير اياس وبسبب وفاته .

(٣٠) م.ن ، ص ٦٥.
(٣١) م.ن ، ص ٦٦ ؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١٢ ، ص ٨٧١.
(٣٢) م.س. ، ص ٦٦ .
(٣٣) م.س.، ص ٦٦.
(٣٤) م.س.، ج ١٢ ، ص ٦٦.

١٧ ـ وإذ فعل ذلك ابن تغري بردي في ص ٦٦ مجلد ١٢، يعود في الصفحة ١٥٥ ليثبت وقائع تاريخية موهومة منها أن الأمير اياس تولى نيابة طرابلس ثلاث مرات ، آخرها في سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية أي في عام ٧٩٣ هـ ـ كما قدمنا وأنه غدا اتابكا بدمشق فأقام بها يسيرا ، وطلب إلى القاهرة ، ويقول د.عمر تدمري في كتابه آثار طرابلس في حاشية الصفحة ٦٠، أن ما ذكره ابن تغري(ليس له صحة) إذ أن اياس لم يتول نيابة طرابلس إلا مرة واحدة، وهو أمر مجمع عليه بين المؤرخين ٠ وقد كان اياس من قبل نائبا في صفد.مما أشكل على ابن تغري ، كما أشكل عليه الأمر في اتابكية دمشق ، إذ أن اياسا هذا لبث اتابكا فيها سحابة أربع سنوات ٧٩٥ هـ ـ ٧٩٨ ولم يستدع إلى القاهرة ، وإنما طلب هو إسماع السلطان برقوق كلامه عن نائب دمشق وخلافهما فقبل طلبه ومثل في الأبواب السلطانية كما قاله ابن صصري بنفسه.

١٨ ـ ومما تقدم نستلخص أن الأمير اياس لم يهن ولم يعذب من قبل السلطان حتى مات من شدة العذاب على ما ذكره ابن صصري في تاريخه ونقله عنه د.عمر تدمري في كتابه[٣٥] فقد ذكر ابن صصري ما يلي : "وصل من القاهرة مملوك الأمير الكبير جلبان وخبر نائب الشام أن السلطان قتل اياس حتى مات"[٣٦].

ومن هذه الوقائع يتبين :

أن الخلاف بين والي الشام والأمير اياس كان " تنافسا "

وانهما عاشا متضامنين حتى أواخر ٧٩٨ هـ

وأن الأمير اياس بادر إلى الاحتكام إلى السلطان الذي قبل حضوره إلى القاهرة

وأن الأمير تنم بادر بعد سفر الأمير اياس إلى طلب موافاة السلطان وخرج إلى القاهرة في محرم /٧٩٩ هـ

وأن السلطان قد مال إلى الأمير تنم فثبته في نيابته

كما يستفاد من النصوص التي أوردناها من قبل عن المقريزي وابن بودى أن الأمير تنم شفع للأمير جلبان المعاقب من قبل السلطان فعينه اتابكا على دمشق بدل الأمير اياس الذي خضع للمحاسبة (المالية) فالتزم بتأدية أعباء كانت عليه وسمح له بجلب أمواله من دمشق ثم مات مرضا بعد يومين من المحاسبة في القاهرة في أواخر صفر ٧٩٩ هـ .

(٣٥) د. عمر تدمري : آثار طرابلس الإسلامية ، ص ٦٢.

(٣٦) ابن صصري : الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، ص ١٩١.

واهم استنتاج في هذا الصدد أن ابن صصري في كتابه كان متحاملا على الأمير اياس منتصرا للأمير تنم والي الشام ـ حرسه الله تعالى ـ وعلى هذا يغدو تأريخه للرجل فيه اكثر من علامة استفهام ، وبالتالي لا يجوز أخذه كوقائع ومسلمات يبنى عليها.

فهو يذكر : " انه في ربيع الأول ـ من السنة المذكورة [٧٩٩هـ] وصل من القاهرة مملوك الأمير الكبير جلبان وخبر نائب الشام أن ابن السلطان قتل اياس حتى مات "[٣٧].

فإذا عرفنا أن الأمير اياس قد مات في القاهرة في أواخر شهر صفر عندما كان الأمير تنم في القاهرة لا في دمشق يشكو الأمير اياس ويشفع للأمير جلبان الذي جرى تعيينه اتابكا على عسكر دمشق عوض الأمير اياس المعزول والمحال إلى الحساب المالي....رأينا كيف أن ابن صصري قد وقع في (خلط وافتئات وتجن) على الأمير اياس.وقد لا يتجاوز الأمر أن يكون الأمير جلبان وقد عين حديثا آنذاك على اتابك دمشق عوض "اياس" ، قد أرسل مملوكه إلى عسكر دمشق مع خبر تعيينه وخبر وفاة الأمير اياس فإذا بابن صصري يحول خبر الموت إلى خبر [القتل] والضرب والإهانة حتى الوفاة تعذيبا) ، وكأنه بذلك يشفي منه غليله.

١٩ ـ وتاريخ ابن صصري في الدرة المضيئة بصورة عامة وكما رأينا وسنرى ـ فيه اضطراب غير مقبول إلا أن تكون أحداثه مروية في مصادر أخرى أو غير متناقضة مع المجرى العام لتاريخ الدولة المسلمة المملوكية ٠ وعلاوة على ذلك فان الركاكة في الكتابة بلغت مداها ، وهو أمر قد يغير المعنى أو يوجد اشكالات إلى النحو الذي لم يقصده الكاتب أو أن يكون الناشر قد صرفه إلى نحو معين عندما صحح بعض الأخطاء ٠ زد على ذلك فان ما ذكرناه وما سنذكره لاحقا من تحامل وعداوة ظاهرين ،عند ابن صصري، إزاء بعض الأحداث الخاصة باياس، تجعل الدرة موضع ارتياب ، وان غلف صاحبها (ذلك) بمجموعة من الأشعار والقصائد والخطابات والأقوال والحكم والمواعظ والدروس.وهذه جميعها إلى كتاب الأدب والحكم أقرب.يؤخذ منها ويرد عليها ، فقد تهمل لسخافتها واضطرابها ، أو قد تعتمد في حال صحة مصادرها...وهي في كل حال ، ليست إلى كتاب تاريخ...

٢٠ ـ ومرد تقريراتنا أعلاه تشير إلى أن ابن صصري قد تجاوز فعل المؤرخ إلى المتهم والمحاكم ،وعليه يجب أن نهمل تقريراته وحكاياته التي انفرد بها دون جميع المؤرخين، وبخاصة أمر الجامع المنصوري الكبير في طرابلس

(٣٧) م.ن. ، ص ١٩١.

حيث قال أن اياسا عندما كان نائبا على المملكة الطرابلسية هم بتسليم الفرنج جامعها ليردوه كنيسة وانه كان يحب الإفرنج كثيرا ويقربهم ويمجد قدرهم ، ثم لما ثار عليه علماء طرابلس والعوام نقله السلطان إلى دمشق (أمير كبير) أتابكا على عسكرها ، وأنه في دمشق فعل ما فعله في طرابلس.وأنه حرم مسجدا من أوقافه وأعطاها للنصارى وأنه قطع سبعين يد ظلم ، وقطع رجل مسلم لكونه وطئ برجله صليب إفرنجي[٣٨] وأنه بكلمة واحدة كان ظلوما جهولا...

قد يكون الأمير اياس محبا للمال وقد يكون ظلوما ، فهو رجل عسكري عاش الحروب الطوال ــ كما رأينا ــ ولكن أن يصل الأمر به إلى الردة عن دينه (وهو وال على طرابلس أو اتابكا على عسكر الشام) ، فهو قول مردود ، فيه كثير من التعسف ، فالأمير اياس مملوك من مماليك الألوف ، وهو الصنف الأعلى في المماليك ، ومن بين أمراء الألوف كان المنصور قلاوون نفسه...وهو ــ كما رأينا ــ كان نائبا على صفد ومدافعا عن دمشق وحلب ضد خصوم السلطان برقوق ، وكان ــ كما رأينا ــ مخلصا (لولي الأمر) وقد استمع إلى قول العلماء والقضاة في دمشق لما استفتاهم مع الأمير الناصري حول (جواز) قتال الأمير منطاش ومن معه عندما شقوا عصى الطاعة على السلطان ، وهذا فيه معنى الالتزام بأحكام الشريعة وخضوعه لمقررات الفقهاء في الشؤون الأمنية أو ما يسمى بالنظام العام.ثم نرى السلطان يكافؤه بولاية طرابلس حتى عام ٧٩٥هـ.حين (أنعم عليه) باتابكية دمشق كما يقول المؤرخ المقريزي.ثم تعايش مع الأمير تنم الحسني نائب الشام سحابة أربع سنوات في حاكمية دمشق.والأمير تنم محمود السيرة ، عند ابن صصري ، المتحامل على اياس إلى أن وقع (التنافس) بين الإثنين النائب والاتابك عندما احتكم اياس إلى السلطان وتبعه تنم في الإحتكام وكان ما كان .

٢١ ــ ولم يذكر ابن صصري في تاريخه الذي على ما يبدو ــ كان ــ يكتبه يوما بيوم، أي أمر منموم عن الأمير اياس ، سواء أثناء ولايته في طرابلس أو في اتابكية دمشق ، حتى إذا ما ورد الخبر بموته أو (قتله) كما أحب ابن صصري أن يذكر تفجرت عنده (القصص) التي أخذ ينسبها إلى (الميت الأمير اياس) الذي (استراحت الناس منه)[٣٩] ، وهنا عاد بذاكرته المتحاملة إلى عام ٧٩٤ هـ ، ليلصق به تهمة (جامع طرابلس وحبه للإفرنج) ثم يشتد عليه ويتهمه (بقطع الأيدي والأرجل) ، ويرسم له ــ ضمن مخيلة جامحة ــ تاريخا اسودا،ولو أنه كان يعرف ما جرى للأمير اياس في القاهرة من أن (المحكومية)

---

(٣٨) م.س. ، ص ١٩٢.

(٣٩) م.س. ، ص ١٩٢.

عليه لم تكن إلا بضعة مئات من آلاف من الدراهم التزم هو بدفعها وسمح له بأن يأتي بكل ماله من دمشق ، لما أطلق لنفسه العنان ويتخيل [على هواه] كيف أن غضب السلطان كان كبيرا على الأمير اياس الذي اتهمه بالردة والظلم (فيقتله) حتى يموت!!!

٢٢ ــ وبما أن اتهامات ابن صصري للأمير اياس تعتبر من (الكبائر) لذلك يقتضي الأمر تمحيصها وتحليلها وكشف الظروف الواقعية لما أورد ، خاصة أنه انفرد بها دون سائر المؤرخين.وعلى هذا فلا يستحسن أن تنساق مثل تلك الاتهامات بحق وال مملوكي حكم (المملكة الطرابلسية الشريفة) ثم اتابكية دمشق، ثم يصمت المؤرخ المحايد وهو المأمور بالتبين كيلا يصيب قوما بجهالة!!!

ومع أن اضطراب (الدرة) يكفي لإطفائها وإن تحامل صاحبها على الأمير اياس وانتصاره ومدحه لخصمه السياسي يكفي لإسقاط التهمة عنه ، كما أن انفراد (مشعل الدرة المضيئة) بالأخبار والقصص الغريبة والعجيبة يكفي لإظهار تهافتها كل ذلك يدفع إلى الشك الكبير بأن ابن صصري ما فعل ذلك إلا طلبا للتقرب من الأمير تنم والي دمشق أو أنه حسب أن ذلك قد يقربه منه واليه فحسبه انه شوه سمعة الأمير اياس وانتصر للأمير تنم حماه ورعاه وحرسه الله تعالى كما ورد في الدرة .ومع أن هذا يكفي لإسدال الستار عن الاتهام إلا انه من الأفضل إن نعالج أمر التهم بموضوعية أخرى ومن منظور المناقشة التاريخية البحتة.وعلى هذا كان لا بد من إجراء (محاكمة عاجلة) للأمير سيف الدين فخر الدين اياس بن عبد الله الجرجوري ونبدأها بالتهمة الأكبر :

٢٣ ــ أ ــ محاولة تسليم جامع طرابلس إلى الفرنجة ونرد بما يلي:

من المعروف أن الفرنجة ،أعداء الأمة ، لم ينفكوا يعتدون على طرابلس بعد تحريرها عدة مرات خلال القرن الأول من التحرير (٦٨٩ هـ ــ ٧٩٣هـ) ــ بداية عهد الأمير اياس ــ فقتلوا وسفكوا دماء أهلها، وكان آخر تلك الاعتداءات في سنة ٦٩٢هـ أي قبل استلام الأمير اياس نيابة طرابلس بأشهر معدودات.وذكرى أحداث هذا المسلسل من العدوان الغادر[٤٠] ، علاوة على جميع

---

(٤٠) لطرابلس المحررة المستجدة تاريخ حافل مع الفرنجة ، وبخاصة القبارصة الذين ما انفكوا يحاولون الإغارة عليها فابتداء من عام ٧١١ هـ بدأت الإغارة على بحر طرابلس ثم في عام ٧٣٥ هـ/١٣٣٥ م كانت محاولة ثانية تبعتها غلوة ثالثة حيث التحم العسكر الطرابلسي مع القبارصة في عرض البحر في قتال أسفر عن مقتل عدد من الفرنج واسر من بقي... ثم في عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥ م. قام القبارصة بغارة خاطفة على الميناء واخذوا بعض الأسرى وعاودها بعد عام... ثم قام بعض المسلمين في طرابلس بغارات مماثلة على الأسطول الفرنجي فقد أغار محمد الريس ــ وهو أحد البحارة الطرابلسيين ــ على الشواطئ القبرصية في سنة ١٣٦٣/٧٦٥ ونشبت بينه وبين السفن القبرصية معركة عنيفة أسفرت عن مقتل قائد الأسطول القبرصي .

الاعتداءات السابقة ومنها احتلال طرابلس من قبل الفرنجة الصليبيين زهاء قرنين، إلى أن حررها السلطان المنصور قلاوون المملوكي ، محفور في ذاكرة المدينة وأبنائها...وان أي اتصال بالعدو الفرنجة ، كان يعتبر خرقا للأمن العام وتمردا على السلطان الذي يحكم النائب بأمره...فكيف إذا كان تسليما؟ للمدينة وهي قضية ــ كما ترى ــ غاية في الخطورة ؟؟ ذلك أن تسليم الجامع للإفرنج لا يمكن أن يكون إلا إذا كان الإفرنج موجودون في المدينة.وحتى يكونوا كذلك لا بد أن يتسلموا المدينة أو على الأقل أن تتواجد مجموعات كبيرة منهم في مناطق يتوفر لهم فيها الأمن والأمان ، ويسيطرون على الأزقة التي تؤدي إلى الجامع الذي سيحولونه كنيسة أو يعيدوه ــ في رأي من قال ذلك ــ كنيسة.

وبعد أن اشتدت غارات الفرنجة القبارصة والبنادقة والجنوية على السواحل الإسلامية اصدر السلطان شعبان مرسوما منع التعامل التجاري مع الفرنج وأعلن انه يريد تحرير قبرص ...

وإذ كان ملك قبرص وملك رودس في عام ٧٦٩ هـ/١٣٦٧ على رأس أسطول كبير من أهل قبرص والجنوية والبنادقة وأهل الكريت والروداسيين والفرنسيين والهنغاريين والمجريين في حملة مشتركة على طرابلس ولم يكن فيها نائبها وعسكرها فيها إذ أن النائب اسندمر قد توفي بينما النائب الجديد سيف الدين منجك لم يكن قد وصلها وخرج العسكر ــ كالعادة ــ الى حدود المملكة لاستقباله فخلت المدينة منهم ويذكر ابن كثير عن هذه الحملة ما يلي : "... فأقبل المدبر في شواني ، مملوءة بكل لعين نصراني ، تزيد عدتها على المائة والثلاثين ، فلعنة الله على من فيها أجمعين . فنازلوها ، فلم يكن بها من المقاتلة من يحول بينهم وبين مقاصدهم التي حاولوها فانقضوا إليها من المراكب وارت جماعتهم فيها مواكب . فعاثوا فيها فسادا ، ولكن لم يقضوا منهم مرادا...

ولما كان معظم عسكر طرابلس بعيدا عنها فقد تصدى للغزاة أهل المدينة والتركمان الذين كانوا يرابطون عند عرقة مع قاضي عرقة ، وجنود من المغاربة كانوا يرابطون على ساحل طرابلس ولقد تمكن الغزاة من النزول إلى البلد فاقتحموها بعد أن فوجئ أهلها بهم وقاتلوهم قتالا شديدا ، واستولى الغزاة على المدينة " يوما وليلة " ونهبوا أسواقها وزحفوا إلى حيث السجن ليطلقوا سراح ابن أخت الملك القبرصي . ولما عرف المسلمون قصدهم أسرعوا إلى قتله ، ثم تحاملوا على أنفسهم واشتدوا في القتال ، ولحق بهم التركمان والمغاربة ، وحصل بينهم وبين الفرنج وقائع عديدة استشهد فيها من المسلمين نحو أربعين نفرا ، وقتل من الفرنج نحو الالف ، وتمكنت امرأة من نساء طرابلس من قتل أحد قادة الفرنج ، وألقي الرعب في قلوب الفرنج فتقهقروا إلى الساحل وهربوا إلى مراكبهم ، وأبدى المسلمون صنوفا من البطولة والشجاعة والفداء ، ومن ذلك أن أحد أبناء طرابلس ألقى بنفسه في البحر ، حتى لحق بمركب ملك قبرص "بطرس" وانقض عليه بسيفه فأصابه بجراح ، فيما اجتمع الفرنج من الحرس الملكي عليه فقطعوه بسيوفهم وجاءت هذه الحادثة لتعجل في إبحار الأسطول بسرعة ، بعد أن تحطمت منه بعض قطعه واسر المسلمون عددا آخر .

وفيما كانت طرابلس تعاني من الحروب بين الأمراء المتصارعين [بمجموعة منطاش ، والأمراء التابعون للسلطان برقوق ومنهم الأمير اياس وكان يومئذ نائبا في صفد] إذ بالأسطول الجنوي يخرج للإغارة عليها في شهر رمضان ٧٩٢ هـ/١٣٨٩ م. ولحسن حظ المدينة فإن الأسطول المؤلف من ٧٠ سفينة تعرض لعاصفة قوية بعد أن اشرف على الميناء، فغرقت سفنه وقلبت سفينة القيادة فأغرقتها بما فيها ، وارتد الفرنج و لم يبلغوا غرضا " . راجع في تفصيل ذلك المقريزي في السلوك والتدمري في تاريخ طرابلس السياسي ، ج ٢ ، ص ١٣٨ وما بعدها . هذا وقد حدثني الدكتور عمر تدمري حفظه الله أنه اطلع في استنبول ، في هذا العام ١٩٩٧ على مخطوطة ذكرت أن الفرنجة الذين احتلوا طرابلس في عام ٧٦٩ هـ/١٣٦٧ ليوم وليلة ، قد دخلوا الجامع الكبير وعاثوا فيه فسادا وبالوا على منبره وتبرزوا في محرابه قبل أن ينسحبوا من المدينة بفعل قتال الأهالي لهم وهذه الأفعال بلا ريب ، يبقى ذكراها قاسيا وأليما في ذاكرة المدينة وأهلها !

ومسألة في هذا الحجم لم يقل بها أحد حتى الذين تجنوا على الأمير اياس النائب في طرابلس باسم الخلافة الإسلامية وسلطنتها المملوكية قاهرة الصليبيين وطاردتهم من طرابلس وسائر بلاد الشام.

٢٤ ــ تسلم الأمير اياس ولاية طرابلس بتقليد سلطاني حمل من المعاني ما يصح أن يعتبر خطوطا أساسية للسياسة الواجب أن يمارسها النائب بعد تكليفه وطبيعة مهماته يقول التقليد :

" وليؤت تقدمة الجيوش الإسلامية حقها...ويرهب بإدامة الاستعداد قلوب أعدائها...فلا يلوح قلع في البحر للعدا إلا وهو يرهب الوقوع في حبالها...وليقم منار العدل ينشر لواءه ويعضد حكم الشرع الشريف برجوعه إلى أوامره وانهائه ..."[41]

فهل يعقل أن يتآمر الأمير اياس مع الفرنجة ليسلمهم المدينة من أجل تحويل الجامع إلى كنيسة؟؟ ومن اجل ماذا ؟ من اجل حفنة من مال (وعدوه به) على حد قول ابن صصري "فهو طماع يحب المال" ، وهو مال يمكن الحصول عليه بطريقة أخرى غير الخيانة العظمى ، وهو يعلم أن مثل هذا الأمر لن يتحقق ، وقد يكلفه حياته وما يملك من مال مملوك أو موعود فضلا عن ولاية وجاه ، فالمدينة ستقاتل الفرنجة ولن يمنع أهلها مانع حتى ولو اصدر نائبها الأمر بالتسليم ــ على افتراض حدوثه ، ذلك أن أهل المدينة يجاهدون ولو بدون جيش وقد فعلت المدينة ذلك من قبل لما نزل إليها القبارصة وكان جيشها خارجا مع النائب والاتابك والحاجب في عام ٧٦٩هـ كما رأينا ، فللمدينة ذكريات قاسية مع الفرنجة لا يمكن لها أن تتناساها ولا يجرؤ وال على تجاوزها.وعلاوة على ما تقدم فان ابن صصري لم يقل أن الفرنجة دفعوا للنائب المال وإنما قال : أوعده بذهب كثير[42] ، وهو وعد بالنسبة لطماع محب للمال ، لا يسمن ولا يغني من جوع ، فلا يعقل أن يجعل حياته وحياة مدينته ــ على افتراض أنه اقتنع بالخيانة ــ في موازاة صفقة معروفة خسارتها سلفا.فالقبض لم يتم على وجه السلف، حتى يمكن أن يدخل الأمير اياس في إجراءات تسليم الجامع إلى الفرنجة الواعدين بالمال.

٢٥ ــ على افتراض صحة كلام ابن صصري فذلك يعني أن واقعة التآمر غدت مشهورة متداولة ، وقد ثار الناس به والعلماء والقضاة حتى هموا برجمه وإن أخبار هذه الثورة ــ التي لم تتم ــ قد وصلت إلى السلطان برقوق الذي قرر نقل الأمير اياس "والإنعام عليه" بأعلى منصب عسكري في بلاد الشام أي اتابك عسكر دمشق وهو المنصب الذي يلي نائب الشام والمسؤول مباشرة عن الأمن

---

(٤١) راجع النص كاملا في صبح الأعشى للقلقشندي ، ج ٢ ، ص ١٧٧ ــ ١٧٩.

(٤٢) ابن صصري : الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، ص ١٩٢.

الخارجي والأمن الداخلي بآن معا !!! والنقل بالإنعام أمر في غاية الغرابة والإستهجان ويتعارض مع ابسط قواعد الحكم المملوكي إذ كيف يعقل أن تسند هذه المهمة الخطيرة لرجل ثبتت خيانته واتصاله بالفرنجة وغدا عنده أمر الجامع أمر المملكة والسلطنة مساويا لحفنة من ذهب !!

٢٦ ـ ومن المعروف أن مناصب النواب في ولايات بلاد الشام واتابك العسكر والوظائف القضائية والدينية هي على التراتبية التالية :

نيابة دمشق أو الشام هي الأولى ثم نيابة حلب ثم نيابة طرابلس ثم نيابة حمص وحماه وصفد.

وكانت نيابة حماه اكبر من نيابة طرابلس أولا ، ولكن نيابة طرابلس ما لبثت أن فاقت نيابة حماه فاصبح نائب حماه...اقل مرتبة من نائب طرابلس (بشيء لا يقاس) ، ويبدو ذلك في كتابة الملحقات والرسائل السلطانية حيث ذكر فيها نائب طرابلس قبله.وكان نائب طرابلس يتمتع كغيره بحق الكتابة إلى السلطان في مصر رأسا وهو من أعيان الكفال ومن اكبر مقدمي الألوف[٤٣] كما أن أهم المناصب التي تلي النائب(اتابك العسكر) وهو(أمير كبير مقدم ألف فارس) و(هو غير النائب)[٤٤]

أما الوظائف القضائية فقد كانت أربعا على المذاهب الأربعة يوليهم السلطان بنفسه في جميع البلاد السلطانية والنيابات • وكان لكل من القضاة الأربعة نواب يقومون عنهم في الفصل بالقضايا • وكان القضاء العسكري معروفا أيضا ، فكان للعسكر في طرابلس مثلا قاضيان ، أحدهما شافعي والآخر حنفي • كما أن من أهم الوظائف الدينية المفتي وخطيب الجامع المنصوري الكبير ، وكان السلطان يرسل إلى حكام مملكة طرابلس للترحيب بالخطيب الوافد إليهم[٤٥] ،وقد ذكر أن الخطيب يجري تعيينه من قبل السلطان[٤٦] .

فإذا كان نائب دمشق واتابك عسكرها يسبقان نائب طرابلس واتابكها ، فيعني ذلك أن الذي ينقل من طرابلس إلى دمشق في إحدى الوظيفتين يكون قد (أنعم عليه) ورقي في تسلسل الرتب ، ومن ينقل من صفد مثلا إلى طرابلس يكون أيضا ، قد أنعم عليه.أما أن يجري النقل من طرابلس إلى صفد أو حمص أو حماة فيكون ذلك لونا من العقوبة أو إظهار عدم الرضى...ولما نقل الأمير اياس من

---

(٤٣)د• عمر تدمري:تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج ٢ ، ص ١٦ ـــ ١٧.

(٤٤) م.ن. ، ص ١٩ ـــ ٢٠.

(٤٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٤،ص٣٥٠.

(٤٦) عبد الله نوفل : تراجم علماء طرابلس الفيحاء وأدبائها ، ص ٥٦ .وقد جاء السلطان قلاوون بأسرة الميقاتي إلى طرابلس وولاهم أمر الجامع الكبير.

صفد إلى نيابة طرابلس ، عد ذلك المؤرخون إنعاما كبيرا من السلطان ، وكذلك عندما نقل الأمير اياس إلى اتابكية دمشق ، فقد كان ذلك إنعاما أيضا كما ذكر المقريزي[٤٧].

٢٧ ـ وبناء على ما تقدم لا يمكن أن يسمى نقل الأمير اياس من نيابة طرابلس إلى اتابكية دمشق (عقوبة) أوقعها السلطان على اثر محاولة الأمير اياس (الموهومة) لبيع جامع طرابلس إلى الفرنجة ليحولوه كنيسة أو لملاطفة الفرنجة وتفضيلهم على الرعية وهو ما أسلفنا ذكره وبينا خطأه.

ومعنى " الإنعام "، كما هو معروف وواضح ، أن لا شيء ضد المعين المسمى لوظيفة كبيرة اكبر من التي يشغلها، خاصة إذا ما أتت تلك التسميات ضمن تشكيلات عامة.وهذا ما حصل للأمير اياس ـ كما ذكرنا من قبل ـ فقد مات الأمير كمشبتغا الخاصكي نائب دمشق في المحرم سنة ٧٩٥ هـ.، فأصدر السلطان بالمناسبة مجموعة تعيينات فاستقر على نيابة دمشق تاني بك الأمير المعروف بتتم الحسني (اتابك دمشق) وأنعم بإمرته ـ أي إمرة الاتابك ـ على فخر الدين اياس الجرجاوي نائب طرابلس ، ونقل دمرداش المحمدي نائب حماه إلى نيابة طرابلس واستقر اقبغا الصغير في نيابة حماه واستقر حسن المومني والي الجيزة في ولاية قطبا وعزل علي بن الطشلاقي واستقر على ابن قراصا في ولاية الجيزة)[٤٨] .

ففي تراتبية التعيين ورد ذكر الأمير اياس بعد الأمير تنم الحسني نائب دمشق الجديد الذي جاءها من اتابك العسكر وآلت إمرة الاتابك إلى الأمير اياس ثم ذكر نائب طرابلس الجديد ثم حماه.وإذا ما كان ضمن المناقلات عقوبة ذكر المعاقب كما قال المقريزي بقوله "وعزل علي الطشلاقي " من ولاية الجيزة .

٢٨ ـ وهكذا يتبين أن نقل الأمير اياس كان ترقية له ، ولذلك لا يمكن الركون إلى أقوال ابن صصري الذي ثبت انه متحامل على الأمير اياس • فلا يعقل بحال من الأحوال أن يجري في نيابة طرابلس ما ذكره ابن صصري وان تثور طرابلس بنائبها وان يعلم بذلك كله السلطان ثم ينعم على الأمير اياس باتابكية دمشق ، فهو أمر في غاية الغرابة وهو بعيد جدا عن منطق الأمور كما بينا وفيه استحالة .

فالسلطان برقوق يقدم على المعاقبة الشديدة لأدنى من هذه العظائم ، كما لا يمكنه وليس من مصلحته أيضا أن يواجه إرادة مملكته طرابلس المحروسة ، فينعم على نائبها وقد انحرف وارتد بترقيته بدل معاقبته ...فالسلطان يعاقب ولا

---

(٤٧) المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ، ص ٧٨٢.

(٤٨) م.ن. ، ٧٨١ ـــ ٧٨٣.

يهاب ، وها هو ــ كما رأينا ــ يعزل الأمير اياس عندما اختلف مع والي دمشق ويسلمه إلى والي القاهرة ليطالبه ويحاسبه ويستوفي منه الأموال...ثم فعل نفس الشيء بالأمير الشيخ الصفوي عندما " كثر فساده بالقدس...فرسم بنقله من القدس واعتقاله بقلعة المرقب من طرابلس ، فاعتقل بها[٤٩] كما يروي المقريزي في السلوك وذلك في ذي الحجة من سنة ٨٠٠ هـ.

وإذ تهدم نقل الأمير اياس " تأديبا " من طرابلس إلى اتابكية دمشق ، وإذ تهدمت أيضا تهمة خيانة الأمير اياس وتواطئه مع الفرنجة لتسليم المدينة وجامعها ، يبقى عندنا من الرواية الصصرية المتحاملة تفضيله الفرنجة على المسلمين وتقطيعه الأيدي والأرجل بغير حق.

٢٩ ــ ب ــ تفضيل الفرنجة وتقريبهم ، وتقطيع الأيدي والأرجل .

أما تفضيله الفرنجة ، فيعني ذلك أن هؤلاء متواجدون في طرابلس أو في دمشق ويقيمون إقامة دائمة ولديهم مصالح تقضى في دار السعادة ٠ وهو أمر لا يصح تاريخا ، إذ أن العداء بين أهل طرابلس وأهل دمشق من جهة والفرنجة من جهة أخرى بقي مستحكما...وإن ما كان من أمر تجارات عارضة مع أهل طرابلس وأهل البندقية ، فتلك سقوفها في العمل والتعاطي والمصالح واضحة ولا تستحق أن ترفع إلى مستوى المفاضلة بين الرعية والفرنجة...فضلا أن ذلك لم يتعرض له ابن صصري صاحب القصص (المختلقة)...

ومن المحتمل أن ابن صصري لم يقصد بالفرنجة (الصليبيين) ، فهؤلاء لا يتواجدون في طرابلس أو دمشق ، وقد يكون قصد نصارى الولايتين...فإذا ما أتهم اياس (بموادلتهم) ، فهم أبناء الرعية وهم من أهل المملكة أو من أهل دمشق.ولم ينه الله عن المعاملة بالحسنى أهل الكتاب الذين لم يسيئوا للمسلمين ولم يظاهروا في إخراجهم ، بل كانوا ــ كما رأينا ــ عند ذكرنا محاولات استرجاع المدينة من الصليبيين ، كيف أن قسما من نصارى طرابلس ظاهروا المسلمين ضد الصليبيين إبان الفتح القلاووني ، وكيف أن بعضا من أهل بشري سلموا منافذ الأودية لابن بزواج الدمشقي وللمنصور قلاوون أيضا لما عبرا بجيوشهما الجرارة إلى طرابلس بهدف تحريرها من أسر الفرنجة الصليبيين[٥٠]

وإذ يعتبر العدل أحد واجبات النائب كما ورد في التقليد ، وتعتبر معاملة النصارى باللين والحسنى وبحقوق المواطنية من أحكام الشريعة ، فلا يمكن أن تكون فتوى علماء طرابلس وقضاتها خلاف هذا الإطار.وبهذا تغدو تهمة ابن صصري لهذه الجهة مردودة شكلا وأساسا.

---

(٤٩) م.س. ، ج١٢، ص ٩٠٩.

(٥٠) راجع ما كتبناه في فصل محاولات استعادة طرابلس من هذا الكتاب .

وعلاوة على ما تقدم ، فلا مانع يمنع أن يكون الأمير اياس يحفظ للنصارى في دمشق تجاوبهم مع طلبه وطلب الأمير الناصري بالانضمام إليهما في قتال المنشقين على طاعة السلطان وفق ما طالعناه آنفا ، وهو ما ذكره ابن صصري نفسه...ومن الطبيعي أن يكون الأمير اياس منصفا معهم إن كانت لديهم ظلامة وان يكون عادلا بتسييره أعمال المملكة وأن يسعى لمنع الفتنة بين المسلمين ونصارى أهل البلد كوطء الصليب بالرجل ، وهو أمر رفضته الشريعة، كما حذرت من الفتنة (والفتنة اشد من القتل) ، فإن فعل الأمير اياس ذلك شكر وليس في الأمر مذمة ، إلا أن يكون تهويلا أراده ابن صصري للنيل من الأمير اياس.وهو اتهام لم يسأل عنه الأمير اياس في دمشق ولا في القاهرة ، ولم يذكره المؤرخون في أي من مراجعهم أو كتاباتهم مما يجعل الحكاية متهافتة ، أو محرفة لا يعرف أصلها ، لتكون موضع مناقشة أو رد منصف.

أما أن يتهم الأمير اياس أنه (فضل) نصارى من أهل دمشق عندما طالبوه بأوقاف لكنيستهم فأعطاهم إياها وهي كانت لأوقاف مسجد هناك وأنه قطع رجل رجل مسلم وطأ صليب إفرنجي أي صليب نصراني... ، فهاتان مسألتان مشكوك في روايتهما،إذ أن للأوقاف ناظر في الممالك والنيابات سواء في دمشق ، أو في طرابس ، ولا صلاحيات لاتابك دمشق على أوقاف المساجد ولا يمكن أن يسكت النائب تنم أو السلطان وقد جرت التعديات على أوقاف المسجد لصالح كنيسة دمشقية ، كما لا صلاحيات للاتابك بقطع رجل مسلم داس الصليب. فتلك الأمور خارجة أيضا عن صلاحيات الأمير أياس ومسؤولياته.وعلى افتراض حصولها فإنها من الأمور النافرة في الحياة العامة الدمشقية أو الطرابلسية فلا يمكن أن يبقى علمها عند ابن صصري فحسب ،.وهو الذي لم يدونها في أوقاتها ــ على افتراض حصولها ــ وإنما فعل ذلك بعد وفاة الأمير اياس مظهرا حنقه وغيظه عليه.الأمر الذي يكشف احتمال وجود عداوة بين المؤرخ ابن صصري والأمير اياس في وقت من الأوقات ، ولسبب من الأسباب غير معلوم منا حتى الآن ، وهو الأمر الذي يسقط روايته كلها وهي المتهافتة أصلا .

٣٠ ــ أما أن يتهم الأمير اياس بتقطيع الأيدي ظلما ، فهو أمر مرفوض أيضا لسبب بسيط هو أن الحكم القضائي الذي يمكن أن يأمر بقطع الأيدي والأرجل كعقوبات ليس للنائب أو للاتابك وإنما للقضاء.وهناك قضاة على المذاهب الأربعة ولهم نواب ، فان حكموا فالأحكام يناط تنفيذها بنائب المملكة وكافلها الملزم بتنفيذ العدالة...وليس لأتابك العسكر الدمشقي صلاحيات إصدار الأحكام القضائية بل تنفيذها .

يضاف إلى ذلك أن ما اتهم به الأمير اياس في دمشق قد حصل في ظل نيابة الأمير تنم الحسني،وهو النائب الذي يشيد به ابن الصصري ويدعو له ويفرح

بانتصاره على (العدو المشترك) الأمير اياس ، لما تخاصما إلى السلطان برقوق في القاهرة بعد إن دب (التنافس) على ما اسماه ابن صصري ـ بين النائب والاتابك ـ وقد حصل ذلك بعد أربع سنوات من الإقامة المشتركة والولاية المتفقة ، وعلى كل حال فانهما لم يختلفا على مثل ما أتهم به الأمير اياس،وهي قضايا في حال صحتها كبيرة من الكبائر ، وإنما كانت (الحكومة) بينهما أمام السلطان على مسائل مالية التزم في النهاية الأمير اياس بتسديدها وقد عزل...ولو أن الشكاية كانت وفق سجل الأمير اياس لدى ابن صصري ، لجاءت محاكمته شاملة ولتحدث عنها المؤرخون الذين لم يذكروا إلا المسائل المالية التي التزم الأمير اياس بتسديدها والبالغة خمسماية ألف درهم مع الإجازة له بجلب ماله الذي في دمشق.في حين انه كان من الأسهل على الأمير تنم أن يحاكم اياس بأفعاله المنكرة وينتقم منه شر انتقام ، وقد بادر الأمير اياس بشكواه إلى السلطان، فيظهر الأمير تنم نفسه وبآن واحد انه حامي الشريعة الغراء والمدافع عن السلطان ، ثم يقضي على خصمه شر قضاء !!!

٣١ ـ وعلاوة على ما تقدم فان ابن صصري لم يقل الجامع المنصوري الكبير بل قال (جامع طرابلس) ، وقد يكون قد عنى (جامع في طرابلس) أو (من طرابلس) ، وكما نوهنا من قبل ، فقد كانت اغلاطه كثيرة وإنشاؤه في غاية الاضطراب ، وعلى هذا فقد تكون (في) أو (من) سقطت من العبارة[٥١] على افتراض صحة رواية ابن صصري من وجود مفاوضات بين نصارى المملكة ونائبها وليس مع الفرنجة ـ كما ذكرت الرواية ـ بهدف استعادة جامع في طرابلس • وكثيرا ما يطلق في كتب التاريخ على مملكة طرابلس المحروسة اسم طرابلس فحسب.والمؤرخون إذ يفعلون ذلك لا يقصدون طرابلس المدينة ، وإنما يقصدون المملكة وأعمالها (وهكذا قرأنا من قبل مع المقريزي) ، كيف أن السلطان رسم بنقل شيخ صفوي من القدس لفساده وأمر باعتقاله في قلعة المرقب في طرابلس • وقلعة المرقب ليست في مدينة طرابلس وإنما في مملكة طرابلس التي تمتد إلى اللاذقية شمالا ، وتضم المرقب وسواها من القلاع على الساحل إذ أن مملكة طرابلس ، ضمت نيابات وأعمالا كبرى[٥٢] هي :

١ ـ نيابة حصن الأكراد ـ ٢ ـ نيابة حصن عكار ـ ٣ ـ نيابة بلاطنس قرب مصياف وهي مشهورة بقلعتها ـ ٤ ـ نيابة صهيون قرب اللاذقية وهي مشهورة بقلعتها ٥ ـ نيابة اللاذقية ـ ٦ ـ عمل المرقب ـ ٧ ـ نيابة الرصافة

(٥١) راجع ما كتبناه في توطئة هذا البحث.

(٥٢) راجع تفصيل هذه النيابات والأعمال وحدودها في صبح الأعشى للقلقشندي وأيضا تاريخ طرابلس السياسي الحضاري للتدمري ، ج ٢ ، ص ٢٤ وما يليها .

ـ ٨ ـ نيابة الخوابي ـ ٩ ـ نيابة القدموس ـ ١٠ ـ نيابة المنيفة ـ ١١ ـ نيابة الكهف ـ ١٢ ـ نيابة العليقة ـ ١٣ ـ عمل البقيعة ـ ١٤ ـ الناعم ـ ١٥ ـ جبال النصيرية ـ ١٦ ـ البترون والعاقورة .

٣٢ ـ وإذا علمنا أن السلطان بيبرس لما كان في اندفاعه لتحرير طرابلس ومناطق عرقة والبقيعة وعكار والساحل السوري اليوم ، وهو ما كان يعرف بكونتينية طرابلس الصليبية ، وهي التي شكلت فيما بعد ـ كما رأينا ـ (المملكة الطرابلسية المحروسة) المملوكية، قد هدم بعض الكنائس فمن المحتمل وقد قل النصارى والإفرنج بعد الفتح والتحرير وتكاثر المسلمون في تلك المناطق ـ أن يكون أحد المساجد قد أقيم على أنقاض كنيسة • ولكن ليس هذا في طرابلس المدينة المبنية حديثا والبعيدة عن المدينة الصليبية التي كانت على البحر والتي هدمها قلاوون وسواها بالأرض...كما لا يمكن أن يكون ابن صصري قصد المسجد الجامع المنصوري الكبير ، فالجامع مركز المدينة وقاعة التدريس ومنبر الجمعة الذي يعين خطيبه ومدرسه وموقته من السلطان • وكان السلطان يوصي نائب المملكة في طرابلس بالخطباء عندما يوفدهم إلى المدينة ، فضلا عن أننا أثبتنا من قبل أن الجامع المنصوري ليس بكنيسة ولم ينشأ على أنقاضها ، وبالتالي لا يمكن أن تكون هذه الإشارة (المختلقة) متجهة إلى الجامع المنصوري الكبير ، خاصة وان للجامع في عهد الأمير اياس خطيب مجاهد عالم هو شرف الدين محمود المذبوح عام ٨٠٢ هـ.فقد لعب هذا الخطيب (دورا هاما في تأليب أهالي طرابلس على النائب يونس بلطا حين خرج على طاعة السلطان الناصر فرج ابن السلطان برقوق ، فألقى خطبة دعا فيها للجهاد ومقاتلة النائب وأنصاره، ورفع الأعلام على المنبر واشترك في قتال نائب الغيبة حتى وقع في الأسر ثم كان مصيره الذبح مع ابنه شمس الدين محمد في سنة ٨٠٢هـ.)[٥٣] فخطيب الجامع ، العالم ، المفوه المجاهد ، لا يمكن إن يسكت عن تصرفات الأمير اياس الردية ولا على (إنعام السلطان عليه) بنقله أتابكا على دمشق وبعد ذلك نراه يثور في طرابلس من اجل الطاعة للسلطان فرج بعد وفاة أبيه السلطان برقوق الذي (أي السلطان برقوق) على حد الرواية الصصرية ، لم ينصف طرابلس ولا جامعها بل أساء إليهما بترقيته الخائن المرتد اياس !!! فكان حريا بالعالم شرف الدين محمود أن يثور من اجل طاعة الله وقد عصاه اياس والسلطان برقوق الذي انعم على صاحب طرابلس المرتد الظالم المتآمر بأتابكية دمشق !! وأقل الأمور أن لا يثور من اجل الطاعة لإبن برقوق !!!

(٥٣) د. عمر تدمري : آثار طرابلس الإسلامية ، ص ٧٧ ـ ٧٨.

ويمكن القول أنه إذا ما صحت الرواية الصصرية فان الأمير اياس هذا لا يعد أن يكون قد استمع إلى شكوى النصارى من أبناء المملكة.وليس إلى الفرنجة كما زعم ابن صصري،وهو استماع مبرر ومفهوم ، خاصة إذا ما اقترن بوعود الذهب التي وعدها النصارى للأمير المحب للمال على حد تعبير ابن صصري — كما أن ثورة علماء المملكة وعوامها ورفضهم الشكوى المفترضة كليا أمر أيضا مفهوم ومبرر ...خاصة وان الأمر يتعلق بجامع مرت عليه السنون قد يستغني عنه الأمير من اجل ذهب موعود ضمن مبررات إيجاد العدل مع النصارى.وهذا كله ، على افتراض حصوله ، يبقي الأمر ضمن نطاق مفاوضات من المحتوم أن يكون الأمير اياس قد اطلع عليها القضاة والعلماء لأخذ الرأي والفتيا والحكم فلما رفضوا وشجبوا سقطت المفاوضات وانتهت القصة وبقي الجامع جامعا...

٣٣ — وإذ ابرز الدكتور عمر تدمري قصة ابن صصري (المختلقة) وكأنها حقيقة وأنها تعني فعلا الجامع المنصوري الكبير في طرابلس ، وإذ ربطها بتاريخ الجامع في كتابه آثار طرابلس الإسلامية ، حيث افرد لها عنوانا (محاولة تحويل الجامع إلى كنيسة)[٥٤]...، فيعني ذلك أن الدكتور تدمري (الذي نحترم) قد أخطأ ، ونرجو أن يعيد قراءة ما نقول ، تصحيحا للواقع ودفاعا عن الحق التاريخي.وهو ما قد يلتبس في بعض الأحيان ، ولا يكشف إلا بالتمحيص والتدقيق والتحليل والمقارنة ، وإن كان ما أورده الدكتور تدمري حفظه الله كان سببا في عقد هذه الدراسة وباعثا في قراءة الأحداث وتحليلها • والله تعالى اعلم .

(٥٤) م.ن.، ص ٦٠.

الفَصْلُ الخَامِس

جَامِعُ طَينَال في مَوْقِع كَنِيسَة، أَمْ بَنَاه الأَمِيرُ طَينَال في مَوْقِعه اختيارا وابتداء؟

١ — جامع "طينال" من أفخر المساجد في طرابلس وأجملها[١] بني ابتداء من عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م.أي بعد التحرير بحوالي اقل من نصف قرن. بناه الأمير سيف الدين طينال أو "طيلان " الإبراهيمي حاجب المملكة الطرابلسية.

يقول الرحالة ابن بطوطة عنه انه " ملك الأمراء " وأمير المدينة طرابلس ومن عوائده أن يركب في كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الأمراء والعساكر،ويخرج إلى ظاهر المدينة[٢]، ويبدو أن هذا الخروج كان وراء الإيحاء لملك الأمراء ببناء مسجد فخيم في ظاهر البلدة وفي الفلاة ، فكان جامع طينال أو طيلان كما تلفظه العامة وغلب عليه.

وباعتباره مبنيا خارج طرابلس المعمورة وفي الفلاة ، فقد غدا مسجدا لصلاة العيدين لأهل طرابلس ، وهي الصلاة التي يسن لها خروج الناس إلى العراء بعيدا عن الأحياء والمساكن حيث تؤدى الصلاة جماعة .

وقد بقيت البقعة حول الجامع غير معمورة أو مأهولة ووسط بساتين الليمون حتى الربع الأخير من هذا القرن العشرين ، حين شقت الطرق وارتفعت المباني وازدحم السكان، وهذا ما يؤكد عمق نظرة ملك الأمراء في أن يكون مسجده في فلاة بقيت كذلك حوالي اكثر من ستة قرون ونصف ، حتى جاءها الإعمار والبناء والسكنى !!!

٢ — تميز (طينال) بأسلوب اختلف عن الأشكال المعتادة في الجوامع، وقد وصفه الرحالة الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الطرابلسية بقوله: " أسلوبه عجيب وتكوينه غريب" • فقد اتخذ المسجد شكل بيتين للصلاة متداخلين تفصل بينهما بوابة هي غاية في الروعة والأناقة، عليها كتابات تؤرخ لبناء الجامع ، ويتعاقب فيها اللونان الأبيض والأسود ، (انظر الصورة الملونة رقم ٣٠) تؤدي إلى بيت الصلاة الثاني الذي يضم المحراب والمنبر ورواقات بذات الارتفاع تشكل

(١) راجع الصور الفوتوغرافية الملونة العائدة للجامع في موضعها من الفصل الخاص بالصور على هذا الكتاب .

(٢) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ج ١ ، ص ٢٨ .
ويذكر ابن بطوطة مهرجان عودة ملك الأمراء طينال إلى طرابلس فيقول : (فإذا عاد إليها — أي الأمير طينال — وقارب الوصول إلى متزله ترجل الأمراء ونزلوا على دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل متزله وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل).

هي بنفسها أمكنة الصلاة.والرّواقات هذه تحيط بفسحة في وسط بيت الصلاة منخفضة المستوى يُظن أن بركة ماء للوضوء كانت فيها ثم ألغيت.وأرضية المسجد بين الرواقات ــ أي عند البركة المظنونة ــ مزينة بزخرفة فسيفسائية ملونة وجميلة ويتناوب الرخام الأبيض والأسود والأحمر مع رسوم دائرية مزدانة بها الأرضية ويؤكد احتمال وجود بركة ماء ووجود تجويف ثقب ارضي في الوسط قد يكون لبئر عميق أو قد يكون مستودعا لتجميع الماء ... ويستعمل حاليا هذا الثقب لتصريف ماء تغسيل ارض الجامع (انظر الصورة الملونة رقم ٢٧) وللجامع منبر هو تحفة فنية رائعة تعلوه كتابة تاريخية تؤرخ لإنجازه (انظر الصورة الملونة رقم ٣١) ويقال أن القبة التي عند المحراب وهي ذات أضلاع أربع وعشرين،ولها طاقتان غربية وشرقية ، هي قبة يمكن ــ فضلا عن جماليتها ــ استخدامها كساعة شمسية لتحديد أوقات الصلوات وبخاصة الظهر والعصر ... بواسطة مرآتين كانتا مثبتتين في اسفل الطاقتين الأمر الذي يسهل انعكاس ضوء الشمس على أضلاعها الأربع والعشرين وذلك في شروق الشمس وانتقالها من الزوال إلى العصر فالمغيب ... ولعل الأربع والعشرين ضلعا في القبة ترمز إلى ساعات الليل والنهار ... وهناك قبة مشابهة لقبة جامع طينال ذات الأربع والعشرين ضلعا وهي قبة المدرسة السقرقية التي هي قرب جامع ارغونشاه والتي بنيت بتاريخ ٧٦٠هـ/١٢٥٩ م.(انظر الصورتين الملونتين رقم ٢٨ و٢٩).

ويشبه شكل بيت الصلاة الثاني هذا مدرسة القرطاوية المبنية قبله عام ٧١٦هـ ومدرسة البرطاسي المبنية عام ٧٢٥ هـ (انظر الصور الملونة رقم ٤٥و٤٦و٤٧و٤٨و٤٩و٥١) بينما يقوم بيت الصلاة الأول ــ الشمالي ــ على أعمدة غرانيتية تعلوها زخرفات بيزنطية تنتهي بقبة عالية.وقد أثار هذا الشكل تكهنات بعض المؤرخين فدفعهم إلى اعتبار بيت الصلاة الأول الجنوبي من الجامع ، انه أقيم على أنقاض كنيسة ، قديمة فيما اختلفوا على طريقة بناء الكنيسة إذ يعتقد الأستاذ فان برشم : " أن الكنيسة القديمة التي أقيم الجامع عليها كانت بنفس اتجاه الجامع الحالي، حيث تبدأ من الباب الشمالي وتنتهي عند باب بيت الصلاة الثاني ويشكل البلاط عند الرواق المرتفع إلى اليمين في الغرب، والبلاط إلى اليسار في الشرق عند الجدار المنحرف ، رواقي الكنيسة الجانبيين " [ــ والرواق المحكي عنه شرقا غير موجود وشكل الحائط الشرقي لا يوحي بوجود رواق فيه ــ] .

أما الأستاذ بروس كوندي فيرى العكس ، فهو يعتبر أن الكنيسة القديمة كانت تتجه من الشرق إلى الغرب ، وان البوابة المقابلة لها في الشمال قد أقيمت في الجدار الشمالي للكنيسة(٣).

(٣) الدكتور عبد العزيز سالم : تاريخ طرابلس الشام، ص ١٦٦.

ويقول الدكتور عمر تدمري(٤) عن جامع طينال : " بناه نائب السلطنة الأمير سيف الدين طينال الحاجب سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٦ م.على أنقاض كنيسة قديمة نعتقد أنها كانت قائمة عندما فتح العرب طرابلس حوالي سنة ٢٥ هـ .حيث ورد نص عند المؤرخ ابن عساكر يقول: " إن أهل طرابلس انحازوا عند حصار المسلمين لهم إلى حصنها الخرب اليوم الذي عند كنيستها الخارج منها قبلي مدينة طرابلس اليوم..." ومن الواضح أن النص يحدد موقع الحصن الخرب بأنه في الجهة القبلية من المدينة وعند كنيستها التي في خارجها ، وبنظرة متأنية إلى موقع طرابلس القديمة التي كانت تقوم عند الرأس الداخل في البحر حيث الميناء الآن ، نجد أن جامع طينال كان يقع في الجهة القبلية من طرابلس القديمة " .

٣ ــ وفي طبيعة الحال لا يضر جامع طينال أن يكون مبنيا على موقع كنيسة أو على أنقاضها...إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل كان في موقع طينال كنيسة ؟ وما هي المبررات التي تدفع نائب السلطنة لأن يبني مسجدا على أنقاض كنيسة متهدمة بقي منها جدار أو اكثر ليفتح فيه بوابة كبيرة زينها بأجمل الزخارف وبأفخر الأحجار والمقرنصات وخطوط للتأريخ يعبر منها إلى بيت الصلاة الثاني الأساس المتفق على جدته واسلاميته وفخامته) وفيه المحراب والمنبر وثلاث قباب جميلة واحد مدخلي المئذنة ، فيما الأرض فلاة وسيعة لا بناء عليها؟

وعن السؤال الأول ، يمكن وبكثير من الحسم القول أن لا كنيسة في موقع طينال لا في عهد البيزنطيين ولا في عهد الصليبيين ، فلم يتحدث أحد عن مثل هذه الكنيسة طيلة تلك العهود البيزنطية والإسلامية حتى عهد بني عمار ولا الرحالة الذين وفدوا إلى طرابلس الصليبية ولا الفاتحون المماليك فيغدو وجود مثل هذه الكنيسة تخيلا لا واقعا وافتراضا لا يصح ولا تقوم به حجة .

أما الجواب عن السؤال الآخر فهو معماري وحاسم أيضا ، يرفض تكهنات بعض المؤرخين المستنتجين.فليس ثمة ضرورة توجب اختيار موقع كنيسة في أرض فلاة مخلاة فسيحة ، فقد يكون هناك المبرر الاختيار للموقع لو أن المكان مزدحم ، ومبانيه كثيرة، وليس من مساحة مخلاة إلا موقع الكنيسة المتهدمة . أما أن يكون الموقع في فلاة كبيرة فليس فيه سبب لاعتماده مسجدا ، خاصة وان باني الجامع حاكم المدينة يخلد اسمه من جامعه !!.زد على ذلك ، أن ايا من مرتكزات الهندسة المعمارية التي اعتمدها العصر المملوكي، إبان فتح طرابلس وبعده ، تقضي بهدم ما تبقى من الكنيسة ــ على افتراض وجودها ــ وبناء مسجد جامع يحمل اسم والي السلطنة ونائب السلطان ، خاصة ، وان الأمير

(٤) د. عمر تدمري : تاريخ طرابلس الحضاري والسياسي ، ج ٢ ، ص ٣٧٢.

سيف الدين هذا قد أتى بمهندسين معماريين انشأؤوا له مسجدا فخيما مع بوابة ضخمة متميزة ومئذنة هي في قمة الفن المعماري ، وهي إلى البرج الحربي المنظم الأنيق أقرب وألصق...في جامع اختيرت له الفلاة مكانا خارج طرابلس المعمورة .

وتمتاز المئذنة المحكي عنها بطرازها المعماري الفريد وبوجود سلمين حجريين داخلها ، أحدهما يتصل بحرم الجامع الداخلي والآخر يفضي إلى الخارج، وهما متراكبان غير متقابلين بحيث إذا صعد فيهما اثنان لا يرى أحدهما الآخر ولا يلتقيان في أي نقطة من جسم المئذنة ، وإنما يلتقيان إذا وصلا معا إلى شرفة المئذنة في الأعلى ، فأرضية السلم الأول هي سقف للسلم الثاني وبذلك يمكن للصاعد أن يصعد من سلم خارج الجامع لينزل بواسطة السلم الثاني إلى داخل حرم المسجد الجنوبي حيث المنبر والمحراب.

وعدد درج المئذنة ثلاث وستون وتنتهي السلمان بخمسين درجة ليشكلان معا خرجة المئذنة الأولى من بابين مختلفين متباعدين لا يرى الواقف في أحدهما الآخر . بينما يستمر السلمان في التصاعد المختلف إلى الخرجة الثانية في أعلى المئذنة وبارتفاع عشرة درجات فإذا أضفنا سماكة الخرجتين والارتفاع الأول لدرج المئذنة من الأسفل لكان عدد الدرجات ثلاثا وستين .

وفي الجامع الأزهر بالقاهرة مئذنة اعتبرت علامة في الفن المعماري الإسلامي ، إلا أن تلك المئذنة الأزهرية دون مئذنة جامع طينال أهمية . والمئذنة الأزهرية بنيت سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩ م.أي بعد بناء طينال لجامعه ومئذنته بنحو قرنين . ومئذنة الجامع الأزهر مرتفعة ينتهي أعلاها برأسين لهما سلمان يبتدئان من الدورة الأولى ، ويتلاقى الصاعدان فيهما على الدورة الثانية دون أن يكون احدهما قد رأى الآخر أثناء الصعود ، وقد وصفها ابن اياس بأنها إحدى النكت في العمارة الإسلامية[٥] .

فإذا كان الأمر كذلك فلماذا الذهاب بعيدا في تفسير نوع من الجدران والقبة في بيت الصلاة الأول في مسجد طينال على أنها بقايا كنيسة !!

(٥) طه الولي : المساجد في الإسلام ، ص ٤٨٣ .

٤ ـ الإحتمال الأقرب في طريقة البناء من خلال أسلوبه يقضي أن يكون مهندسو الأمير طينال أشاروا عليه بطريقة بيتي الصلاة مع وجود البوابة الرائعة بينهما والمئذنة المدهشة بسبب أن المسجد مبني في الفلاة، وبعيد عن المعمور من المدينة ، ولا يأتيه إلا قاصد . ويمكن للقاصد هذا استخدام بيت الصلاة الأول دون الآخر الداخلي الذي لا يفتح للمصلين إلا عندما يحضر الأمير طينال ومن سيأتي بعده من الولاة .

أما وجود أعمدة غرانيتية مع تيجانها فليست سببا في اعتبار الموقع موقع كنيسة ، فهذه الأعمدة هي بلا ريب كانت في طرابلس المهدومة التي على البحر،فضلا عن أن مثيلاتها في سنة ١٦٠٠ م وجدت في جامع الطحام في طرابلس.كما أن مسجد محمد بن الناصر بن المنصور قلاوون في القاهرة مليء بالأعمدة الغرانيتية القديمة مع التيجان،وأحدها لا يزال مرسوما عليه على جوانبه الأربعة شكل الصليب[٦] ...وعلى هذا فلا تعني الأعمدة شيئا وليست بدليل تقام معه حجة .

يقول غوستاف لوبون : " وجد العرب في جميع البلدان التي استولوا عليها عددا كبيرا من المباني الإغريقية والرومانية والبيزنطية المتداعية أو المهجورة فانتفعوا بأعمدتها وتيجان أعمدتها ...)[٧] ، وهو تقرير ينطبق على طرابلس المستجدة بعد أن هدم السلطان قلاوون طرابلس القديمة التي على البحر،فأخذ الناس ومنهم المهندسون والبناؤون يستفيدون من أحجار طرابلس القديمة المهدومة ومن أعمدتها وتيجانها بوضعها في مبانيهم المستجدة ، مدارس كانت أو مساجد أو حمامات.وهكذا رأينا بعض التيجان القوطية أو البيزنطية أو سواها موجودا في باب المسجد الكبير الشمالي وفي مئذنته (الصورة الملونة رقم١)، وجرن العمادة غدا قبة لمنبر جامع العطار (الصورة الملونة رقم٥٤) ، والحجر المحفور عليه صورة الأسدين وزخرفة أخرى مدماكا أفقيا على باب حمام عز الدين (انظر الشكل رقم١٦).إلى آخر هذه الجردة الكبيرة التي تدل على صدق ما ذهب إليه غوستاف لوبون المذكور آنفا.

(٦) راجع ما كتبناه في الفصل الثالث حول بناء الجامع المنصوري الكبير من هذا القسم وانظر الصورة الفوتوغرافية رقم٨ .

(٧) حضارة العرب ، ص ٥٥١.



الشكل رقم ١٦

رسوم على حجر يعتقد أنها صليبية وقد استفاد باني حمام عز الدين منه ليكون في أعلى باب مدخل الحمام وهو ما يؤكد ان المهندسين المسلمين استفادوا من الأحجار المميزة التي كانت موجودة في طرابلس المهدومة التي على البحر.

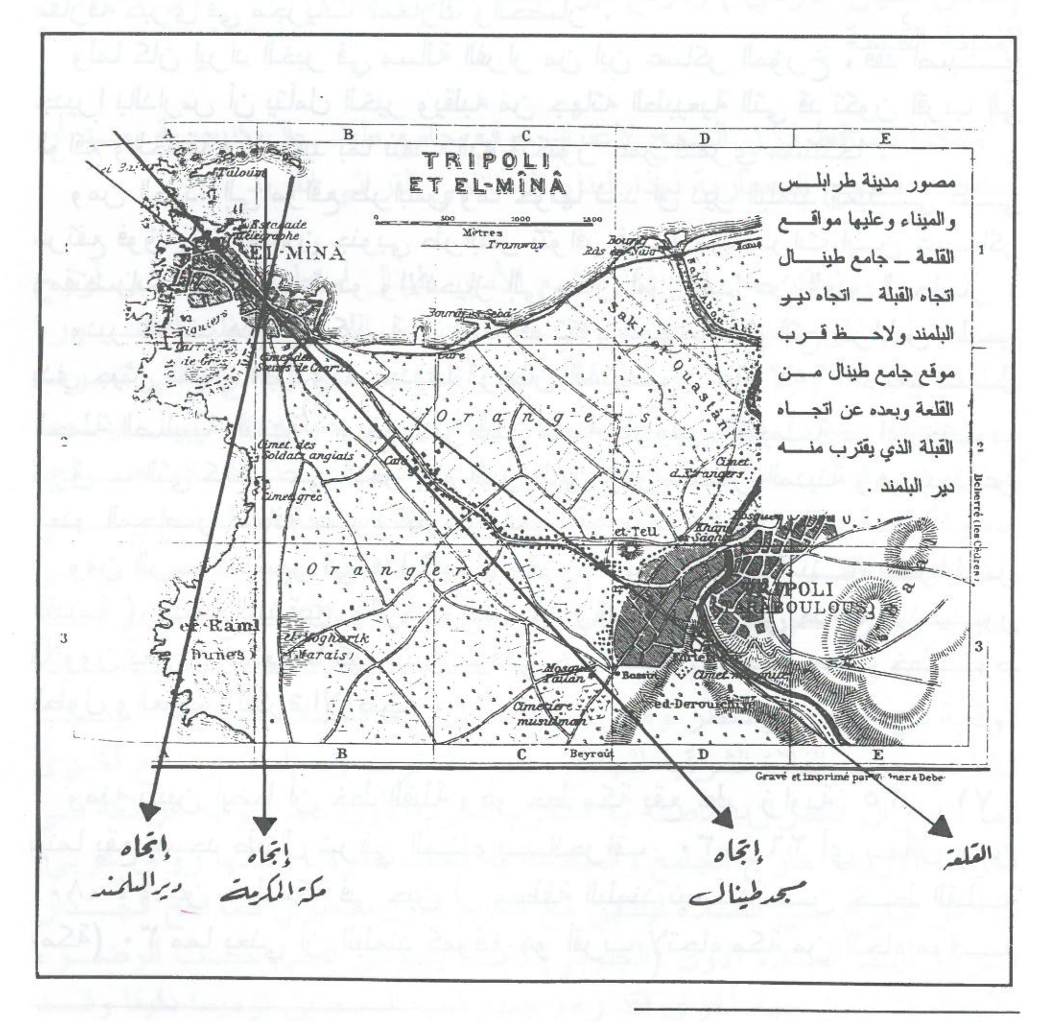
من جهة أخرى فان اختلاف المستشرقين على طبيعة اتجاه بناء الكنيسة المزعومة ــ كما رأينا ــ في بداية الكلام ــ يساعد على إسقاط الحجة التي تنزع بها من ادعى الوجود الكنسي في موقع طينال.

٥ ــ **نخلص من ذلك** إلى أن الأمير طينال الذي كان يخرج إلى ظاهر المدينة كل اثنين وخميس بموكب مهيب ، رأى أهمية بناء جامع يليق به في العراء خارج طرابلس يفيده في مواكبه الأسبوعية ويفيد القادمين من خارج المدينة ، فكان أن اختار البقعة المناسبة في فلاة جنوبي طرابلس المستجدة وعهد إلى مهندسيه الذين هم ، في الغالب ، مهندسو جامع البرطاسي لتقارب زمن البناء ولتشابه المبنيين في الشكل الداخلي لبيت الصلاة غير انهم بنوا الجامع بطريقة جديدة : بيتان للصلاة ، والغرف الأربعة خارجهما للمنامة ولضيافة القادمين عند الغروب بعد أن تقفل أبواب المدينة ، فيما يفتح لهم الجامع في بيت الصلاة الأول ومرافقه المختلفة أما بيت الصلاة الثاني فلا يفتح إلا لملك الأمراء وحاشيته ...!!

٦ ــ غير إن ما ذهب إليه د. عمر تدمري في رواية نقلها عن المؤرخ ابن عساكر من أن أهل طرابلس انحازوا عند حصار المسلمين لهم إلى حصن عند

كنيسة قبلي طرابلس القديمة التي كانت على البحر يتوقف عنده ويستحق التأمل والمناقشة.

فمن المعلوم تاريخا أن طرابلس القديمة قد بنيت على البحر مفتوحة عليه ، ولها سور يحميها في جهة الشرق...وعندما أراد المسلمون الأوائل فتح الساحل وانعقد اللواء للصحابي سفيان الازدي بفتح طرابلس ضرب الحصار عليها وبنى الحصن على مرتفع (أبي سمراء اليوم) شرقي المدينة القديمة حيث أطل منه على المدينة المحاصرة وراح يغير عليها نهارا ويبيت مع جنده في الحصن ليلا ، وهو أول حصن في الإسلام ، وقد بناه سفيان بأمر من معاوية والي الشام[٨] ومن هذا الموقع يمكن مراقبة جميع تحركات المحاصرين في السهل الفاصل بين مرتفع سفيان وبين طرابلس القديمة.(انظر الشكل رقم ١٨).



(٨) راجع ما كتبناه بهذا الشأن في الفصل السادس (بناء قلعة طرابلس) من هذا القسم.

وعندما يشتد الحصار على بلد ما ، فمن الطبيعي ، أن يفر المحاصرون ــ إن قرروا ذلك ــ إلى جهة مأمونة بعيدة عن أعين العدو وبعيدا عن سهامه ومواقعه.ولا يعقل بحال من الأحوال أن يكون الفرار باتجاه العدو والى تحت مرامي سهامه.ولو كان الفرار إلى حصن صغير غير مهدم فكيف إذا كان متهدما؟؟ ــ وذلك كله على افتراض وجوده ــ وإلا فالمدينة المحاصرة اكثر أمانا وهي الملتصقة بالبحر الذي يمكن أن تأتي منه المؤونة والمساندة أو أن يركب منه للفرار إلى الجزر التي أمام المدينة أو إلى قبرص كما فعل أكثر المحاصرين فعلا عند اشتداده من قبل سفيان أو كما فعل الصليبيون يوم أن حاصر المنصور قلاوون طرابلس القديمة • أما أن يفر المحاصرون باتجاه كنيسة وبرج صغيرين متهدمين في سهل طرابلس قريبا من العدو فهو أمر في غاية الغرابة وبشكل مفارقة كبرى في مجريات المعارك والحصار .

ولما كان إيراد الخبر في مسألة الفرار من ابن عساكر المؤرخ ، فقد اصبح جديرا بالدارس أن يتأمل الخبر ويقلبه من جهاته الطبيعية التي قد تكون اقرب إلى الواقع والحقيقة ولا يتقيد بما ذهب إليه الدكتور عمر تدمري مستنتجا .

ومن العودة إلى مواقع طرابلس وما حولها نجد أن دير البلمند المبني على مرتفع فوق بلدة القلمون جنوبي طرابلس تتوافر فيه مؤشرات ابن عساكر ومقتضيات الفرار من العدو والانحياز إلى مكان آمن بعيدا عن العدو المحاصر .

ودير البلمند هذا كان كنيسة بيزنطية قد تكون متهدمة أيام فتح طرابلس على يدي جيش سفيان الازدي ثم جددها الرهبان السترسيون عام ١١٥٧ م بعد فشل الحملة الصليبية الثانية[٩] .ويقع الدير قبلي مدينة طرابلس القديمة ــ أي جنوب شرق ــ التي كانت على البحر أيام البيزنطيين زمن حصار المدينة وهو يبعد عن العدو المحاصر مسافة عشرة كيلومترات .

ومن الرسم المنشور في هذا الفصل رقم ١٨، يتبين موقع الميناء (طرابلس القديمة)، مدينة الفينيقيين والروم والمسلمين والصليبيين والتي هدمها المنصور قلاوون بعد أن استعادها كما يتبين موقعي جامع طينال والبلمند حسب خطوط الطول والعرض للكرة الأرضية .

ومنه يتبين أيضا أن خط القبلة وهو خط مكة يقع على زاوية ٣٥ , ٧١ ، بينما يقع مسجد طينال شرقي الميناء بانحراف ٣٠ , ٢٦ أي بأقل من ٨٠، ٤٤ عن خط مكة في حين أن منطقة البلمند تبعد عن خط القبلة (مكة) ٣٠ مما يعني أن البلمند كموقع هو أقرب لاتجاه مكة من اتجاه موقع

(٩) نشرة دير البلمند (رسالة وتراث) ، إصدار بتاريخ ١٩٩٧ م.

مسجد طينال ، وهو الذي يصح فيه القول أن كنيسة تقع قبلة طرابلس القديمة (أي الميناء) في وصف المؤرخ ابن العساكر فرَّ إليها المحاصَرون !!

وفي المقابل فان موقع جامع طينال يقع تحت مرمى أنظار "العدو" ، وقريب منه في اكثر من ثلاثة أرباع المسافة الفاصلة بين طرابلس القديمة وحصن سفيان في تلة أبي سمراء (انظر الصورة الملونة رقم ٢٦) زد على ذلك كله فان موقع جامع طينال المزعوم وجوده على كنيسة هو باتجاه شرقي طرابلس القديمة وليس قبليها.ويبين المصور الجغرافي المنشور ويُظهر بجلاء موقع طرابلس القديمة (الميناء اليوم) وموقع جامع طينال وموقع القلعة (حصن سفيان الازدي) وموقع دير البلمند الذي يشكل الاتجاه القبلي الأقرب للمدينة القديمة .

وهكذا تتساقط ابرز الحجج لاعتبار موقع جامع طينال كنيسة بعد أن تساقطت الحجج المعمارية لهذا البناء الإسلامي التراثي الفريد .

٧ ــ ومهما يكن من أمر فان جامع الأمير طينال أو طيلان هو من أروع مساجد طرابلس وأجملها وقد كان في وسط بساتين الليمون.(انظر الصورة الملونة رقم ٢٥) إلا أن فتح الطرقات الجديدة في منطقة الجامع والتي تعرف بـ (منطقة محرَّم) جعلت الجامع محاطا بالطرق من جهتيه يفصل بينهما بستان هو وقف... مما حدا بالشيخ أبي إبراهيم (السيد عبد القادر صالح) بمعاونة لجنة ، إلى إدخال مجموعة مهمة من التطوير خارج الجامع و في داخله أيضا فضم العقار المجاور إلى الجامع واحدث له سورا عاما وبنى محرابا ومنبرا حجريين لصلاة العيد التي تؤدى في الفلاة خارج الجامع مع بركة للوضوء بعد أن هدم البركة القديمة ، كما أضاف سقيفة بلاستيكية جميلة للوقاية من الشمس والمطر ومحرابا آخر تؤدى عنده صلاة الجنازة • بينما انشأ في جانب الفلاة الشرقية للجامع مجموعة غرف وحمامات ومنافع أخرى كما أنه أزال الجدران الفاصلة به فالحرم الحرم الأول عند البوابة الرائعة في الغرف الأربعة خارج الجامع والمتصلة به فغدت الغرف وكأنها رواق غربي يبدأ من خارج بيتي الصلاة لينتهي مع الحرم الأول الحيوي كما فتح الجدار الشرقي لبيت الصلاة الأول (الجنوبي) بابا يؤدي إلى حيث الوضوء والحمامات ومن جهة أخرى فقد رمم جميع قبب المسجدين ترميما دقيقا وقد

داخلها التصدع خاصة بعد الحرب اللبنانية في الربع الاخير من القرن العشرين (انظر الصورة الملونة رقم ٢٦).

ومما لا ريب فيه أن هذا التطوير الخارجي والتزيين الداخلي للجامع قد أضفيا عليه مزيدا من الروعة والجمال...وللمصلين الخشوع[١٠] .

(١٠) حدثني عام ١٩٩٨ السيد عبد القادر صالح المعروف بـ (أبو إبراهيم) وهو إمام المسجد ، انه وهو في معتكفه في رمضان منذ ١٢سنة في أول عهده بالمسجد رأى النبي ﷺ وقد هم أبو إبراهيم بترك المسجد ـ لظروفه الخاصة ـ وهو يعنفه وقال له : أتيت بك إلى هنا ثم تترك ، ثم قذف به من الباب الخارجي للمسجد إلى داخله فاستقر في محرابه ... وعندها حسم (أبو إبراهيم) أمره وبقي في المسجد إماما وراح يحسن فيه ويعيد تأهيله ، وعندما حاول ضم ارض وقف المسجد إليه دخل في نزاعات عديدة مع دائرة الأوقاف ، ثم رأى النبي ﷺ في منامه يقف عند النقطة الخارجية لأرض الوقف مع حدود الطريق قائلا له احفر خندقا هنا بهذا الامتداد ـ وهو امتداد الطريق ، إلى نهايته ثم أقم سورا من الترابة المجبولة بالماء ، ثم قال له اكمل ... وفي نهاية السور باب) . فانتبه أبو إبراهيم من نومه وبادر فورا بإقامة سور جاء غاية في التنسيق والتكامل مع مجمل بناء الجامع ولما رأى مسؤولو الأوقاف ، عزيمته الصادقة وافقوه وسكتوا !!

الفصل السادس

قلعة طرابلس سيرة وحياة !!

١ ـ تقع طرابلس القديمة ، قبل الاحتلال الصليبي وأثناءه ، في موقع الميناء اليوم على البحر (الشكل رقم ١٨) ، المنشور في الفصل السابق الذي يحيط بها من جوانب ثلاث.أما الجانب الشرقي المتصل بالبر فقد ضرب عليه سور عظيم بين المدينة القديمة وبين مرتفعي أبي سمراء والقبة المشرفين على مجرى نهر أبي علي ، وهما على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات.بين المرتفعين والميناء سهل طرابلس حيث أنشئت المدينة الجديدة التي أمر ببنائها السلطان المنصور قلاوون.بعد أن حرر المدينة القديمة واراضها وبعد أن هدم المدينة الأولى التي على البحر ـ كما رأينا في صفحات هذا الكتاب ـ .(انظر الصورة الملونة رقم٣٢ القلعة كما تبدو من جامع منصور قلاوون).

٢ ـ يشكل مرتفع (أبي سمراء) موقعا استراتيجيا مهما (انظر الصورة الملونة المنشورة مع الاهداء ص٥) وقد نزل فيه كل القادة العسكريين عبر العصور عندما أرادوا احتلال طرابلس القديمة الواقعة على البحر ، فهو مرتفع يطل على المدينة وساحلها وسهلها ، كما يطل على السهول المحيطة بها، شمالا باتجاه عكار وطرطوس ، وعلى المناطق الجنوبية منها، من القلمون وانفه وشكا حتى رأس الشقعة.، وهو متصل بالكورة وسهولها في امتدادها الغربي وبجبال لبنان ومناطق زغرتا وجبل تربل المحيط بها والأخذ باتجاه البحر .

ولهذا الموقع أفضلية أخرى ، إذ أنه يشرف مباشرة ـ كما قلنا ـ على مجرى النهر الذي يفصل بين مرتفعي أبي سمراء والقبة ، نزولا إلى منطقة الزاهرية ، فالبحر حيث كانت تقع المدينة القديمة أو الميناء اليوم .

ومن المعروف أن النهر يلعب دورا مهما في استراتيجية اختيار المواقع العسكرية وبخاصة أيام الحصار فإذا أضيف إلى النهر، التل المرتفع ، أدركنا كيف شكلت تلة أبي سمراء أو تلة الحجاج أو تلة سفيان موقعا عسكريا بحيث أنه من سيطر عليه سيطر على المدينة ولو بعد حين .

ويصف المستشرق ماكس فان برشام طرابلس وقلعتها ذات الهندسة العربية فيقول :

"طرابلس هي إحدى المناطق النموذجية في سورية ، خلف المينا ذات المساكن البيضاء ، فإن المدينة تتوارى خلف خضرة الجنائن على منحدر التلة المحاذية للوادي العميق الذي يجري فيه نهر قاديشا.هذه القلعة تواجه قصر صنجيل ذي

البناء المتين والذي تهيمن عليه اليوم الهندسة العربية ، وفي آخر هـــذه اللوحــة الجميلة يبدو جبل عكار الذي تكلله الثلوج"[١].

٣ ـــ عندما جاء الصحابي الجليل القائد سفيان بن مجيب الأزدي فـــي عـــام ٢٣هـ ـ ٦٦٤م على رأس حملة لفتح طرابلس ، في عهد معاوية والي الشام مـــن قبل الخليفة عثمان بن عفان، اختار موقع أبي سمراء حيث بنى حصـــنه علـــى هذا التل المرتفع ، وكان اختياره هذا بداية لسلسلة حصون أقيمت في الموقع إيـــاه توسيعا أو تجديدا أو إعادة بناء.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب : " يذكر (أي التاريخ) له (أي لسفيان الأزدي) أنه أول قائد عربي مسلم فكر بإنشاء حصن يأوي إليه المسلمون ليـــلا فيأمنون فيه غائلة التقلبات الجوية ومباغتة العدو لهم ، كما أن هذا الحصن (الذي عرف بحصن سفيان) حطم معنويات الروم لأنهم يئسوا من نزوح المسلمين عنهم قبل فتح مدينتهم الحصينة"[٢] ، غير أن د. عمر تدمري ينقل عن مخطوطه لابن عساكر أن معاوية ، بعد استشارة سفيان له كتب يقول : " ابن لك ولعســكرك حصنا يأوون إليه ليلا ويغزونهم نهارا "[٣] ، فانتقل سفيان من مـــرج تربـــل وعبر النهر ـــ نهر أبي علي ـــ منتقلا إلى التلة المشرفة عليه فاختار فيها الموقع وبنى الحصن.(فكان أول حصن من بناء العرب من ألفـــه إلـــى يائـــه استخدم للمرابطة والهجوم) وعرف باسم (حصن سفيان) ، وسمي فيما بعد بحصن (كفـــر قدح) على رواية ابن عساكر ، وقد تم بناؤه بين عامي ٢٣ و٢٥ للـــهجرة علـــى التحقيق كما ذكر صاحب فتوح البلدان.

٤ ـــ في عام ٣٦٥ هـ ـ/٩٩٩م.وأثناء حملته التي شنها على طرابلس وبـــلاد الشام، بهدف إعادة احتلالهما ، إختار الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني موقـــع سفيان وحصنه المبني هناك على امتداد العصر الإسلامي الســـابق ، فاحتلـــهما وابتنى في المنطقة المنخفضة عن الحصن معسكرات لجنوده ، محتفرا الخنـــادق للحماية ، تمكينا لجيشه من متابعة الحصار[٤].

٥ ـــ في العهد الفاطمي في طرابلس ، بعد طرد البـــيزنطيين مـــن اربـــاض المدينة ، دعم الطرابلسيون حصن سفيان وشحنوه بالرجال والعتاد.وأقيمت مشاهد للشيعة في موقع الحصن ، وألحقت بالمشاهد مقبرة ، انتشرت فيـــها الأضرحـــة

(١) نقل هذا الوصف عن الفرنسية الشيخ طه الولي في بحثه قلعة وأبراج طرابلـــس الشـــام ، مخطـــوط ، ص١٩ نقـــلا عن. recherches archeologiques en syrie .Paris ext du journal asiatique .

(٢) محمود شيت خطاب : قادة فتح الشام ومصر ، ص ١١٠ .

(٣) د. عمر تدمري : تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ، ص ٦٨ .

(٤) Tripoli of lebanon - Konde ، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ٢٩٥ .

الفاطمية.وقد بلغت المشاهد ثلاثا كان أحدها مثمن الزوايا حوله الصليبيون إلـــى كنيسة ـــ كما سنرى ـــ.

وقد اكتشفت مديرية الآثار اللبنانية أثناء العناية بالقلعة ســـنة ١٩٧٠م.مشـــهدا فاطميا كان مطمورا ، ومئذنة إلى جانبه وفيه ضريح فاطمي من الرخام نقشـــت عليه آيات قرآنية ويعود إلى عهد بني عمار أمراء طرابلس الذين كانوا يحكمونها قبل مجيء الحملات الصليبية، ممـــا يؤكـــد أن القلعـــة عربيـــة إســـلامية فـــي الأساس[٥].(انظر الصورة الملونة رقم ٣٤).

٦ ـــ عندما زار ناصر خسرو طرابلس عام ٤٨٣هـ ـ/١٠٤٧م.شاهد القلعة ـــ الحصن في المرتفع ، وكتب يقول[٦] :

وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعة من الحجر المصقول ، عليـــها شـــرفات ومقاتلات من الحجر نفسه ، وعلى قمتها عرادات لوقايتها من الروم ، فهم ـــ أي أهل طرابلس ـــ يخافون أن يغير هؤلاء عليها بالسفن " .

٧ ـــ مع بداية الحملات الصليبية ، وبعد أن استعصت المدينة عليهم وذلك مع بداية القرن الثاني العشر الميلادي وابتداء من عام ٤٩٧ هـ ـ/ ١١٠٣م.قرر ريموند دي سان جيل الإقامة في تلة سفيان (أبي سمراء) ، والتي عرفت فيما بعد (بتلـــة الحجاج أو تلة الغرباء أو تلة الزوار) .

أما المستشرق فان برشام فقد رجح إقامة حصن صنجيل في نفس المكان الذي أقام فيه سفيان بن مجيب الازدي حصنه[٧] ، كما أن فيليب حتي ذهب في كتابـــه تاريخ لبنان[٨] إلى أن اكثر الحصون والقلاع اللبنانية التي أقامها الصليبيون لـــم تكن سوى ترميمات أو إعادة بناء حصون وقلاع أقامـــها إمـــا البـــيزنطيون أو الرومان أو ربما الفينيقيون أنفسهم ، وهذه القلاع ذاتها رممها المماليك وأعـــادوا بناءها في عصر تال ، ذلك أن مواقعها الإستراتيجية الممتازة يجب أن تكون قـــد استرعت انتباه العسكريين قبل مقدم الصليبيين بأزمنـــة كثـــيرة ، كذلـــك فـــإن الادريسي الرحالة والجغرافي المراكشي (توفي سنة ١١١٦م) لما زار هذه البـــلاد قبل الفترة التي نحن بصددها ، جاء على ذكر ٣ قلاع بين صيدا وبـــيروت و١٦ قلعة بين بيروت واللاذقية ...

(٥) نقل اكتشاف مديرية الآثار غسان سركيس في كتاب له بالفرنسية ، وقد اثبت النص الدكتور عمر تدمري في مقال له في مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٣ ، تاريخ حزيران ١٩٩٣ م/١٤١٣هـ ـ.

(٦) راجع النص كاملا في الصفحة ٢٣ من هذا الكتاب .

(٧) طه الولي : قلاع وأبراج طرابلس الشام ، ص ١١ .

(٨) م.ن.، ص ٣٥٧.

غير أن ما يدعو للأسف أن فيليب حتي لم يذكر ما بناه المسلمون بعد الرومان والبيزنطيين ، وكان جديرا به أن يكون موضوعيا ويعترف أمانة للتاريخ لـــهذا الواقع الذي لن يغيره تجاهل !!

وبالعودة إلى الادريسي وبشيء من التردد ، فقد رجح الدكتور عبد العزيز سالم أن يكون سان جيل قد اختار موقع سفيان الازدي ليبني حصنه ، فقال:

واختار لهذا الحصن موقعا استراتيجيا هاما على تلة أبي سمرة الحالية ، الواقعة على الضفة اليسرى من نهر قاديشا وهي التي كانت تعرف بتلة الحجاج Mons Peregrinus وفكرة إقامة حصن خارج مدينة طرابلس لأحكام الحصار عليها بريا والتحكم في الطرق الرئيسية المؤدية إليها ، فكرة قديمة ، طبقها من قبل سفيان بن مجيب الازدي عند قيامه بمحاصرة طرابلس .

ومن المحتمل أن تكون آثار برج سفيان ما تزال ماثلة في ذلك الوقت ، فأوحت إلى ريموند بفكرة إنشاء قلعته ، ومن المحتمل أيضا أن يكون قد أسس حصنه الصليبي في نفس الموضع الذي كان يقوم عليه برج سفيان "(٩) .

وبعد أن شدّد سان جيل الحصار على حصن سفيان ، تمكن من احتلاله [وهو الحصن الذي تحدث عنه ناصر خسرو ، كما احتل المشهد المثمن الزوايا ، فضمهما إلى بعضهما وأضاف عليهما زيادات محولا الموقع إلى حصن حربي يفي بحاجاته.

ومن طريف ما يرويه مؤرخون غربيون أن ريموند سان جيل عندما رأى المشهد الفاطمي المثمن الزوايا اعجب فيه ورأى فيه صورة مصغرة عن كنيسة (سان سيبلكر) في بيت المقدس ، (انظر الصورة الملونة رقم ٣٤) ولما كان حلمه أن يكون ملكا على بيت المقدس [ولم يتحقق ذلك] ، فقد اعتبر استيلاءه على ذلك المشهد تعزية له ، فأبقى عليه وحوله إلى كنيسة بعد أن ألغى محرابه وبنى من حوله الحصن (١٠) أو بالأصح ما أضافه من بناء على الحصن القديم .

ومهما يكن من أمر ، فقد (تأنق ريموند سان جيل ـ على حد تعبير سبط ابن الجوزي ـ بالبناء الأخير للحصن ، فجعل بعض سقوفه من الذهب وشحنه بالرجال والأموال والسلاح) ، وذلك بعد أن أعانه الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين آنذاك ، فأرسل له من جزيرة قبرص الميرة والأخشاب والمعدات اللازمة .

ويبدو أن موقع المشهد الفاطمي ـ المحول إلى كنيسة ـ هو في الموقع الموضح في مخطط القلعة المثبت في هذا الفصل ، كما هو مبين في موضعه .

(٩) د.عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٩٥ .

(١٠) د. عمر تدمري : تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ، ص ٢٩٢ نقلا عن chronique archeo logique.

ومن التدقيق في المخطط يتبين أن واضع الرسم شكله على أضلاع مثمنة ، ممّا يتوافق مع ما ذهبنا إليه ، كما يبدو ذلك واضحا في الصورة الفوتوغرافية المنشورة في موضعها من هذا الكتاب.

ويعني ما تقدّم أنّ المشهد الفاطمي هو قرب (حصن سفيان) الذي وصفه خسرو الآنف الذكر والذي وحده مع المشهد ريموند سان جيل .

ويتّضح من المخطط أيضا ، موقع حصن طرابلس القديم ، وهو الحصن الذي أشار إليه المخطط على انه بناء صليبي ، والحق انه بناء إسلامي في موقعه وفي بنائه الحالي وإن مر الموقع بمرحلة الاحتلال الصليبي ، إذ حوّله سان جيل إلى قصر مشيد .

ويؤكد ما ذهبنا إليه أيضا ما أشار اليه المستشرق سوبر نهايم من أن قواعد وأصول حصن سان جيل هي سابقة لعهد الصليبيين فقال : " إن قصر ريموند دي صانجيل ، حيث أصوله وقواعده قد تكون سابقة لعهد الصليبيين..."(١١) .

٨ ـ مع اكتمال البناء عند سان جيل أطلق على الحصن اسمه ، حتى أن بعض المؤرخين المسلمين عرّفوا الحصن باسم صنجيل .فهذا أبو يعلى حمزة بن القلانسي في تاريخه المعروف بذيل تاريخ دمشق ـ أثناء روايته عملية فخر الملك ضد سان جيل يطلق على الحصن اسم صنجيل ، ويقول في الرواية :

وفي هذه السنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م ورد الخبر من ناحية طرابلس بظهور فخر الملك ابن عمار صاحبها في عسكره وأهل البلد وقصدهم الحصن الذي بناه صنجيل عليهم وانهم هجموا عليه على غرة ممن فيه فقتل من به ونهب ما فيه واحرق واخرب واخذ منه السلاح والمال والديباج والفضة الشي الكثير وعاد إلى طرابلس سالما غانما في التاسع عشر من ذي الحجة(١٢) .

وإذ باغت فخر الملك سان جيل في حملته قام ريموند مع جماعة من القماوصة comes أو conte متفقدا بقايا حصنه المحترق فوقف على بعض سقوفه المذهبة المحترقة فانخسف بهم وأصيب ريموند بجروح وحروق جعلته طريح الفراش مدة عشرة أيام ثم ما لبث أن توفي داخل الحصن المحترق (١٣) .

وآلت قيادة الصليبيين في قلعة صنجيل إلى ابن خاله "ريموند" (وليم جوردان) والمعروف في المصادر العربية بـ (السرداني) ، وقام بإعادة بناء ما تهدم من الحصن وواصل ـ فيه ـ حصار المدينة من جديد .

(١١) طه الولي : قلاع وأبراج طرابلس ، ص ١٣ .

(١٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ،، ص ١٤٦ .

(١٣) نقلا عن تاريخ الإسلام للذهبي وسبط ابن الجوزي وتاريخ طرابلس الحضاري والحروب الصليبية كما رآها العرب.

وإذ سقطت طرابلس بيد الصليبيين ، غدت إمارة لاتينية ، فصكّوا فيها نقودهم قلدوا فيها عملة آل عمار وفيها نقش فني كتب عليه (لا اله الا الله) فوضعوا في اعلاها حرف T أي (Tripoli) ثم لما تبين لهم معنى النقيشة القوا النقود وطبعوا سواها (راجع الصورة الملونة رقم٤٠) كما ان بعض المؤرخين ذكروا ان الصليبيين رسموا قلعة صنجيل على نقودهم[١٤] .

٩ ــ ومن الطبيعي أن يجري الصليبيون أيضا تجديد الحصن ، بعد أول هجوم إسلامي على طرابلس الصليبية عام ٥٣١ هـ/١١٣٧ م ، وكان قائد هذا الهجوم شجاع الدولة بن بزواج اتابك دمشق مع عسكره التركماني ، فقد وصل بزواج إلى الحصن (الصليبي) واحتله ، وقتل من فيه من المقدمين والعساكر ، وأسر من بذل في نفسه المال الكثير وجعل له ولعسكره القيمة الكثيرة[١٥] ، وقتِل في تلك المعركة بونز كونت طرابلس .

١٠ ــ في عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م.وقع زلزال كبير خرَّب بلاد الشام ، فهدم قلاعها ومبانيها،على ما يذكره ابن تغري بردي صاحب كتاب (النجوم الزاهرة) اذ يقول : أنه في سنة ٥٥٣هـ/١١٥٧م٠ كانت زلازل عظيمة بالشام وحلب وحماة وشيزر وغالب بلاد الشام والشرق ، وهلك خلق كثير ووقعت قلعة حلب وغيرها ، وهلك جميع من كان في شيزر إلا امرأة واحدة وخادما.وضربت صيدا وبيروت وطرابلس وعكار وصور وجميع قلاع الفرنج وعمل الشعراء في ذلك العصر في هذه الزلزلة أشعارا كثيرة .

---

(١٤) إن هذا القول يحتاج إلى التدقيق ، فالعملة التي صكت في طرابلس وحملت على أحد وجهيها رسم قلعة أو قصر كبير تعود إلى بوهمند السادس وبقيت في التداول بين ١٢٦٨ إلى ١٢٧٤ ويتبين من الرسم الذي هو لحصن أو قصر ليس بالتأكيد غير حصن صنجيل بالرغم من أن المصكوكة قد ضربت في طرابلس . ومن الرجوع إلى الرسم يتبين منه نوافذ متراكمة تدل على أن الحصن أو القلعة أو القصر على طبقات متعددة تتجاوز الأربع وتتماثل مع قلاع أوروبية في ذلك الحين ، وحصن صنجيل لم يكن بالتأكيد كذلك كما لم يكن على شكل قلعة طرابلس بحال من الأحوال ...
زد على ذلك فان هذا الحصن احرقه وهدمه الظاهر بيبرس أثناء حصاره لطرابلس عام ٦٦٦ هـ. ١٢٥٨م٠ و لم يجدد الحصن بعدئذ فلا يعقل أن تضرب العملة برسم حصن خرب لم يجدد و لم يعد يدخل في استراتيجية الإمارة الصليبية في طرابلس ٠والراجح أن بوهمند السابع صك في طرابلس عملة صليبية عليها رسم لحصن أو برج كنيسي وهو الحصن الذي بناه والده (السادس المتوفى عام ١٢٧٤) (راجع ما كتبناه بهذا الشأن في فصل كنيسة أو برج دو لاتور أم موقع الجامع المنصور الكبير في هذا القسم من الكتاب) بعد أن هزمه بيبرس في إنطاكية دمر حصن صنجيل ودكه إلى الأرض وقد دفن بوهمند السادس في الحصن الذي بناه وخلّد ذكره ولده (السابع) على المصكوكة النقدية (راجع صورة النقد المنشور في الفصل المشار إليه).
(١٥) راجع القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٢ ، وراجع فصل محاولات استرجاع طرابلس من هذا الكتاب .

ويفهم من قول ابن تغري بردى "وجميع قلاع الفرنج" ، أن قلعة طرابلس لم تكن بمنجاة من هول هذا الزلزال بل كان لها منه نفس النصيب الذي لحق بغيرها من العمائر الأخرى في المنطقة المضروبة[١٦] .

ومن الطبيعي إن يكون الصليبيون في طرابلس قد قاموا بتجديدٍ بعد كل زلزال شديد تأثرت به طرابلس ومبانيها ، ومنها الزلزال الكبير الذي وقع سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م. والزلزال الشديد عام ٥٩٧هـ/١٢٠١م.

١١ ــ وعندما قام السلطان العادل أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي بحملته ضد طرابلس الصليبية عام ٦٠٣هـ /١٢٠٨ م بهدف تحريرها واستعادتها...نصب المجانيق باتجاه القلعة وأغار على ضواحي طرابلس وهدم البيوت اللاتينية ومراكز الجند خارج القلعة ثم استولى على الحصن نفسه...ثم لما عجز عن فتح المدينة ترك الحصن وارياضه فاستولى عليه الصليبيون أعادوا ترميمه[١٧] .

١٢ ــ وفي عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م.وضمن حملته العسكرية ضد الصليبيين في طرابلس، قام الظاهر بيبرس باقتحام الحصن (الصليبي) في تلة الحجاج في أبي سمراء ، وهدم وقتل من فيه.ولم يُبْنَ الحصنُ من بعد والى ما بعد تحرير طرابلس [على يد قلاوون]، كما لم يدخل الحصن في أي من عمليات الدفاع بعد انقضاض بيبرس عليه وهدمه له[١٨] .

١٣ ــ وذكر أسد رستم في كراسته قلعة طرابلس الشام ما يلي :
" يعتقد البعض من كتّاب الفرنجة اليوم ، وقسم من المولعين بالآثار في بلادنا، أن القلعة التي نشاهدها اليوم في مدينة طرابلس ٠ هي حصن صنجيل الصليبي المشهور ، إلا أن هذا القول على شهرته ليس بالقول المرضي عنه عند المدقق المتروي ، لأنه لا يتفق تمام الاتفاق مع جميع الأصول التاريخية المعروفة اليوم".

قال المؤرخ العربي المشهور أبو الفداء ما نصه : " وحصار طرابلس هو أيضا مما شاهدته ، وكنت حاضرا فيه مع والدي الملك الأفضل وابن عمي الملك المظفر صاحب حماة، ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم أمر السلطان فهدمت ودكت إلى الأرض" . وكذلك أشار المؤرخ اللبناني جبرائيل القلاعي إلى كل ما تقدم ، وذكر هدم القلعة وحرقها " .

---

(١٦) طه الولي : قلاع وأبراج طرابلس الشام ، ص ٣.
(١٧) راجع المحاولة الحادية عشرة (استعادة المدينة) من هذا الكتاب ، ص ٤٧ .
(١٨) قارن في ذلك ما ورد في السلوك لمعرفة دول الملوك ؛ وتاريخ طرابلس السياسي والحضاري للتدمري ، ص ٤٠ .

وذكر أيضا الفيكونت دي طرازي[19] ما يلي : " في منتصف نيسان سنة ١٢٨٩م. وقعت في طرابلس تلك الحروب الدامية بين المسلمين والفرنج فتغلب المسلمون وقوضوا دور المدينة ، ولم يتركوا برجا من أبراجها إلا دكوه ولا كنيسة من كنائسها إلا هدموها ، واستأسروا من البنين والبنات عددا لا يقع تحت الإحصاء وتركوا البلد خاويا ".

ومن قول طرازي يتبين أن الأبراج جميعا وكل بناء وحصن قد هدمه المماليك الفاتحون تهديما كاملا ، ويسري هذا القول على ما بقي من حصن صنجيل بعد تهديم بيبرس له.

وهكذا لما فتح المنصور قلاوون طرابلس وأمر بهدم المدينة القديمة التي على البحر، أمر أيضا ببناء طرابلس جديدة ـــ كما رأينا من قبل ـــ ، ومن الطبيعي أن يكون مهندسو قلاوون ومعماروه ومستشاروه قد وضعوا أسس المدينة الجديدة ، مخططين لمساكنها الجديدة ودفاعاتها الواجبة ـــ وهي المدينة التي لحظوا إن لا يكون لها سور يحميها ـــ فكان من الطبيعي أن يتطلعوا إلى موقع سفيان أو تلة الحجاج أو حصن صنجيل المهدم ليقرروا فيه بناء عسكريا قويا كما لحظوا في منبسط اسفل تلة الحجاج تخطيط المدينة الجديدة حيث سيتم بناء مسجد جامع هو الجامع الكبير تتفرع منه شوارع المدينة المملوكية الجديدة .

ولما ارتحل قلاوون اسند نيابة طرابلس إلى وال قادر حكيم إداري منظم وعسكري ممارس هو نائب السلطنة بلبان الطباخي الذي استمر في ولايته أربع سنوات من سنة التحرير ٦٨٩هـ/١٢٨٩ إلى ٦٩٢ هـ/١٢٩٢ م ، فكانت سنوات إعمار وبناء وتنظيم وتشييد.وكان من الطبيعي أن يبدأ بلبان بالقلعة وبالجامع وبدار الحكومة التي أطلق عليها دار السعادة ليبدأ معه الناس ببناء دورهم ومحالهم.

وكانت المدينة القائمة على البحر قد صار معظمها خرابا فكان نائب السلطنة في الفتوحات والسواحل يقيم في حصن الأكراد ويرسل حامية منها لخفارة طرابلس فراح الأمير سيف الدين بلبان الطباخي يبذل جهده في بناء المدينة الجديدة عند النهر[20]...

ويقول الشيخ طه الولي : " بناء القلعة بدأ في عهد بلبان قبل خلفائه في نيابة طرابلس وإن بلبان هو ذاته قد باشر بناءها وليس اسندمير كما تواضع على ذلك اكثر المؤرخين "[21].

(١٩) أصدق ما كان عن تاريخ لبنان ، ص ٦٣.
(٢٠) جرجي يني : مجلة المباحث ؛ طه الولي : قلاع وأبراج طرابلس الشام ، ص ١٧.
(٢١): م.س.، ص ١٧.

ويدعم هذا القول أن بلبان الطباخي هو مَنْ بدأ ببناء القلعة ما ذكره النويري في (نهاية الأرب) من أن الأمير سيف الدين اسندمير كرجي المنصوري [نائب السلطنة في طرابلس] وقد فوضت نيابة السلطنة إليه ـــ في طرابلس ـــ قد عمر أيضا بعض القلعة وأقام أبراجا " مما يعني أن من سبقه من ولاة ونواب أولهم بلبان الطباخي ، قد قاموا ببناء ما في قلعة طرابلس الجديدة ثم جاء اسندمير كرجي ليكمل ما بدأوه وهكذا نقرا مع المستشرق الفرنسي بروس كوندي والدكتور عبد العزيز سالم[22] أن :"وإليه (أي اسندمير) ، تنسب بوابة القلعة الحالية بعقدها الذي يتناوب في سنجاته اللونان الأسود والأبيض على التعاقب ، كما ينسب إليه كثير من أسوارها وأبراجها " .

إلا أن المقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك قال أن اسندمير الكرجي قد بنى قلعة مكان حصن صنجيل ، وذلك ابتداء من ولايته سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م.

ومهما يكن من أمر ، وسواء بدأ ببناء القلعة الجديدة بلبان الطباخي وبعده نواب السلطنة خلفاؤه حتى اسندمير كرجي ، أو أن هذا النائب قد قام بالتشييد والبناء فان القلعة مستجدة وهي إسلامية البناء والهندسة ، ولا اثر لحصن سان جيل فيها ولا لأي بناء صليبي آخر إذ أن هذان دُرسَا مع تهديم طرابلس ومبانيها سواء مع السلطان قلاوون ضمن فتح طرابلس أو قبل ذلك مع السلطان الظاهر بيبرس .

وهكذا يمكن أن نرد مع المستشرق سوبر نهايم بكثير من الجدية : " إنّ قصر ريموند دي صنجيل حيث أصوله وقواعده قد تكون سابقة لعهد الصليبيين قد أعيد بناؤه بصورة اقل قوة منذ الفتح الإسلامي . والقلعة الحالية التي كانت قاعدة الكونتينية كل تفاصيل بنائها من الداخل والخارج تنم عن عمل مهندس عربي " .

ويقول رينيه ريستلهوب عن قلعة طرابلس أن معقل سان جيل قد : " شيدت على أطلاله القلعة الحديثة " .

وذكر الأب لويس شيخو في مجلة الشرق عام ١٩٢٦ أن مؤتمر بيروت الأثري الذي حضره عشرات المستشرقين وعلماء الآثار من مختلف ديار العالم وجامعاته الأوروبية والأمريكية والعربية والتركية ، أصدر تقريرا شاملا بعد زيارته الى طرابلس جاء فيه ما يلي:

" فوصلنا إلى طرابلس ، مارين بين بساتينها التي تعشقها صانجيل (ريموند) أميرها الصليبي ، فكان قصره يشرف على المدينة ، وهو محصن بالاستحكامات المنيعة، على أننا لم نجد له أثرا ، وإنما أقيم مكانه حصن احدث منه عهدا ودونه

(٢٢)د. عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ص ٤٣٨.

مناعة ٠ لا برج يحمي مدخله ولا دعائم تسنده إلا أن العين تكشف منه مناظر فتانة دعت مسيو هنري بوردو إلى وضعها في رواية "جميلة تحت الأرز " .

ومما تقدم يتبين أن البناء الحالي (للحصن ـ القلعة) هو بناء إسلامي يعود تاريخه إلى تاريخ ما بعد التحرير مع بدايات القرن الثالث عشر ميلادي أو السابع الهجري .

وقد شهدت القلعة على امتداد العصور الإسلامية الجديدة المملوكية والعثمانية إضافات عديدة ، حتى استقرت على ما هي عليه الآن ، وقد كانت في مرحلتها المملوكية الأولى تعد مركزا لتعليق مراسيم السلطان المهمة نقشا.(انظر صورة القلعة الملونة رقم ٣٣).

١٤ ـ في عهد السلطان شعبان وهو الابن الخامس للسلطان الناصر محمد ابن السلطان المنصور قلاوون فاتح طرابلس وبانيها من جديد ، صدر أمر (مسامحة) عن السلطان شعبان في العاشر من شعبان ٧٤٦ هـ. / ١٣٤٥م. يقضي بمسامحة أجناد طرابلس وسواهم عن أرزاق يجبونها فنقش هذا الأمر على رخام ابيض كبير علقت على وجه البرج الشمالي الكبير فوق مدخله الشمالي أيضا وجاء في الأمر :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، لما كان بتاريخ العاشر من شعبان المكرم سنة ست وأربعين وسبعماية للهجرة الشريفة النبوية / ١٣٤٥م. ، برز أمر مولانا السلطان الأعظم المالك، الملك الكامل ، سيف الدنيا والدين ، شعبان ابن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد ، ابن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون ، لا زالت مراسمه نافذة في الآفاق ، هاطلة سحب سمائها بالإغداق والإطلاق ، أن يسامح جميع الجيوش المنصورة الإسلامية ، والأمراء والمماليك السلطانية ، والجند بالحلقات ، والأصحاب الأمراء والأتباع ، بما لعله يتعين للديوان المعمور على كل مفصل منهم من بقية خدمه، أو تفاوت أيام الدوران ما بين السنين الشمسية والقمرية...مشتمل عليه العطاء الذي شمل جوده الخاص والعام ومثوبة تحمد اجرها في دار الكرامة ، وسنة حسنة لها اجرها واجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن ثابر على الإقتداء فيه.حقق الله من الخير ظنونه ٠ ومن بدله بعد ما سمعه ، فان إثمه على الذين يبدلونه.ومن نقصه أو قصد نقصه على مر السنين ، فيكون الله عز وجل خصمه

ونبيه محمد سيد المرسلين.ويحق عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ويبوء بالإثم الذي يخسر به الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين...ومن...وهو خير الوارثين في أيام ملك الأمراء المقر الأشراف العالي السيفي قماري الكاملي ، كافل السلطنة الشريفة بالفتوحات الطرابلسية ، عن نصره " .

ومن المفيد أن نذكر أن جند الحلقة الطرابلسية في العهد المملوكي إبان صدور الأمر، لمرابطين في طرابلس ، كانوا أربعة آلاف جندي وألف ملوك وكانوا بإمرة الأمير حاكم طرابلس[٢٣] .

١٥ ـ ويبدو أن القلعة قد أصيبت بأضرار في العهد المملوكي ولم يجر تجديدها آنذاك فقد تحدث القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى المتوفى سنة ٨٢١هـ./١٤١٨م.عندما السلطنة قال : " وليس بطرابلس قلعة فيكتب إلى نائبها".

ويعلق الشيخ طه الولي[٢٤] على كلام القلقشندي معتبرا ان هذا الكلام يفيد أن قلعة طرابلس لم تكن صالحة في أيام القلقشندي وان نائب السلطان لم يكن يسكنها ولا يستعملها في أغراضه العسكرية .

١٦ ـ وقبل ذلك ، إتخذ والي طرابلس المملوكي من القلعة منزلا له ، إذ كان بها يقيم وبها دار السلطنة وكانت تعرف بدار السعادة ، كما كان الوالي يعرف بـ (نائب القلعة وطرابلس) ، بينما قائد القلعة نفسه كان يدعى (اتابك قلعة طرابلس)[٢٥] .

وإذ أقام متسلم طرابلس وواليها ، في أواخر العهد العثماني ، خارج القلعة ، انشا بين بيته وبين باب القلعة الكبير طريقا وذلك (بواسطة سراديب وأقبية محصنة ودور عالية ضخمة متلاصقة بعضها ببعض بين بيت توفيق آغا خضر آغا وبيت حسن أفندي الكشاف حسبما يؤكد أعيان طرابلس وأهل الخبرة[٢٦] .

---

(٢٣) مجلة المباحث ، مجلد ٢، ص ٧٤٣ ؛ أغناطيوس الخوري : مصطفى آغا بربر حاكم طرابلس واللاذقية ، ص ١١٤

(٢٤) طه الولي : قلاع وأبراج طرابلس الشام ، ص ٢٥ ٠

(٢٥) د. خالد زيادة : مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٥٧ (ايلول ١٩٩٥م).

(٢٦) أغناطيوس الخوري : مصطفى بربر آغا ، ص ١١٣ ٠

القلعة والجامع في طرابلس عام ١٨٨٠ . رسم ج.هوبليير. عن صورة فوتوغرافية منشورة في كتاب السياحة في بلاد الشام ويبدو الجامع ومئذنته في اعلى القلعة (الصورة رقم ١٩)

١٧ ـ وقد بنى الأمير مصطفى آغا بن اسكندر باشا الخنجرلي عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م.مسجدا في القلعة في عهد السلطان سليم الأول العثماني .

وكانت الشعائر الدينية تقام في جامع القلعة المذكور حتى أوائل هذا القرن العشرين ، وكان شيخ الجامع آنذاك عبد القادر الحسيني الذي خلفه ابنه الشيخ عبد الفتاح ، وكانت هناك أوقاف لجامع القلعة في قرية كفتون ومزرعتها[٢٧] (انظر الشكل رقم ١٩ ويبدو الجامع في اعلى القلعة).

وجامع القلعة هو غير المصلى الذي سنتحدث عنه لاحقا ، (مصلى بربر آغا) وقد بني الجامع في أعلى القلعة عند قبر الشيخ سلمان العربان المتوفى عام ١٤٢٠ هـ ، والقبر لا يزال قائما رقم ٣٧ بينما اندثر الجامع ويظهر موقعه ومئذنته من القلعة في الرسم العام لها والرسم بريشة الرسام بلورتيه بين عامي ١٨٧٥ـ ١٨٨٠ م.عندما كان زائرا لبلاد الشام سوريا ولبنان وفلسطين كما ذكر الجامع مع القلعة الرحالة عبد الغني النابلسي في رحلته الطرابلسية عندما ذكر جوامع المدينة العامرة التي تقام فيها الجمعة فسمى اثني عشر جامعا كان منها جامع القلعة[٢٨].

١٨ ـ كما جرى تجديد القلعة وتوسعتها في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ، ورفعت فوق باب القلعة الكبير ومدخلها الرسمي لوحة رخامية عليها الكتابة التالية:

"بسم الله الرحمن الرحيم ، رسم بالأمر الشريف السلطاني الملكي المظفري ، سلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم شاه.لا زالت أوامره الشريفة مطاعة في الأمراء ، بان يجدد هذا البرج المبارك ليكون حصنا منيعا على دوام.وكان الفراغ من عمارته في شهر شعبان المبارك سنة ٩٢٧ هـ/١٥٢٠ م.

١٩ ـ ويبدو أن أمرا صدر عن والي دمشق مصطفى باشا على اثر الصواع والحروب بين يوسف باشا آل سيفا وخصومه (الأمير فخر الدين المعني) في سنة ١٦١٩ م، قضى بعزل يوسف باشا سيف وهدم قلاعه التي كانت بيده في

---

(٢٧) د. خالد زيادة : مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٥٧ (ايلول ١٩٩٥)

(٢٨) والعجيب أن محققي كتاب تاريخ طرابلس الشام لحكمت شريف ، وهما السيدة مى حداد يكن ومارون عيسى الخوري ، شككا في حاشية الكتاب ، ص ١٧٥ تعليقا على ما كتبه وشاهده الرحالة الشيخ عبد الغني النابلسي الذي زار طرابلس عام ١١١٢هـ/١٧٠٠م وكتب(التحفة النابلسية في الزيارة الطرابلسية) .فيذكرا ما نصه :(جامع القلعة : ليس واضحا تماما ولا تشير المصادر التاريخية التي بين أيدينا (كذا) من قريب أو بعيد إلى وجود هذا الجامع ولعله كان موجودا خارج القلعة (كذا) فاندثر على الزمن أو انه الجامع القائم داخل القلعة والذي أمر بتجديد بنائه مصطفى بربر آغا عام ١٨٠٢/١٠١م وقد أثبتنا أن بربر بنى مصلى وليس مسجدا في مدخل القلعة أما جامع القلعة الذي عاينه الرحالة النابلسي وذكره في تحفته فهو جامع معمور تقام فيه الجمع والأعياد والشيخ عبد الغني زار طرابلس والقلعة عام ١٧٢١ م أي قبل بناء مصلى بربر بأكثر من مئة سنة ويكفي هذا تصحيحا لما أورده (المحققان) .

طرابلس وضبط أرزاقه[٢٩] إلا أن الأمر لم ينفذ ـ على ما يرجح ـ إذ اعتصم يوسف باشا بالقلعة ثم سعى إلى مصالحة فخر الدين وجرت المظاهرات بينهما ثم عمد يوسف باشا سيفا إلى تجديد القلعة .

ومن طريف ما يروى أن القلعة قد استخدمت موقعا دفاعيا من أنصار يوسف باشا آل سيفا لما غزا الأمير فخر الدين المعني طرابلس وإذ أقام الأمير فخر الدين في قصر حسين باشا سيفا الضخم في سوق العطارين وعند الإفطار في غروب يوم من رمضان أطلقت حامية القلعة ثلاث طلقات مدفعية بآن واحد على القصر لعلمها أن الأمير فخر الدين في الإيوان يتناول الإفطار فهدمت الطلقات جزءا مهما من القصر ونجا فخر الدين لعدم وجوده ساعتئذ...فغضب فخر الدين وأمر بضرب حصار شديد على القلعة.إلا أن يوسف باشا تمكن من إقناع استنبول بسوء نوايا فخر الدين وان مراده الاستيلاء على القلعة ليتمكن من ضم طرابلس إلى أملاكه...وهكذا خرج ابن معن في عام ١٦٢٠ من طرابلس وعاد آل سيفا إليها.

٢٠ ـ وفي سنة ١١٢١هـ/١٧٢٩م.جرى الكشف على القلعة بعد أن عم الخراب معظم نواحيها ، بحيث تهدمت قطع كبيرة من أسوارها وأبراجها وأقبيتها وجامعها وغرف الحراسة فيها والتحصينات ومستودعات السلاح والذخيرة والنوافذ الحربية وقدرت تكاليف إعادة بناء ما تهدم منها وإصلاحه بمبلغ (٣٩٦١١١) قرشا .

وقد شمل الكشف أيضا أبراج طرابلس الحربية الستة التي على ساحل البحر ووضعت التقديرات اللازمة لإعادة بناء ما تهدم منها وترميمها)[٣٠] .

٢١ ـ وفي عهد ولاية مصطفى آغا بربر لطرابلس واعتبارا من سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م.رمم بربر آغا ، القلعة بناء على أمر احمد باشا الجزار (متسلم الشام وصيدا وطرابلس وسر عسكر الحجاز) على حد تعبير الجزار نفسه بكتابه الذي أصدره إلى بربر ليجدد بناء ما تهدم من القلعة[٣١].ثم بنى بربر في القلعة مسجدا صغيرا بين برج الباب الرئيسي والبرج الكبير.وعليه نقش محفور فوق محرابه يذكر تاريخ إنشائه من قبل بربر آغا وهو عام ١٢١٦/١٨٠١م.في مستهل حكمه.

(٢٩) طانيوس الشدياق : أخبار الأعيان في جبل لبنان ، ص ٣٥٣

(٣٠) د. خالد زيادة : مجلة تاريخ العرب والعالم ، نقلا عن سجل المحكمة الشرعية في طرابلس .

(٣١) أسد رستم : قلعة طرابلس صليبية أم مسلمة ، ص ٢٠٩ ؛ اغناطيوس الخوري : راجع كتاب مصطفى آغا بربر حاكم طرابلس ، ص ١١٦ .

إلا أن هذا النقش قد انتزع من مكانه كما تهدم المسجد ولم يبق إلا محرابه المنحوت في جدار القلعة (كما هو واضح في الصورة الملونة رقم ٣٦).

ويصف الرحالة النمسوي اولرخ يسبار سيتزن الذي زار آغا بربر في طرابلس والتقاه في القلعة عام ١٨٠٥ جامع بربر فيقول[٣٢]: " أما الجامع،فانه مع كونه صغير المساحة من الداخل لكنه على جانب عظيم من الجمال،لا سيما أبوابه ومحرابه المزدانة بأشغال الفسيفساء وكان في المحراب بين الفسيفساء قطعتا رخام معرقتان بلون اخضر طبيعي،وهما قديمتان جدا،تبتهج بمرآهما العين" .

ومن طريف ما يرويه هذا الرحالة عن تجديد بناء القلعة في عهد بربر فيقول: " الحاكم المذكور مغرم بتشييد الأبنية إلا انه حين زيارتنا لم يكن قد اكمل القلعة ، لأنه كان يبني فيها من جهة ويهدم من جهة أخرى ، فكان الهدم والبناء فيها عملين مستمرين.وكان بربر قد سبق أن هدم سراية الباشا [أي دار الحكومة] ونقل حجارتها إلى القلعة ".

وبعد الحروب الكثيرة التي نشأت بين بربر آغا وبعض الولاة من قبل الدولة العثمانية تهدم جزء من القلعة ، فلما عاد إليها بربر عام ١٢٢٦ هـ/ ١٨١١ اهتم بإعادة عمارتها وترميمها وشحنها بالأسلحة من ماله الخاص ثم اقترض من أهل طرابلس لهذه الغاية ثم وفاهم المال[٣٣] .

٢٢ ـ ومن جميل ما يذكر أن انتقال القلعة من وال إلى آخر كان يتم وفق احتفال (تسلم واستلام) قصير بحضور قاضي طرابلس الشرعي ومفتيها وإمام القلعة وإمام مسجدها وضابط القلعة السابق ، ثم يجري إحصاء وتحرير موجودات القلعة ويحفظ ذلك التحرير في سجل المحكمة الشرعية بالمدينة .

ويمثل هذا الاحتفال تسلم بربر آغا القلعة بتاريخ ٢٤ رجب ١٢٣٧هـ/١٨٢١م.وقد جاء في هذا السجل ذو الرقم ٤٧ لسنة ١٨٢١ م ما يلي: " علم ببيان دفتر يشمل على تحرير موجودات قلعة طرابلس مع الجبخانة والمدافع والمهمات وغير ذلك التي تسلمها بربر من المحافظ السابق الياس آغا ضابط القلعة المرقومة والمحافظ من قبل الوزير عبد الله باشا...وقد صار ذلك التسليم بحضور بربر والحاكم الشرعي والمفتي السيد محمد أفندي يحيى ومحمد آغا وإمام القلعة يحيى أفندي الحسيني وجرى ذلك في ٢٤ رجب ١٢٣٥هـ/١٨٢١م." [٣٤] .

(٣٢) طه الولي: قلاع وآثار طرابلس الشام ، ص ٢٧ وما بعدها .

(٣٣) محكمة طرابلس الشرعية ، سجل رقم ٤٧ ، ص ٣٢ ؛ أغناطيوس الخوري : مصطفى بربر آغا ، حاكم طرابلس واللاذقية؛حكمت شريف : تاريخ طرابلس الشام من اقدم أزمانها الى هذه الأيام ، ص ١٤٤ .

(٣٤) أغناطيوس الخوري : مصطفى بربر آغا ، حاكم طرابلس واللاذقية ، ص ١٨٧ .

٢٣ ــ وكانت قلعة طرابلس تشكل خزانا للأسلحة يمكن أن يجري الإمداد منها لقلاع المنطقة . فقد صدر في عام ١٢٣٢/١٨١٦ م. مرسوم عمومي من سليمان باشا إلى أهالي طرابلس بشخص متسلمها بربر آغا " إن قلعة يافا ــ في فلسطين ــ بما أنها حصينة وهي بوغاز بيت المقدس صارت مطمع الأنظار ولأجل حفظها وصيانتها من الأعداء وحفظا للملك العثماني المحروس ، قد حصل السعي باستجلاب وإرسال المدافع اللازمة لمحافظتها ، كما قد تحصنت قلعة عكا وقلعة طرابلس بقسم من المدافع. وبما انه موجود في قلعة طرابلس مدافع زيادة عن لزومها ، والجميع قلع حضرة مولانا السلطان ، فيلزم بالحال أن يخرجوا ١٢ مدفعا، وينزلوها من القلعة ويرسلوها بحرا إلى يافا . وبوصول الأمر إلى بربر وأهل طرابلس ، حصلت المبادرة لإنفاذه ، وأرسل بربر الاثني عشر مدفعا من طرابلس إلى يافا مع ثلاثة مدافع صغيرة ، وكمية كبيرة من الذخيرة "(٣٥).

٢٤ ــ وعند إخراج العساكر المصرية من طرابلس سنة ١٨٤٢ م تعرضت القلعة لحريق كبير من جراء اشتعال الذخائر الحربية التي كانت بداخلها ، وقد أدى هذا الحريق إلى تهدم جانب كبير من سورها المطل على نهر أبي علي وبسبب الخراب الذي أصاب القلعة في ذلك الوقت فان السلطات العثمانية صرفت النظر عن استعمالها للأغراض العسكرية وحولتها إلى تكنة عادية لقوات الأمن الداخلي التي كانت في المدينة.وعندما كان مدحت باشا واليا على بيروت كتب إلى اسطمبول مذكرة يلتمس فيها من الباب العالي إصدار أمره بجعل القلعة سجنا بدلا من عكا ، فاستجابت اسطمبول لهذا الالتماس وكان ذلك بتاريخ رمضان ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م.

ومنذ ذلك الحين أصبحت القلعة سجنا مدنيا يقضي فيه المحكومون جنائيا مدة عقوبتهم التأديبية.وبقيت على هذه الحال بعد احتلال الفرنسيين لبلادنا وعندما بني سجن الرمل في بيروت عام ١٩٢٦ م.ألغي استعمال القلعة لهذا الغرض حولت إلى مرفق أثري، ووضعت تحت تصرف المديرية العامة للآثار في لبنان، وفي أوائل العقد السابع من هذا القرن ، قررت المديرية المذكورة ترميم الأجزاء الداخلية المهمة من القلعة لإعادتها كما كانت في عهد الصليبيين (؟؟؟) وأطلقت عليها اسم "قلعة صنجيل" والجدير بالذكر أن هذا الاسم لا يعبر عن الحقيقة التاريخية لهذه القلعة (٣٦)].

(٣٥) م.ن.، ص ١٣١

(٣٦) طه الولي : قلاع وأبراج طرابلس الشام ، ص٣٠ .

٢٥ ــ وقد حاولت مديرية الآثار بعد إطلاق اسم صنجيل على القلعة ، إبرازها كأثر صليبي صرف.فنظمت دعاية للقلعة الصليبية (؟؟؟) في الصحف اللبنانية بتاريخ ١/٧/٦٨ فنشرت جريدة الجريدة البيروتية إعلانا يقول : " القلاع الصليبية في طرابلس يباح الدخول إليها كل الأيام " وقد قام المؤرخ الطرابلسي الشيخ طه الولي بحملة صحفية ضد هذا التوجه الرسمي الذي يزور هوية قلعة طرابلس..

ويروي الأستاذ الولي كيف أن المشرفين ــ على قلعة طرابلس ــ في مديرية الآثار اللبنانية قد اعتمدوا على نص يتيم ورد في الدليل الأزرق أن في داخل القلعة بقية آثار لكنيسة من القرن الثاني عشر فاخذ المشرفون في أوائل عام ١٩٧٠ " يبحثون بين أنقاض القلعة عن الحجارة التي تتكون منها هذه الكنيسة الموهومة ولما اجتمع لديهم عدد من الحجارة وضموها بعضها إلى بعض خاب ظنهم إذ وجدوا ما جمعوه لا يمت من قريب أو بعيد إلى أي بناء ديني مسيحي فصرفوا النظر عن متابعة ما كانوا قد بداوا به وكفى الله القلعة ما كان يراد بها من تزوير "(٣٧).

ويشاهد زائر القلعة في الفسحة الممتدة باتجاه الشمال ، في مواجهة قبر الشيخ سليمان العريان المتوفى سنة ١٢٢٠ هـ./ ١٧٩٨ م حجارة مرصوفة ، كما يشاهد الزخارف والمحاريب والتجويفات الإسلامية فيتاكد لديه أن هذا الجدار هو لمبنى إسلامي ولا يزال الجدار على تراب الفسحة على الأرض غير مكتمل بينما بقايا حجارته متناثرة في وسطه وفوقه وأسفل منه . والواضح أن هذا الجدار هو جدار خان المنزل الذي هدم بعد فيضان نهر ابو علي عام ١٩٥٦ وحملت حجارته بعد ان رقمت في القلعة ليعاد بناؤه من جديد (انظر صور خان المنزل في الفصل السابع رقم ٢٠).

٢٦ ــ وقد أصيبت القلعة ــ على مر الزمن ــ بتهدم جزئي دون أن تدعم ، خاصة في أجزائها الداخلية ، كما أن الجيش الإنكليزي استخدمها أثناء الحرب العالمية الثانية فأقام فيها مواقع مضادة للطائرات (٣٨) .كما تعرضت القلعة إلى (احتلال) من قوى الأمر الواقع الحزبية (الميليشيات) ابتداء من أوائل السبعينات وفي حرب السنتين ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ وأيضا في المعارك التي شهدتها الساحة الطرابلسية إبان الحرب اللبنانية الأهلية أصيب بعض جدرانها الخارجية بطلقات مدفعية وصواريخ كما تبين ذلك الصورة الفوتوغرافية المنشورة في موضعها ولم ترمم بعد هذه الجدران.وقد تسلمت القلعة قوات الردع العربية السورية في أواخر

(٣٧) م.س. ، ص ١٩ .

(٣٨) أسد رستم : قلعة طرابلس صليبية أم مسلمة ؛ سميح الزين : تاريخ طرابلس قديما وحديثا ، ص ٢٢٦ ــ ٢٢٩ ؛ أغناطيوس الخوري : مصطفى بربر آغا حاكم طرابلس واللاذقية ، ص ١١٢ ــ ١١٣ .

عام ١٩٨٥ ثم غدت بتسلم الجيش اللبناني الذي قام بتنظيف جزئي في داخلها ثم تحولت الى مديرية الاثار

وكانت مديرية الآثار قد حولت بعض قاعات القلعة القبلية إلى مطعم سياحي في أول عام ١٩٧٥ إلا انه سرعان ما اغلق مع حرب السنتين...ولا ريب أن مثل هذا المطعم يخل بمعنويات القلعة...فالقلعة وان تكن قد غدت للسياحة الا انها للمتحف اقرب والصق وأنفع وأجدى .

إن أمنيات أهل طرابلس تلتقي على وجوب إعادة القلعة على ما كانت عليه بقاعاتها وغرفها ومرافقها المختلفة وان يعود المسجد رسم ١٩ ومصلى بربو آغا (الصورة الملونة رقم ٣٦) والمشهد الفاطمي (الصورة رقم ٣٤) ومقام الشيخ العريان (الصورة الملونة رقم ٣٧) وان تكون متحفا يحكي تاريخ طرابلس بصدق وعلمية.

٢٧ ـ والقلعة مستطيلة الشكل متعددة الأضلاع يبلغ طولها من مدخلها الشمالي إلى أقصى طرفها الجنوبي ١٣٦ مترا ، (انظر صورتها الملونة رقم ٣٣) ومعظم عرضها لا يتجاوز السبعين مترا وتتألف تحصيناتها (استحكاماتها) الخارجية ، من خندق وسلسلة أبراج وحجب.والخندق منقور في الصخر عند طرفه الغربي ، ومبني فوق سطح الأرض عند طرفه الآخر، فيتجاوز طوله السبعين مترا ، وعرضه الخمسة أمتار بينما يتراوح عمقه بين المترين والثلاثة• وتماثل قلعتنا هذه قلاع القدماء الذين كانوا يحصنونها بخنادق عميقة يحفرونها حولها ، ويجعلون من فوق الخندق جسرا نقالا ، حتى إذا جاءهم العدو تعذر عليه الدنو من جدران القلعة.والتاريخ حافل بالذكر المستفيض لتلك الخنادق وجسورها.

" وتتقوم سلسلة الأبراج والحجب في قلعة طرابلس ، من ٢٥ برج وحجاب، منها برجان جددهما السلطان سليمان القانوني عام ١٥٢١م.[كما سيأتي ذكره]، ولا يتجاوز كل منهما الخمسة أمتار ارتفاعا ، وفي أعلاهما أربعة طيقان (نوافذ للمدافع) وعدد وافر من الشرفات الحربية وفي جنوبها وغربها سبعة أبراج وأربعة حجب، لها كلها عشرة طيقان للمدافع وعشر مزاغل سماكتها سبعة أمتار.وبين أبراجها الشرقية برج مستدير سمكه

١٩مترا.والأبراج الشرقية تمتاز عن الجنوبية والغربية ببعض الشرف الحربية في أعاليها ، ومزاغلها لا تقل عن الخمسين ".(انظر الصورة الملونة رقم ٣٨).

"وللقلعة في استحكاماتها الخارجية ـ ما عدا بابها الكبير في البرج الأول ـ بويبان هما شبه خفيين ، أولهما في أسفل البرج الثاني عشر ، والآخر في قاعدة البرج الثاني والعشرين• وهناك "طريق خضر آغا" كانت تزيد القلعة مناعة في أيام القلاقل والحصار ، فان هذه الطريق كانت تصل بيت المتسلم في البلد بباب القلعة الكبير ، وذلك بواسطة سراديب وأقبية محصنة ، ودور عالية ضخمة متلاصقة بعضها ببعض، بين بيت توفيق آغا خضر آغا ، وبيت حسن أفندي الكشاف ،حسبما يؤكد أعيان طرابلس وأهل الخبرة ".

أما تحصيناتها من الداخل فمؤلفة من البرج الشمالي الكبير،الذي هو من بناء الصليبيين!!! وهو مربع الشكل طول ضلعه الشرقي ١٤ مترا ، ومعد لثلاثة مدافع فقط وتتألف هذه التحصينات الداخلية أيضا من البرج السابع والعشرين.ومناعتها تبدو من ارتفاع أسوارها وأبراجها المتراوح بين خمسة أمتار وتسعة عشر مترا.وثخانة الأسوار تبلغ مترين ونصف متر.وتبدو مناعتها أيضا من طريقة البناء فيها المحكم الصنع وحجارتها المرصوصة بعضها إلى بعض ، وجدرانها المشبعة "بالمونة" وتبان قوتها أيضا من فسحتها وسعة قشلاتها وغرفها العديدة ، مما يدل على استعدادها الوافي لمقاومتها الأعداء وثباتها وقت الحصار.وفيما صهريج كبير في البرج السابع ، واثنان آخران بجوار البرج الكبير الذي بقربه أيضا ناعورة كانت تستعمل لرفع نصيب القلعة من الماء الذي يمر بجانبها "[٣٩].

٢٨ ـ ونثبت في آخر فصل من هذا الكتاب صورا عن القلعة كما ننشر أيضا مخططا صدر في كتاب (القلاع في الحروب الصليبية)[٤٠] (راجع الشكل ٢١).

(٣٩) فيليب حتي : لبنان في التاريخ ، ص ٣٥٢ .

(٤٠) فولفغانغ مولر : القلاع في الحروب الصليبية .

المخطط رقم١ مأخوذ عن كتاب القلاع ايام الحروب الصليبية
لمؤلفه فولفغانغ مولر ، ترجمة محمد وليد الجلاد ، مراجعة سعيد طيّان
صادر عن دار الفكر ، محفوظ في مكتبة جامعة بيروت الامريكية

١ ـ طرابلس ـ قلعة صنجيل tripoli mons peregrinus المخطط الارضي للقلعة ، المقياس ١/٢٠٠٠/
أ ـ مخطط المستوى الارضي الحالي ، ب ـ مخطط المستوى تحت الارضي الثاني ٠
رسم ما انشأه الفرنجة باللون الاسود ورسمت الاضافات العربية الاولى والتعديلات بالتهشير المتقاطع ، والاضافات العربية المتأخرة بالتهشير العادي ، والاضافات التركية غير مهشرة ٠ ١ ـ حصن البوابة ٠ ٢ ـ برج محصن ٠ ٣ ـ كتلة الاسطبلات ٠ ٤ـ كنيسة فرنجية (كشفت مجددا)
٥ ـ مدافن اسلامية (اقيمت فوق اخرى مسحت) ٠

الشكل رقم ٢١

ومن هذا المخطط يتبين ـــ على حد رأي راسميه ـــ الشريط الصليبي من بناء القلعة والمساحة الكبيرة فيه هي للبناء الإسلامي.

غير إننا بعد الاستعراض أعلاه ـــ وكما أشرنا من قبل ـــ فان البناء الصليبي [كما وصفوه] هو في الأساس بناء إسلامي أراه ووصفه ناصر خسرو في رحلته قبل الاحتلال الصليبي.وقد استخدمه سان جيل بعد أن ضم المشهد الفاطمي المثمن الزوايا وحوله إلى كنيسة ثم أضاف عليه.غير أن الظاهر بيبرس عام ٦٦٦هـ.١١٦٨م.هدم الحصن الصليبي ثم أعيد بناء القلعة بعد تحرير طرابلس حيث صدق فيه قول المستشرق سوبر نهايم ـــ الذي قدمنا ـــ أن القلعة برمتها من الداخل والخارج (من عمل مهندس عربي).

ويقول أسد رستم المؤرخ اللبناني المعروف وقد كان من بين المؤتمرين في مؤتمر بيروت الأثرى السالف الذكر :

" يعتقد البعض من كتَّاب الفرنجة اليوم ، وقسم من المولعين بالآثار في بلادنا، أن القلعة التي نشاهدها اليوم في مدينة طرابلس هي حصن صانجيل الصليبي المشهور ، إلا أن هذا القول على شهرته ليس بالقول المرضي عنه عند المدقق المتروي ، لأنه لا يتفق تمام الاتفاق مع جميع الأصول التاريخية المعروفة اليوم"[٤١].

٢٩ ـــ والناظر إلى القلعة (انظر الصورة الملونة رقم ٣٣ والى الشكل رقم ٣٣ والى الرسم الشكل رقم ١٩) يتبين أن البناء القائم اليوم هو بناء إسلامي بالكامل فاذا ربطنا مع النظر ما طالعناه من وصف للقلعة وأروقتها ونوافذ مدفعيتها ، تأكد لنا أن البناء هو بناء محدث جديد يعود إلى ما بعد الحروب الصليبية خاصة وان المدفعية مما استحدث في أواخر العهد المملوكي وأوائل العهد العثماني.فإذا أضفنا إلى ذلك أيضا أن الصحابي سفيان الازدي [فاتح طرابلس] هو الذي اختار الموقع وبنى حصنا صغيرا عليه يغدو البناء بالتالي (موقعا وبناء) إسلاميا صرفا.

وعلى هذا نعيد نشر مخطط القلعة دون الخطوط السوداء التي رسمها ناشرو المخطط الأول على انه بناء صليبي ، وان يكن ، قسم من القلعة قد بني من جديد على أنقاض الشريط العتيق من الحصن الصليبي المهدم .

وقد جاء في لبنان الدليل الأخضر تحت عنوان سان جيل[٤٢] : " وقد عانت هذه القلعة التي كانت تحمل اسم جبل الحاج كثيرا من حروق الزمن ، وأحرقت غير مرة فأعاد استدمير الكرجي حاكمها بناءها في عام ١٣٠٥ م.ولم يبق من البناء الصليبي منها إلا القسم الشرقي فيها " وهذا القول أورده فيليب حتي في

---

(٤١) أسد رستم : قلعة طرابلس الشام، ص ١٣ ٠
(٤٢) م.ن. ، ص ٢١١.

كتابه لبنان في التاريخ وقاله أيضا المؤرخ اللبناني أسد رستم في بحثه (قلعة طرابلس الشام) في أعقاب مؤتمر بيروت للآثار عام ١٩٢٦ إذ قال :(فالقلعة إذا صليبية في موقعها وهندسة البعض من سورها الخارجي وفي الطابق الأول من برجها الكبير ، وفيما سوى ذلك هي مسلمة صرفة بدليل النصوص التاريخية وطريقة النحت وحجم الحجارة ، بنى بعضها اسندمير الكرجي ورمم وجدد بعضها السلطان سليمان القانوني وغيره من حكام المسلمين " .

إلا أننا بعد أن قدمنا ما قدمناه من أدلة وقرائن وأقوال استثبتنا منها : أن موقع القلعة هو موقع الصحابي القائد سفيان بن مجيب الازدي فاتح طرابلس زمن معاوية ﷺ إلى أن احتله سان جيل وحول ما كان عليه من حصن إسلامي إلى قصر له وحصن لأتباعه الجند وان ما أنجزته معاول المهندسين والنقابين والحجارين في فتوحات طرابلس المملوكية وبعدها، على اثر تحريرها من الصليبيين ، وتهديمهم لما بنوه ، يجعل من أسد رستم وفيليب حتي وكل المؤرخين المنصفين ــ لو كانوا اليوم أحياء لا يقولون إلا: أن قلعة طرابلس مسلمة صرفة بموقعها وبنائها وهندستها...

وعلى افتراض صحة القول بان الجدار الشرقي فيها صليبي في أساسه ، فإن الحريق والدمار الذي لحق به بعد انسحاب المصريين من طرابلس عام ١٨٤٢ قد أتى على هذا الجدار فأعيد بناؤه من قبل الوالي العثماني على ما بينا آنفا فيصبح الجدار الشرقي المزعومة صليبيته بناء إسلاميا بالكامل كما قال الدليل الأخضر وفيليب حتي .

لو أن القلعة نطقت لقالت : " إني مسلمة من حجارة هذه البلاد الطيبة وإن حملت ــ في يوم من الدهر الطويل ــ بعضا من الإفرنجة أو تحملت يوما معاول الهدم ولهيب الحريق ، فقد كان ذلك ضروريا لتنظيفي من أوزار المحتلين الصليبيين " !!!

ونختم بما ختم به الدكتور أسد رستم بحثه (قلعة طرابلس الشام) :

" هذه كلمة في أصل البقاء الحالي أحببنا ان ننشرها ليس لاعتقاد فينا أننا من أهل هذا البحث لكن إثارة لروح التفكير والدرس وإجابة لطلب بعض الأصدقاء ".

وهو قول منصف فيه تفتيش من الحق ودعوة صادقة لكشف الغبار عن تاريخ أحيل عليه بعض التراب للتغطية أو للتحريق أو للتزوير ولكنه الحق الأولى بالإتباع ، وأسارع لإعلان التزامي الكامل بالحق ــ زيادة على ما قلت أو تراجعا عنه ــ وفوق كل ذي علم عليم.

الفصل السابع

طرابلس المستجدة عمارة وحضارة

المتتبع لتاريخ العمارة في طرابلس المستجدة يجد أن إرادة بنائيها هدفت إلى إيجاد مدينة متميزة تجمع الفنون المعمارية في مصر والشام والأندلس والمغرب في وحدة جديدة ، فازدانت بمدارسها وجوامعها وحماماتها وقلعتها وأبراجها .

وذكر الرحالة الشيخ عبد الغني النابلسي انه كان فيها نحو ثلاثمائة وستين مدرسة واثر تاريخي مميز ، مع أن بعضه أصابه الإهمال فاندرس ...

غير انه تبقى بعض معالم المدينة المملوكية المبنية على الطراز الشامي ــ المصري قائمة ماثلة للعيان تحكي رواية التاريخ المتتابع أكثر من سبعة قرون . وهي بحق مدينة في متحف أو متحف في مدينة يعيشان معا رغم الصعوبات قصة حضارة متحركة يتنامى فيها الاعتزاز بماض عريق وتتسامى معها مشاعر تنهض بصاحبها إلى مستقبل ينبثق من عمق ثقافة المدينة ليكملها ــ بجدارة ــ في حركة التاريخ المتتابع.

ومن المفيد هنا أن نثبت سجلا بأهم تلك المساجد والمدارس والمؤسسات حسب تتابع تاريخ الإعمار ، وهي كما سنرى ، معالم أعطت المدينة نكهة حضارية قصُرت عنها ــ بحق ــ الأمصار الأخرى.

١ ــ الجامع الكبير : بدأ بإنشائه السلطان قلاوون ، وأتمه ولداه الأشرف خليل ومحمد الناصر.الصرح(المعبد) والبوابة قام بهما الأشرف خليل عام ١٢٩٤ م.أما بناء الممرات في الباحة المقنطرة فقد قام به السلطان محمد الناصر عام ٧٢٥هـ/١٣١٥ م.بينما منبر الجامع صنعه الأمير قرطاي في تشرين الأول ١٣٣٦م.(1) (راجع صور الجامع في موضعها من الكتاب).

٢ ــ المدرسة الزريقية : أسسها الأمير عز الدين ايبك والي طرابلس المستجدة عام ٦٩٧هـ./٤ نيسان ١٢٩٨ م.، وقد كانت من ضمن مجموعة مراكز فيها حمام الحاجب وخان المنزل ، وقد أزيلت هذه المراكز الثلاثة بعد فيضان نهر أبي علي عام ١٩٥٥ م.وتحوير مجرى النهر.

(1) هذا التعريف للجامع المتعلق بمراحل البناء ، منقول عن تقرير الاونيسكو المشار إليه أعلاه ، وهو تعريف دقيق ومختصر سيأتي تأكيده وتفصيله في القسم الخاص بالجامع من هذا الكتاب .

٣ ـ **حمام عز الديـن** : بنـاه الأمـير عـز الديـن ايبـك الموصللـي سـنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م.بعد مرور عشر سنوات على تحرير المدينة ، وهو من أكبر واضخم الحمامات ولا يزال قائما حتى تاريخه ، إلا أنه غير مستعمل ويحتاج إلى تأهيل..

٤ ـ **حمام الحاجب** : أو حمام اسندمر ، بناه والي طرابلس اسندمر بناه كرجـي عام ٧٠١هـ./١٣٠١م.وقد بنى بجانبه خان المنزل وكلاهمـا علـى الضفـة الشرقية من النهر وهو من أجمل حمامات طرابلس والشرق ، وقد أزيلت أجـزاء كبيرة منه عند تقويم مجرى نهر أبي علي عام ١٩٥٧ وبقيت أجزاء منـه هـي غرف الماء الحار ثم أزيل ما تبقى (بخطأ إداري) من بلدية طرابلس عـام ١٩٩٥ إذ منحت البلدية رخصة بناء على عقار الحمام بوجه الخطأ فضاعت تلك الأجزاء بكاملها.

والحمام كما يقول المؤرخون حمام عظيم اجمع التجار ومن زار البلاد انه لـم يعمّر مثله في بلد من البلدان على حد تعبير المؤرخ النويري.

٥ ـ **المدرسة القرطاوية** : بناها نائب السلطنة بطرابلس الأمير سـيف الديـن قرطاي بن عبد الله الناصري وقد بنى المدرسة بجانب الجـامع الكبير بشـكل ملاصق له من الجانب الشرقي كما بنى للجامع المنصوري منبره الشـهير وقـد بنيت المدرسة بين عامي ٧١٦/٧٢٦هـ/١٣٣٦/ ١٣٤٦م.وعلى جدرانها الخارجية تراسيم تعود للقرن الثامن والتاسع هجري.والمدرسة من أجمل آثـار طرابلـس وأفخمها جميعا لها بوابة من أروع البوابات المملوكية ، وفي وسط المدرسة بركة ماء للوضوء غاية في الجمال ، كما أن محرابها المتبادل فيه الرخـام الأبيـض والأسود والدرسة مبنية على مستودع كامل لتخرين السلاح بارتفاع يزيـد عـن مترين.(انظر الصورة الملونة رقم ٥٠ و٥١).

٦ ـ **مسجد السـيد عبـد الواحـد المكناسـي المغربـي** : تـم بنـاؤه فـي ٧٠٥هـ/١٣٠٦ـ١٣٠٧م.ويبدو أن بانيه انتقل إلى مصر بعد بنـاء جامعـه ، ويبلغ طول حرم الجامع ١٦ مترا وستين سنتم وعرضه ستة أمتار وستين سـنتم ويعلو بيت الصلاة قبوات متعارضة تشبه عقود مساجد المغرب.

٧ ـ **المدرسة الماردانية** : وهي الوحيدة من عهد المماليك في منطقـة الميناء حيث كانت طرابلس القديمة قبل هدمها منذ فتح قلاوون لها.وقد بناها فـي سـنة ٧٠٧ هـ الأمير الكبير علاء الدين المـارداني وكـان يتولـى شـد الشـواني بطرابلس.وقد عرفت المدرسة بمدرسة "الغريب" نسبة إلى أحد المشايخ الذي كـان يتولى التدريس فيها وهي اليوم معطلة ومهجورة.

٨ ـ **القلعة** : أسسها الصحابي المجاهد سفيان الازدي ثم زارتها ولاة المدينة في مختلف الحقب الاسلامية حتى تهدة آل عمار وقد استولى على الحصن سان جيلـ

القائد الصليبي فأضاف عليه ثم هدمه السلطان ظاهر بيبرس وبعد التحرير بقيـادة السلطان قلاوون أعاد بناء الحصن وحوله الى قلعة حاكم طرابلس ـ مـن قبـل السلطان المملوكي ـ الأمير اسندمر الكرجي عامي ١٣٠٧ و ١٣٠٨م.ورممـهـا السلطان سليمان القانوني العثماني عام ١٥٢١ م.[٢] (انظر صور القلعة ومخططها في محلها من الصور من فصل القلعة والصور الملونة رقم ٣٢ الى ٣٨).

٩ ـ **خان المنزل** : بناه اسندمر والي المدينة ، وكان يعرف في عصر المماليك بقيسارية اسندمر وهو والي طرابلس نائب السلطنة على الفتوحات كما بينا وقـد بناه بين عامي ٧٠٠ ـ ٧٠٩ هـ/١٣٠٠ ـ ١٣٠٩ م.، وهي فترة حكمـه الثانيـة على طرابلس.ولأسندمر سيف الدين هذا يعود بناء حمـام الحـاجب. ويعتـبر اسندمر باني طرابلس الأول والاهم منذ فتحها على يد المنصور قلاوون.وخانـه هذا من اجمل الخانات في طرابلس ، وهو كان منزلا لكبار الـزوار والتجـار[٣] (انظر بعض صور الخان المنشورة مع هذا الكلام ٢٢و٢٣و٢٤).






إحدى بوابات الخان

إحدى بوابات الخان

إحدى نوافذ الخان

(٢) اقرأ قصة القلعة وتفصيلات مبانيها ، في فصلها الخاص من هذا الكتاب .

(٣) راجع كتابنا اكرم عويضة : معالم مدينة في القرن العشرين .

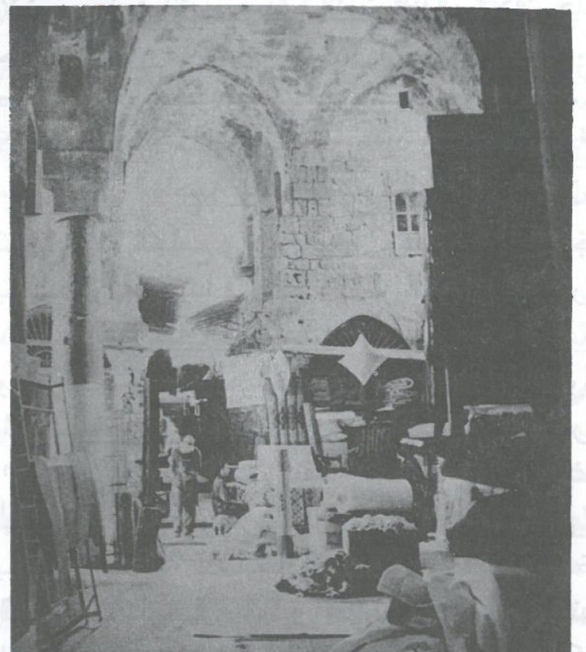
١٠ ــ **مدرسة الخيرية حسن :** لا يعرف اسم بانيها ، إلا أنها بنيت في عـــام ٧٠٩ هــ وهي تقابل جامع المنصوري الكبير قرب بابه الشـــمالي.وتســـتخدم اليوم كمركز إداري لدفن الموتى بإشراف الوقف الإسلامي للعمل الاجتماعي.

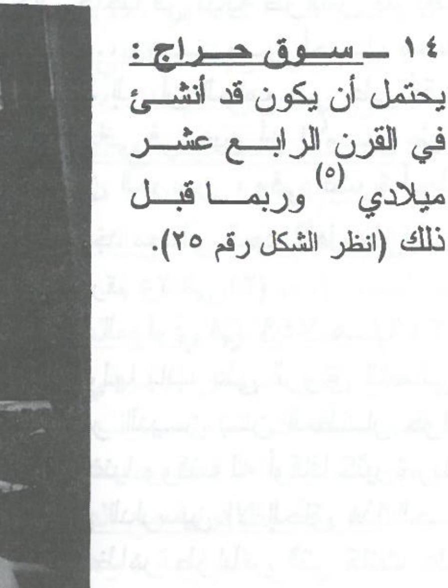
١١ ــ **جامع التوبة أو الجامع الناصري** : نسبة إلى الســـلطان محمـــد بـــن الناصر قلاوون وقد بني في فترة حكمه ٧٠٩ــ ٧٤١ هــ.وأعاد بناء أجـــزاء منه الأمـــير حســـن باشـــا ســـيفا بعـــد فيضـــان نـــهر "أبـــو علـــي" عـــام ١٠٢١هــ./١٦١٦م[٤] (انظر صورة المئذنة الملونة رقم ٥٧).

١٢ ــ **جامع البرطاسي :** نسبة إلى الأمير شرف الدين عيســـى بـــن عمـــر البرطاسي الكردي أحد أمراء الجيش في طرابلـــس والمتوفـــى فيـــها ســـنة ٧٢٥هـ/١٣٦٦ م.، وهو من أجمل مساجد طرابلس تشـــبه بوابتـــه جـــامع العطار الشرقية ومئذنته عمل فني هندسي مميز تقوم فوق ربع قبـــة مظللـــة للباب الرئيسي وهي أشبه بالمآذن الاندلسية المغربية.وفي داخل الحرم يوجـــد حوض ماء هو من أجمـــل أحـــواض المســـاجد بشـــكله الهندســـي الجميـــل وزخرفته.كما أن محراب الجامع هو من أجمل محاريب مساجد المدينة علـــى الإطلاق.(انظر الصور الملونة من ٤٥ الى ٤٩).

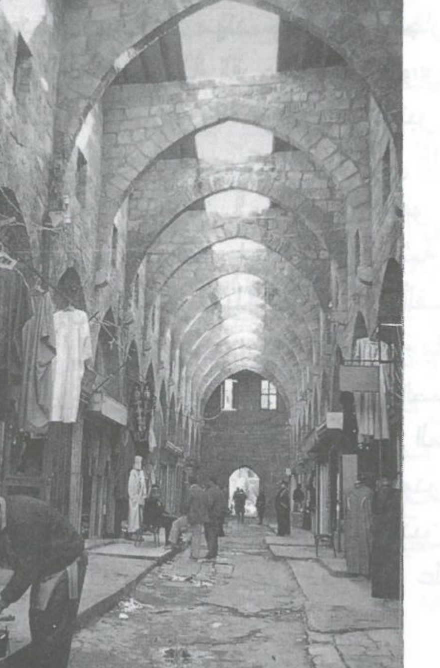
١٣ ــ **المدرسة النورية :** بناها الأمير سيف الديـــن طرمـــش الكمشـــبغاوي الحموي وكان حاجبا بطرابلس ، وبنى أيضا الحمام المعروف أيضا بالنوري، وللمدرسة باب جميل تتناوب فيه الحجارة البيضاء والسوداء مع زخرفات فـــي وسطه ، ومحرابها يشبه محراب المدرسة القرطاوية وبخاصة في زخرفتـــه الملونة في رخامها وفسيفسائها.وقد نسبت المدرسة والحمام إلى علـــي نـــور الدين وهو من العلماء الذين درسوا في المدرسة ودفن فيها وقد يعود تـــاريخ البناء إلى عام ٧٣٣هـ /١٣٣٢ م.وكان بانيها الأمير سيف الدين قـــد بناهـــا ليدفن فيها إلا انه مات في حصن الأكراد ودفن هناك.(انظر الصورة الملونـــة رقم ٥٢) .

(٤) م.ن. ، ص ١٥١.





١٤ ــ **ســـوق حـــراج :** يحتمل أن يكون قد أنشـئ في القرن الرابـــع عشـــر ميلادي [٥] وربمـــا قبـــل ذلك (انظر الشكل رقم ٢٥).



١٥ ــ **خان الخيـــاطين :** أنشأه الأمير بدر الديـــن المتوفى عـــام ١٣٤١ م. وأوقفه على البيمارســـتان الذي بجواره (انظر الشـــكل رقم ٢٦)

(٥) الآثار التاريخية لمدينة طرابلس إصدار الاونيسكو باللغة الفرنسية ، ص ٥.

١٦ ـ **خان المصريين :** تم إنشاؤه بين ١٣٠٩م و ١٣٥٦م.

١٧ ـ **جامع الأمير سيف الدين طينال** : كان حاجبا في نيابة طرابلس قام ببناء جامعه المعروف باسمه سنة ٧٣٦ هـ /٣٧٧ م.، وهو من أجمل مساجد طرابلس ، ويذهب بعض المؤرخين دون ما سند إلى أن الجامع بني على أنقاض كنيسة متهدمة كانت هناك أو معبد زيوس الروماني في حين أن الأمير طينال سجل على الواجهة الشمالية للبوابة التي تقوم بين الحرمين ، وفي عشرة أسطر ، تاريخ بناء الجامع واسم بانيه (٦).وقد اعتبر المسجد مصلى العيد لأهل طرابلس بسبب كونه مشيدا في الفلاة.(انظر الصورة الملونة رقم ٢٥ الى ٣١)

١٨ ـ **المدرسة الشمسية :** أسسها شمس الدين المولوي في ٧٤٩ هـ/١٣٤٩م٠ وهي تلاصق الجامع الكبير من الجهة الشمالية ولها باب على الرواق الشمالي.

١٩ ـ **جامع العطار :** بنى هذا الجامع بدر الدين بن العطار حوالي ٧٣٥هـ/١٢٧٦ م.على نفقته الخاصة ، وكان غنيا ووقف له أوقافا كثيرة.وبنى أيضا حمام العطار قريبا من الجامع.وأبى بعض الدارسين إلا إلحاق هذا الجامع بالأبنية الكنسية الصليبية التي زعم وجودها في ظاهر طرابلس التي كانت على البحر واستدلوا بقبة المنبر التي ظنوها جرن الكنيسة.وهذا بلا ريب ليس بدليل لان الجرن ـ على افتراض صحة نسبته إلى الكنيسة ـ يمكن أن ينقل من أية كنيسة كانت في طرابلس القديمة الواقعة على البحر كشأن العديد من مباني طرابلس المستجدة ، إذ استفاد مهندسوها من أحجار المدينة المهدومة ٠ وللجامع باب رئيسي يشبه باب المدرسة القرطاوية.وتحتوي المدرسة على مقرنصات متناسقة وزخرفات ملونة حجرية ، والباب والمنبر من عمل المعلم محمد بن إبراهيم المهندس سنة ٧٥١ هـ ، كما تشير الى ذلك النقيشة المثبتة عليه.أما مهندس الجامع فهو أبو البكر بن آل البعلبكي وهو ، المهندس الذي بنى جسر نهر الكلب وجسر الدامور ، وقد نقش اسمه على نقيشة مثبتة على الباب الغربي للجامع ومئذنة الجامع مربعة طويلة الإرتفاع تتألف من ثلاثة أدوار...وهي أشبه بالبرج الحربي ، وارتفاعها يساعد على المراقبة باعتبار أن لا سور لطرابلس المستجدة.(انظر صورة المنبر والجرن في اعلاه ، في الصورة الملونة رقم ٥٤).

٢٠ ـ **مدرسة سبط العطار :** تقع على الطريق المعروفة بالسوسية قرب بركة الملاحة وسوق حراج.والسبط هو ولد البنت والمدرسة منسوبة إلى ابن ناصر الدين العطار ابن بنت باني جامع العطار بدر الدين ومن المرجح أنها بنيت بعد عام ٧٥٠ هـ ، وقد تعرضت لفيضان نهر أبي علي عام ١٩٥٥ م وتهدمت.

(٦) راجع ما كتبناه عن جامع طينال ، في قسمه الخاص من هذا الكتاب ٠

٢١ ـ **المدرسة الناصرية:** تقع بجوار مدرسة الخيرية حسن ، ونسبت إلى السلطان حسن بن محمد بن قلاوون الملقب بالناصر ، وقد بنيت بين عامي ٧٥٥ ـ ٧٦٢ هـ.ولها بوابة غاية في الجمال تشبه بوابة جامع السلطان حسن في القاهرة وان كانت اقل حجما منه (٧)

٢٢ ـ **المدرسة السقرقية مع الضريح :** تقع شمالي جامع ارغون شاه بنيت قبل سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩ م٠ بناها الأمير سيف الدين اقطرق الحاجب في طرابلس.

٢٣ ـ **المدرسة العجمية مع الضريح** : بنيت في عام ٧٦٦ هـ /١٣٣٦ م.بناها محمد السكر (وهو غير معروف الترجمة).

٢٤ ـ **المدرسة الخاتونية مع الضريح** : تقع قبالة المدرسة السقرقية ، بناها الأمير عز الدين اسندمر الاشرفي بالاشتراك مع زوجته ارغون.والزوجة في عهد المماليك كانت تعرف باسم خاتون ، فعرفت المدرسة باسمها الخاتونية.وللمدرسة أوقاف عديدة بنيت في عام ٧٧٣هـ/١٣٧٢م.

٢٥ ـ **المدرسة الظاهرية مع الضريح** : تقع في أول زقاق الساباط أو مدخل الزقاق المؤدي إلى المولوية ، وهي من بناء الأمير تغري برمش الظاهري في سنة ٧٩٩ هـ /١٤١٩ م.وقد نسبت إليه ، وبناها لدفن ولديه الشابين الشهيدين الأمير فانتر والأمير تغري بردي ، وتبلغ سماكة جدران المدرسة حوالي المتر ، وهي مؤلفة من طابقين ٠ والمدرسة عبارة عن مصلى له محراب جميل جدا و"تربة" الأميرين.وجرى تهديم قسم من المدرسة عند تقويم نهر أبي علي بعد فيضانه عام ١٩٥٥ وهي من ذلك التاريخ مهملة (٨) .

٢٦ ـ **جامع أرغون شاه :** بني في الحقبة التي تلي عام ٨٥٤ هـ /١٤٥٠ م.في رأي ، وفي رأي آخر قبل ٨٠٠ هـ ويعود نسبته إلى بانيه الأمير سيف الدين ارغون شاه الإبراهيمي المتوفى في عام ٨٠٠ هـ.ويبدو أن الجامع كان زاوية أو مدرسة صغيرة حتى سنة ٨٨٠ هـ حين جرى تحويله إلى مسجد جامع ومئذنة الجامع أسطوانية الشكل على قاعدة ذات أربع زوايا ، وفي أعلاها زخرفة رائعة من التوريقات الهندسية والمقرنصات وللجامع بابان شرقي وغربي أولهما الأصلي الأساسي والثاني أنشئ في عام ١٩٥٠ م.(انظر الصورة الملونة رقم ٥٨)

٢٧ ـ **جامع الاويسية** : بناه محي الدين الأويسي وأنشأ له أوقافا في حجة تعود إلى عام ٨٦٥ هـ ويتميز الجامع عن بقية مساجد المدينة بقبته الكبرى وهي على شكل القباب التركية ، ومئذنته شبيهة بمئذنة جامع ارغون شاه إلا أنها أكثر ارتفاعا ، وقد جددت المئذنة في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني .

(٧) د. عمر تدمري : تاريخ طرابلس الحضاري ج٢ ص ٣١٧ ٠

(٨) راجع كتابنا اكرم عويضة : معالم مدينة في القرن العشرين ، ص ١٤٨.

٢٨ ـ **نافورة التينة أو سبيل التينة** : وهو من أقدم السبل التي بقيت من عهد المماليك وهو ملاصق للحمام الجديد في منطقة الحدادين أنشئ عام ٨١٦هـ/١٤١٣م.

٢٩ ـ **برج السباع** : بناه الأمير جلبان بين عامي ١٤٤١ ، ١٤٤٢ م.

٣٠ ـ **المدرسة الرفاعية** : بنيت عام ٨٧٠ هـ والرفاعية اسم لمؤسس الطريقة الرفاعية الصوفية احمد الرفاعي الكبير،وقد بني حديثا مسجد مكانها بعدما أزيلت المدرسة التي كانت قرب المدرسة الحجيجية في سوق النحاسين (السراي القديمة).

٣١ ـ **المدرسة العمرية** : أنجزت عام٨٧٠ هـ/ ١٤٦٦م ، وهي اليوم مهدمة .

٣٢ ـ **خانقاه المطلقات (مأوى العجزة)** : يقع خلف الجامع المعلق يحتمل أن يكون قد بني عام ٨٧١ هـ/ ١٤٦٧ م.

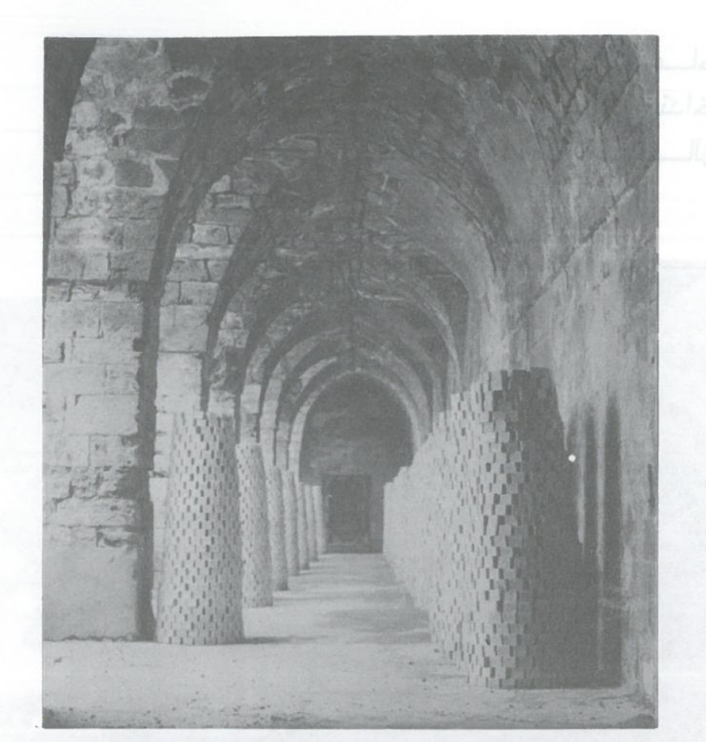
٣٣ ـ **المدرسة الطواشية** : تقع في منتصف سوق الصياغين ، وتنسب إلى مؤسسها الأمير سيف الدين الطواشي بنيت حوالي ٨٧٥ هـ / ١٤٧١ م٠ وهي ذات عقد اندلسي مغربي الطراز وبوابتها جميلة (انظر الصورة الملونة رقم ٥٣).

٣٤ ـ **المدرسة القادرية** : نسبة إلى إحدى الطرق الصوفية التي نسبت إلى عبد القادر الجيلاني شيخ تلك الطريقة ، ومن المرجح أن أصحابها كانوا يتلون الأذكار فيها فنسبت المدرسة إلى شيخ الطريقة وتقع المدرسة قرب جامع الاويسية وبنيت في عصر دولة المماليك، وهي كبيرة الحجم .

٣٥ ـ **جامع الدباغين** : بني عام ١٤٧٧ م٠ ورمم عام ١٥٠٨ ، وقد تهدم وأزيل من الوجود.

٣٦ ـ **الجامع المعلق** : أنشأه محمد بن لطفي في حكم السلطان سليمان القانوني، وأنجز في سنة ٩٦٧ هـ/ ١٥٥٩ م.(انظر الصورة الملونة رقم ٥٦).

٣٧ ـ **المدرسة المحمودية** : تقع غربي جامع الزعيم ـ (المعلق) في محلة الحدادين ، وبنيت في وقت سابق على سنة ٩٩٥ هـ.وقد جددها ناظرها علي آغا .



٣٨ ـ **خان الصابون** : أنشأه يوسف باشا سيفا حاكم طرابلس أوائل القرن السابع عشر الميلادي.(انظر الشكل رقم ٢٧ مع هذا الكلام).

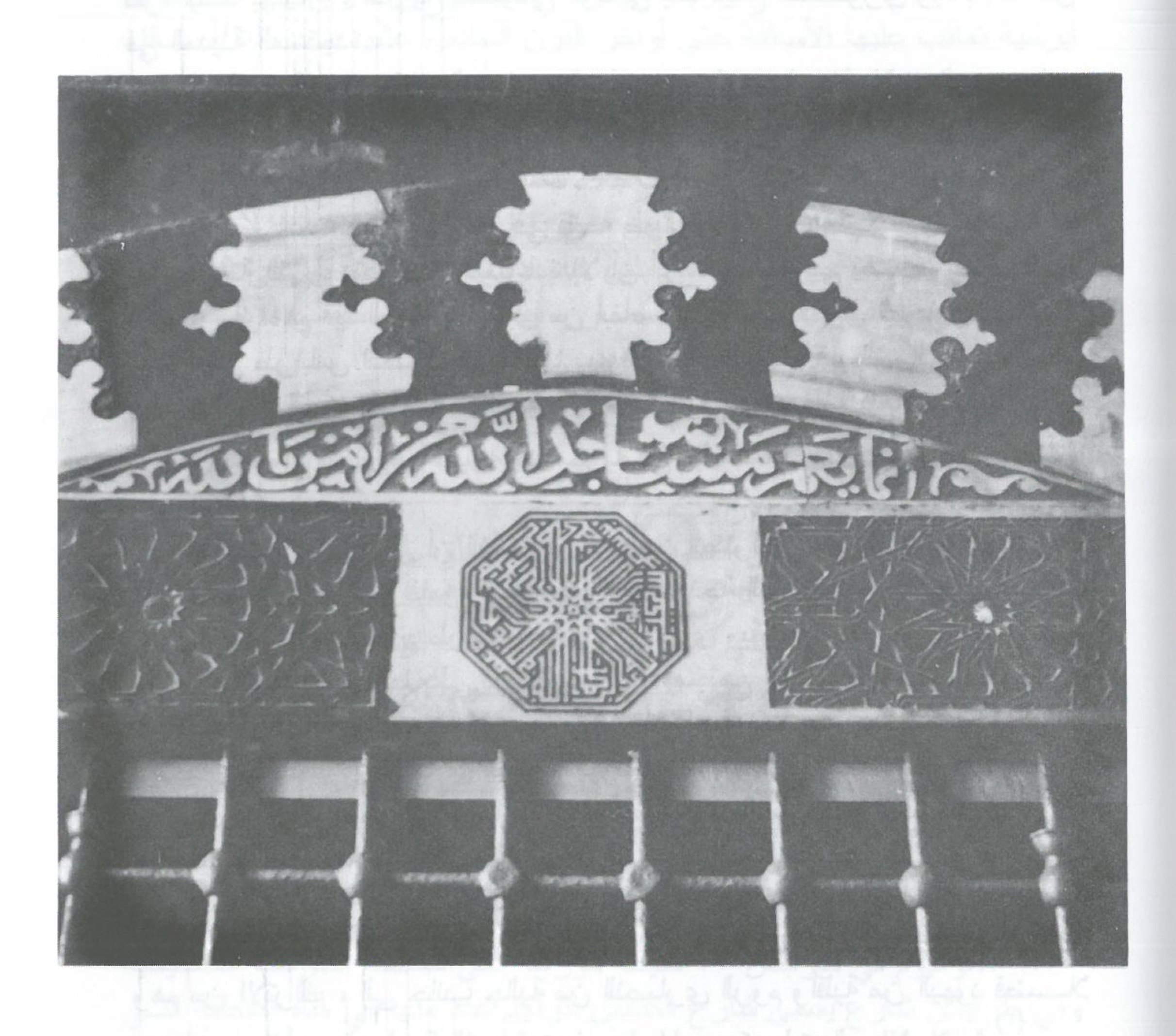
٣٩ ـ **جامع الطحام** : ومعنى كلمة الطحام الشجاع أو المقدام [وكأن بانيه قائد عسكري]. وعلى اسم بانيه خلاف ، فالمستشرق كوندي يقول أن بانيه هو الأمير يونس المعني عام ١٦٠٠ م.وهو الأخ الأصغر لأمير فخر الدين الثاني ، أحد حكام جبل لبنان ٠ بينما يقول الشيخ كامل البابا ، أحد مؤرخي طرابلس ، أن بانيه هو يونس بهادر من أمراء المماليك بينما ذهب د.عبد العزيز سالم إلى أن بانيه هو محمود لطفي الزعيم في عام ٩٦٧ هـ بعد بناءه للجامع المعلق المعروف بالزعيم بـ ٨٢ عاما !!! وقد رجح د.عمر تدمري أن الجامع والمئذنة بنيا في آخر عصر المماليك ٠ ويصعد إلى المسجد بدرج إذ أنه مبني فوق مجموعة من الحوانيت.وتقع المئذنة فوق قنطرة مفرغة على باب الجامع ، وهي مبنية من حجارة داكنة سوداء.والمئذنة اقصر مآذن طرابلس ، إلا أنها أغناها بالزخرفة الرائعة الجميلة.والجامع مربع بطول ١٥ م وعرض ١٤،٣٠ م ، وأعمدته في داخل الحرم أربعة من الغرانيت تنتهي بتيجان بيزنطية مشبعة بالزخرفة النباتية وهي سوداء اللون .(انظر الصورة الملونة رقم ٥٩ في موضعها بين الصور في آخر الكتاب).

٤٠ ـ <u>الحمام الجديد</u> : أنشأه أسعد باشا العظم عام ١٧٤٠ م.وهو من الحمامات العظيمة وله مدخل رائع مزين بسلسلة متداخلة في غاية الجمال والروعة .وهو ملاصق لجامع المعلق المعروف بالزعيم انظر الصورة ادناه.(الشكل رقم ٢٨).



⇧

بوابة الحمام الجديد وتبدو السلسلة الحجرية



نافذة في المدرسة القرطاوية

ومن المفيد هنا بعد أن قرأنا سجلاً مختصراً لمساجد طرابلس ومدارسها ، أن نقرأ أيضا بإيجاز ، التاريخ المسيحي الوطني بعد الفتح المنصوري وبناء الكنائس في المدينة المستجدة...

فقبل الفتح المبين ، كان النصارى الوطنيون يسكنون في طرابلس إلى جانب بعض المسلمين واليهود ، في ظل الاحتلال الصليبي.وقد كان النصارى بوجه عام ، مع التوجه الإسلامي ، حتى أن البعض من المؤرخين عزا إلى النصارى الوطنيين مساعدة جيش السلطان في فتحه طرابلس[1] ...وان لم يتحدث التاريخ عن الكيفية التي حدثت فيها المساعدة إلا أن أثرها واضح في تصرف المسلمين الفاتحين إزاءهم فقد التجأ النصارى من أبناء البلاد " إلى القرى المجاورة ، ولما، عادوا إلى طرابلس اتخذوا حيا خاصا بهم في الطرف الشرقي الشمالي من البلدة وسمحت لهم الحكومة بإشادة كنيسة في هذا الطرف من مطلع قلعة صنجيل(!!!) وراحوا يقيمون شعائرهم الدينية بكل حرية في هذا المعبد " ،[2] وهو ما سنأتي على ذكره فيما بعد.

وهذا النص يشير إلى أن النصارى المحليين سكنوا في طرابلس المستجدة بعد الفتح، وأنشأوا حيا لهم أقاموا كنيسة.كما أن الفرنجة الذين نجوا من (حرب التحرير) أو كانوا خارج طرابلس في بلدان أخرى وبقوا فيها ثم جاؤوا طرابلس مسلمين أو بقوا خارجها على ديانتهم ، قبلهم المجتمع الجديد.وهكذا ظهرت عائلات طرابلسية مسلمة أو مسيحية تحمل أسماء فرنجية عديدة (داكيز ، فرنجية ، كاستفلين) ، كما أن بعض اليهود عادوا أيضا إلى سكنى طرابلس .

يقول د. عمر تدمري " ولما كان يعاد بناء المدينة من جديد كانت تشهد حركة إقبال سكانية واسعة من البلاد القريبة إليها أو من المدن الشامية التي نزح إليها الطرابلسيون قديما عندما سقطت بيد الصليبيين ، كما استوطن المدينة جالية كبيرة من المغاربة الذين انضموا متطوعة إلى جيش قلاوون.وسكنها المماليك وهم من الأتراك ، إلى جانب جالية من النصارى الروم وأقلية من اليهود فضلا عن بعض الأسر الصليبية التي بقيت في طرابلس وتحولت إلى الإسلام "[3] .

(١) راجع ما نقلناه عن موسوعة تاريخ لبنان عبر الأجيال ، لعبد الله إبراهيم بن إبراهيم .
(٢) سميح الزين : تاريخ طرابلس قديما وحديثا ، ص ٤٤٤ ؛ وراجع ما كتبنا في هذا الكتاب عن ديمغرافية السكان وتوزعهم الديني في أحياء طرابلس المستجدة في آخر فصل ، وعن كيفية بناء المدينة .
(٣) د. عمر تدمري : طرابلس المدينة القديمة ، بحث منشور.

وإن لم تتوافر لدينا حتى الآن أبحاث أو وثائق تشير إلى طبيعة الحياة المسيحية في طرابلس المستجدة وانتشار العمران لدى النصارى إلا أن ما كتب عن ابرشياتهم وكنائسهم يدل على أن الوجود المميز خضع دوما لطبيعة انتماءاتهم الكنسية ، فطائفة الروم الكاثوليك قديمة العهد في طرابلس وكانت لهم أبرشية تعاقب عليها الأساقفة حتى أواخر القرن السادس عشر فنجد مثلا أسقف انطاسيوس وقد أقيم أيضا على ابرشيات صور وصيدا وبيروت[4].

وبالنسبة للأبرشية المارونية ، فقد ذكر كتاب تاريخ طرابلس قديما وحديثا ما يلي : "عاد الموارنة إلى طرابلس بعد جلاء الصليبيين عنها وسكنوا البلدة ، ولكن الأبرشية تأسست بعد احتلال العثمانيين لسوريا ولبنان فقد اعترف هؤلاء بوجود الموارنة في الشمال حين احتلوا طرابلس عام ١٥١٧ أول مطران على الطائفة المارونية في طرابلس هو المطران سمعان ، فقد جلس على كرسي الأبرشية عام ١٥٣٤...وقد سكن الموارنة في حي الزاهرية[5] ..."

أما أبرشية الروم الأرثوذكس في طرابلس فقديمة أيضا ، وهي تعود للعهد المملوكي حين فتح الملك المنصور قلاوون طرابلس وأجلى عنها الصليبيين...أما الأبرشية فكانت في الحي الأرثوذكسي[6] ...".

وعلى هذا يمكن أن يكون الغموض قد ساد ما يتعلق بأحوال المسيحيين في زمن المماليك (١٢٨٩م ـ ١٥١٦م) إلى بداية العهد العثماني والى السنوات الأولى من سيطرة هؤلاء على بلاد الشام ، إلا أن عدد المسيحيين شكل نسبة هامة من سكان المدينة وقد سكن النصارى في بعض الأحياء مع المسلمين بينما عاشوا منفردين في بعض الأحياء التي اختصوا بها[7] .

ومن الواضح أن اقدم الكنائس في طرابلس اليوم تعود إلى القرن السادس عشر وهي كنيسة للموارنة في منطقة التبانة والمعروفة باسم كنيسة السيدة ، ثم تليها كنيسة مار جاورجيوس في ميناء طرابلس عام ١٧٣٥ ثم تلي الكنائس الأخرى كنيسة مار نقولا للروم الأرثوذكس ١٨١٦ وكنيسة مار جاورجيوس للروم ١٨٧٥ ...واليوم في طرابلس ١٧ كنيسة موزعة على مختلف الطوائف المسيحية وفي طرابلس شارع يسمى شارع الكنائس لتواجد عدد منها في هذه المنطقة التي هي جزء من الزاهرية وملاصقة للشوارع القديمة ومن طريق ما يرويه السيد موسى حيدر وهو المختص بالتاريخ الكنيسي في طرابلس أن النصارى من

(٤) م.ن. ، ص ٤٠٥.
(٥) م.ن. ، ص ٤٠٧.
(٦) م.ن. ، ص ٤٠٧.
(٧) م.ن. ، ص ٤٠٩.

الأرثوذكس اخذوا يعانون صعوبات بالذهاب إلى الكنيسة (يعتقد أنها الكنيسة التي بنيت في الطرف الشمالي عند مطلع القلعة وهي التي أشرنا إليها من قبل) بسبب أن الشوارع كانت تمتلئ بالوحول أيام الشتاء ولان الكنيسة تقع في مطلع القلعة مما يجعل المتقدمين بالسن لا يتمكنون من الذهاب لإقامة الشعائر الدينية في الكنيسة إلا بغاية الجهد ، لذلك طلبوا من متسلم البلدة أن يستبدل لهم هذه الكنيسة بمصبنة تقع ضمن الحي المسيحي فوافق متسلم أو والي طرابلس على الطلب وتنازلوا عن كنيستهم واقطعتهم الدولة المصبنة التي حولوها إلى كنيسة مار نقولا التي تقع في وسط الحي بعد أن بنوها ونقلوا إليها جميع الأيقونات والأشياء التاريخية ولما ضاقت هذه الكنيسة من استيعاب المصلين نظرا لتكاثر أبناء الطائفة قام المطران صفرونيوس ببناء كنيسة مار جرجس الواقعة أيضا في نفس الحي وذلك في عام ١٨٦٢ م [٨] .

ومن جميل ما يذكر هنا أن هذه الكنيسة مار جرجس في طرابلس السالفة الذكر قد أقيمت وفيها قاعة جدارها شعاري من الخشب مخصصة للمصلين من النساء) بحيث يمتنع النظر اليهن من الرجال وهو ، كما لا يخفى أسلوب إسلامي مميز في فصل النساء عن الرجال في الصلاة وقد امتد إلى نصارى طرابلس تقليدا منهم للمسلمين.

بينما يروي السيد عبد الله غريب قصة الاستبدال على نحو قريب مما ذكره السيد موسى حيدر ، فيقول : " ولا بأس من بيان تاريخ هذه الكنيسة ، أقول : كانت الكنيسة المختصة بالطائفة الأرثوذكسية هو جامع السروة الكائن في محلة الصاغة على شمال طلعة القلعة ، ولما كانت الكنيسة ضمن البيوت الإسلامية منفردة عن حارات النصارى سيما أيام المواسم والأعياد الاحتفالية فصارت كأنها في معزل عن المسيحيين وحصل نوعا ما ضيق وحجز حرية في إقامة الحفلات، ارتأت الطائفة أن يصير المبادلة بين الطائفتين الإسلامية والأرثوذكسية ، فالإسلام استلموا الكنيسة وجعلوها جامعا بعدما استلمت النصارى محتويات الكنيسة من أيقونات وخلافها ، واستلمت مصبنة وعمرت في أرضها كنيسة مار نقولا.وبذلك أصبحت المصبنة كنيسة ، والكنيسة جامعا "[٩] .

---

(٨) د. خالد زيادة : كنائس طرابلس ، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد ١٥٧ ، (أيلول ١٩٩٥).

(٩) د. عمر تدمري : تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ، ج ٢ ، ص ٣١٤.

ويذكر د. تدمري أنه تم وضع حجر الأساس لبنائها يوم الأربعاء في ٢١ من ١٢٢٤هـ/١٨٠٩ م.في أيام الوزير كنج يوسف باشا والي الشام وطرابلس وكان متسلمه على طرابلس على يد بك الأسعد وقاضي المدينة الشيخ خليل بركة ومفتيها عبد الله كرامة...ولا باس من بيان هذه الكنيسة ، فأقول : " كانت الكنيسة المختصة بالطائفة الأرثوذكسية هو جامع السروة الكائن في محلة الصاغة على شمال طلعة القلعة ولما كانت هذه الكنيسة ضمن البيوت الإسلامية منفردة عن حارات النصارى سيما أيام المواسم والأعياد الاحتفالية فصارت كأنها في معزل عن المسيحيين وحصل نوعا ما من ضيق وحجز حرية في إقامة الحفلات ارتأت الطائفة أن يصير المبادلة بين الطائفتين الإسلامية والأرثوذكسية فالإسلام استلموا الكنيسة وجعلوها جامعا بعدما استلمت النصارى محتويات الكنيسة من أيقونات وخلافها واستلمت مصبنة فعمرت في أرضها كنيسة مار نقولا وبذلك أصبحت المصبنة كنيسة ، والكنيسة جامعا"[١٠] .



كنيسة القديس جورجيوس الارثوذكسية بنيت عام ١٨٦٣

---

(١٠) م.ن. ، ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

الفصل الثامن

طرابلس التاريخ إلى أين؟

١ ــ عرف بعض الرحالة طرابلس المملوكية بأنها بندقية الشـــرق بينمـا شبهها آخرون بأنها دمشق الصغرى، وقد بنيت دمشق أيضا على ضفاف نهر بردى ... فهكذا نجد مساكن طرابلس ــ البلدة القديمة ــ تطل علــى النهـر وعلى الماء الجاري المتدفـــق شـتـاء وربيعـا وبتواضـع وخجـل صيفـا وخريفا.ويمكن في أوقات من السنة أن تسير في النهر المراكب بين البيـوت كما تطل على النهر مخازن ومصالح وبيمارســتان وحمامـات [1] وخانـات وسوى ذلك من آثار ، ومما لا ريب فيه أن اختراق نهر لمدينة أمر في غايـة الجمال ولا أجد مديحا لهذه الطبيعة الخلابة أجمل من قولــه تعـالى : (كلتـا الجنتين أتت آكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نــهرا) [2] غــير أن لله إرادة ، فقد تفجر هذا النهر ، الوادع ليل ١٩٥٥/١٢/١٧ طوفانا رهيبا ودمـر وخرب وطغى على الشوارع والأزقة والبيوت وقتل اكثر من مائـــة وشـرد الآلاف أدركنا انه الطوفان الكبير الذي لن تصمد أمامــه بيـوت قديمـة ولا جسور ضيقة ولا أزقة مختنقة.

٢ ــ ومما لا شك فيه أن فيضان نهر أبي علي منتصف القرن العشــرين، وتحديدا في ١٩٥٥/١٢/١٧ وابتداء من الساعة السابعة عشر ليلا...كان أكبر ضربة موجعة وشديدة لمدينة طرابلس المستجدة ــ التي أمر ببنائها المنصور قلاوون في عام ٦٨٨هـ./ ١٢٨٩ م . وقد حملت أرضها العدد الكبير مــن فنون معمارية ومساجد ومدارس وبيمارستانات وحمامات وخانـات وبيـوت ودور وأزقة وبساتين.وقد كان الخراب على موعد منتظر و(التقى الماء علـى أمر قد قدر ، والتفت الساق بالساق ، وجمعت الأيدي إلى الأيدي ، وانعدمـت

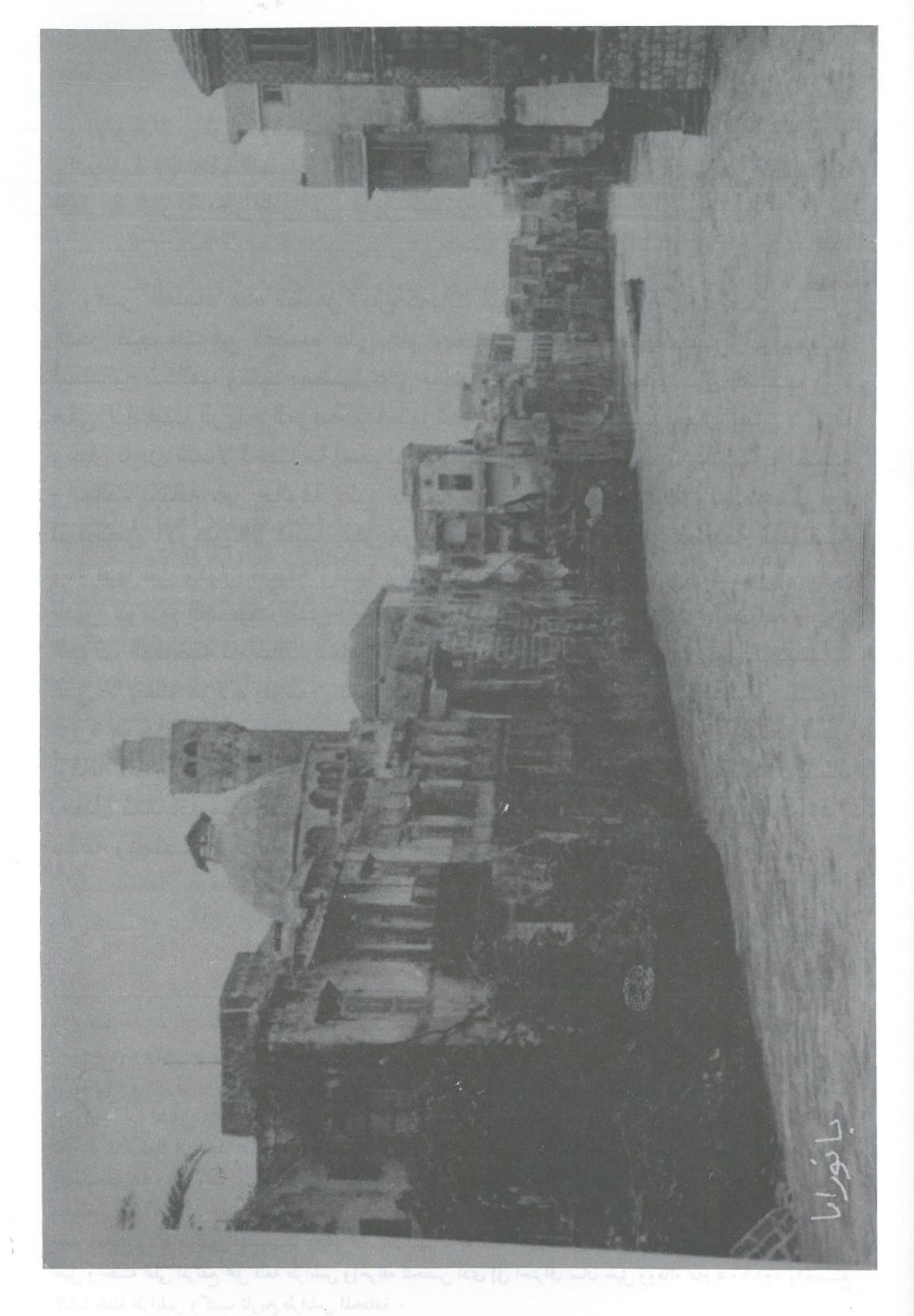
---

(١) ومنها حمام كان يعرف بحمام النزهة ، يطل منه المستحم على النهر وبشكل مدهش ولافت ، وقد تهدم الحمام مــع تهدم جسر اللحامين مع فيضان النهر عام ١٩٥٥ . انظر الصورة في مجموعة الصور بالأسود والأبيض في آخر الكتاب .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٣٣.

مدينة طرابلس والمباني والآثار والنهر قبل فيضانه عام 1956

جامع البرطاسي والجسر القديم قبل الفيضان (الشكل رقم ٣١)



وبعد الفيضان انهار الجسر وارتفعت المياه الى البيوت ويبدو في الصورة جزء من الجسر
(الشكل رقم ٣٢)

الإيرادات وتُرك (الغضبان)[1] يفيض بمياهه الهادرة دونما رادع أو مانع.وما إن أطل الصباح وتوقفت السماء عن الماء المنْهمِر حتى تكشفت العقوبة النازلة بطرابلس من النهر المنتَهَر.

وفسر العلماء هذه الظاهرة بان كميات كبيرة من المياه قد تصاعدت من البحر فتجمعت في الفضاء على علو منخفض ، وجعلتها ظروف جوية استثنائية تتكاثف وتتلبد بعضها على بعض فوق المربع الضيق المذكور ، حتى إذا هبت الرياح الغربية ودفعتها نحو الشرق والتطمت بجبال لبنان شوقا وجبل تربل شمالا لعبت ما يسمونه دور جدار مائي فذابت دفعة واحدة وانهالت بكثافة غير مألوفة على مساحة المربع الضيقة،وبالنظر لهذه الغزارة لم تمتص الأرض إلا قسما يذكر من المياه المنهمرة وبالنظر لطبيعة المنطقة وما فيها من وديان ضيقة ومنها وادي نهر أبو علي،فإذا بهذا الأخير وهو النهر الوادع الضعيف الذي ينساب بين أشجار الليمون والفواكه المختلفة وبين البيوت المتاخمة له عاقدا معاهدة حسن جوار مع الطرابلسيين رغم التعديات التي لا ينفك هؤلاء يقومون بها على حرمه المقدس ، إذا بهذا النهر يثور ثورة هوجاء تجعله يدفع من المياه ما يوازي مائة مرة ما اعتاد أن يدفعه في أوقاته الأكثر حمولة إذ قدر العارفون كميات المياه التي جرها في تلك الأثناء بمعدل ثمانمائة متر مكعب في الثانية مما يجعل مجموع ما هطل من مطر في ساعة ونصف حوالي ست وعشرين مليون متر مكعب!!!.

---

(١) أطلق على نهر أبي علي في القديم اسم الغضبان ، للكناية عن فيضاناته الجارفة . لكن بعض المعمرين (البالغين من العمر عتيا) يزعمون أن بيمارستانا كان في جسر السويقة ، [ليس زعما إنما هو حقيقة ، وقد أزيل بفعل تخطيط وزارة الأشغال] ، وكان فيه خادم قاس شرس الأخلاق ، شديد الحول والقوة ، اسمه أبو علي ، وكانت تعتريه نوبات من الجنون شديدة تشبه حملات النهر الغضبان فائضا . فاكتسب هذا النهر اسم "أبو علي" لمراعاة النظير بين المشبه والمشبه به . أو قد يكون نهرنا هذا استمد اسمه من أبي علي بن عمار ، صاحب طرابلس حول عام ٤٧٠ هـ/ ١١٠٣م. ، [صحيحها ١٠٩٨م] والله اعلم (من مقال لعيسى المعلوف ، في مجلة المباحث ، مجلد ١٨ ، ص ٢٤٣) . راجع كتاب مصطفى بربر آغا للأب اغناطيوس خوري ، ص١٧ . لكننا نرجح أن التسمية هي نسبة لفخر الملك أي أبي علي بن عمار حاكم ولاية طرابلس المستقلة ويبدو أن ربط النهر باسمه جاء بعد استخدامه من قبله في هجوم شنه على سان جيل وحصنه على المرتفع محل قلعة طرابلس وإحراقه للحصن أدى إلى احتراق سان جيل ووفاته عام ١١٠٥م. راجع كتابنا يقظة طرابلس وكتب تاريخ طرابلس المختلفة .

وعلى اثر هذا الفيضان الرهيب غدا النهر ومجراه شغل المسؤولين والفنيين والمهندسين وأسندت الدولة المهمة في ذلك إلى مصلحة التعمير في بيروت فإذا بغضب النهر يتضامن معه (غضب) من نوع آخر انفعل به مهندسو وزارة الأشغال ومصلحة التعمير في بيروت فدمرتا قسما رائعا من متحف التاريخ (المتحرك) من العصور المملوكية فالعثمانية وتلك الضاربة في أعماق التاريخ!!

* * *

٣ ــ وفي ظن الكثيرين من أبناء طرابلس أن الحجة التي يرفعها أولئك الذين خططوا لمشروع التوسعة والملخصة بأن المنازل القديمة قد تهدم قسم منها أو تصدع منها أجزاء أخرى وبالتالي لا تصلح للسكن، هي حجة لها وجه من الحقيقة لا الحقيقة بكاملها.فالتصدع يمكن أن يرمم ، وتعميق المجرى يمكن أن يحصل ، كما أن السدود في أعلى مجرى النهر يمكن أن تحول دون فيضان غاضب جديد...إن شرط التجميل الأساسي هو أن لا تقضي على آثار لا تعوض ــ هي بذاتها جمال ــ فيتغير بهذا (المساس) وجه المدينة القديمة وتغيب معه حضارة تليدة !!!.

٤ ــ ومن المستحسن هنا أن نرجع إلى تقرير مصلحة التعمير المنشور عام ١٩٥٧ لنقف على التبريرات (والمرتكزات القانونية) لارتكاب (زلزال مدمر) بطرابلس الآثار والتاريخ فنقرأ:

" وربحا للوقت الثمين ، وجد من المناسب تبني الدروس التي كانت قامت بها وزارة الداخلية [كذلك في الأصل ولعله خطأ والصحيح الأشغال] لتحوير مجرى " نهر أبو علي " مع إجراء بعض التغيير خاصة فيما يتعلق بجامع البرطاسي ، وهو جامع اثري على ضفة النهر ـ إذ أوصت مديرية الآثار بعدم مسه نظرا لقيمته الأثرية. فمر التخطيط بقربه وجعل أمامه حديقة صغيرة تظهر الجامع في المجاز الغربي للنهر .

وقد نظمت المصلحة في سبيل هذه الغاية لجان مؤلفة من مهندسين ومدربين وطوبغرافيين وزائرة اجتماعية.وقد لاقت هذه اللجان صعوبات جمة في أحياء المدينة القديمة ذلك لان الأبنية متشابكة متلاصقة تخلو من القواعد الصحية ، لا يخيل للناظر إليها أنها مسكونة من بشر.وقد أشكل على اللجان بيان أوصافها ومداخلها.ولكن كل ذلك لم يثنهم عن العمل المجدي.

وقد أخذت الدهشة الموظفين عند دخولهم لهذه الأبنية وأخذتهم الشفقة على الذين يعيشون في أماكن حقيرة لا تدخلها الشمس مطلقا وهي أشبه بالقبور[؟؟؟].وكان على موظفي مكتب طرابلس أن يتفهموا نفسية هؤلاء السكان البائسة [؟؟؟] وان يسبروا أعماق نفوسهم بصبر وأناة وان يتسلحوا برباطة الجأش وروح التضحية والمثابرة ليتمكنوا من كسب ثقتهم.ولما كان من السهل إصلاح ما خربته الأقدار فوق الأرض فمن الصعب جدا التغلب على نفسية قانطة منزوية ومنكمشة على نفسها [؟؟؟] لا تتمتع بأية رفاهية معينة أو مادية .

وقد استطاع هؤلاء الموظفون أن يذللوا الصعاب ويدخلوا كل غرفة من البيوت ويأخذوا جميع الأوصاف والتعليقات المتوجبة " .

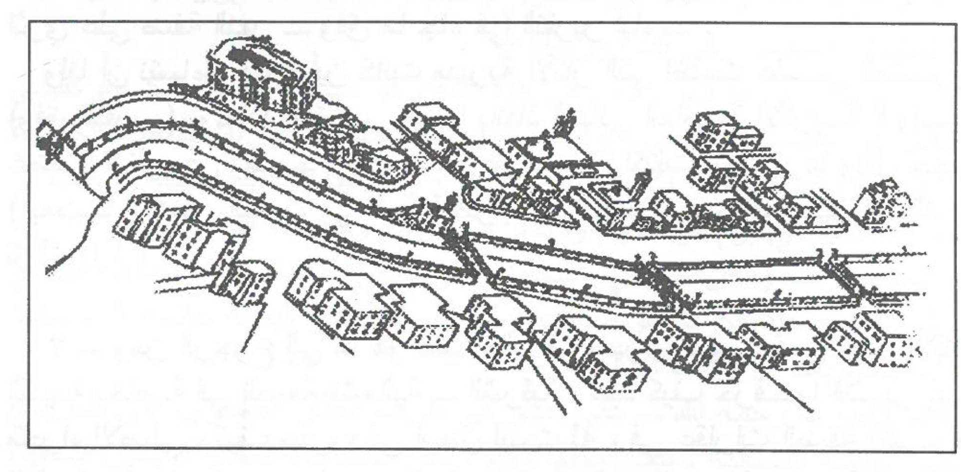
أما الزائرة الاجتماعية ، فقد قامت بزيارة جميع العائلات ودرست أوضاعها الاجتماعية والعائلية والاقتصادية ، ووضعت تقريرا بذلك حتى تتمكن المصلحة من وضع برنامج لسكنهم وفقا لوضعيتهم العائلية والمادية" .

٥ ـ ويعجبني في التقرير،غير العاطفة المشبوبة بحب الناس والعطف المفاجئ على ساكن المدينة القديمة...إن التقرير إياه أكد صراحة أن مصلحة التعمير كونت لكل مبنى ينوى هدمه ، وبالتالي استملاك أرضه ملفا يتضمن كل المعلومات عن العقار ووصفه واسم مالكه مع صورة شمسية له من جميع جوانبه وقد بلغ العدد ألف ملف (الصفحة ١٤٨ من التقرير).

وما يهمنا هنا من هذه الإشارة أن مصلحة التعمير عندما خططت للمشروع كانت تعلم علم اليقين طبيعة هذه المباني ، وكان عليها بالتالي أن تشرك مديرية الآثار من جهة ومديرية الأوقاف الإسلامية من جهة ثانية وبلدية طرابلس من جهة ثالثة ، ليشكلوا معا فريق عمل يمكن بعدها وضع صيغة واحدة لمشروع

توسيع المجرى وتعميقه ، لا أن تنفرد هي بمثل هذا المشروع وتضع المدينة ومعها التاريخ والمستقبل تحت الأمر الواقع...كما يهمنا هنا أن يعجل المسؤولون في وزارة الثقافة ـ اليوم ـ المعنية بالآثار،معرفة مصير أرشيف مصلحة التعمير التي ضمت تلك الملفات تمهيدا لاستخراج صور المباني...فلعل تلك الصور ـ في حال وجودها ـ تخفف من هول (زلزال المحق والتدمير) الذي ارتكبته بشرف مصلحة التعمير (والتخريب) والتي أتت على كثير من تلك المباني العامة الرائعة ، والتي تأسست مع طرابلس الجديدة ابتداء من ١٢٨٩ م.، والتي يجب أن يعاد بناؤها قريبا من موقعها الأصلي كخان المنزل الذي رقمت أحجاره قبل هدمه وتم نقلها إلى القلعة ـ كما سنرى ـ وذلك قبل أن تمتد أيدي التفريق والسرقة بمزيد من البعثرة والضياع .

ومن الرجوع أيضا إلى تقرير مصلحة التعمير إياه نطالع مصورا لما أعدته المصلحة استنادا إلى مشروع وزارة الأشغال (وهو الذي تراه أدناه) ، وسنجد كيف أن المشروع المخطط له كان مصمما بطريقة تقضي على جميع المدينة القديمة القائمة على النهر في ضفتيه ، وينشئ أخرى مختلفة كليا عن الأولى ولا تمت لها بصلة إلا أن المساعي تمكنت من إنقاذ جامع البرطاسي فقط لا غير بينما تم الإجهاز على قسم مهم من المدينة القديمة .



مشروع تخطيطي لمجرى النهر والمباني الجديدة الممكن استحداثها بعد ان تكون قد هدمت جميع المدينة القديمة وآثارها وهو مشروع كان قد قضى على المدينة وتاريخها لولا ان سقط بفعل عدم توفر المال ولله الحمد.

٦ ـ ومن التدقيق في المصور (المخطط) ، يتبين أن ما بقي في المخطط من آثار طرابلس الأولى المملوكية ، جامع البرطاسي السالف الذكر،والقلعة في أعلى مجرى النهر

أما المولوية وطريقها التاريخية والمدرسة الظاهرية التي لا تزال مهدمة في أجزائها الشرقية وجامع محمود بك،فجميعها وفق التخطيط الأول يجب أن تكون قد تدرس وتزال من الوجود، وقد أزيل بالفعل بعضها كحمام الحاجب وخان المنزل وجامع الزريقية...الخ .

وقد حكينا في صفحات سابقة[٤] كيف نجا جامع البرطاسي ، وكيف أن رئيس بلدية طرابلس يومئذ الحاج اكرم عويضة بناء على لفتة مباركة من مفتي المدينة الشيخ كاظم الميقاتي تمكن من تعديل المخطط بتحريف المجرى المقترح ، وان عزا تقرير مصلحة التعمير هذا الإنقاذ إلى(نصيحة) مستجدة من مديرية الآثار التي أوصت بالإبقاء على هذا الأثر نظرا لقيمته الأثرية وربحا للوقت الثمين (كما ذكر التقرير) ومنعا لمراجعات أخرى على ما يظن فيما لو تنبهت المدينة إلى الزلزال المنوي إحداثه بشأن الآثار الأخرى ـ وجدت مصلحة التعمير من المناسب تبني " الدروس " التي كانت قامت بها وزارة الأشغال لتحوير مجرى نهر أبي علي مع إجراء بعض التغيير فيما يتعلق بجامع البرطاسي وهو جامع اثري على ضفة النهر ـ وفق ما جاء في التقرير إياه ـ .

ولنا أن نتساءل هنا ، أين كانت مديرية الآثار التي اطلعت على المشروع (وفق التقرير)، ولماذا لم توصي أيضا بإنقاذ المباني العامة الأثرية ؟ ولماذا غضت النظر عن تهديمها ومحوها من الوجود ؟ واكتفت بتصويرها ونقل حجارة (بعضها) كخان المنزل إلى قلعة طرابلس حيث تم إهمالها هناك ولا تزال ؟! ! !

* * *

٧ ـ ومن الرجوع إلى ما هو منفذ حاليا في مجرى النهر ، دون سائر الأبنية القديمة بخاصة في الضفة الشمالية ـ الشرقية ، نجد كيف حرفوا النهر عن مجراه الأصلي وكيف سيروه في ارض ليست له ، في عقارات الضفة الشرقية الأثرية ، أي في ارض خان المنزل وحمام الحاجب والمدرسة الزريقية والبيمارستان والقبوات الجميلة وسواها...ولو أن "المخططين الأشاوس" ، بعد أن عدلوا عن هدم جامع البرطاسي ، قاموا باستدارة حوله ، وساروا بعد الاستدارة بخط " مستقيم " وفق الفن الهندسي الذي اختاروا ، لنجت جميع الآثار ولبقي النهر في مجراه الطبيعي على وجه التقريب ولغدا جامع التوبة واقعا بمحاذاة المجاز

(٤) راجع صفحة ١٣٣ وما بعدها من كتابنا اكرم عويضة (معالم مدينة في القرن العشرين)٠

الجنوبي ولبقيت جميع المباني الأثرية العريقة وبخاصة تلك الواقعة بعد مجازه الشمالي وطرفه الشرقي ولكان مصب النهر في البحر لم يبعد عن مصبه الحالي إلا عشرات الأمتار ودون أن يلحق الأذى بأي من المباني الأخرى .

ومن التدقيق في (الصورة المنشورة في هذا الفصل رقم ٣٢) وهي قد التقطت بعد الفيضان الكبير بيوم أو اكثر ويظهر فيها موقع الجسر المنهار وقد برز جزء منه في الماء ، يتبين منها الأبنية المطلة على النهر والجامع البرطاسي في موقعه الأصلي ويتضح منها أيضا أن مجموع تلك الأبنية فضلا عن أبنية الآثار لم تصب " بسوء مهم" فلماذا نزيل إذن مدينة من اجل تحوير مجرى نهر غضب في أيام من الزمن وأضر بلا ريب ، إلا انه في معظم أيامه نهر وادع ضعيف الماء، كما يقول تقرير مصلحة التعمير نفسها...؟ ، أما كان يكفيه ـ كعقاب على غضبه ـ سد في المرداشية أو في رشعين أو عند الجبال العالية ، وآخر قبل المولوية في طرابلس كما هو حاصل اليوم ثم يسير النهر "الغضبان" بوداعة بين ضفتي مدينة "بندقية الشرق" و" دمشق الصغرى" طرابلس العريقة !!!

ومهما يكن من أمر فقد نجا جامع البرطاسي الذي رمم وبقي شامخا فوق النهر يحكي قصة مدينة عبر التاريخ المجيد المبتدئ يوم استعاد المنصور قلاوون طرابلس المحروسة وأعادها إلى حصن الإسلام [١] والى الأبد إن شاء الله كما قال السلطان المنصور في كتبه ورسائله[٥] .

٨ ـ صحيح أن ما تثيره اليوم في هذا الشأن هو من قبيل البكاء على الأطلال ،فما مضى قد مضى...والبكاء لا يعيد ما تهدم ، غير أن تسجيل الحقيقة ولو على تاريخ "الأطلال" ضروري وواجب ، ومحكمة التاريخ عادلة ويجب أن تصدر أحكامها في يوم من الأيام وتحدد "مجرميها" وتنصف الناس .

وجميل بنا هنا ونحن نسجل ما سجلناه ، أن نواسي أنفسنا ببكاء سماحة مفتي طرابلس الشيخ عبد الكريم عويضة عندما وقف على قبر البطلة عائشة البشناتية يذكرها باكيا بعد أن أزيلت معالمه.

(فقد جلس ـ رحمه الله ـ على حجر في طرف العقار المحتوي على ضريح الشهيدة عائشة البشناتية ، يبكي نحيبا وقهرا تأثرا بمشاهدة العمال الذين قاموا بهدم المقام (المزار) في ذلك الزمن ، بغية إحداث بناء جديد على أرضه ، وذلك بأمر من أصحابه الجدد الذين ابتاعوا هذا العقار من مالكيه)[٦] .

(٥) راجع أحداث قصة الفتح ووقائعه وهدم طرابلس التي على البحر وبناء أخرى على النهر في الفصل الخاص من هذا الكتاب.

(٦) منذر عوض : قصة مدينة ، ص ١٥١ .

والصورتان متشابهتان فقد أزيلت معالم من المدينة القديمة كما أزيل مقام الشهيدة عائشة وكأنه كتب على تلك الأبنية الأثرية أن تهدم هدما بمعاول البشر بعد أن صمدت سبعة قرون في وجه أعاصير وزلازل الطبيعة !!!

ففيضان نهر أبي علي الغضبان "الوادع" الذي حصل في أواخر ١٩٥٥ لم يكن الوحيد في التاريخ ، فقد وقع في طرابلس فيضانات كبيرة وحوادث طبيعية كبيرة، إلا أن تلك الآثار بقيت صامدة لم تتصدع ولم تنهار .

فقد جرت فيضانات كبرى وسيل عظيم وحدثت حوادث طبيعية وزلازل ضخمة بدرجات /٩/ بمقياس (مركالي) على مراحل من تاريخ طرابلس المستجدة بعد عام الفتح المبين ١٢٨٩م.ومع هذا فقد بقيت تلك المباني الأثرية التي تحدثنا عنها مما يدل على قوة البنيان ومتانة الأساس وروعة الفن المعماري العظيم ، غير أنها وان استعصت على الحوادث الطبيعية إلا أنها انهارت أيام "جهل" أو "تجاهل" وزارة الأشغال ومصلحة التعمير و" التخريب" في ذلك الوقت من عام ١٩٥٦ م [٧] .

٩ـ **ويمكن القول أن الأمر قد قضي**...وشاء الله أن تزال أبنية وتبقى أخرى... وشاء الله أيضا أن لا ينتبه رئيس بلدية طرابلس آنذاك ، ولا فعاليات البلد ولا علماؤها ولا قادة المدينة ولا نوابها ولا مهندسوها ولا دوائرها ، كما لم تتنبه مديرية الآثار يومئذ ـ على افتراض وجود اهتمام لديها بآثار مدينة عريقة كطرابلس ـ لم يتنبه كل هؤلاء إلى مجزرة واضعي مشروع التقويم للنهر (الغضبان)...ولو أن أولئك السادة انتبهوا لوقفوا وقفة رجل واحد بإنقاذ (متحف التاريخ) على ضفتي النهر (الوادع) وإيجاد البديل : تعميق المجرى وإيجاد السدود على مجراه وإيجاد سبل أخرى للتقويم والتوسعة مع المحافظة الشاملة على الآثار التي لن تتكرر ...

١٠ ـ ويحسن بنا وقد أخذنا موقفا متحمسا مع المدينة القديمة أن لا نهمل قراءات وردت في مطلع هذا القرن العشرين وكيف وصفت طرابلس القديمة؟ وكيف حاول "منظمون" أن يوجدوا تطويرا معقولا لمبانيها القديمة، خاصة وان تقادم العهد على بناء الدور السكنية يؤثر سلبا عليها • فهي لم تبن أصلا لتعمر مئات السنين كالمعابد والمدارس والمساجد والخانات والحمامات مثلا...فهذه ، في الغالب، كان يقدر لها أن تعمر ، فصنعت وفق فنون هندسية تمنحها القوة والصمود . أما الدور السكنية ، فبالرغم من متانتها إلا أن عوامل الزمن المختلفة تؤثر فيها وتتسارع إليها، خاصة إذا أهملتها يد الترميم والتجميل والتطوير .

(٧) انظر تعليقنا من الوجهة المعمارية في أهمية فتح الشوارع وتواصل المدينة القديمة بالحديثة اليوم ، في كتابنا (اكرم عويضة (معالم مدينة في القرن العشرين) ، ص ١٥٢ .

في تقرير للأستاذين رفيق التميمي ومحمد بهجت في كتابهما (ولاية بيروت)[٨] نقرأ: "ومع ذلك فان طرابلس بجوامعها العظيمة ، وكنائسها الكبيرة تشعر بأنها بلدة "شرقية".ويوجد في طرابلس مقدار أربع عشرة جامع منبثة في أنحاء البلدة بمنارات ظريفة ناصعة رفيعة الذرى ، وقباب بيضاء منها "الجامع الكبير المنصوري، التوبة، العطار، الطحام ، ارغون شاه، المعلق ، طينال ، عبد الواحد المغربي ، الاويسية ، البرطاسي ، محمود بك السنجق ـ التقاص[٩] ـ الحميدي .

ثم إذا علمنا انه يوجد فيها ما عدا هؤلاء الجوامع مقدار عشرين مسجدا، ومدارس قريبة من هذا العدد ، أربع تكايا ومولوية (درويشية) تعلم أن طرابلس بلدة إسلامية دون شك.ولكن يا للأسف أن اكثر هذه الآثار الإسلامية مهملة لا يعبأ بها ، مشرفة على الخراب لدرجة توجب العار والخجل "..

١١ ـ واعتقد جازما لو أن حارات في طرابلس القديمة تحولت إلى ما يشبه المتحف التاريخي لغدت سوقا للسياحة ولتصوير المسلسلات التاريخية ، فأي ديكور من خشب يمكن أن يصمد أمام ديكور طبيعي من حجر عاش في التاريخ مع الناس في أزقة وحارات وزواريب و(نزلات وطلعات) وقبوات ومدارج ونتوءات وآثار ودكاكين وشرفات وأسبلة و(مقامات) إنها مدينة تتكلم فحذار الاستهتار بها !

ويا حبذا لو ينبري فريق من المهندسين المعماريين والمشتغلين بالآثار بإشراف وزارة الثقافة وبالتعاون مع الاونيسكو والمنظمات العربية والإسلامية ن لوضع مشروع "متحف طرابلس التاريخي" موضع التنفيذ.فلئن قامت ألمانيا وعلى نفقتها بترميم خان الخياطين ـ وان لم يرمم بكامله كما ينبغي وكما كان ـ فجدير بالحكومة وبالدول العربية والإسلامية وبمعاهد التاريخ في الجامعات أن تعتبر "طرابلس التاريخ" قضية تعنيها فتحميها من كل عبث ومن كل تدمير .فتاريخ المدينة تاريخ للبنان وللمنطقة (بلاد الشام) وهي جزء من حضارة المسلمين الكبرى ، وهي المدينة المملوكية الأولى والوحيدة في هذه المنطقة فلا يجوز ضياعها أو إتلافها أو الاستهتار بها.

١٢ ـ وما شاهدناه اليوم[١٠] من أعمال الحفر والتنقيب على الآثار في منطقة الأسواق التجارية في بيروت عند بدء إعادة اعمار سوليدر نجد أن "الجميع" هناك

(٨) صدر هذا الكتاب في عام ١٩١٠ م. قبل الحرب العالمية الأولى في أواخر العهد العثماني يبدو انه صدر بإشارة من عزمي بك متصرفا على طرابلس .

(٩) هكذا في الأصل ، ولم أتبينه .

(١٠) خاصة في سنوات ٩٤ و٩٥ و٩٦و٩٧.

مهتمون بفخارة مكسورة أو نقد متآكل أو هياكل متصدعة أو عظام نخرة أو أحجار متفرقة فيقومون بضرب نطاق حول تلك "المدافن" التاريخية ويحرفون مخطط السوليدير لتظهر معالم بيروت القديمة وهو ما يظهر مبرر بكائنا ـ الصرخة ـ على أطلال مدينة الحضارة والتاريخ طرابلس .

ونحن إذ نسجل ما يجري في بيروت اليوم باعتزاز ندرك ونحن نقرأ "تاريخ طرابلس المتحف" وآثاره الظاهرة التي لم تدفن بل بقيت شامخة بوجه عاتيات الزمن كيف أن معاول التخريب هدمت تلك الآثار الصامدة وجعلتها أثرا بعد عين وكأنما المقصود قد كان تدمير معالم مدينة كانت في يوم من الأيام مملكة امتدت حدودها إلى اللاذقية شمالا والى بعلبك شرقا والى جونية جنوبا وكانت مدينة العلم والعلماء؟؟ غير انه ـ كما ترى ـ عقاب قاس مؤلم مناقض لأبسط قواعد احترام "التراث" حيث نقرأ كل يوم عن تحقيقات المنقبين بعد أن "عثروا" على مدن اندثرت في باطن البر أو في جوانب البحر .

وأعجبني ما أعلن في دمشق مؤخرا[١١] عن إقامة لجنة مشتركة من أمانة محافظة دمشق والأوقاف ووزارات السياحة والآثار والثقافة لترميم "دمشق القديمة" وأعادتها إلى جمالها التاريخي السابق مع الإبقاء على الحركة التجارية والصناعات القديمة وان يكن ذلك يكلف مئات الملايين من الدولارات !!.

والسؤال هل تتبع "دمشق الصغرى طرابلس " شقيقتها "دمشق الكبرى" !!

١٣ ـ وحسنا فعلت بلدية طرابلس مؤخرا في عام ١٩٩٥ عندما أجرت دارسات منها تأهيل سوق الصياغين في المدينة متعاونة مع بلديات فرنسية (!!!) ومع معهد الفنون الجميلة في الجامعة اللبنانية ومع البنك الدولي بإشراف وزارة التعليم العالي ونحن ننتظر أن يكون لطرابلس القديمة إطلالة من نوع جديد .

...ولئن جاءت بلديات من فرنسا أو ـ ألمانيا ـ للعناية بجزء من المدينة القديمة، فأن تأتي حكومة لبنان وحكومات منظمة الدول الإسلامية أجدر وأبقى وأنفع وأجدى.

١٨ ـ والى أن يحين هذا الميلاد الجديد لمدينة التاريخ...يجب أن تبادر مديرية الأوقاف العامة في لبنان لتغطية أي عجز يمكن أن تنوء به دائرة أوقاف طرابلس ، التي عليها أن تتحرك وان لا تبقى بعيدة عن حركة التاريخ في مساجد المسلمين ومدارسهم وآثارهم ، خاصة وان لكل من تلك المباني العظيمة أوقافا كثيرة أوقفها بناتها لإعمارها وصيانتها والإنفاق عليها.إن على دائرة الأوقاف في طرابلس أن تكون الأولى في إماطة الأذى واللثام عن جميع الآثار المدفونة والمساجد والمدارس المتهدمة أو الخربة أو المحتلة لتعيد إليها نضارتها وبهجتها

(١١) راجع صحف يوم الاثنين ٩٥/١٢/١٣ ، ومنها جريدة " النهار " .

وحيويتها ، وفي مقدمة تلك الآثار المدرسة الظاهرية الواقعة في مدخل تحت الساباط المؤدي إلى زاوية المولوية والمدرسة الخانوتية المهملة جدا وهي واقعة قرب مسجد ارغون شاه...و"الخانقاه " وهي تستخدم اليوم لمسنين وأرامل وقد بنيت في الأصل لسكنى المرابطين المقاتلين ،...والبرج الحربي الذي بني أمام الباب الغربي للجامع المنصوري الكبير الذي تحول إلى مساكن وهو اليوم مهدد بالزوال مما يتعين على البلدية إنقاذه وإعادة ترميمه[١٢] .

* * *

طرابلس القديمة إلى أين ؟ سؤال تسأله أجيال طرابلس في أواخر القرن العشرين، بعد أن "استفاقت" على الأهوال التي حاصرت طرابلس القديمة ، طرابلس التاريخ والحضارة. وتتطلع الأجيال إلى ما يطمئن بالها...إلى غد مشرق تتمازج فيه " ألوان " الماضي العريق والحاضر "المتطلع" إلى المستقبل "المنشود"، كقوس قزح يمتد بين السماء والأرض ، يحمل الخير والجمال إلى الثغر "الباسم" الهازئ الصامد الشامخ...طرابلس الفيحاء أبدا ، بإذن الله...وما ذلك على الله بعزيز.

(١٢) راجع رسالتنا بهذا الشأن إلى رئيس بلدية طرابلس ، المنشورة في الإنشاء الطرابلسية تاريخ ١٩٩٧/٦/٦.

طرابلس والميناء

آثار تاريخية

تقرير الاونيسكو

من آثار طرابلس

صادر عام ١٩٥٣

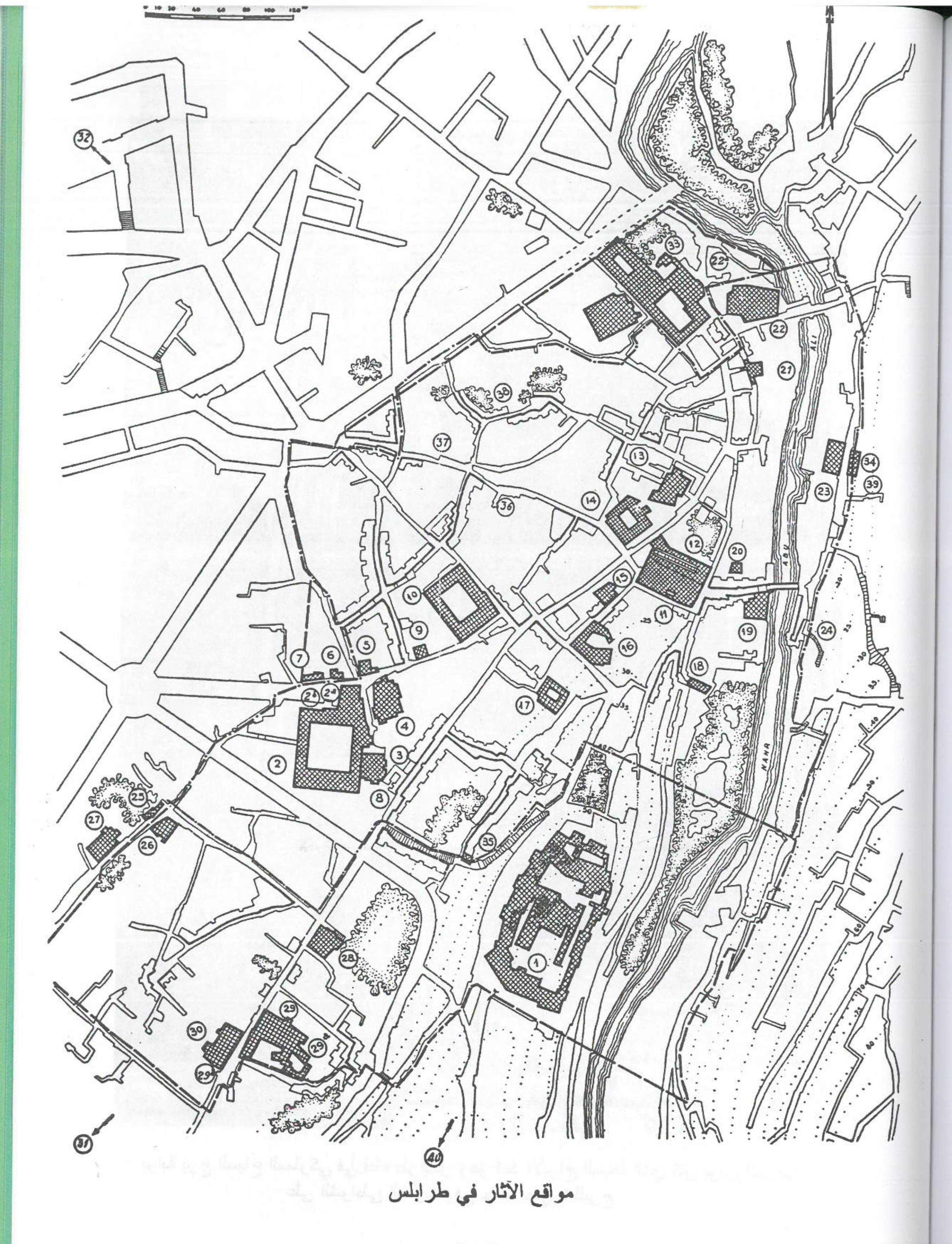
فيضان نهر أبو علي

وتهديم عدد

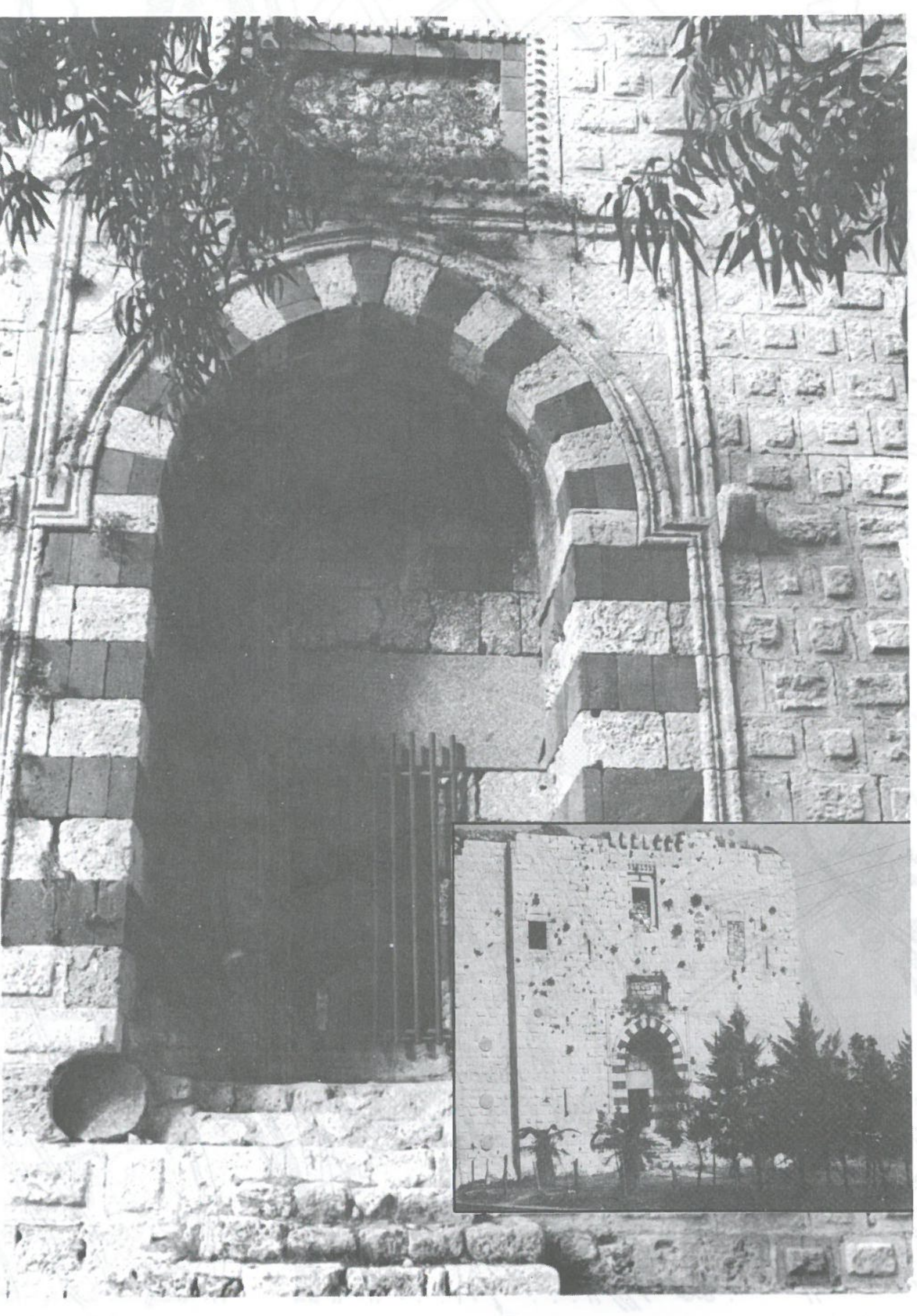
من الآثار

وتغيير مجرى النهر

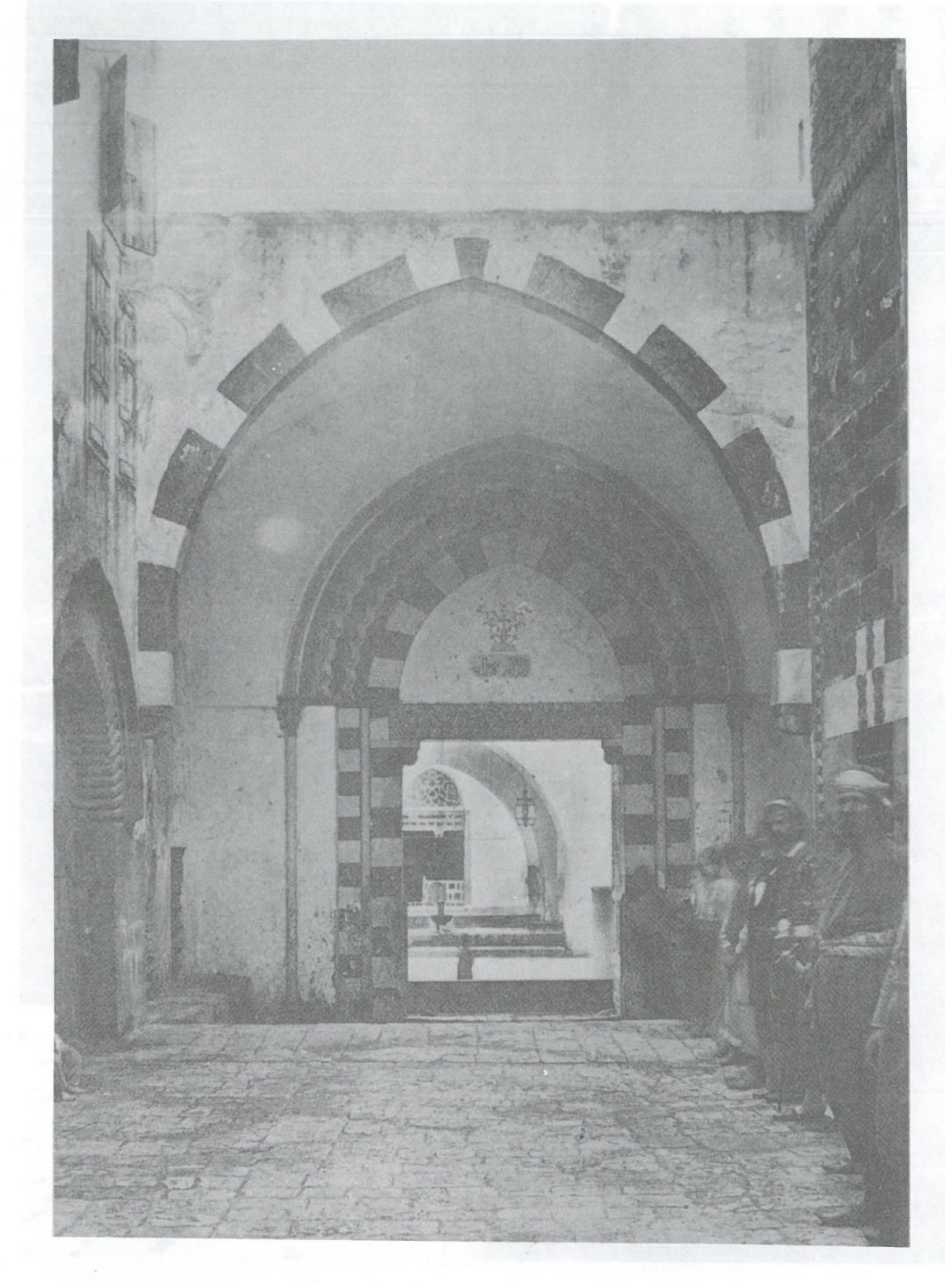
1) القلعة
2) الجامع الكبير
3) a المدرسة الشمسية
4) b مدرسة انونيم
5) المدرسة القرطاوية
6) حمام النوري
7) المدرسة النورية
8) مدرسة الملك الناصر
9) مدرسة الخيرية حسن
10) ممر مقبب
11) المدرسة الطويشية
12) خان الصابون
13) حمام عز الدين
14) خان الخياطين
15) جامع العطار
16) خان المصريين
17) المدرسة القادرية
18) جامع الاويسية
19) جامع عبد الواحد
20) المدرسة الزهرية
21) المدرسة البرطاسية
22) بقية غانم
23) سوق حراج
24) جامع التوبة
25) a جامع الدباغين
26) خان المنزل
27) آثار بيزنطية وقوس مزخرف
28) المدرسة السقرقية
29) المدرسة الخاتونية
30) جامع ارغون شاه
31) جامع الطحام
32) الجامع المعلق
33) a الخانقاه
34) b عين التينة
35) الحمام الجديد
36) جامع طينال
37) برج السباع
38) خان العسكر
39) المدرسة الزريقية
40) المدرسة العجمية
41) المدرسة الرفاعية
42) المدرسة العمرية
43) أطلال جامع
44) حمام الحاجب
45) كنيسة القديس جان



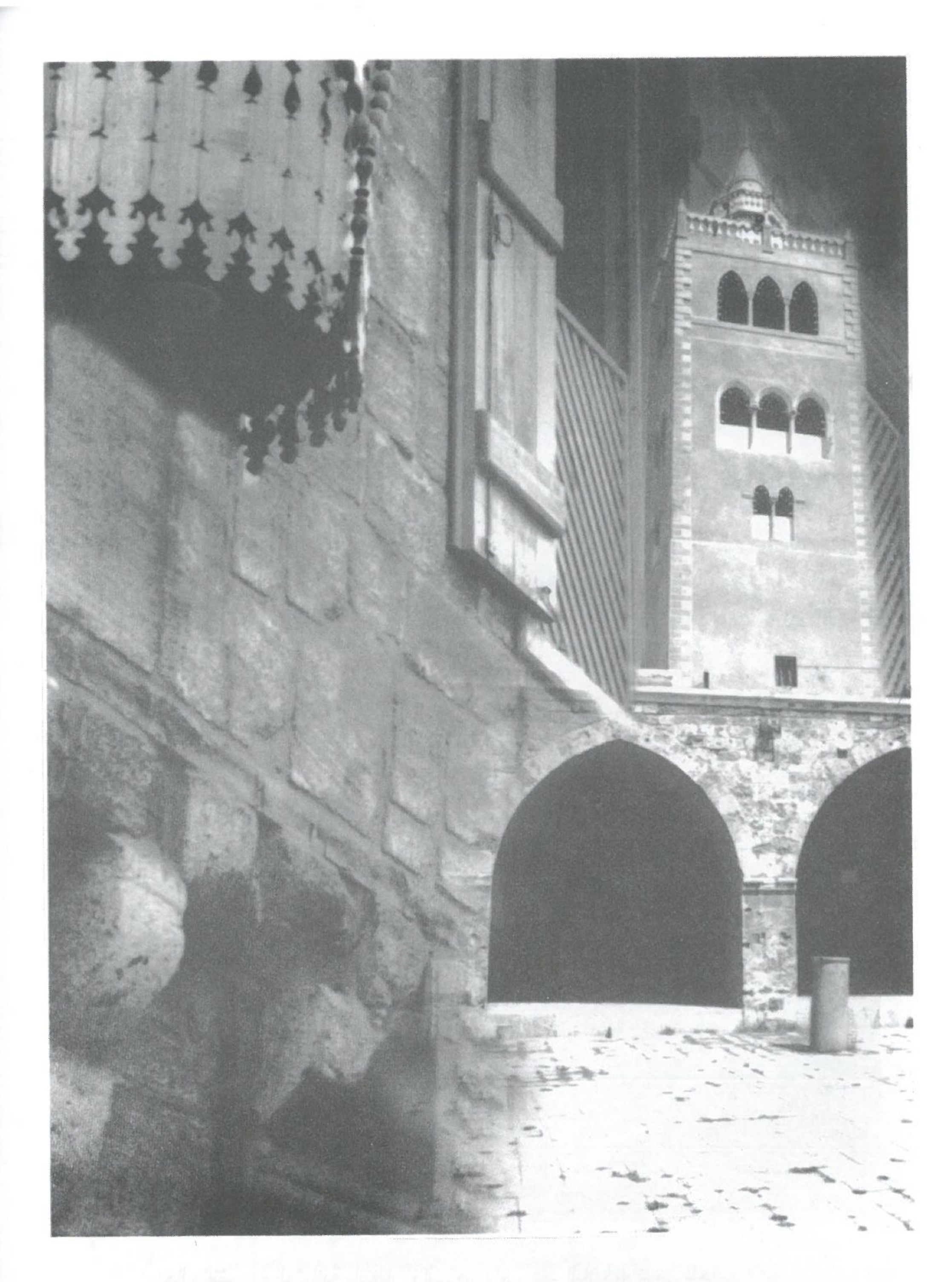
مواقع الآثار في طرابلس



بوابة برج السباع المملوكي في فناء طرابلس وهو أحد الأبراج السبعة الذي كان يؤمن الحراسة على الشواطئ البحرية وفي جانبه صورة للبرج



رجال التشريفة العثمانية بانتظار والي طرابلس عند الباب الرئيسي للجامع الكبير ويبدو قسم من بركة الوضوء .وقد التقطت الصورة سنة ١٨٩٠م.
(من كراس ٧٠٠ سنة على بناء الجامع)



مئذنة جامع الكبير والبيوت المتداخلة
من كراس بلدية طرابلس





شعار السلطنة القلاوونية
في عهد السلطان الخليل بن المنصور قلاوون

طرابلس اليوم ...



جانب من المعرض الدولي



ساحة ايام دار البلدية وشارع عزمي بك

القسم الرّابع

صُوَر تشهد وتحكي

تقديم وتنبيه!!!

وجدنا من المفيد ، ومن الحكمة ، إلحاق فصل خاص بالصور الفوتوغرافية الملونة للجامع الكبير المنصوري تحكي قصة عمارته وفنونه الهندسية وأخرى لجامع طينال وثالثة للقلعة وهي الأبحاث التي أخذت حيزا مهما من الكتاب.

وأتبعنا ذلك كله بمجموعة صور لبعض مساجد طرابلس ومآذنها ومحاريبها ونقودها الاسلامية والصليبية .

وقد قدمنا لهذا الفصل بصورتين لرسمين الأول عن سقوط طرابلس بأيدي الصليبيين بريشة رسام فرنسي وآخر لرسام طرابلسي عبرت عن تحرير طرابلس وبنائها من جديد .

وقد اضطررنا ، من الوجهة الطباعية ــ وهو ما قد يعذرنا فيه القارئ ــ إلى فصل الصور (بالأسود والأبيض) والتي ضمناها صفحات الكتاب عن الصور الملونة التي جعلناه في هذا الفصل وان يكن تتابع الصور وتناسقها موضوعيا ــ أفضل وأنسب وهو ما نتركه للقارئ الكريم يقوم به ــ ذهنيا ــ ربطا لمعاني الصور والمصورات فقد تكتمل بذلك عنده الرسومات فتفتح آفاق التاريخ وآثاره .

ولقد قمت بنفسي بتصوير عدد من الأماكن في طرابلس متبعا ما اقتضاه البحث أو ما لفت نظري من فنون هندسية أثناء تجوالي فيها ضمن معطيات البحث أو استجلاء لنقطة غامضة أو توضيح أمر كان خافيا كما استعنت بعدد من محفوظات استديوهات المصورين في طرابلس وأبرزها أرشيف بانوراما لصاحبه الأخ الأستاذ سوهام المصري وقد يكون هناك كمّ هائل من الصور وقد يكون بعضها مهما إلا أن حجم الكتاب حال دون وضعها في هذا المحق ومن المفيد أن يتعاون اكثر من مصور في طرابلس لإخراجها في كتاب مستقل [١٣] .

إن مطالعة الصور مع ما ورد من تعليقات وهي تحكي جانبا مهما من الكتاب ضروري ومفيد غير أن تلك المطالعة لا تقوم مقام مضمون الكتاب وقراءته على مهل وترو والعودة من حين لآخر إلى سجل المصورات والصور والرسوم فقد تتكشف ، للقارئ الكريم جملة حقائق توصلنا إليها وقد تتكشف إليه حقائق أخرى جديدة تعطي دفقا جديدا لحركة التاريخ المتجدد.

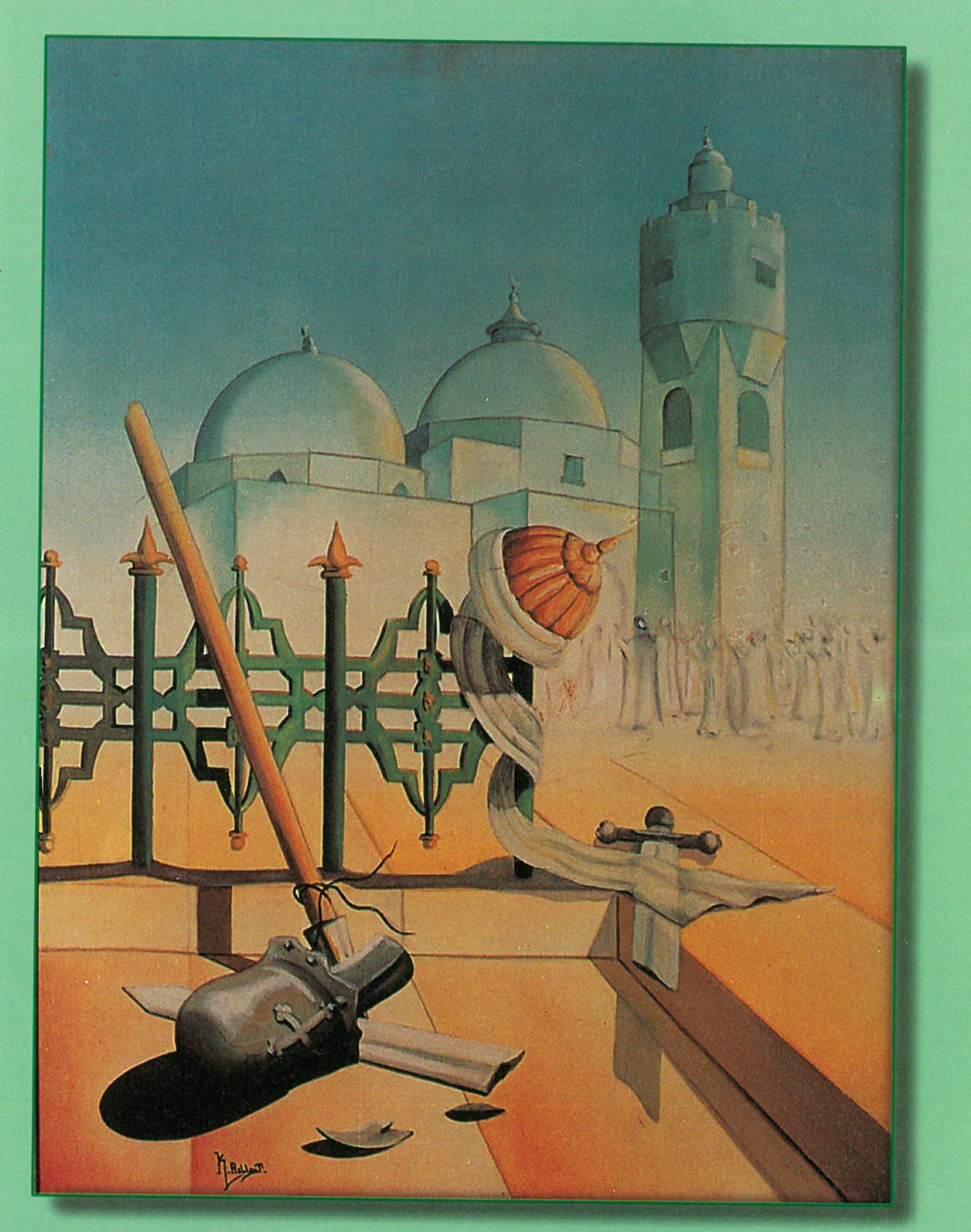
---

(١٣) خلال طبع هذا الكتاب اصدر الأستاذ رياض دبليز كتابه عن سياحة في طرابلس وهو بمجمله صور لمجموعة مهمة من آثار طرابلس .



الملحق الأول: رسم لطرابلس في السقوط وآخر في التحرير

رسم للسيد روباكو تخيل فيها طرابلس التي على البحر في عهد آل عمار واستسلام سكانها وأعيانها للصليبيين وقد عُلِّقَ هذا الرسم في قاعة للرسوم في قصر فرساي في باريس وتعكس تلك الرسومات حركة الاحتلال الصليبي لعدد من المدن والمواقع الإسلامية في بلاد الشام والساحل. وقد شاهد المؤلف تلك الرسومات والتقط صورة لرسم سقوط طرابلس (1100* Prise de tripoli والصحيح أن سقوط طرابلس كان في العام ١١٠٤ كما بينا في الكتاب. ويبدو في الصورة المنشورة المؤلف مع صورة الرسم بتاريخ ٩٨/٥/١٠ أثناء زيارته لقصر فرساي ونتمنى على المعنيين بقصر فرساي نشر صور عن تلك الرسوم وان كانت تشكل نموذج تحد عن أعقاب الاحتلالات الصليبية الكثيرة لمناطق في بلاد الشام.



٢. الرسم الفائز في مسابقة المجلس الثقافي التابع لجمعية الإنقاذ الإسلامية بمناسبة مرور ٧٠٠ سنة على استرجاع طرابلس من الفرنجة وتحريرها وكان ذلك في عام ١٩٨٩م. وهو بريشة الرسام خالد بلوط من بلدة القلمون قرب طرابلس. ويمثل كسر السيف الذي أخذ بشكل صليب انكسار الصليبيين وقتلهم وتشريدهم وترحيلهم إلى خارج طرابلس القديمة التي على البحر وهو ما ترمز إليه الخوذة الصليبية المرماة أرضاً إلى جانب حد السيف المكسور المطعون برمح عربي بينما راحت طرابلس المستجدة تسكن من المسلمين الذين جاء بهم قلاوون المنتصر أو تركهم فيها من أفراد جيشه حيث تكاثر الناس وأنشئت المساجد والدور والأزقة والخانات وهو ما يوضحه جموع المصلين وهم يغدون أو يخرجون من جامع طينال المبني خارج طرابلس مما يعني امتداد الأمن الإسلامي إلى مختلف جهات البلد واستقرار الأمر بيدي المسلمين عبر الساحل.

الملحق الثاني: هندسة الجامع المنصوري الكبير في صوَر

(انظر بحث الجامع في صفحة من هذا الكتاب)



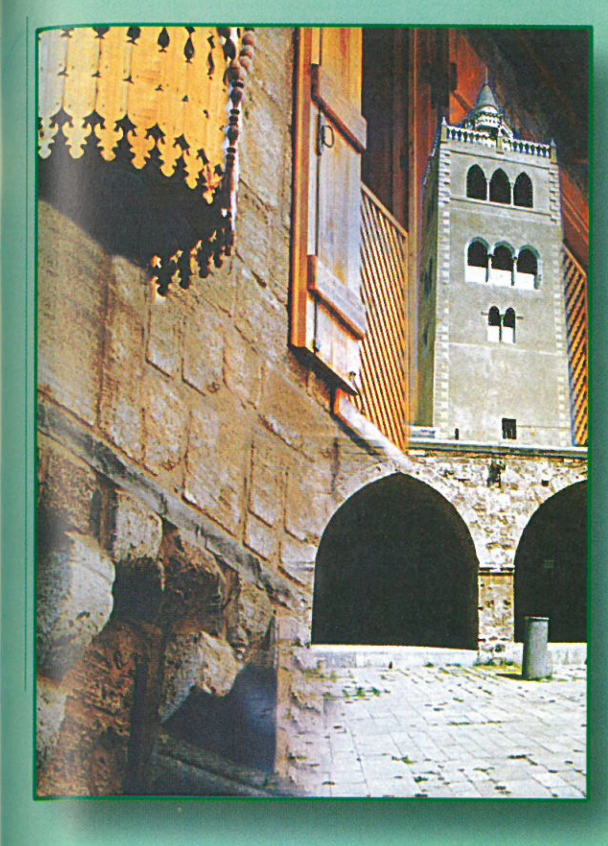
٣. من إحدى نوافذ القلعة المشرفة على المدينة، ويظهر الجامع الكبير والمئذنة والمباني الجديدة. (من تصوير المؤلف).



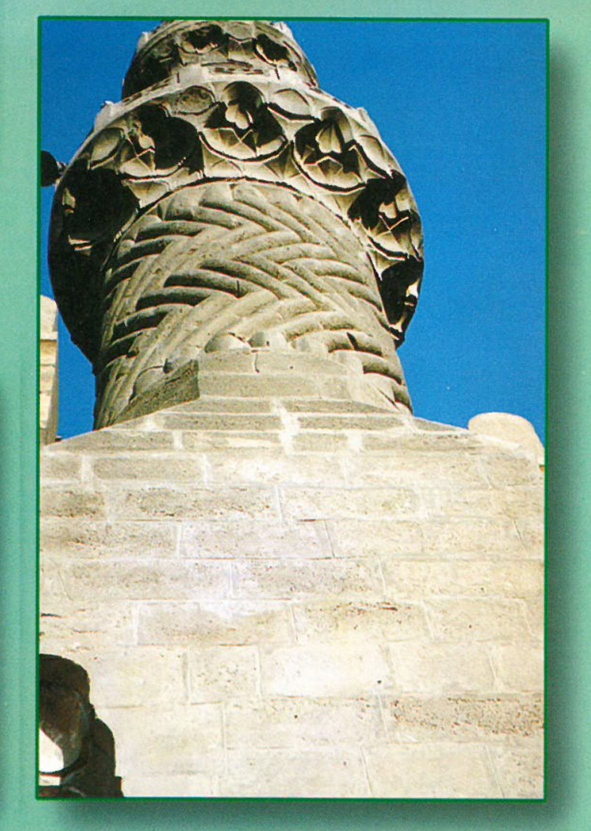
٤. بوابة الجامع الشمالية بأعمدتها المتكونة من أحجار متراكبة ومن تاج يقال انه قوطي على جانبي الباب، ومن زخرفات بحجارة شكلت خطوطاً متكسرة جاءت - على بساطتها - في غاية الروعة والجمال كما دون تاريخ بناء الجامع واسم مهندسه على العمود الرخامي الذي جاء فوق الباب. (من تصوير المؤلف).



٥. الزخرفة الوحيدة الموجودة داخل بيت الصلاة في الجامع الكبير فوق المحراب، وتبدو الخطوط المتكسرة وكأنها زهرة متفتحة في داخلها لفظ الجلالة ومن حولها زهرات على شكل دائرة كاملة هي ذات الزخرفة الموجودة على قنطرة الباب الشمالي الداخلي للجامع، كما أن التعرجات المتكسرة هي الخطوط ذاتها الموجودة على البوابة الخارجية الشمالية. (من تصوير المؤلف).



٦. صور متداخلة تجمع بين مئذنة الجامع الكبير ورواقه الشمالي ونوافذ ومشربيات البيوت لطرابلس المستجدة والتي تقع بجوار الجامع. من اصدار بلدية طرابلس ١٩٩٧.



٧. مئذنة جامع محمد بن الناصر بجوار جامع محمد علي باشا في القاهرة، وتبدو زخرفة الخطوط المتكسرة «الزيكزاك» مزدانة بها وهي مثل زخرفة بوابة جامع المنصور في طرابلس مما يؤكد شيوع هذه الزخرفات في العمارة الإسلامية (من تصوير المؤلف).



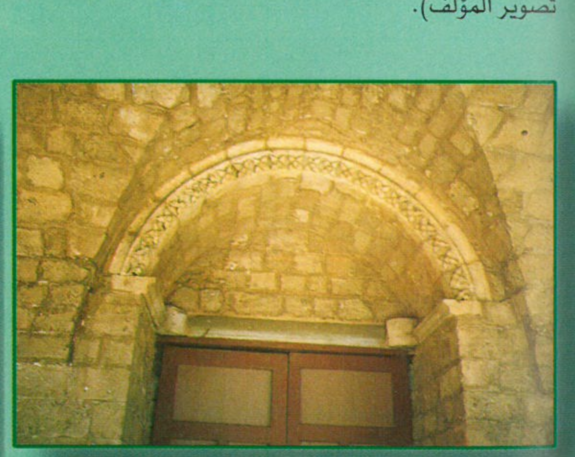
٨. زخرفة الخطوط المتكسرة «الزيكزاك» على واجهة لنافذة في مدرسة الناصر قلاوون في القاهرة بجوار تربة قلاوون، وهو الزيكزاك الموجود على مدخل المسجد الكبير في طرابلس وعلى زخرفة الزهرة في داخل المسجد فوق المحراب. (من تصوير المؤلف).



٩. إحدى أعمدة جامع محمد بن الناصر في القاهر ويبدو الصليب في وسط التاج وهو ما يؤكد شيوع استخدام الأحجار والأعمدة القديمة في المباني الإسلامية ولا يمكن أن يقال أن المسجد كان كنيسة بسبب تلك الأحجار والأعمدة. (من تصوير المؤلف).



١٠. العمود والتاج عند الباب الشمالي للجامع الكبير، والذي اعتمد دليلاً على أن البوابة صليبية، ويبدو واضحاً أن العمود من أحجار مركبة وعليها تاج قد يكون قوطيا، وهو من بقايا طرابلس التي هدمها قلاوون. (من تصوير المؤلف)



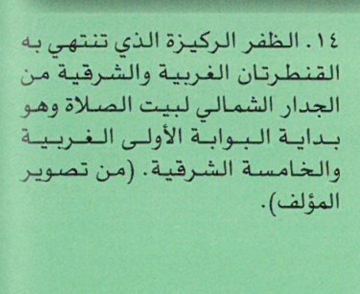
١١. البوابة الشمالية الداخلية للجامع، وتبدو الزخرفة على شكل نصف دائرة كما يبدو النتوءات في حجر واحد فاصل بين عضاضة القنطرة وبداياتها، وهي ذاتها المتكررة على البوابة الشمالية والرواقين الشمالي والغربي وعلى الجدار الشمالي لبيت الصلاة حيث تقوم الأبواب كما تبدو الزهرات المتكررة في الرسم الزخرفي فوق المحراب (من تصوير المؤلف).



١٢. لاحظ نهاية جدار الرواق بالحجر الناتئ المزين له، وهو ذاته الذي تكرر في الرواقين الشمالي والغربي وجدار بيت الصلاة وفي نهاية القسم الأول للمئذنة من الداخل كما سنراه في صورة خاصة لاحقة. لاحظ «إسقاط» الماء في أعلى الرواق بينما يختفي هذا الإسقاط في الرواق الشرقي المبني لاحقاً. (من تصوير المؤلف).



١٣. البوابات في الحائط الشمالي لبيت الصلاة. لاحظ انتهاءها عند جدار الرواق الغربي من أعلى على حجر ركيزة ناتئ، وهويشكل مع مثيله الشرقي نهاية الأبواب لبيت الصلاة عند الرواقين الغربي والشمالي مما يدل على وحدة هندسية للجامع (من تصوير المؤلف)



١٤. الظفر الركيزة الذي تنتهي به القنطرتان الغربية والشرقية من الجدار الشمالي لبيت الصلاة وهو بداية البوابة الأولى الغربية والخامسة الشرقية. (من تصوير المؤلف).

١٥. الجزء الشرقي من صحن الجامع المنصوري الكبير، وتبدو عند الجهة الغربية بركة الوضوء والمصلى الصغير أمامها، كما يبدو من الجهة الجنوبية الرواق والمئذنة.

١٦. النقيشة التي وضعت في صدر الرواقات الشرقية، والتي كان بناؤها في عهد السلطان محمد بن الناصر تكملة للجامع. (من تصوير المؤلف).







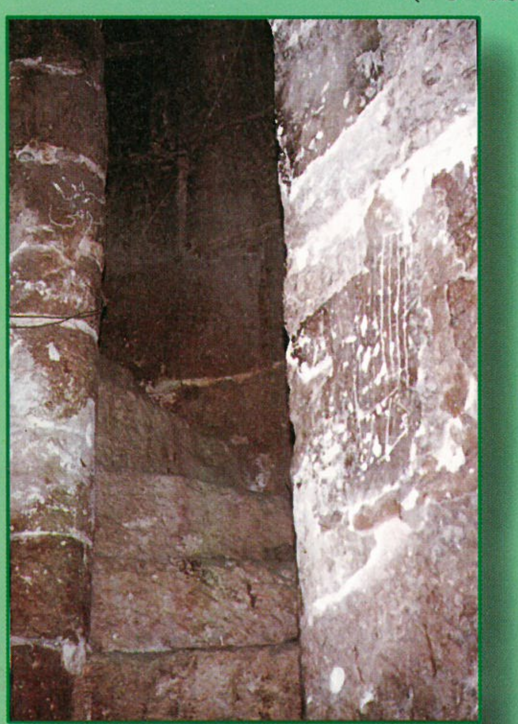
١٧. شكل محراب مع تسطيح للأحجار أسلفه، فيكتمل بذلك المظهر العام لتأخذ شكل المحراب، وقد تكرر هذا الشكل على عضاضتي الرواق الأوسط أمام الباب الشرقي المطل على صحن الجامع وتجد شبيهاً لهذا النوع من المحراب على زاوية البرج المشيد خارج الجامع الكبير أمام الباب الغربي كما تجد مثيله في عضاضات الجامع الأزهر في بيت الصلاة. (من تصوير المؤلف).



١٨. جانب من البرج الغربي للجامع الكبير وتبدو الزاوية المحراب المشابه لما هو عليه في عضادتي الرواق الشرقي، والبرج الآن بيت للسكن ومهدد (بالزوال) بالهدم إن لم ينقذ وهو برسم بلدية طرابلس ووزارة الثقافة!! (من تصوير المؤلف).

١٩. القبة التي تعلو مدخل مئذنة الجامع الكبير وتبدو الأحجار الداكنة ترتكز إلى محور المئذنة الأساس وهي من فنون البناء الإسلامي (من تصوير المؤلف

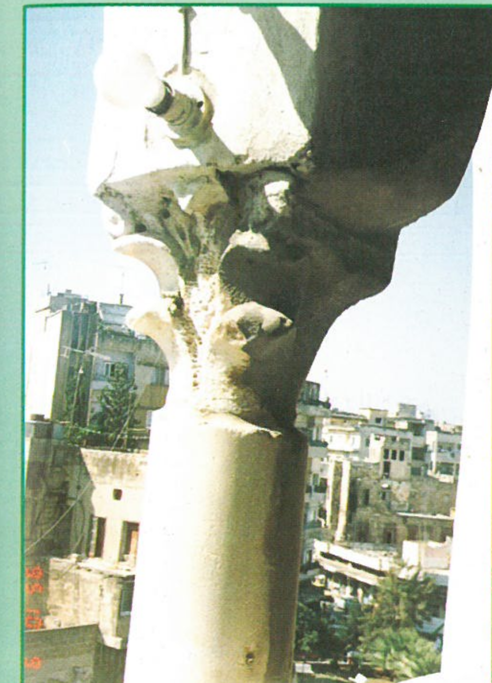




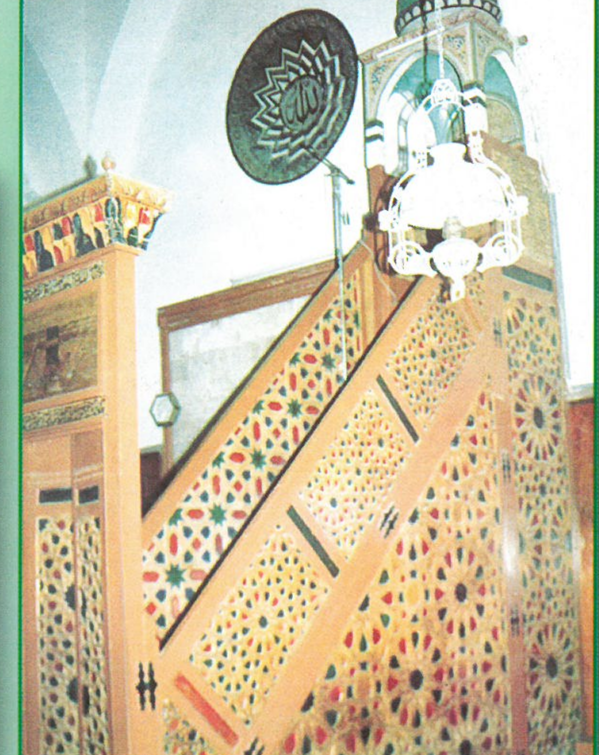
٢٠. السلم اللولبي وعمود الارتكاز المسند إلى القبة الصغيرة عند مدخل المئذنة (تصوير المؤلف).



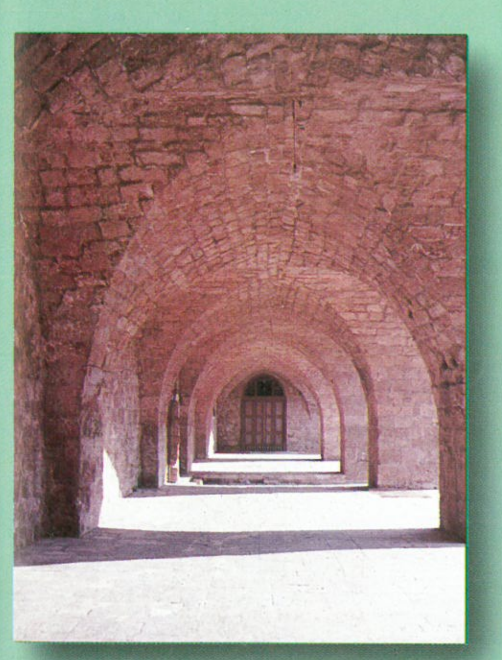
٢١ . نهاية القسم الأول من المئذنة، حيث يظهر بوضوح النتوء في الحجر وهو النتوء الذي يشكل علامة في الرواقات الشمالية وفي نهاية الرواق الغربي والجدار الجنوبي لبيت الصلاة، مما يدل على وحدة البناء والزمن بين المئذنة والرواقات وبيت الصلاة ويسقط مقولة أن المئذنة برج كنيسة. (من تصوير المؤلف)




٢٢ . العمود والتاج في نوافذ مئذنة الجامع الكبير، وقد يكون من بقايا طرابلس التي هدمها قلاوون. (من تصوير المؤلف).



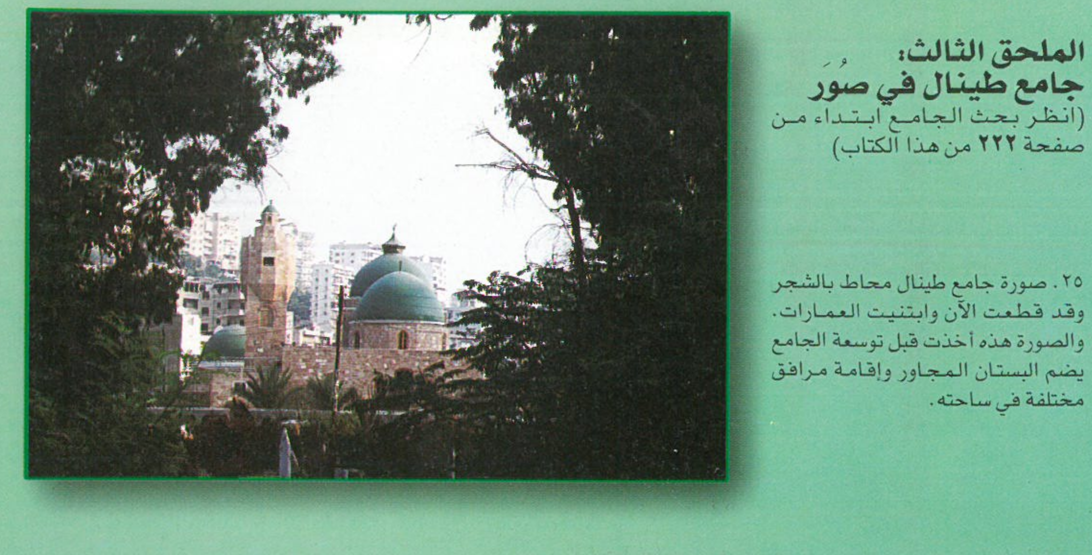
٢٣ . منبر الجامع الكبير الرائع وهو من الخشب صنعه حاجب طرابلس الأمير قرطائي في تشرين الأول ٧١٦ هـ/١٣٣٦م وهو الذي بنى المدرسة القرطائية المجاورة للمسجد منذ سبعة قرون ونيف.



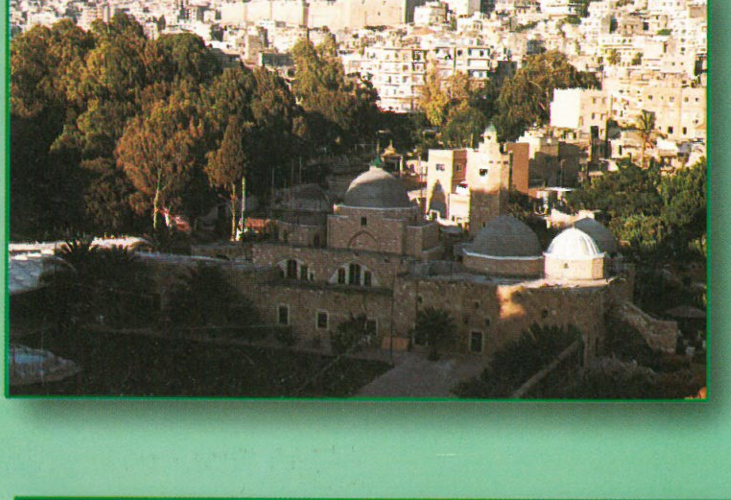
٢٤ . من رواقات الجامع الكبير.

الملحق الثالث: جامع طينال في صوَر

(انظر بحث الجامع ابتداء من صفحة **٢٢٢** من هذا الكتاب)

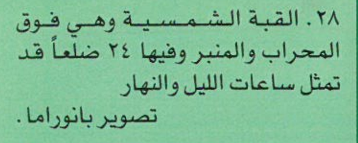


٢٥ . صورة جامع طينال محاط بالشجر وقد قطعت الآن وابتنيت العمارات. والصورة هذه أخذت قبل توسعة الجامع يضم البستان المجاور وإقامة مرافق مختلفة في ساحته.

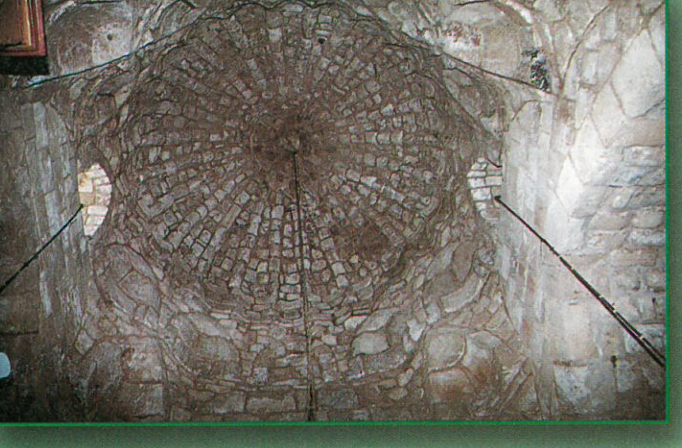


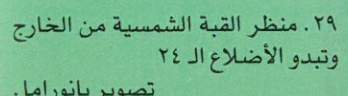
٢٦ . صورة تجمع قلعة طرابلس - موقع حصن سيفان الازدي - وجامع طينال ويبدو كيف أن الجامع قريب من الموقع ولو انك نزعت المباني التي تفصل بين القلعة والجامع لوجدت أن موقع الجامع مكشوف بكامله من حصن سيفان فلا يعقل أن يفر إلى موقع الجامع روم طرابلس التي على البحر المحاصرون من المسلمين بقيادة الصحابي سفيان راجع ما كتبناه في صفحة ٢٢٩ وانظر خريطة الموقع في القسم السادس من هذا الفصل) وقد ظهر الجامع مظللاً بظلال المباني التي حوله في حين أن القلعة بدت أكثر إضاءة لوجود نور الشمس عليها عند التصوير
- تصوير بانوراما.

٢٧ . المساحة الوسطية في جامع طينال في بيت الصلاة الثاني... ويظهر فيها الرخام المتناوب مع الزخرفة الجائرية ويبدو الثقب في الوسط ومنه يخرج الماء (في بركة الوضوء) وفيه يغور ماء غسل الجامع.

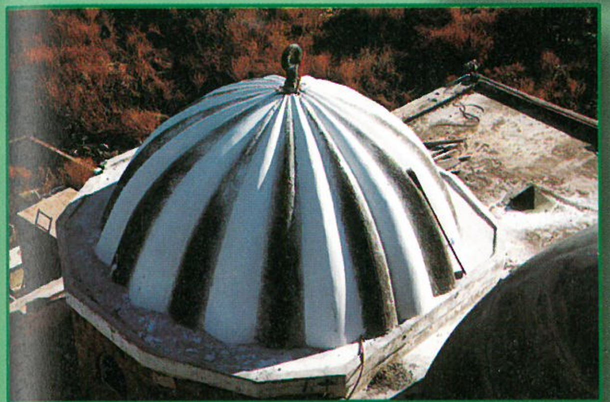


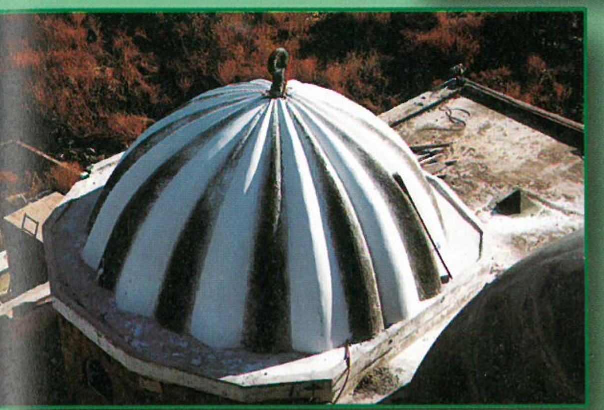
٢٨. القبة الشمسية وهي فوق المحراب والمنبر وفيها ٢٤ ضلعاً قد تمثل ساعات الليل والنهار
تصوير بانوراما.





٢٩. منظر القبة الشمسية من الخارج وتبدو الأضلاع الـ ٢٤
تصوير بانوراما.





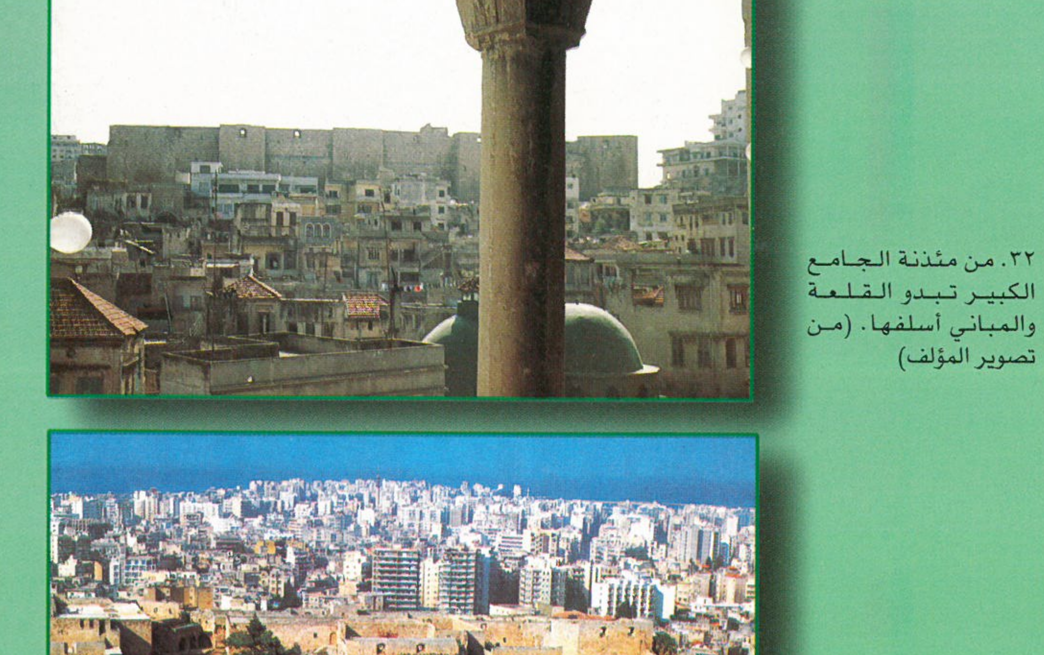
٣٠. مدخل الحرم القبلي الثاني وهو من أروع البوابات لا في طرابلس وحسب بل في مساجد العالم الإسلامي كله. تصوير بانوراما.



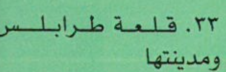
٣١. منبر جامع طنيال ومحرابه.

الملحق الرابع: القلعة في صُوَر

(راجع البحث الخاص بالقلعة في الصفحة ٢٣٠ من هذا الكتاب)



٣٢. من مئذنة الجامع الكبير تبدو القلعة والمباني أسلفها. (من تصوير المؤلف)



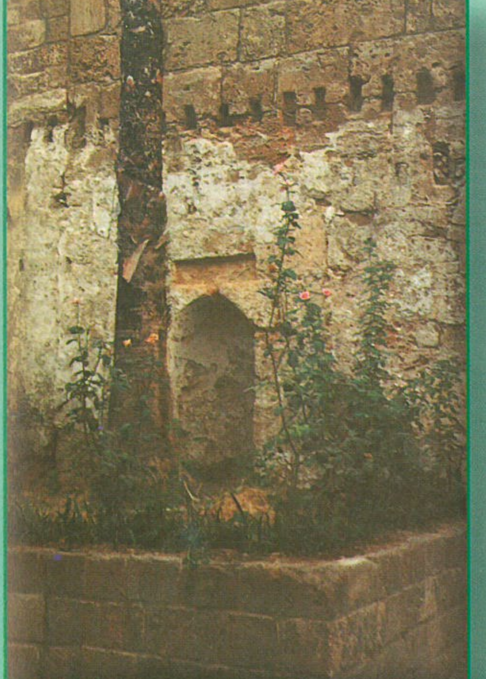
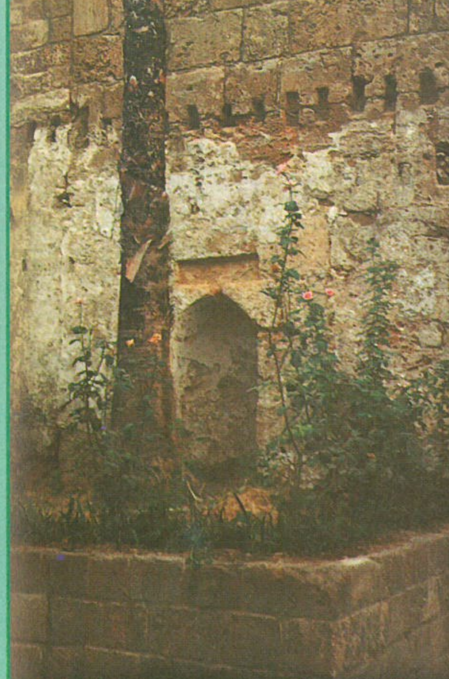
٣٣. قلعة طرابلس ومدينتها





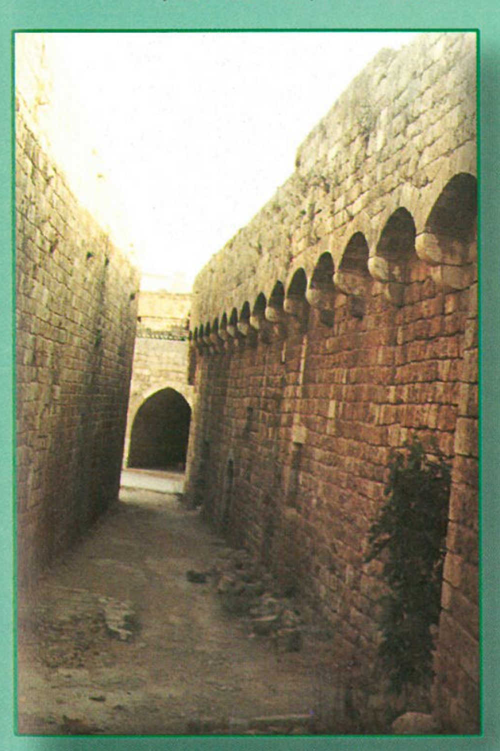
٣٤. جانب من المشهد الفاطمي المثمن الأضلاع الذي حوله صنجيل إلى كنيسة. (من تصوير المؤلف)

٣٥. عضاضة جامع القلعة، وتقع في الموقع الجنوبي من القلعة عند قبر مقام الشيخ العريان. (من تصوير المؤلف)

٣٦. مصلى بربر (المحراب وفوقه موضع النقيشة المنتزعة منه) كما يبدو موضع السقف، وقد نبت في أرض المصلى النخيل والأعشاب. (من تصوير المؤلف).

٣٧. مقام الشيخ سليمان العريان ١٢٢٠ هـ/١٧٩٦م عند الجدار الجنوبي للقلعة، وبجوار جامع القلعة. (من تصوير المؤلف)



٣٨. ممر في القلعة. (من تصوير المؤلف)

القسم الخامس: نقود إسلامية وصليبية

٣٩. صور لدينار ذهبي يعود إلى العهد الفاطمي - ضرب طرابلس -

٤٠. صور لنقد (besant) صليبي تقليد الدينار الفاطمي المنشور في هذه الصفحة مضروب في طرابلس بين ١١٠٤ و ١١١١م.

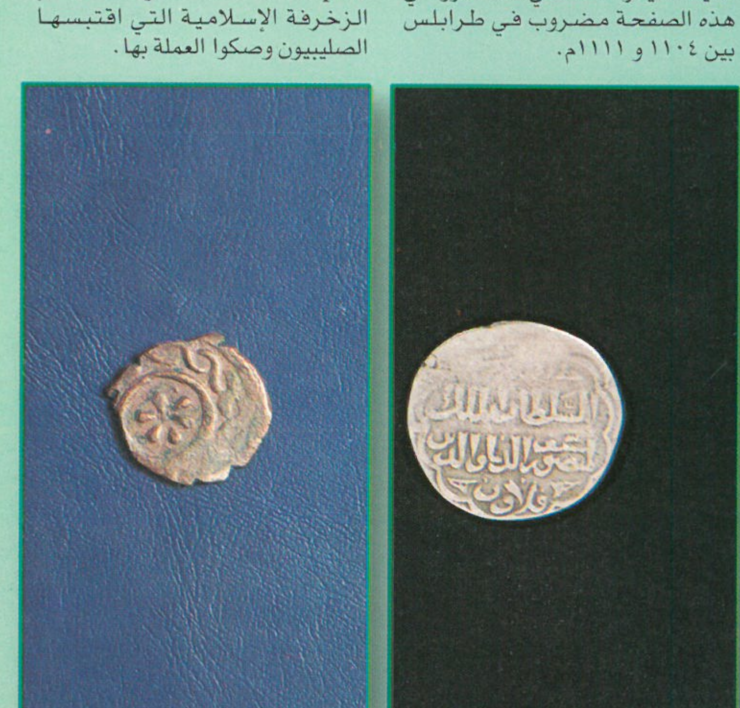


٤١. عملة صليبية - ضرب طرابلس Comite de tripoli وتظهر الزخرفة الإسلامية التي اقتبسها الصليبيون وصكوا العملة بها.

٤٢. دينار فضي مضروب في عهد الظاهر بيبرس ويبدو شعار ملكه الأسد



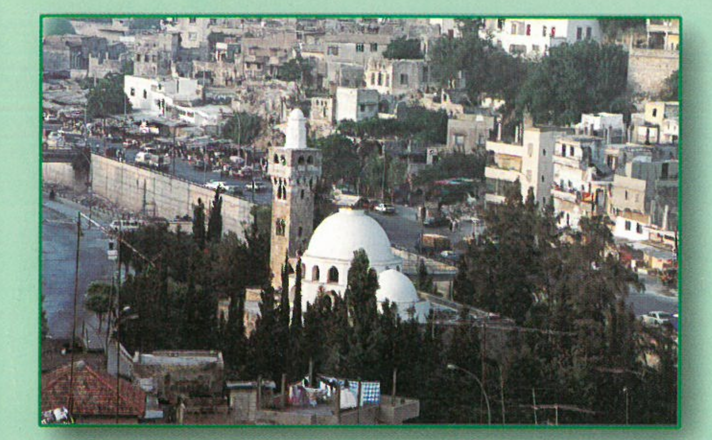
٤٣. دينار فضي مضروب في عهد المنصور قلاوون فاتح طرابلس ومحررها وهي نقود موجودة لدى المؤلف أهداها إليه الأستاذ محمد عبدو من أرشيفه الخاص في النقود القديمة



٤٤. صورة لنقد مضروب في طرابلس يعود إلى عهد الأشرف ناصر الدين شعبان بن قلاوون في عام ٧٦٤ هـ/٧٧٨م وهي صورة صورها للمؤلف الأستاذ محمد عبدو من أرشيفه الخاص.

الملحق السادس: مساجد مآذن ومحاريب:

(انظر ما كتبناه من ذلك في صفحة ٢٥٣ من هذا الكتاب)



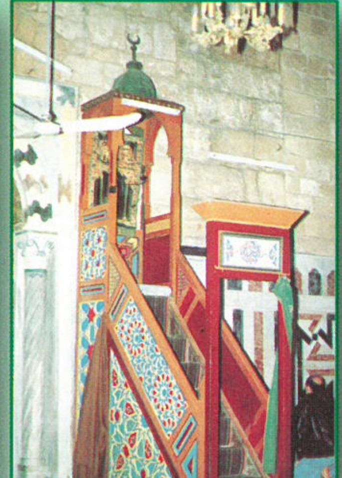
٤٥. منظر عام لجامع البرطاسي بعد تقديم مجرى نهر أبو علي



٤٦. نوافذ قبة البرطاسي وقناطرها انظر ما كتبناه عن الجامع ومحاولات هدمه في صفحة ٢٥٦ من هذا الكتاب وكتابنا الآخر معالم مدينة في القرن العشرين أكرم عويضة.



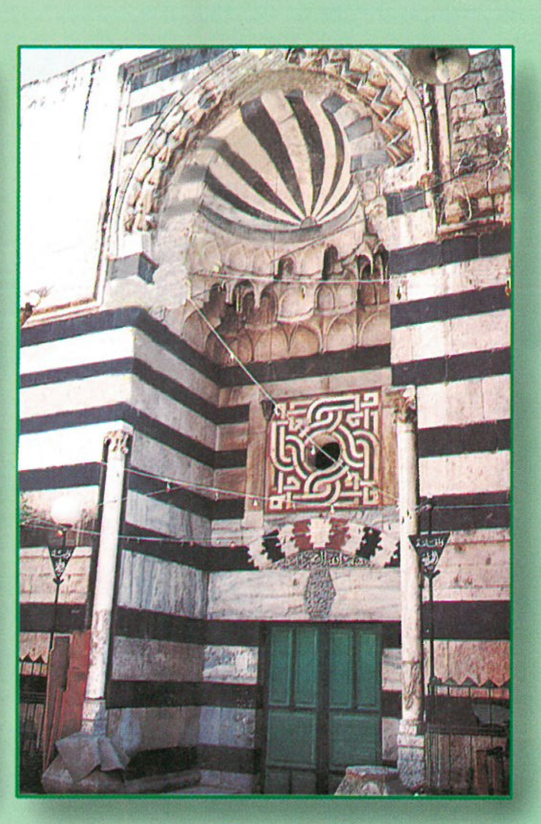
٤٧. مئذنة جامع البرطاسي



٤٨. منبر جامع البرطاسي



٤٩. محراب الجامع البرطاسي



٥٠. بوابة المدرسة القرطائية

٥١. محراب المدرسة القرطائية



٥٢. محراب المدرسة النورية



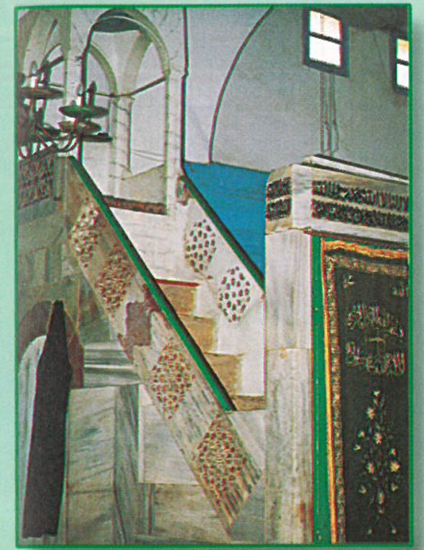
٥٣. بوابة المدرسة الطوايشية



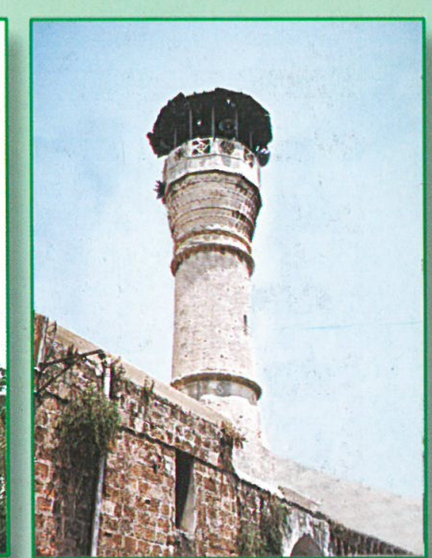
٥٤. منبر جامع العطار



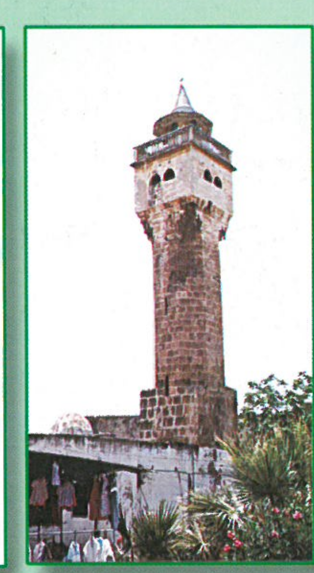
٥٥. مئذنة جامع العطار



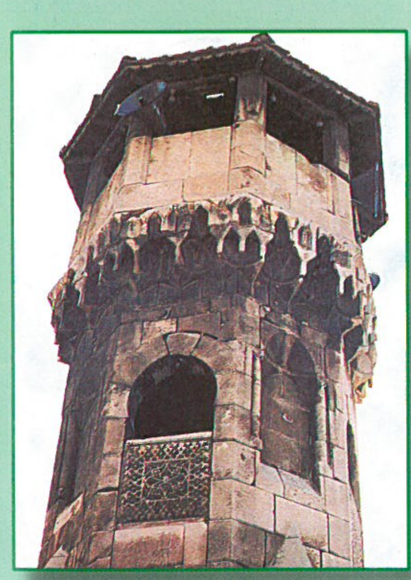
٥٦. منبر جامع المعلق



٥٧. مئذنة جامع التوبة المثمنة



٥٨. مئذنة جامع ارغونشاه



٥٩. مئذنة جامع الطحام.

شكر وتقدير...ووفاء

لا يسعني في النهاية إلا أن أذكر بالخير بعض الكرام الذين قدموا لي مساعدة مهمة في الطباعة الكمبيوترية وتصحيح الأخطاء والتدقيق وترتيب الهوامش والمصادر عنيت الأخت الكريمة الأستاذة **سحر هوشر** وابنتي الآنسة **عبير** كما عنيت الأستاذ المحامي الأديب **جمال نجا.**

كما أسجل شكري للدكتور **عمر عبد السلام تدمري** الذي لم يبخل بإعارتي أي مرجع طلبته ـ موجود لديه ـ ، والسيد المهندس **عبد الغني شاهين** الذي قدم لي بعض الصور والمراجع والدكتور **حمدي شوق** أستاذ علوم الطيران الذي وضع زوايا جامع طينال واتجاه القبلة ودير البلمند ودرجات تلك المواقع على الخريطة الجغرافية لموقع البناء والسيد المهندس الحاج **علي الشلبي**،من الأسرة القيّمة على الجامع المنصوري الكبير ، والذي رافقني في جولتي على المسجد،والأستاذ **مصطفى محمود** الذي عرّب بعض النصوص المكتوبة باللغة الإنكليزية ، والسيد **محمود لبدة** الذي رافقني في جولتي على الآثار والمساجد المملوكية في القاهرة والسيد **سوهام مصري وولده عماد** اللذين قدما مجموعة من الصور في أرشيف استديو التصوير بانوراما..

كما أسجل تقديري واحترامي للأستاذ **محمد عبدو** الذي أهداني بعض القطع النقدية القديمة من أرشيفه الخاص كما صوّر لي من أرشيفه وكذلك فعل السيد **إبراهيم الهندي** فكلاهما مهتمان بالنقود القديمة وبخاصة ما صك منها في طرابلس عبر القرون.

ولدار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع لصاحبها الأخ الأستاذ محمد شوك التحية والتقدير للاهتمام الكبير والمبادرة المشكورة في تبني طباعة هذا الكتاب وتوزيعه.

وأخيرا ... أسجل كلمة الوفاء **لأسرتي زوجة وأولادا** فقد تحملوا معي بعض المعاناة أثناء الكتابة والتأليف وتجميع الأوراق.

فلهم جميعا الشكر والتقدير...والعرفان والوفاء

<u>فهرس المصادر والمراجع</u>

*القرآن الكريم
*إبراهيم ، عبد الله : موسوعة تاريخ لبنان عبر الأجيال من فجر التـــاريخ حتـى الاستقلال . دار توبلس ، ١٩٦١ م.
*ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . دار الشـروق العربي .
*ابن بطوطة : تهذيب الرحلة .
*ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ٨٧٤ هـــ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .القـــاهرة ، دار الكتـب المصريـة ، ١٩٦٣ م.
*ابن الأثير الجزري (عز الدين أبو الحسن علـي بـن محمـد ٦٣٠/١٢٣٢ م) : الكامل في التاريخ. بيروت ، طبعة صادر ، ب ، ١٩٦٥ .
*ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان.
*ابن الجوزي : الوسيط
*ابن شاهين (غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري) : زبـدة المسـالك وبيـان الطرق والمسالك .
*ابن الشحنة (محمد بن الشحنة الحلبي) : الدرر المنتخب في تاريخ مملكة حلـب . بيروت ، ١٩٠٩ م.
*ابن صصري (محمد بن محمد بن صصري) : الـدرة المضيئـة فـي الدولـة الظاهرية . تحقيق وليم برنز . القاهرة.
*ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك المعروف بتـاريخ ابـن الفـرات . تحقيـق قسطنطين زريق . بيروت ، ج ٨ ، ١٩٣٩ م.
*ابن فضل الله العمري (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيـى بـن فضـل الله العمري٧٨٤هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأنصار.
*ابن كثير (أبو الفداء الحافظ بن كثير ٧٧٤ هــــ): البدايـة والنهايـة . تحقيـق مجموعة من المحققين . بيروت ، مكتبة المعارف ، ج١،١٩٩٠م.
*ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكـرم بـن منظـور الإفريقـي المصري) : لسان العرب . بيروت ، دار صادر ، ط ١ ، لا ت .
*ابن الوردي (٧٤٩/١٣٤٩ م) : تتمة المختصر من تاريخ البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي.
*أصدق ما كان عن تاريخ لبنان .
*أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا ٧٣٢ هـ) : المختصر في أخبار البشر. القاهرة ، طبعة الحسينية ، ج٣ ، ط ١ ، ١٣٢٥ م.

*أبو يعلى القلانسي : تاريخ أبي يعلى القلانسي المعروف بذيل تـاريخ دمشق . بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، لا ط ، ج٤، ١٩٩١م.
*أبي عبد الله ، عبد الله إبراهيم : تاريخ لبنان عبر الأجيال من فجر التاريخ حتى الاستقلال . دار توبلس ، ج٤،١٩٩١.
*بدران ، جورج : أطلس العالم .
*البستاني ، افرام : دائرة المعارف اللبنانية . بيروت ، لا ط ، ١٩٥٨ م.
*ابن منقذ ، أسامة : كتاب الاعتبار . تحقيق د. فيليب حتي . الولايات المتحدة الأميرية ، ط١، ١٩٣٠ م.
*تدمري ، عمر : تاريخ طرابلس السياسي والحضاري . طرابلس ، مؤسسة الرسالة ودار الإيمان ، ط١ ، ١٩٧٨ م،ط٢،١٩٨٤.
*تدمري ، عمر : الدكتور جعجع ليس أول مسلم في بشري . مجلة التقوى ، طرابلس ، العدد٥٠ (تشرين الأول ١٩٩٥م).
*تدمري ، عمر : طرابلس المدينة القديمة . من إصدار البنك العربي بالتعاون مع الجامعة الأميرية في بيروت .
*تدمري ، عمر : لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين . طرابلس ، دار الإيمان ، ج٢ ، ١٩٩٤م.
*تدمري ، عمر : ٧٠٠ سنة على بناء الجامع المنصوري الكبير ، (طرابلس المحروسة ١٢٩٤ـ ١٩٩٤) ، بيروت ، نحال للطباعة .
*حتي ، فيليب : لبنان في التاريخ . ترجمة د. أنيس فريحة . بيروت ـ نيويورك ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ م.
*الحموي ، ياقوت : معجم البلدان .
*خطاب ، محمود شيت : قادة فتح الشام ومصر . بيروت ، دار الفتح ، ط١،١٩٦٥م.
*الخوري ، اغناطيوس : مصطفى آغا بربر حاكم طرابلس واللاذقية . طرابلس ، جروس برس.
*دبليز ، رياض : رحلة سياحية بين معالم طرابلس الأثرية ، ١٩٩٧، مطابع خليفة ، بيروت.
*الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد الذهبي ٧٨٤ هـ/١٣٤٧م) : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام،. دار الكتب المصرية .
*رستم ، أسد : قلعة طرابلس صليبية أم مسلمة . بيروت ، ١٩٢٦م.
*رنسيمان ، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة د. سيد الباز العريني . بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٧م.
*زياد ، خالد : كنائس طرابلس . مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٥٧ (أيلول ١٩٩٥) .

*الزين ، سميح : تاريخ طرابلس قديما وحديثا . بيروت ، دار الأندلس ، ط١ ، ١٩٦٩م.
* السباعي د.مصطفى : من روائع حضارتنا ، دار الارشاد ، ١٩٦٨.
*سالم ، السيد عبد العزيز : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي . الإسكندرية ، ١٩٦٧م.
*الشدياق ، طانيوس : أخبار الأعيان في جبل لبنان .
*شريف ، حكمت : تاريخ طرابلس الشام من أقدم أزمانها إلى هذه الأيام . تحقيق منى حداد ومارون عيسى الخوري.طرابلس ، دار الإيمان ، ط١ ، ١٩٧٨م.
*الصليبي ، كمال : منطلق تاريخ لبنان . نيويورك ، منشورات كارفان ، ط١، ١٩٧٩م.
*ضناوي ، محمد علي : قراءة إسلامية في تاريخ لبنان والمنطقة . طرابلس ، دار الإيمان ، ط١،١٩٩٦م.
*ضناوي ، محمد علي : قراءة إسلامية في تاريخ لبنان والمنطقة . طرابلس ، دار الإيمان ، ط١،١٩٨٥م.
*ضو ، بطرس: تاريخ الموارنة . كسروان ، مطابع السقيم ، ج٣، ١٩٦٧م.
*مجلة تاريخ العرب والعالم ، بيروت ، العدد ١٧١ ، ١٩٩٨.
*مجلة الضياء ، طرابلس ، العدد ٣.
*مجلة العربي ، الكويت ، العدد ٣٣١ ، ١٩٨٦.
*العريني ، السيد الباز : المغول . بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٧م.
*عز الدين (أبو عبد الله محمد بن علي بن شداد ٦٨٤ هـ) : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة . تحقيق دومينيك سورديل . دمشق ، طبعة المعهد الفرنسي ، ١٩٥٣م.
*علوي ، ناصر خسرو : سفرنامة . ترجمة د. يحيى الخشاب .
*عودا ، إبراهيم :
*عوض ، منذر : قصة مدينة (دليل طرابلس الشام). طرابلس ، ١٩٩٢م.
*غروسيه ، رنيه :
*مجلة الفرقان ، الكويت ، العدد ٥٣ (أيلول ١٩٩٤م) .
*قازان ، فؤاد : لبنان في محيطه العربي. بيروت ، دار الفارابي ، م١ ، لا ط ، ١٩٧٢ م.
*القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ٨٢١ هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الانشا
*كرد علي ، محمد : الفيحاء والشهباء ، مجلة المقتبس ،بيروت ،١٩١١م. ،لا ت
*لبنان الدليل الأخضر .

*د.لورتية : ارض الذكريات ، ١٨٧٥ ـ ١٨٨٠ ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٩٣.

*محيي الدين بن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور . تحقيق د. مراد كامل . القاهرة ، ط١ ، ١٩٦١ م.

*معلوف ، أمين : الحروب الصليبية كما رآها العرب . ترجمة د. عفيف دمشقية . بيروت ، دار الفارابي ، ط١، ١٩٨٩ م. ط٢ ، ١٩٩٣م.

*المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي) : السلوك لمعرفة دول الملوك . القاهرة ، ج١، ط٢،١٩٧٠م.

*الموسوعة العربية الميسرة . القاهرة ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين ، ط١،١٩٦٥م.

*مولر ، فولفغانغ : القلاع في الحروب الصليبية . ترجمة محمد وليد الجلاد . إصدار دار الفكر.

*النقاش ، زكي : الحروب الصليبية . بيروت ، لا ط ، لا ت .

*نوفل ، عبد الله : تراجم علماء طرابلس الفيحاء وأدبائها . طرابلس ، ١٩٢٥م.

*الولي ، طه : المساجد في الإسلام . بيروت ، دار العلم للملايين ، ط١، ١٩٨٨م.

فهرس الآيات القرآنية

السورة	رقمها	الآية	رقمها	صفحة
آل عمران	٣	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	١٠٢	١٠٥
آل عمران	٣	فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز	١٨٥	١٠٧
الأعراف	٧	فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون	١١٨	٤
التوبة	٩	إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر	١٨	١٧٦
يوسف	١٢	في قصصهم عبرة	١١١	٧ ـ ٨
النحل	١٦	إن الله يأمر بالعدل والإحسان	٩٠	١٠٨
الصافات	٣٧	وإذا ذكروا لا يذكرون	١٣	٤
الصافات	٣٧	ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون	١٥٤ ـ ١٥٥	٤
الزمر	٣٩	قل هل يستوي الذين لا يعلمون والذين يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب	٩	٤
غافر	٤٠	فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله	٤٤	٤
المزمل	٧٣	يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله	٢٠	١١٤

فهرس المراجع الأجنبية

–Brown, Jhon : the lebanon and phenicia. Beirut 1969.

–Condé : see Lebanon - Tripoli of Lebanon - our capital of the north. 1955.

–Jidejian, Nina : Tripoli through the ages. Beirut, Dar El Mashreq publishers, 1980.

–Unesco : tripoli - étude analytique et plan. 1953.

فهرس المحتويات

مدخل إلى قراءة في تاريخ طرابلس من جديد ٧

القسم الأول : ١٧

– **الفصل الأول :** طرابلس بين الاسم والجغرافيا ١٩

– **الفصل الثاني :** طرابلس في عهدة بني عمار...فالسقوط في أيدي الصليبيين ٢٥

– **الفصل الثالث :** قراءة في الفكر السياسي لولاة طرابلس في عهد بني عمار... ٣٣

ـ بعد انقلاب عاصمته عليه ابن عمار يعلن جبلة عاصمة له ٣٥

ـ ابن عمار في بلاط السلجوقيين سفيرا لوالي دمشق ثم وزيرا ٣٧

ـ ابن عمار يحن الى اهله فيعلن ندمه : خلفيات فكره السياسي.............................. ٣٨

ـ قراءة اولى في الفكر السياسي عند فخر الملك بن عمار.. ٤٠

ـ نسيج سكان طرابلس.......................... ٤٠

ـ انقلاب في طرابلس لصالح الفاطميين........... ٤٢

ـ جلال الملك يورث فخر الملك معطيات الفكر السياسي المنفتح.................................. ٤٣

ـ القراءة السليمة لأحداث بلاد الشام عند مؤسس امارة بني عمار................................. ٤٥

ـ الفاطميون يتربصون بطرابلس وحقد امير جيوشها على بني عمار.............................. ٤٧

ـ مراسلات فخر الملك مع الولاة السلجوقيين ونجداتهم له.............................. ٤٩

- الفصل الرابع : السكان في إمارة طرابلس الصليبية ، والحركة العلمية فيها ٥٣

القسم الثاني : ٥٥

- الفصل الأول : محاولات استعادة المدينة وتحريرها ٥٧
- الفصل الثاني : المنصور قلاوون سيرة وحياة ٦٧
- الفصل الثالث : الظروف الدولية والإقليمية قبل تحرير طرابلس... ٧٥
- الفصل الرابع : موقف نصارى الجبال المحيطة بطرابلس ٧٩
- الفصل الخامس : تربص قلاوون بكونتية طرابلس ٨٥
- الفصل السادس : أحداث الفتح المبين ، وتحرير طرابلس ٨٧
- الفصل السابع : مواقف وآراء المنصور قلاوون في الحكم والسياسة والجهاد وتنظيم البلاد ١١١
  - في نظرته الى الخلافة العباسية والتفويض من الخليفة ١١١
  - موقفه من الحكم من خلال ولاية العهد......... ١١٣
  - في ادب الحزن على وفاة ولي عهده علي ١١٤
  - وصية جامعة من المنصور قلاوون الى ولي عهده ابنه الخليل ومنها دستور الحكم وأساليبه فيها ١١٤
  - في الوالي ١١٦
  - في الولاية للأكفأ ١١٦
  - في تقدير الوالي للرعية ١١٦

  - ويؤكد على الولاة برفع الظلم عن الرعية وينصحهم في الجلوس لسماع العامة ١١٦
  - اصول التموين والتخزين والتوزيع............... ١١٧
  - في التنظيم والحراسة.............................. ١١٧
  - في تشييد الدواوين وتنظيمها........................ ١١٧
  - في الولاة من غير المسلمين........................ ١١٧
  - البراعة السياسية في صياغة الهدف مع الصليبيين الافرنج.. ١١٨
  - في وحدة المواطنية في البلاد والنظر في مصالح الناس.. ١١٨
  - في تنظيم الطائفية اليهودية في مصر ووضع قواعد في التنظيم المدني لغير المسلمين......... ١١٩
  - في تعيين شيخ مشايخ الصوفية وآداب التصوف وواجبات المشيخة..................................... ١١٩
  - دعوة التجار في بلاد السند والهند والصين واليمن للتجارة والاقامة في بلاد مصر والشام وترغيبهم بذلك ١٢٠
  - في نقد العهود السابقة التي لم تول العلم أهمية ... ١٢١
  - في العلم.. ١٢١
  - في أصول التدريس والتفرغ وصفات المدرس الناجح.. ١٢٢
  - في الطب ورياسته.................................. ١٢٢
  - في محاربة منتحلي علم الطب.................... ١٢٣
  - في اجازة رئيس الاطباء التدريس واطلاق يده في العمل الطبي.. ١٢٣
  - في معاوني رئيس الاطباء......................... ١٢٤
  - في تخريج الاطباء.................................. ١٢٤
  - في النظر في أمور الاشربة والعقاقير والادوية ... ١٢٤
  - في انشاء المستشفى المنصوري..................... ١٢٥
  - تخريج الاطباء من المستشفى المنصوري............ ١٢٥
  - في حجة مستشفى المنصوري....................... ١٢٥

– في تنظيم الحجيج الى بيت الله في مكة واخضاعها لطاعته ... ١٢٦
– في اشراك العالم الاسلامي ببشائر النصر ... ١٢٧
– في فتح قلعة المرقب ... ١٢٧
– في فتح طرابلس ... ١٢٨

القسم الثالث :

١٢٩

– الفصل الأول : بيئة طرابلس المستجدة ذات المناخ الوخيم ... ١٣١
كيف بنيت المدينة الجديدة وكيف تبدل المناخ ... ١٣١

– الفصل الثاني : كنيسة أو برج ماري دو لاتور وموقع المسجد المنصور الكبير، هل هما موقعان أم موقع واحد؟ ... ١٥١

– الفصل الثالث : الجامع المنصوري الكبير وحدة هندسية إسلامية متكاملة...موقعا وبناء ... ١٦٥
– طرابلس بنيت على تخطيط مدني الجامع في وسطها ... ١٦٧
– مساجد جامعة شكلت خلفية لبناء الجامع المنصور ١٧٣
– المئذنة ... ١٨٠
– الرواقات ... ١٨٧

– الفصل الرابع : تهافت قصة "تحويل جامع طرابلس إلى كنيسة" في عهد الأمير اياس الجرجاوي نائب المملكة الطرابلسية المملوكية الشريفة ... ١٩٧
– توطئة ... ١٩٧
– محاولة تسليم جامع طرابلس الى الفرنجة ... ٢٠٩
– تفضيل الفرنجة وتقريبهم وتقطيع الايدي والأرجل ٢١٤

– الفصل الخامس : جامع طينال في موقع كنيسة ، أم بناه الأمير طينال في موقعه اختيارا ؟ ... ٢١٩

– الفصل السادس : قلعة طرابلس سيرة وحياة !! ... ٢٢٩

– الفصل السابع : طرابلس المستجدة عمارة وحضارة ... ٢٥١
– الجامع الكبير ... ٢٥١
– المدرسة الزريقية ... ٢٥٢
– حمام عز الدين ... ٢٥٢
– حمام الحاجب ... ٢٥٢
– المدرسة القرطاوية ... ٢٥٢
– مسجد السيد عبد الواحد الكناسي المغربي ... ٢٥٢
– المدرسة الماردانية ... ٢٥٢
– القلعة ... ٢٥٢
– خان المنزل ... ٢٥٣
– مدرسة الخيرية حسن ... ٢٥٤
– جامع التوبة او الجامع الناصري ... ٢٥٤
– جامع البرطاسي ... ٢٥٤
– المدرسة النورية ... ٢٥٤
– سوق حراج ... ٢٥٤
– خان الخياطين ... ٢٥٥
– خان المصريين ... ٢٥٦
– جامع الامير سيف الدين طينال ... ٢٥٦
– المدرسة الشمسية ... ٢٥٦
– جامع العطار ... ٢٥٦
– مدرسة سبط العطار ... ٢٥٦
– المدرسة الناصرية ... ٢٥٧
– المدرسة السقرقية مع الضريح ... ٢٥٧
– المدرسة العجمية مع الضريح ... ٢٥٧
– المدرسة الخاتونية مع الضريح ... ٢٥٧
– المدرسة الظاهرية مع الضريح ... ٢٥٧
– جامع ارغون شاه ... ٢٥٧
– جامع الاويسية ... ٢٥٧
– نافورة التينة او سبيل التينة ... ٢٥٨

– برج السباع ٢٥٨
– المدرسة الرفاعية ٢٥٨
– المدرسة العمرية ٢٥٨
– خانقاه المطلقات (ماوى العجزة) ٢٥٨
– المدرسة الطواشية ٢٥٨
– المدرسة القادرية ٢٥٨
– جامع الدباغين ٢٥٨
– الجامع المعلق ٢٥٨
– المدرسة المحمودية ٢٥٨
– خان الصابون ٢٥٨
– جامع الطحام ٢٥٩
– حمام الجديد ٢٦٠
– بناء الكنائس في طرابلس بعد الفتح القلاووني ٢٦٢

– الفصل الثامن : طرابلس التاريخ إلى أين ؟........................ ٢٦٩

القسم الرابع: صور تشهد وتحكي ٢٨٧

تقديم وتنبيه ٢٨٨
صور ملونة لبعض الآثار ٢٨٩
شكر وتقدير ووفاء ٣٠٥
الفهارس ٣٠٧
كتب للمؤلف ٣١٩

كتب للمؤلف

١. **تفسير جزء عم معان وموضوعات** الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.
الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ.١٩٨٣ م. الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ ١٩٩٦م.

٢. **سجل التمارين القرآنية** (خاص بجزء عم) وهو كتاب يطرح أسئلة ويحاور القارئ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩ م.

٣. **جزء عم ومفرداته** : الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.

٤. **جزء تبارك ومفرداته** : الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٥. **مجالس التفسير تفسير بالحوار بين أفراد عائلة** الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.الطبعة الثانية قيد الإنجاز.

٦. **عمر بن عبد العزيز في الحكم والاقتصاد والقضاء**
ط١ ١٣٨٦هـ/١٩٦٦ م.(وقد تم تصويرها عدة مرات) ط٢ ١٤٠٥ هـ.١٩٨٠م

٧. **الطريق الى حكم إسلامي** : يعالج مفهوم الإنسان للحكم والدولة المسلمة ونشأتها الأولى وإلغاء الخلافة والسيطرة الاستعمارية والفكرية على الشرق المسلم وحركات المواجهة والتصدي وكيف نقيم حكم الإسلام من جديد الطبعة الأولى عام ١٣٩٠هـ.ـ١٩٧٠ م. وأعيدت طباعته في عدد من الدول العربية تصويرا عدة مرات.

٨. **كبرى الحركات الاسلامية** : وهو قسم من كتاب " الطريق " الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ. ـ ١٩٧٨ م. دار الجهاد ودار الاعتصام ـ القاهرة .

٩. **المفهوم والتجربة** القسم الأول من كتاب الطريق الى حكم إسلامي الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ . ـ ١٩٨٠ م.

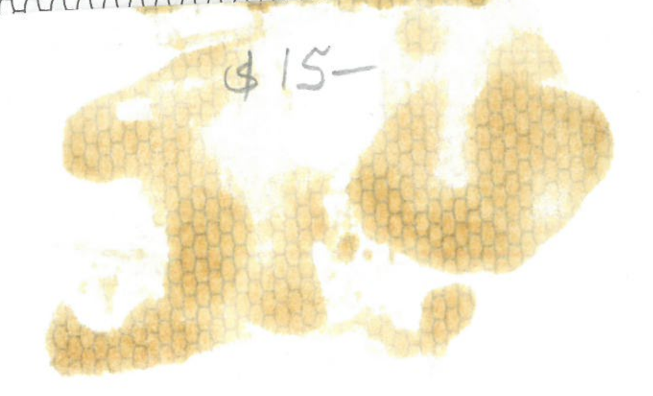
١٠. **مقدمات في فهم الحضارة الاسلامية** رؤية جديدة لمفهوم الحضارة عموما والحضارة الاسلامية خصوصا ط١ عام ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م.ط٢: الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الاسلامية رقم ٣٨ عام ١٤٠٣هـ.ـ١٩٨٣ م.

١١. **الزواج الإسلامي أمام التحديات** : ط١ ١٣٩٣ هـ. ـ ١٩٧٤ م.
ط٢ ١٤٠٠ هـ /١٩٨٩ م.ط٣ ١٤٠٧ هـ. ١٩٨٧ م. وهي في جزءين :
الجزء الأول: فلسفة الزواج في الأديان والفلسفات المعاصرة .
الجزء الثاني : تهافت دعوى الزواج المدني في لبنان والعالم الإسلامي .

١٢. **المسلمون في لبنان مواطنون لا رعايا** : يعالج قضية المسلمين والوطن في لبنان قبل حرب ١٩٧٥ م . الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ. ـ ١٩٧٣ م. وأعيد طبعه في أكتوبر ـ تشرين الأول ١٩٧٤ م.

١٣. **قراءة إسلامية في تاريخ لبنان والمنطقة** دراسة تحليلية ونقدية للتاريخ من الفتح الإسلامي ونشأة المارونية الى عام ١٨٤٠.صدر عام ١٤٠٥ هـ١٩٨٥م.

١٤. **الأقليات المسلمة في العالم** دراسة حول الاقليات المسلمة والتحديات التي تواجهها الطبعة الأولى عام ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م.



١٥. (اكرم عويضة) " **قصة مدينة " في القرن العشرين** كتاب يؤرخ لمدينة طرابلس على امتداد قرن من خلال دراسة عن شخصية طرابلسية مرموقة صدر أول عام ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م .

١٦. **تحت الأسوار (مسرحية)** عن أحداث جرت للقائد محمد بن القاسم أثناء فتح السند ط١ ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.ط ٢ ١٣٩٧هـ /١٩٧٧م.(ترجمت إلى الإنكليزية في الهند).

١٧. **سلسلة القصص النبوي :** قصص رويت عن النبي ﷺ ثم كتبت بخيال قصصي دون خلل بأحداث القصة النبوية أو غاياتها .

أ ـ **نار وإيمان** (مترجمة إلى الإنكليزية في أوستراليا) ط١ باسم (استعلاء الإيمان) ١٣٨٩ هـ/١٩٧٠م ط٢ ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م.ط٣ ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

ب ـ **غار الإخلاص** ، ط١ ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م ط٢ ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م.

ج ـ **"ألف لا تضيع"** ط١ ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م ، ط٢ ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م.

١٨. **دور الجمعيات الخيرية في تطبيق الزكاة** ـ طرابلس ١٤١٨ هـ/١٩٩٧ م.

١٩. **تجربة الزكاة في لبنان ـ دراسة مقارنة** ـ طرابلس،١٤١٩ هـ/١٩٩٨م.

٢٠. **يقظة الذاكرة في تاريخ طرابلس والمنطقة من السقوط إلى البناء** (تاريخ السقوط بيد الصليبيين ثم التحرير وإعادة البناء مع قراءة معمقة للفكر السياسي لبني عمار ولاة طرابلس عند السقوط ولمفاهيم الحكم والسياسة عند السلطان المنصور القلاوون فاتح طرابلس وبانيها مع دراسة مستجدة لمعالم طرابلس الحضارية وكشف الملابسات **ودحض الشكوك حولها.**

❁ **كتب قيد الإنجاز والطبع**

أ. بيت الزكاة في لبنان مسيرة الخير والعطاء .

ب. ألف ـ باء العمل الخيري وقاموس العمل الخيري.

ج. مفاهيم في الحركة والدعوة أو تجربتي في العمل الإسلامي .

د. قراءة في القضية اللبنانية: مواقف وتطلعات .

ه. العلاقات التكاملية بين مفاتيح سور القرآن وخواتيمها .

و. معاني سور الكهف ـ ص ـ يس .

ز. مختارات من كتاب الله التفسير والمسار.

ح. قراءة في قضايا معاصرة في الحكم والتشريع والاقتصاد من منظور الفقه الإسلامي.

ط. القضاء وأصول المحاكمات في العهود الاسلامية المختلفة : تحليل ومقارنة.

ي. الوجه الآخر للسلوك الإسلامي : وقائع ومناقشات

ك. العمل الإسلامي الرسمي في لبنان : بين الواقع والمرتجى .

ل. الفقر والغذاء بين الاسلام والحضارة الغربية.

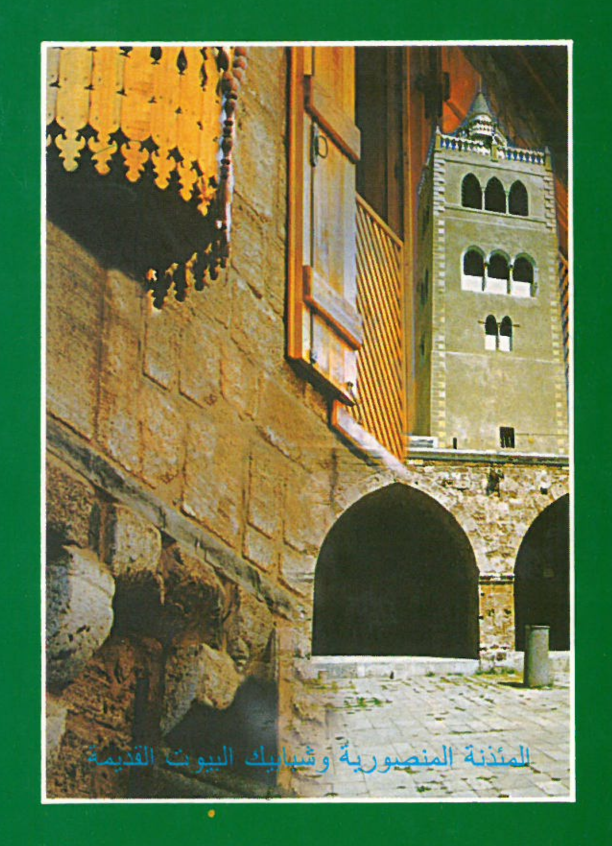
م. بحث في دستور لبنان قبل الطائف وبعده.

❁ وللمؤلف العديد من الأبحاث والمقالات الحركية والسياسية والاجتماعية والحقوقية والقصصية والمسرحية في الدوريات اللبنانية والعربية والإسلامية .

(... وطرابلس الثغر المرابط من اهم المناطق في بلاد الشام افتتحها الصحابي الجليل سفيان بن مجيب الازدي ﷺ عام ٢٤ هـ/٦٦٤م واحتلها الفرنجة عام ٥٠٢هـ/١١٠٢ م وبقيت في أيديهم زهاء ١٨٠ عاما ثم استعادها الى حصْن الإسلام المنصور قلاوون عام ٦٦٨ هـ/١٢٨٩م...)

(... وإذ وضعتُ يدي على مخاطر أحاطتْ بتاريخ هذه المدينة المرابطة ، ضمن تدفق كتابات تاريخيّة في مجاري مضادة للحقيقة والواقع ومخالفة لطبيعة الأمور ومناقضة لعراقة هذه المنطقة...وجدتُ من واجبي بعد ان انكشفت لدي خطط التحريف والتزوير ان أتصدى لهما بمزيد من القراءة والتحليل وبتمحيص عميق للأدلة والحجج ... فوصلتُ،في النهاية،إلى عتباتٍ انتعشت عندها الذاكرة فعاد دفق الحق من جديد في مفاصل أساسية من تاريخ هذه المدينة المملكة...ذلك أنّ التحريف في تاريخها كاد يقضي على ذاكرة التاريخ فيها أو يصبغها على نحو معينٍ مشوّهاً أصالتها وصروحها وآثارها وحضارتها...فقد كادت الأجيالُ،بعد اضطراب الذاكرة وضياعها في ركام التحريف والتجهيل،أن تقبل هذا التاريخ المحرف وتجيزه على أنّه حقيقة المدينة وتاريخها ..."

من مقدمة الكتاب للمؤلف



المئذنة المنصورية وشبابيك البيوت القديمة



المدخل الرائع لبيت الصلاة في جامع تينال